المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

توماس هيلاند إريكسن

مفترق طرق الثقافات

مقالات عن الكريولية

ترجمة:

محيى الدين عبد الغنى



1958

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1958
- مفترق طرق الثقافات: مقالات عن الكريولية
- توماس هيلاند إريكسن
- محيى الدين عبد الغنى
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:
Kulturelle veikryss
Thomas Hylland Eriksen

This Translation has been published with the financial support of
NORLA

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

مفــترق طــرق الثقــافــات

مقالات عن الكريولية

تـــــــــــأليف : توماس هيلاند إريكسن

تــرجمـــــــــــة : محيى الـــدين عبد الغنى



2012

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

إر [illegible]

مفترق طرق الثقافات: مقالات عن الكريولية / تأليـــف: توماس هيلاند إريكسن، ترجمة: محيي الدين عبد الغني

ط ١ – القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢

٤٠٠ ص، ٢٤ سم

١ – الثقافة

٢ – العلاقات الثقافية

(أ) عبد الغني، محيي الدين مترجم.

(ب) العنوان ٣٠١,٢

رقم الإيداع: ١٩٢٥٠ / ٢٠١١

الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977 - 704 - 816 - 3

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

الجزء الثالث

مقدمة الطبعة النرويجية

كتب هذا الكتاب بعد فترة طويلة من مراقبة ما يحدث من تغيرات في المجتمع النرويجي. ويمكن اعتباره خطوة في محاولة لرسم خريطة إبحار لسفينة المجتمع بدرجة مناسبة من الدقة والوضوح؛ بحيث تصل إلى الطريق السليم في محيط عالمنا الحديث.

هذا الكتاب – أيضا– نتيجة لفكر شخصي أكثر منه "ورقة بحثية" (مونوجراف، monograph) في "علم الإنسان"، أو علم الأنثروبولوجيا. بالإضافة إلى ذلك فهو للكتابة عن أماكن لي معها ذكريات وروابط روحية. لقد كتبت عن موضوعات تشغل فكري بدرجة كبيرة:

كيف تكون العلاقة بين القويّ والضعيف؛ عندما تختلط الحضارات أو الثقافات المختلفة؟ وما عمق واتساع الفروق بين الثقافات، والحضارات المعاصرة؟ وهل يمكننا إزالة الحوائط العازلة "بيننا" – نحن النرويجيين– وبين "الآخرين" ؟ وما أسباب نشأة وتولد الشعور "بالهوية الشخصية"؟

تماما مثل كثير من الباحثين في الأنثروبولوجيا، والمهتمين بدراسة ثقافة المجتمعات الإنسانية، أحسست – ولفترات طويلة– بعدم الراحة، والقلق، من استخدام أساليب تعبير تتكرر في لغة حوار المجتمع النرويجي عن "الحضارة والثقافة". ومن خبرتي العملية تبين لي أن عرض المشاكل الثقافية، والحديث عن الحضارات الأخرى؛ غالبا لا يأتي في إطار التعبير الصحيح. مثل هذه الأساليب اعتبرها أنا؛ مصطلحات قومية متعالية. المعروف أن المجتمعات الإنسانية تتشكل أو تتحلل، عندما تَعبُر، بالطول أو العرض؛ "الحدود الثقافية". مجموعات بشرية

ضخمة تنتقل من مكان إلى آخر، القليل النادر – أو قل البعض- من المجموعات العرقية، هي التي تنغلق داخل حدودها الخاصة. وعلى الرغم من هذا الانغلاق؛ فسوف تجد الكثير من الفروق والاختلافات داخل كل مجموعة.

لقد كتبت من قبل كتبا عن النرويجيين، وكيف يقيمون علاقاتهم بالمهاجرين الأجانب القادمين من الخارج، والذين بقوا في البلاد ويقيمون معنا. وكتبت أيضا عن العلاقات بين الأعراق المختلفة، وعن الشعور القومي المفرط (nationalism)، الذي يوجد في أماكن مختلفة في العالم. وكثيرا ما عبرت بصوت عال عن تحفظاتي على التعبيرات والمصطلحات التي تستخدم في الحوار، والتي تحاول وصف الحضارات الأخرى بالدنو، ومحدودية القيمة. وفي هذا الكتاب اخترت زاوية مختلفة قليلا عما هو متداول لفهم المشاكل الاجتماعية ومعالجتها. فبدلا من توجيه الاهتمام إلى الجوانب السياسية والاجتماعية عندما تتلاقى الثقافات والأعراق المختلفة بعضها ببعض، اخترت أن أكتب عن الحيوية والنشاط والإبداع الذي يتولد نتيجة هذا الاختلاط، لكني لم أنس الاختلافات التي يمكن أن تولّد التناقض. واخترت أمثلة من التعدد والتنوع اللذين تتميز بهم أماكن في العالم التقت فيها حضارات مختلفة، أو دعنا نقول أماكن " مفترق طرق الثقافات "[*].عند المفترق تتلاقى التيارات المختلفة، وتختلط، ونتيجة لهذا التقاطع تتولد خلافات، وتتباين بين بعضها بعضا. لكنها في الوقت نفسه تؤثر في بعضها بعضا، وتتولد ردود أفعال. وبسبب "العولمة" فإنه تنشأ على الدوام "مفترقات طرق ثقافية" في أنحاء كثيرة من العالم. نقط التلاقي هذه، ليست خالية من المشاكل، وبالتالي فعلينا أن نحاول فهم ماذا يحدث ويدور حولنا. هذه الظاهرة أصبحت صفة متكررة، ومميزة لوقتنا المعاصر الحالي. وحتى نتمكن من فهم هذه المتغيرات والأحوال؛ نحتاج إلى عدسة مكبرة، من الواجب أن تكون جديدة. وكذلك نحتاج إلى أساليب

(*) هذه هي الترجمة الحرفية لعنوان الكتاب بالنرويجية – المترجم .

أخرى، خالية من الأحكام المسبقة، للتعبير عن بعض المفاهيم الجديدة. ولذلك فدعوتي واقتراحي- الذي أدعو إليه بكثير من التواضع والصدق الخالي من الرياء- هو أن نولي أهمية كبيرة للتواصل، ونعتبر التعايش قاعدة أساسية تبنى عليها المجتمعات الإنسانية. بمثل هذه الطريقة في التفكير لا يكون التاريخ هو الذي يخلق الثقافة المشتركة بين البشر، لكن القدرة على التفاهم بين البشر؛ هي التي ستصبح العامل الحاسم في صناعة المجتمع البشرى. إن أمنيتي وأملى؛ أن تفتح هذه المقالات عن "الكريولية" (creolization) الطريق لتفكير في خلق ثقافة وترابط اجتماعي مشترك.

في النهاية، أتقدم بالشكر والامتنان لمستشاري الناشر الذين أعطوني نفحات من التشجيع لهذا الاتجاه من التفكير الصحيح. كذلك الشكر للسيدة "بريت برجا" (Berit Berge) لتعاونها الدائم. والشكر أيضا للسيد إدواردو أرشتي (Eduardo Archetti) لسخائه الفكري. وأخيرًا لزملائي من داخل الجامعة وخارجها لحواراتهم العلمية معي والتشجيع الدائم لي.

توماس هيلاند إريكسن

أوسلو، سبتمبر ١٩٩٤

Thomas Hylland Eriksen


تليجرام
مكتبة سور الأزبكية

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

لقد مرت سنوات منذ أن نشر كتـابي "مفتـرق طـرق الثقافـات" باللغـة النرويجية، ومنذ ذلك الحين ألفت ونشرت أكثـر مـن عـشرين كتابـا، بعـضها بالنرويجية، والأخرى بالإنجليزية، إلا أن هذا الكتاب مازال هو المفـضل عنـدي. نعم، إنني مازلت أزعم: أن الفكرة والرسالة التي جاء بها الكتاب؛ مافتئـت تمثـل الأفكار الأكثر أهمية في عالمنا المعاصر في القرن الواحد والعشرين، عما كانـت عليه في النصف الثاني من التسعينيات في القرن الماضي. ومن الواجب علينـا أن نعترف ونقبل- أكثر من أي وقت مضى- أن الثقافات ليست "نقية"، وذلك بمعنـى أنها- أي الثقافات- تستعير من بعضها بعضا. والكثير منها ناتج خلـط، ومـزج، وذوبان، بعضها ببعض. وعلى البشرية تعلم الدرس التالي: إن الكرم فـي عطـاء وتزاوج الثقافات مع بعضها بعضًا، وانفتاحها على بعضها بعـضا؛ هـو عمليـات شديدة الفائدة، وتمثل ضرورة في طريق التطور الإنساني الطويل.

اليوم نقف على مفترق طرق، فلو نظرنا إلى الواقع العملي؛ لوجدنا تـوترا في العلاقة بين الغربيين والمسلمين. وكلا الطرفين، يميل إلى الـتحفظ، والريبـة، ويتخذ المواقع الدفاعية، التي تعبر عن التخوف أكثر من الثقة، والتوجس والرعب؛ أكثر منهما فضولاً وقلقًا. هذه المشاعر والأحاسيس، هي التي توجه وتسّير العلاقة بين المسلمين من ناحية، وبين الأوروبيين والأمريكيين الشماليين من ناحية أخرى. هذه الريبة موجودة على كل مستويات الجيولوجيا السياسية يراها ويرصدها المرء؛ سواء كان في بازار من بازارات القاهرة، أو في مدينة أوروبية كبيرة.

إن مستقبل البشرية يكمن في، إما أن يقبل التنوع الثقافي؛ أو لا يكون مطلقا. وعلينا بالتالي أن نفهم ونعي، أن عمليات التمازج الحضاري، وتـزاوج الثقافـات

واندماجها؛ ينتج عنها ردود أفعال. وهذه أهم رسالة يحاول أن يبينها هذا الكتاب. وعلى المجتمع – أي مجتمع– أن يتفهم؛ أن من الممكن أن تكون له "هوية ثقافية" آمنة مطمئنة سليمة؛ دون الحاجة إلى فرضها على الآخرين.

نعم، لقد أصبح من الضروري في عالمنا، أن نقبل وجود "آخرين"؛ لهم أسلوب معيشة مختلف، ويسير تبعا لمبادئ وقيم مختلفة نوعا ما؛ عما ارتضيناه لأنفسنا. هذا وإلا؛ فإن البديل إما العزلة أو العنف.

وبينما مازلت مُصرا على الزعم؛ بأن موضوع هذا الكتاب صالح اليوم مثلما كان في التسعينيات، وربما أكثر، في الوقت نفسه ، فعليّ أن أسجل ملاحظة مهمة: إن النسخة العربية، تحوي فصلا كاملا لم ينشر، في أي مكان آخر. إنه الجزء ما قبل الأخير من الكتاب، وهو بعنوان: " الاحترام والإهانة: أوروبا والمسلمون ". هذا الفصل كُتب بعد أحداث سبتمبر (nine-eleven) التي وقعت في الولايات المتحدة، وبعد نشر الرسوم الساخرة (الكاريكاتورية) من النبي محمد (عليه الصلاة والسلام)، وبعد قتل (المخرج الهولندي) " تيو فان جوخ" (Theo van Gogh)، وبعد بدأ حروب الولايات المتحدة في أفغانستان والعراق، وبعد قنابل حزب الله على إسرائيل، ورد إسرائيل الوحشي عليها. إننا نعيش في زمان نستطيع وصفه بأنه: "ليس الأفضل"، لو أردنا استعمال أسلوب رقيق معتدل للتعبير، ولهذا كان من الضروري أن نبين أن عالما آخر يمكن بناؤه. عالمٌ يُبنى على الثقة المتبادلة، وعلى تعارف أكثر لبعضنا بعضًا، وعلى احترام الآخرين، الذين فضلوا اختيار أسلوب حياة مختلف، عن أسلوب حياة الآخرين.

وبكل تقدير أتوجه بشكري إلى مترجم كتابي: محيى الدين عبد الغنى، الذي استطاع أن يجعل النسخة العربية من "مفترق طرق الثقافات" واقعا ممكنا. وأكرر إن الحوار بين الثقافات المختلفة، والمعرفة عن بعضنا بعضًا، عاملان شديدا الأهمية للتقارب والتفاهم. وليكن هذا الكتاب خطوة صغيرة في الطريق قد بدأ من

النرويج، أو إسكندنافيا. ويبقى الرجاء والتمني أن أرى وأقرأ مترجمات جديدة مــن العربية إلى اللغة النرويجية في السنوات القليلة القادمة.

توماس هيلاند أريكس

أوسلو في ربيع ٢٠١١

الجـــزء الأول

الجزيرة الثقافية المفقودة

١

ما هذا الذي بدأ في الحدوث للفروق الثقافية، بين المجتمعات، في زمننا المعاصر؟

تغيرات تبدو شديدة الضخامة، منذ أن وجد "جوزيف كونراد كورتس"(*) (Joseph Conrad Kurtz) نفسه في مجاهل إفريقيا، خلال رحلة خطرة وقاسية في البر والبحر. ومنذ أن حاول "همنجواي" (**)(Hemingway)، إظهار رجولته، وفتوته؛ بالسفر إلى "سفاري" (Safari) إفريقيا الشرقية في الوقت نفسه تقريبا. اليوم، ربات البيوت القاطنات في القرى والنجوع الإسكندنافية يزورون "سفاري" إفريقيا الشرقية، بشكل شبه عادى. وأبناء أحفاد "كونراد" الأفارقة – على الأقل البعض منهم، يستقلون الطائرة؛ حتى يعرضوا مشاكل مجتمعاتهم الثقافية في الأمم المتحدة في نيويورك.

إن ما يبدو واضحا الآن، أن معظم "الفروق الثقافية" بين الأمم، والمجتمعات الإنسانية، آخذة في الاندثار. ويبدو أننا – نحن البشر – آخذون في التشابه، والتماثل

(*) كونراد كورتس، (١٨٥٧ – ١٩٢٤) روائي بريطاني الجنسية، بولندي الولادة. عمل كثيرا كبحار مما أثر على أعماله الأدبية، والكثير من رواياته المتعددة تركز على اكتشاف الجانب المظلم من الطبيعة الإنسانية. ومن أعماله: "قلب الظلام"(Heart of Darkness -1902)، و"نوسترومو" – Nostromo) (1904، و"فرصة" (Chance – 1913) وعلى الرغم من أن لغته الأجنبية الأولى كانت الفرنسية؛ فإنه كتب بالإنجليزية، وأصبح مواطنا بريطانيا في ١٨٨٦. كان لأعماله تأثير كبير على فن الرواية والإبداع الحديث – المترجم.

(**) إرنست ميللر همينجواي، روائي أمريكي معروف، منح جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٥٤ – المترجم.

مع بعضنا بعضا. القبائل والمجتمعات البشرية البدائية، يزج بهم في المدارس والجامعات، ويتقلدون أعمالا ومناصب في المؤسسات المختلفة، وأجبروا على استخراج بطاقات إثبات الهوية الشخصية، واستخدام التليفونات المتنقلة، ويواظبون على مشاهدة آخر ما عرض من الأفلام السينمائية.

إنه "سحر جميل" (disenchantment) – على حد تعبير "ماكس فيبر"(*) (Max Weber)؛ ذلك الذي بدأ يفرض نفسه على عالم اليوم. لم تعد هناك أسرار وغرائب. مناطق العالم الاستوائية، وسكانها البسطاء، تبددت براءتهم، وسجيتهم. واستبدلوا بقارب البوص الذي يستكشفون به أخبار العالم؛ راديو متنقلا. وأصبحت غابات العالم الاستوائية مقلبا لقمامة العالم الغني.

تبعا لمثل هذه الرؤيا، نستطيع القول: إن العالم أصبح خاليا من الأماكن "المثيرة للدهشة"، وأنه لا يوجد جماعة أو قوم من البشر؛ لم تمسسهم يد التغيير. إن هذه الرحلات التي تُسوق بأنها "مثيرة"، والتي تجذب الملايين من السائحين الراغبين في المغامرات الجميلة، والأساطير المُشوقة، أصبحت صناعة سياحية فحسب. وأصبحت المعالم الثقافية القديمة، عبارة عن أفراد من البشر يتقاضون رواتبهم من منظمي الرحلات في الشركات السياحية والمتعاملين معهم من أهالي المناطق السياحية، فيلبسون الملابس الشعبية، ويرقصون الرقصات الفلكلورية، ويعود السائحون ويحكوا ما رأوا من عجائب مُشوقة. لقد عبر عن ذلك "كليفّورد جيرتز"(**) (Clifford Geertz)، وهو واحد من المدافعين عن حقوق الإنسان، في

(*) ماكس فيبر، باحث اجتماع ألماني، ويعتبر أحد مؤسسي هذا العلم. ولد ١٨٩٩، وتوفى ١٩٦١ – المترجم.

(**) كليفّورد جيرتز،أنثروبولوجي أمريكي، وأستاذ جامعي في جامعة كاليفورنيا، نتجت عن أعماله الميدانية سلسلة من الكتابات في الاقتصاد والبيئة والتغيرات الاجتماعية والدين. مقالاته العلمية في العنصرية والتطرف بوجه خاص؛ كان لها تأثير كبير في المجتمع الأمريكي والأوروبي. ولد١٩٢٣ – المترجم.

مقال نشر عام ١٩٩٤: "خلال تاريخ علم الأنثروبولوجي كله - والذي يكون طويلا إذا ما حسبنا منذ "هيرودوت (Herodot)، وقصيرا إذا ما حسبنا من "تيلور" (Tylor)، كان العلم مهتما ومنشغلا بدراسة الفروق في أساليب حياة المجتمعات البشرية. وفي أوقات معينة، حاولوا أن يعللوا هذا التعدد والتنوع بأساليب مختلفة، وحاولوا أن يضعوها في إطارات من نظريات عامة عالمية، من مثل: مراحل التطور، المشترك - سواء في التفكير أو الأسلوب - بين البشر، أو حتى أشكال من تفسيرات غيبية (Transcendental Former) مثل: البيئة الاجتماعية، الطراز البدائي الأصلي، والقواعد المبهمة. وفي أوقات أخرى، استخدموا تصنيفات لهذه الفروق، وصفوها بأنها: متميزة، استثنائية، لا يمكن مقارنتها، وكيف نقارن بين رأس الكرنب ورأس الملك! ولكن حديثا جدا؛ تعلم المتخصصون في علم الاجتماع أسلوبا جديدا، هو أنه من الممكن حصر هذه التنوعات والتعدد داخل طيف أصغر وغير متباين الحدود. إننا على وشك؛ أن نرى عالما لا توجد فيه مجتمعات من "صائدي الرءوس" (head hunters)، أو قبائل فيها المرأة هي قائد الأسرة (matriarchel)، أو هؤلاء الذين يستطيعون التنبؤ بأحوال الطقس بدراسة أمعاء الخنزير. الفروق بين المجتمعات البشرية ستبقى دائما موجودة - الفرنسيون لن يأكلوا الزبد المملح. ولكن تلك الأيام القديمة الجميلة التي تحرق الأرامل، وتؤكل لحوم البشر فيها قد اختفت، وللأبد.

أسلوب آخر لفهم لهذه العمليات الثقافية (Cultural Process) التي تصبغ عالم اليوم، فبدلا من التركيز عليها، وإطلاق المصطلحات والمسميات عليها، ومحاولة تسويقها، يكون من الأفضل توجيه ضوء البحث ناحية أطرها الثقافية التي تتبلور في وقت يتزايد فيه - بشدة - الاختلاط بين عادات وتقاليد كانت نسبيا معزولة. نتيجة مثل هذا الاختلاط تُولد بعض الظواهر التي تسمى وتصنف اليوم تحت مصطلحات وتسميات، من مثل: موسيقى إفريقية- فرنسية، شعر هندي غربي- بريطاني، فن نحت أيسلندي- أمريكي، وعائلات جامبية - سويدية، ففي

يومنا هذا؛ توجد "ثقافة شبابية" في أحياء شرق العاصمة أوسلو توجد فيها من أوجه التشابه، والمشترك مع أوساط شبابية في "بروكلين" (Brooklyn) الأمريكية؛ أكثر مما لها من مشترك مع أوساط شبابية توجد في غرب العاصمة أوسلو. إن الفروق الثقافية في عالم اليوم لم تعد مرتبطة بالمكان بالتأكيد، مهما كانت المسافات البعيدة. هذا الاشتراك الثقافي لا يرجع فقط لتطور التقنية الحديثة للمعلومات، ومحطات البث الفضائي التي تنشر ثقافتها عبر الأقمار الاصطناعية. فقبل حديث الرئيس الأمريكي السابق "بيل كلنتون" - وبمدة طويلة- عن الإنترنت، ووصفها بأنها "الطريق السريع للمعلومات" (the new information highway)، وقبل أن تصبح المحطة الإخبارية الأمريكية "سي.إن.إن" (C.N.N) أهم مصدر لنشر الأخبار، قبل ذلك كانت لندن ونيويورك أكبر مدن "هندو- غربية" (West Indies) في العالم. في الحقيقة، أكبر من مدينة "بورت أوف سبان" (Port-of-Spain) عاصمة " ترينيداد وتوباجو" (Trinidad and Tobago)، ومدينة "كينجستون" (Kingston) عاصمة "جاميكا" (Jamaica). وكما قال عنها الأنثروبولوجي "جورج ماركوس"(*) (George Marcus): "كل شيء، في كل مكان، أصبح مختلفًا". إن الحداثة والتحديث (modernity) أصبحت منتشرة في كل مكان، ولو أراد الفرد البحث؛ فسوف يجد بنوك ومطاعم ماكدونالد، وسلسة الفنادق والمطارات العالمية- عمليا- في كل مكان. لكن، وفى الوقت نفسه حافظت الأماكن المختلفة على طابع محلى لا تخطئه العين، ويبقى ظاهرًا وواضحًا بسهولة للزائرين. طابع محلى أصبح الآن يعبر عنه، ويُسوّق في حُلة من كلمات سهلة الفهم، للذين يروحون ويجيئون بين المطارات والفنادق. وتعبيرات مثل "صناعة محلية يدوية" و"سوق شعبي محلى" و"مرقص الشاطئ"، كل هذه الأسماء يعرفها الزائر، ويعرف ماذا ينتظره فيها

(*) جورج ماركوس، بروفيسور أمريكي في الأنثروبولوجي، خريج جامعة هارفارد ١٩٧٦، متخصص في علم الاجتماع السلوكي، ويعمل في جامعة كاليفورنيا، وهو الذي بدأ المجلة العلمية "الأنثروبولوجيا الاجتماعية". (المترجم)

بالتقريب، عندما ينظر إليها بمنظار محلى، ويفهم رسالتها الثقافية، سواء كان الفرد في "بالى" (Bali) الإندونيسيه. ,و في "بوركينافاسو" (Burkina Faso) الإفريقية.

هذا التسويق للثقافة والعادات المحلية – والذي يسمى في بريطانيا "صناعة التراث" (the heritage industry) – يُعتقد أنه يشمل قواعد مشتركة لمختلف الأقوام للتعبير من خلالها عن الطابع المحلى، والمثال الذي يعطى في هذا المجال لتسهيل الفهم، هو: ألوان أعلام الدول ليست متشابهة، وتعبر عن قوميتها المتفردة، لكن كل الدول لها أعلام، وهنا يكون التشابه. فمن السهل إيجاد تعبيرات لها معنى عندما يعبر الجميع عن اختلافاتهم الثقافية بالطريقة نفسها، وعلى القاعدة نفسها.

هذه القواعد المشتركة، وهذه الرموز القومية المسيطرة على الفكر الرسمي النرويجي- وفي الحقيقة إنها ليست مسيطرة على صناعة السياحة- لا يجب أن تؤدى إلى أن يفهم أحد، أو يعتقد أن البشر والأمم المختلفة، أصبحوا ذا ثقافة واحدة متطابقة. ولو فرض أن جميع سكان العالم – يوما ما – سوف يتابعون ما يسمى "الأخبار العالمية"، في القناة الأمريكية سي.إن.إن (C.N.N)- وفي حقيقة الأمر فإن هذا الفرض مستحيل الحدوث؛ إلا أن ذلك لا يعني أن الجميع سوف يفهمون ما يسمعونه، ويشاهدونه بالطريقة نفسها. ورغما عن أن أجزاء كبيرة من سكان العالم سوف يكتسبون الخبرة نفسها في الحياة والأفكار، فإن ذلك لا يعني أن الجميع ستصبح أفكارهم وخبرتهم متطابقة. والقادرون من الإفريقيين والآسيويين على شراء "الجينز" ولبسه بالأسلوب نفسه الذي يشبه في ظاهره أسلوب المراهقين في البلاد الأوروبية الغنية، لا يعنى ذلك أنهم تغيروا، وأصبحوا غربيين، وليسوا إفريقيين، أو آسيويين. الثقافة – أوالثقافات – ليست معلبة لا يمكن تقسيمها إلى أنماط من السلوك، وهى ليست وحدة واحدة؛ إما أن تقتنيها كاملة، أو تلفظها كاملة. فالحقيقة أن البشر منتج "خليط ثقافي". ولا يجب علينا أبدا أن نحس بالثقة المطلقة، بأن ما تسمى بالثقافة الغربية؛ سوف تخرج دائما منتصرة؛ عندما تُقارن الحضارات والثقافات.

في البلاد الغربية الغنية، توجد بعض الدعابات التي تروى عن القبائل الاستوائية، الذين يرتدون "القمصان المشجرة الملونة" وهم يقدمون القرابين من الدجاج، حتى تسكن وتهدأ أرواح آبائهم. وبعد ذلك يستمعون إلي آخر ما أنتجته التقنية من معزوفات موسيقية، في محطات الراديو الترانزستور. هذه الروايات الساخرة تكون مسلية جدا، فهي تحمل في طياتها التناقض بين القديم والجديد، بين التقليدي والحداثي. ولكن هل صحيح أن القصص الدعابية هذه، فعلا مضحكة ومسلية؟ هل صحيح أن يكون مسليا، أن نحكم مسبقا بالغباء الأزلي على إفريقيين سود يتحدثون لغات أجنبية، ويدينون بدين غريب، وفى الوقت نفسه يدرسون الدراسات العليا في الهندسة؟! أم غريبًا أن يكون هندي متخصص في الفيزياء النووية، في الوقت نفسه يعتقد ويؤمن بعملية تناسخ الأرواح (**reincarnation**)؟ ذلك ليس مضحكًا أو مسليا أكثر من أن يقال: توجد مطاعم صينية في النرويج. هذا القول قيل بالفعل، عندما حاولت صحيفة أمريكية تصدر في "لوس أنجلوس" (**Los Angeles**) تقديم طرفة لقرائها، في فبراير عام ١٩٩٤. وفى حملة إعلامية ضخمة؛ قدمت النرويج للقارئ على أنها بلاد بيضاء لم تمس يد التغيير نسيجها الاجتماعي، ومازالت تحتفظ بنقاء عنصرها الأبيض النظيف.

كنت – من وقت لآخر– اختبر طلابي في الجامعة عن واقع معين، وكيف يفهمونه، وذلك بأن أبدأ سلسلة من المحاضرات، عن الديناميكية الثقافية، بنادرة عن قبيلة من البدو، يرعون الأغنام في مكان ما، في الشمال الإفريقي. فمنذ سنوات عديدة، ورحلاتهم الرعوية السنوية، تبدأ في الصباح الباكر من أحد أيام شهر مارس، ولكن في عام محدد، تأخرت هذه الرحلة الرعوية عدة شهور، لأنهم يريدون متابعة الحلقات الأخيرة من المسلسل التليفزيوني المعروف "دالاس" (**Dallas**). هل هذا مسلي وظريف؟ الطلبة كانوا دائما ينجذبون بسرد هذه الطرفة، وتستحوذ انتباههم. لم يكن مدى فهمهم للثقافة أفضل، ولا عمومية نظرتهم إليها. فقد وضح أنهم لا يتفهمون: أن "ثقافة" الرعاة – في الحقيقة– مختلفة عن ثقافتهم، وأن

لهم منطقهم الخاص بهم، وأنهم يتفاعلون مع الثقافات الأخرى بمعيارهم الخاص. إن ما يسمى "الخليط الثقافي" أو " المزيج الثقافي" (**Culture mixture**) شيء "مضحك – مبك". هذه هي الصورة السائدة في العالم الآن. صورة ترسم خريطة العالم، وكأنه مكون من جزر ثقافية معزولة. هذه الصورة هي ما أريد تغييره. فهي ليست خاطئة فحسب، لكنها شديدة الخطورة أيضا. النقاء والحدود الواضحة توجد فقط على الخريطة، ولا توجد على أرض الواقع ثقافات أو أمم نقية، ولن تكون أبدا كذلك.

من المضحكات المبكيات أن نظريات "النسبية الثقافية" في علم الأنثروبولوجي، التي وضعت أساسا لمناهضة "الشوفينية" (**chauvinism**) والعصبية "القومية" (**nationalism**)؛ كان لها تأثير مضاد، ومعاكس تماما للهدف الذي وضعت من أجله. لكن ربما يكون ذلك أقل تناقضا مما يمكن أن يبدو، أو يُعتقد. ذلك لأن "القومية" و"النسبية الثقافية" لهما– في الحقيقة – نفس النشأة في "الرومانسية الألمانية"، ورجلها الأساسي "يوهان جوتفريد فون هردر"(*)(**Johann Gottfried Von Herder**) (١٧٤٤-١٨٠٣). فعلى يد "هردر" – وبدرجة معينة كان معه مُعاصره الفيلسوف الإيطالي "جيامباتستا فيكو" (**Giambattista Vico**) – حصل العالم على نظرية محددة عن نسبية الثقافات. كان "هردر" – الذي كان يكتب بخلفية التوسع والتمدد الفرنسي، في مقابل التفكك الألماني– هو الذي نادى بأن الألمان لهم كل الحق في ألا يصبحوا فرنسيين. لقد عنى أن كل أمة لها ثقافتها الخاصة بها. وأن لها كل الحق في الحفاظ عليها: على لغتها، وأساليب حياتها، وحدود أرضها، وشخصيتها وروحها المتميزة. وتبعا لفهم " هردر"؛ فإن ذلك الحق

(*) يوهان هردر، شاعر وناقد ألماني، ولد في مدينة في بروسيا الشرقية، وساهم بشكل كبير في كتاباته عن أصل اللغة، ونظريات التطور الإنساني. وهو يذكر بدرجة أكبر لمساهمته في نمو الرومانسية الألمانية – المترجم.

ينطبق أيضا على مجموعات البشر الذين يطلق عليهم اليوم الأقليات. أو أي مجموعة بشرية صغيرة، تسيطر عليها مجموعة بشرية كبيرة (أغلبية).

بمقارنة "هردر" مع فلاسفة اجتماعيين آخرين، مثل الفيلسوف الألماني "كانت" (Kant) والرومانسي الفرنسي "روسو"(Rousseau)، فمن الممكن أن يوصف بأن "هردر"، كان نموذجا للتسامح، ومن المعتقدين بالنسبية الثقافية. ففي هذه الفترة المبكرة، كانت القومية تعتبر إيديولوجية تقدمية، ومضادة للإمبريالية. لم يكن العالم قد شاهد- في ذلك الحين- نجاح محاولات "المقهورين" في أن يأخذوا دور"القاهرين"، لو سنحت لهم الفرصة بذلك. وبالتالي كانت مطالبهم بادية وكأنها صرخة للمطالبة بالعدل.

من أفكار "هردر"، التي تعتبر أن كل مجموعة بشرية لها خصائصها المتميزة؛ انبثق خطان أساسيان مختلفان ومتعارضان. أحدهما ورثهُ وطبقهُ "فرانز بواز" (Franz Boas) (١٨٢٥-١٩٤٢) في نظرية "النسبية الثقافية"، التي طورت مباشرة في القرن التاسع عشر، وأصبحت العمود الأساسي في علم الأنثربولوجي الأمريكي لاحقا. "فرانز بواز" ولد في ألمانيا، ودرس الجغرافيا في مدينة "كيل" (Kiel)، وأرسل في بعثة إلى المنطقة القطبية في الشمال الأمريكي وكولومبيا البريطانية (British Columbia). ومن ثم تغيرت اهتماماته، واتجه إلى دراسة الأجناس، ثم الأنثروبولوجيا، وكان ذلك مما دفعه إلى الهجرة.

كان "بواز" من الرافضين لفكرة أن الجينات هي المكونة للثقافة، ورفض نظريات "التطور الثقافي"، التي تربط بين "العرق" من جهة وبين "الثقافة" من جهة أخرى (Cultural evolution)، وتمسك بنظريته القائلة: يجب أن تعامل كل ثقافة من الثقافات، على أن لها طابعًا مميزًا خاصًا. ولكن، لها القيمة نفسها مثلها مثل أي ثقافة أخرى. وبالتالي؛ لم تكن بحوثه التي أجراها على الثقافات المختلفة؛ بغرض ترتيبها على سلم ثقافي له درجات مختلفة، ولكن كانت بقصد دراسة كل ثقافة على

حدة لمعرفة الخصائص المميزة لكل منها. لذلك كان من الواضح أن دراسته الحقلية لقبائل الأسيكيمو القاطنة في الشمال الأمريكي والمسماة "الاينكيتوت"، أو "اليانكي" (Inuktitut or Inuit)، كانت على أساس محاولة لفهم الواقع، وعلى اعتبار أنهم أمريكيون شماليون ويجب فهمهم على أساس أطرهم الفكرية الثقافية، وليس على أساس ثقافة الأمريكيين الآخرين.

هذا الأسلوب لفهم العالم على أساسه، يكوّن اليوم المقررات الدراسية الأساسية في أقسام علم الأنثربولوجي في جامعات كل أنحاء العالم. والحقيقة أن فيه الكثير مما يمكن أن نتعلمه، ولكن لن يكون ذلك خاليا من المشاكل إذا ما طلبنا المشورة والهداية منه فحسب. فقبل كل شيء فإن نظرية " بواز" في " النسبية الثقافية" مبنية على فكرة أن الثقافات "محددة" و"منغلقة"، بمعنى أن العالم مكون من "جزر ثقافية" لكل جزيرة ثقافتها المميزة، والمختلفة، ولو أن الباحث الاجتماعي أراد أن يكون منصفا "كإنسان" في موضوع دراسته، فعليه، أو عليها؛ أن يبذل أقصى جهده أن تُدرس جميع الثقافات وتُقَيم من منطلقاتها، وداخل أطرها الفكرية، بغض النظر عما إذا كان من الممكن تسميتهم ثقافة قائمة بذاتها أم لا. إحدى المشاكل الناتجة من اتخاذ نظرية "النسبية الثقافية" قاعدة للدراسة، هي أننا تعودنا أن نتعامل مع الثقافات المختلفة وكأنها "أنظمة مغلقة"، تحتوى على عدد معين من البشر يتشابهون كلهم مع بعضهم بعضا، ويختلفون عن كل ما هو خارجهم، وبالتالي جسّدنا الثقافة، وتعاملنا معها كما نتعامل مع المادة.

بهذه الطريقة نشأ في العلاقات السياسية والأخلاقية؛ مصطلحان يبدوان مختلفين ومتضادين كثيرا وهما:"النسبية الأخلاقية" (moral relativism) و"السياسة العرقية"(ethno politic). ذلك لأن كلا من "هردر"، و"بواز"، نظرا إلى الثقافات على أن لكل منها خواصها المتميزة المتفردة، وأن لها منطقها الخاص بها، ولا يمكن أن تفهم إلا من داخل إطارها الخُلقي. هذه النظرة يمكن أن تقودنا بسهولة،

إلى استنتاج أن كل الثقافات متساوية الجودة والقيمة. وبالتالي ما على الفرد – من أي أقلية– إلا أن يبرر سلوكه بقوله: أنا لست مذنبا، لأن كل ما فعلته مخالف لنظامكم القانوني، لا يخالف قيم ثقافتنا، فهكذا نعامل النساء في ثقافتنا. وهذا بعينه ما يقوله البعض، المخالفون للقوانين، والنظم الاجتماعية.

هذا الأسلوب من التفكير الذي يتخذ "النسبية الثقافية" و"النسبية الأخلاقية" قاعدة في التطبيق لحل المشاكل الأخلاقية في واقع حياتنا العملية؛ يجعل من المستحيل أن نحكم أخلاقيا على الثقافات، سواء كانوا من الذين يحرقون الأرامل، أو يئدون البنات، أو يمارسون عمليات الختان الفرعوني للإناث. ببساطة، يمكن أن نتفهم ذلك لو اعتبرنا، وأخذنا في الحسبان أطرهم الثقافية، وليس أطرنا نحن. ومن هنا تكون خطوة قصيرة حتى نصل إلى "النسبية الأخلاقية" و"الثقافية" للفرد الواحد. فيستطيع كل فرد أن يقول: إن ثقافتي قد انتهكت، ويجب أن أعامل في إطار منطقي الثقافي. إذا فإنه لا توجد حقيقة مطلقة، ولكن ثقافة نسبية. وتطبيقا لهذه النسبية الثقافية فليس من المهم – مثلا– أن أقدم البراهين، وأعطى الحجج، على أن الصحيح أن تطلب النرويج عضوية الاتحاد الأوروبي، لأن ذلك سيكون أفضل للإنسانية على المدى البعيد، ويكفي أن أقول: إن رأيي بُني على منطلقاتي الثقافية. وبالتالي فإن أيّ وجهة نظر أخرى، لأيّ فرد؛ ستكون أيضًا جيدة بالدرجة نفسها، بشرط أن تتناغم مع إطار ثقافته هو.

إن هذه "النسبية الثقافية"، و"النسبية الأخلاقية" – لو طبقت بهذا الأسلوب – فسوف تؤدى إلى كل من الشلل السياسي، واضمحلال رؤية الفروق بين الأخلاق والقيم المختلفة. ذات مرة كتب الأنثروبولوجي النرويجي المعروف "أرنا مارتين كلاوزن" (**Arne Martin Klausen**) أن فكرة "النسبية الثقافية والأخلاقية" أصبحت شائعة بين الأنثربولوجيين الاجتماعيين، لدرجة أنهم اتخذوها أسلوب وفلسفة حياة، بينما تكون "النسبية" صالحة حتى نقطة معينة – هذه النقطة يمكن تسميتها نقطة

الصفر الأخلاقي- عندها يجبر المرء على اتخاذ موقف محدد واضح المعالم، للإجابة عن سؤال أخلاقي، عندها نكون مجبرين على أن نختار "هذا أو ذاك" وليس "هذا و ذاك".

كثير من "الإثنو- سياسيين (ethno-politcians) يطبقون أسلوب تفكير "هردر" و"بواز" بطريقة معاكسة تماما. يقولون لو كانت الثقافات كلها متساوية القيمة، إذا فثقافتنا مثل كل الثقافات الأخرى قيمة، وبالتالى يجب أن يُفرض احترامها، وأن نحظى بإمكانية اتخاذها أساسا لإصدار القرار السياسي، وهلم جرا. بعد ذلك يبدءون في حشد الناس، واسترجاع كل ما هو قديم وعادات موروثة، التي تكون في الحقيقة قد نُسيت كليا أو جزئيا. وكثيرا ما يطالبون بما يسمونه حقوقا لغوية، ودينية، وفى كثير من الأحيان حدودية أيضًا. وبالطبع تلبس هذه المطالب ملابس قومية، وتؤدى تقوية النعرة القومية. هذا الأسلوب في التفكير لا يجب أن يضطرونا إلى مشاركتهم فيه، ففي عصرنا الحالي يكون للأقليات الحق - بل مضطرون - في القول: "إن لنا أيضا ثقافة، ويجب أن تحترم، ولنا حقوقًا في المشاركة في الحياة السياسية. فعندما قام الهنود في " شيباز" (Chiapas) - وهى الدولة التي تقع جنوب المكسيك على الحدود مع جواتيمالا- بالثورة في أول يوم منذ عام ١٩٩٤، حاول النظام الرسمي التركيز على أن سبب ثورتهم أنهم هنود، وليس لأنهم فقراء ومقهورون. فهل كان ذلك صحيحا أنهم ثاروا لأنهم هنود وليس لأنهم كانوا فقراء ومقهورين؟

هذه الثقافة الطائفية السياسية، أو الاجتماعية - التي نتوقع أن نراها في أيامنا الحالية- التي تعتبر أن المشاركة السياسية والاجتماعية هي فقط لمن هم أصلا داخل حدود البلاد، ولا يوجد مكان للذين جاءوا من خارج الحدود، سوف تخلق في المجتمع استبعادًا وتميزًا بين "الهويات" و"الثقافات" المختلفة. الفريق (أ) سيكون ضد الفريق (ب)، ولن يسمح لأحد أن يختار الفريق (أ - ب)، حينها سوف

يصنف تلقائيا، بأنه، أو أنها، خائن، أو خائنة، من كلا الفريقين، الفريق (أ) والفريق (ب)، على حد سواء.

هذه النتيجة المحزنة يمكن ربطها بالخط الرئيس الذي تطور من نظرية "هردر"، وهو أن الثقافات لكل منها طابعها وصفاتها المميزة، وهذا بالضبط ما يسمى في الواقع ب"القومية العرقية". في الأساس؛ نشأت هذه النظرية وتطورت في المناطق الناطقة بالألمانية بوصفها إيديولوجية دفاعية. فالمتحدثون بالألمانية كانوا في الواقع – في ذلك الحين – منقسمين سياسيا، ووقعوا تحت تهديد طارئ آت من الغرب، "نابليون" (**Napoleon**). لقد كان كل من "هردر" والمفكرين الألمان الآخرين ببساطة مصممين على أن الألمان من حقهم أن يكونوا "ألمانا". ولأنه ليس من الضروري أن تكون العالمية الفرنسية، والإمبريالية المقنعة بالفلسفة العلمية، هي أسلوب التطور والخطوة للأمام، ولو أعدنا قول ذلك باستخدام المصطلحات الحديثة فسوف نقول: إن "هردر" طالب بحق الناس في تقرير مصيرهم، لكن تلك الأفكار أخذت نصف قرن لكي تتحقق في الواقع العملي السياسي على يد "بسمارك" (**Bismarck**). وعلينا أيضا أن نتذكر، أن نمو الشعور القومي كان في مراحله الجنينية، ولذا بدا وكأنه "الإنسانية المثالية". فسواء "هردر" أو "مازيني" (**Mazzini**) – الأخير كان قوميا إيطاليا متشددا– لم يكونا " شُفينيين" ينظران إلى الأمور بعين واحدة ويطالبان بأن شعوبهم هي فقط التي تستحق حق تقرير المصير، بل طالبا أيضا بأن القوميات الأخرى لها الحق نفسه. بالطبع كان ذلك فكرًا رائعًا ومثاليًا، لكنهما في ذلك الحين لم يعايشا اعتداءات لا معنى لها، ولكنها بُررت بأن بعض الشعوب يطالبون بأرض، يقولون إن لديهم حقوقًا تاريخية فيها، وأنهم يملكون الأدلة التاريخية على ذلك، على الرغم من أن هناك آخرين يقولون بالحقوق نفسها. لقد عبر عن ذلك الكاتب والصحفي النرويجي "بيتر نورمان فوجا" (**Peter Normann Waage**) بالطريقة الآتية : القومية (**Nationalism**) عبارة عن ثلاجة معكوسة. فالثلاجة هدفها أن تولد برودة بالداخل، ولكن في سبيل ذلك؛ تولد بعض

الحرارة في الجو المحيط خارجها. وهدف القومية أن تولد حرارة داخل المجتمع، وحتى يتم ذلك تنتج أيضًا برودة خارجها.

في أيامنا هذه، فإن معظم البشر يعتدون بأنفسهم وثقافتهم. وكما قال أحد مواطني جزيرة مالطة، وعبر عن ذلك بأسلوبه لأحد الأنثروبولوجين الأوروبيين: "لو لم يكن لنا عادات وتقاليد (Custom = Kastom) وأسلوب حياة خاص بنا؛ لتشابهنا تماما مع الرجل الأبيض". وبتعبير آخر، فإن "القومية" كانت "ثقافة نسبية" قبل أن تحول لبرنامج سياسي(ومؤخرا أصبحت إستراتيجية تسويقية، خلال ما سمي بصناعة التراث)، بينما "النسبية الثقافية" من ناحيتها سوف تتشابه مع "القومية" لو وضعت في إطار سياسي، والفضل يرجع لبدء إيقاظ الوعي السياسي عند كل من الأقليات المهاجرة وأصحاب البلد الأصليين. هل سيعجب أحد إذًا من أن "إرنست جيلنر" (Ernest Gellner)(١٩٢٥ – ١٩٩٥) الفيلسوف والأنثربولوجي المعروف، وهو أحد أكثر المتخصصين والمدافعين عن "القومية " (nationalism)؛ يصف نفسه بأنه ضد "القومية السياسية"، لكنه " قومي ثقافي"؟ لقد كانت إجابته ودفاعه عن ذلك؛ بأنه من الممكن أن نتمسك بلغة، وعادات، وتقاليد، وهوية، دون أن نحولهم إلى برنامج سياسي. فلو صنعنا برنامجًا سياسيًا من ثقافة ما، فربما يصبح كل الواقعين خارج إطار هذه الثقافة، ضحايا، سواء كانوا مهجنين، أو أقليات أجنبية مهاجرة وقادمة من أنحاء العالم.

بعد حوالي مائة سنة بعد "هردر"، تُبنيت فكرة حق القوميات المختلفة في "تقرير المصير"على نطاق واسع. هذه المرة خلال "مبادئ ويلسون" (Wilson - doctrine) المشهورة، والتي عقبت الحرب العالمية الأولى. لقد كان الرئيس الأمريكي الديمقراطي "وودرو ويلسون" (Woodrow Wilson) أيضا رجلاً صادقا، وذهب إلى أن كل البشر لهم الحق في أن يديروا شئونهم بأنفسهم. لقد اعتنق الرئيس " ويلسون" في الحقيقة – وهذه ملاحظة مشوقة – مفهوما يتطابق تقريبا مع

ما كان يعتبر جديدا وثوريا، عندما طوره "هردر". وهو أن المجتمع العالمي، يتكون من مجموعات بشرية، لكل مجموعة منها خصائصها، وأسلوبها المميز، ويجب أن يكون لهم حقوق معينة. ولكن مباشرة بعد "مبادئ ويلسون" بعامين فقط من الزمان؛ يبدو أن العالم قد رأى أن مبدأ تقرير المصير كان ناتجًا عن قصر نظر. ففي مباحثات السلام نُسي الأكراد، أو ربما اعتقد المتباحثون أن الأكراد لا يمثلون "قومية" وأن لهم حقًا في تقرير مصيرهم. ولم يمض القرن العشرون حتى أصبح الكثير من البشر، قد أهملوا، ونُسوا، عندما قسمت حقوق تقرير المصير لأول مرة، واعتنقها كثير من الدول بدرجات شديدة التفاوت.

في الواقع، فإنه دون شك أن " ويلسون" والآخرين الذين اعتنقوا مبدأ حق تقرير المصير للبشر، لم ينتبهوا إلي تعدد "الشعوب"، أو قل "الثقافات"، الموجودة على أرض الواقع في مختلف الأوطان في أنحاء العالم المختلفة. ولم يعرفوا درجة صعوبة تحديد ما يمكن أن يطلق عليه "شعب" أو مجموعة من البشر لها ثقافة واحدة. وأنه – تقريبا– لا يوجد مجموعة من البشر لها حدود خاصة بها وحدها. وبالتالي لا يستطيع أحد عمليا، أن يخلق أو يصنع "قومية لطيفة ودودة "، بمعنى أنها لا تجور على الأقليات. لقد كانت قومية الأغلبية، وإيديولوجية الأرستقراطيين النبلاء القبيحة، هما السائدتان عمليا، في الفترة ما بين الحربين العالميتين. الأمريكيون السود والهنود(الحمر)، كانوا مستبعدين تماما من أفكار "ويلسون"، عندما تحدث عن حق تقرير المصير. والشيء نفسه ينطبق على خمسمائة مجموعة عرقية، لكل منها لغتها الخاصة بها، وعاداتها، وأسلوبها الخاص فى الحياة، وهم الذين يعيشون على مرتفعات جزيرة "غينيا الجديدة" (New Guinea)، الواقعة في الجنوب الغربي من المحيط الهادئ، بين إندونيسيا وأستراليا. هذه المجموعات اعتبرت خارج النطاق، في فترة "ويلسون".

أسلوب التفكير الذي تحددت معالمه في "مبادئ ويلسون"، مبني على أن الثقافات المختلفة منغلقة، وتمثل وحدة واحدة متجانسة. ولكن نظرتي، وما أزعم أنه صواب، هي أنه لا يمكن تجاوز "القيم النسبية"، أو "القومية الشوفونية " العوراء؛ إلا إذا تعلمنا التفكير والتعامل مع "الثقافة" و"الهوية " بأسلوب وطريقة مختلفة.

مما علم حديثا؛ أن العديد من المجتمعات خارج أوروبا، لم تكن قط ثقافات منفصلة معزولة عن بعضها. لقد كانت دائما متعددة الثقافات الإنسانية، تعددا ربما يخلق حدودا وتمايزا بين البشر، لكنها حدود متغيرة وليست جامدة، وفي الحقيقة تعتبر أكثر مرونة من تلك الحدود التي تبنى على نظريات "ميتافيزيقية" عن الثقافة.

٢

بأسلوب التعامل نفسه مع الضوء، عندما نعتبره إما: موجة من الطاقة، أو جزيئات من المادة، يمكننا أيضا؛ أن نصف الثقافة بأسلوبين، فيهما كثير من التضاد. باعتبار وجهة النظر الأولى، والتي نشأت على يد "هردر" و"بواز" و"القوميين"، يمكننا وصف العالم بأنه مكون من "جزر ثقافية". مثل هذا الوصف فاشل، حتى باعتبار شروط وقواعد أصحاب نظرية "النسبية الثقافية"، والقوميين، وذلك لأنه يفتقد العمق التاريخي. وهناك وصف مقارب، لكنه أفضل بكثير. وهو الذي قال به تلميذ وزميل "بواز" الأنثروبولوجي الأمريكي "ألفريد كروبير" (**Alfred Kroeber**) وهو يصور الثقافة بالشُعب المرجانية. الشُعب المرجانية، مكونة من طبقات عديدة من حيوان المرجان، لكن فقط الطبقة الأخيرة هي التي تكون على قيد الحياة، وبعد عدة سنوات تموت هي الأخرى، وتستبدل بطبقة جديدة حية. وبعد ولادة كل طبقة حية؛ يتغير قليلا الشكل الظاهري للشُعَب، فيصبح أعلى قليلا، أكبر قليلا، ويبدو مختلفا قليلا، وهكذا. وكل طبقة حية تنمو وتتموج ظاهريا بكثير من الحرية، ولكنها في الواقع، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالجيل السابق، ولا تستطيع الفكاك منه. إنها مُتجذرةٌ، ومرتبطة بتاريخ لم تَختره بنفسها. وبالأسلوب نفسه يمكننا قول: إن الثقافة قد بنيت وتكونت من مئات الأجيال من البشر، ولكن الجيل الأخير هو الوحيد الحي، هذا لو أردنا الالتزام بالمثال. وعندما نموت يأتي جيل جديد، لكنه لا يبدأ من قاعدة فارغة، إنهم يواصلون البناء على أساس ما تركناه لهم من علم، وعادات وتقاليد، وأفكار، وقيم ومبادئ، وما تركناه من تراث مكتوب أو أبنية وتقنية. وسوف يكون من الغباء، وقصر النظر أن نعتقد أن الوقت الحالي هو فقط الذي يجب أن يأخذ في الحسبان. ونحن – فردًا أو أمة – الذين نصنع واقعنا

الحالي، ولكن لا يمكننا صناعته إلا حين أخذ ماضينا قاعدة للبناء والاستمرار، وبعد سنوات سنصبح نحن من الماضي، والجيل الجديد هو الحاضر، وهكذا.

وبالمقارنة مع الشعب المرجانية يتضح أن الثقافة تبقى مصونة، ولكنها في الوقت نفسه تتغير قليلا. إنها تستمر في أن تكون الشُعبة المرجانية ذاتها، ولفترات مديدة، لكنها تتغير قليلا كل عام.

عندما نرى واقعا تُمثِّل الثقافة فيه شيئا كالشعب المرجانية؛ يصبح التواصل مع الماضي عنصرا مهما. أن يكون الفرد من عائلة مرموقة؛ فإن ذلك يعطيه مكانة اجتماعية، ولكن مطلوب منه أن يتطور حتى لا تتعفن جذوره. النشء يفتقد إلى النمط، والأسلوب، ويحتاج إلى أبعاد إضافية من "العمق"، و"المكان". إن موقع الشعبة المرجانية وعمرها لهما تأثير على الجزء الحي منها، وهذا الجزء يتموج، ويصنع أفضل ما يستطيع من داخل واقعه ومحيطه. العلوم والمعرفة قد تطورت إلى الأفضل خلال الأجيال المتعاقبة. التقنيات، وأدوات القياس قد جُربت وعُدلت لتتناسب مع ما يحيطها، بأسلوب رائع يقارب المعجزات. والمذاق الجميل قد تطور عبر مئات السنين، والثقافة هي مستقبل كل فرد، لكن الفرد لا يختار ثقافته. تماما مثلما لا يختار الفرد أهله وأقاربه. صحيح إن الشعب المرجانية قد تفرعت من بعضها بعضا، لكنّ كلٌ منها يمثل فردا قائما بذاته، في جماعة تتسم بالاستقلالية. إنها نظم قائمة بذاتها وإلى حد كبير تكون مستقلة.

الأسلوب المقابل لوصف الثقافة ربما يتماثل مع وصف الضوء بالموجة، وليس وصفه كجزيئات مادية. هذه الصورة تتعامل مع الضوء بوصفه مجالاً كهربيًا معقدًا(*)، وبالتالي ليس له حدود واضحة، ويستطيع الانتشار في كل

(*) الفيزيائيون يصفون الضوء بأنه: إشعاع له صفات كهربية ومغناطيسية في آن واحد، وهو يتكون من مجال كهربي يتعامد ويتزاوج مع مجال مغناطيسي يتقدمان معا. ويمكن وصفه بأنه طاقة تنتقل في موجات متعاقبة، لكنه في الوقت نفسه يحمل صفات الجسيمات المادية الدقيقة – المترجم.

الاتجاهات. تردد (spinning) جزيئاته، سوف يختلف قليلا من موضع إلى آخر، ولكن " ذبذبة وتردد" جسيمين موجودين في مكانين بعيدين عن بعضهما؛ يمكن أن يكون لهما القيمة والمقدار نفسه. المهم أن المجال الكهربي سيضمحل فقط؛ عندما نوقف سريان التيار الكهربي. دون النشاط الإنساني؛ لا توجد ثقافة. فالثقافة ليست إلا – في قليل أو كثير– الفكر، والأحاسيس، والقول، والفعل الإنساني في كل الأزمنة التي عاشتها البشرية. الأبنية نفسها، والآثار المادية تعتمد الإنسان أساسا لوجودها؛ فهو الذي يراها ويؤول وجودها. وفي هذا الإطار من الفكر لا تتحصل الثقافة على وجود ميتافيزيقي خارج الحياة الدنيوية الأرضية للإنسان.

الفرق بين المثالين، أو المجازين، يماثل الفرق بين النظرة التي تعتبر الثقافة مجموعة من السمات المشتركة التي تربط مجموعة بشرية معينة، وبين النظرة التي تعتبر الثقافة وسيلة، تجعل التواصل، والتفاهم بين البشر ممكنا. ولو أن الثقافة هي التي تجعل التواصل بين الأفراد ممكنا، فلن يغير في الموضوع من شيء أن يقال إن الثقافات لها حدود واضحة فاصلة، وذلك لأنه لا يوجد فرد واحد في العالم نستطيع أن نتواصل معه مائة في المائة، فرد واحد نفهمه، ونتوافق معه بشكل تام وكامل، حتى هؤلاء الأقرب إلينا. نحن جميع الأفراد (والأمم) لنا تجربة في الحياة مختلفة، ونقيم المواقف الحياتية بأسلوب مختلف قليلا، ولنا تذوق مختلف للموسيقى والآداب، وهكذا. وبالتالي لو قابلنا فرد مقارب لنا في السن من "زامبيا"، أو"ماليزيا" يكون له التذوق نفسه في الموسيقى والآداب مثلا؛ فسنكون بالتأكيد مضطرين للإعتراف بأن الثقافة ليست شيئًا مشتركًا يمكن أن يصف مجموعة بشرية بكاملها، النرويجيون مثلا.

وفي الوقت نفسه؛ فمن الصعب أن تجد اثنين من البشر، في أي ركن من أركان العالم، لا يستطيعون التواصل فيما بينهم. رغما أنه لا تجمعهم لغة، أو دين، أو خبرة وتجربة، مشتركة. فمن السهل أن يفهم أي فرد أن هنود الأمازون

يجوعون ويتعبون، وأن سكان أستراليا الأصليين يخافون الموت، وأن "الشيمبو" (Simbu or Chimbuer) [السيمبو ، أو الشيمبو سابقا، قبائل تعيش على الأراضي المرتفعة في غينيا الجديدة – المترجم] في مرتفعات "غينيا الجديدة " (New Guinea) سوف يتجمدون عندما يزداد البرد، وأن مرتفعات "غينيا الجديدة" قارصة البرد في المساء!

ليس من المهم إذا أن يكون الفرد موجودا في أرض آبائه وأجداده، ولكن المهم أسلوب التصرف، والتعامل مع العالم، هنا والآن. وفى نطاق هذا الأفق من التفاهم يصبح المستقبل والحاضر أهم من الماضي، ويصبح ما " يفعل" الإنسان؛ أهم بكثير من "من هو" الإنسان.

مثالان من المجتمعات المختلفة يمكن ضربهما لتوضيح مثل هذا الفهم، وبيان أسلوبهم في التعايش كلا بطريقته: الولايات المتحدة الأمريكية، والمجتمع الموجود في مرتفعات "غينيا الجديدة" (New Guinea). سكان الولايات المتحدة، والعالم الجديد على وجه العموم – من أستراليا وحتى موريشيوس (Mauritius)، ومن ألاسكا (Alaska) حتى " تيرا دل فوجو"(Tierra del Fuego) في أقصى جنوب أمريكا الجنوبية، يُصفهم الأوروبيون دائما بأنهم غير متحضرين، وأنهم بلا تاريخ، وبأنهم يفتقدون الذوق الرفيع، والتاريخ، ولا يحترمون الآباء. أي فرد في المجتمع يمكنه أن يقيم لنفسه وزنا، فليس من الضروري أن يكون من عائلة عريقة حتى يعترف به المجتمع. في مثل هذه المجتمعات يجد المبتدئون الفرصة الذهبية، فلا يحتاج المرء إلى أن يكون "ذا أهمية" حتى يصبح عضوا "ذا أهمية" وذا شأن في المجتمع.

الغالبية العظمى من سكان هذه المجتمعات إما أنهم أنفسهم جاءوا من ركن آخر من أركان العالم، أو أن آباءهم جاءوا من مكان آخر في توقيت ما من التاريخ. وبالتالي فإن أهم وظيفة اجتماعية لهم ليس التمسك بالعادات والتقاليد

المتوارثة، ولكنها خلق تفاهم وتواصل- أو بأسلوب آخر أن ينسجموا ويتوافقوا – مع مجموعات أخرى من البشر جاءت من مكان آخر من عالم مختلف تماما. وبالتالي فإن سمات هويتهم العامة لا تعتمد على التاريخ المشترك؛ ولكن على المستقبل المشترك. ذلك لأنه بالنسبة لمثل هذه المجتمعات يكون من المستحيل في بداية تكوين المجتمع، بناء هوية على أساس من خبرة وتجربة وجذور مشتركة. وعليهم أن يتوافقوا على هوية تسمح بالاختلاف. في هذا المجال الكهربي الذي ينشأ عندما يتواصل البشر ويحدث الاحتكاك فيما بينهم؛ تصبح المقومات الاجتماعية شيئا قابلا للتفاوض.

لقد ذكرت قبائل مرتفعات "غينيا الجديدة" حتى أبين أنه ليس فقط المجتمعات حديثة العهد هي التي تفتقد توقير التاريخ، وهي التي يكون فيها لأي فرد أن يصل إلى درجات اجتماعية عالية مرموقة، فهناك لا تورث القيادة، فكل فرد يبدأ من أرض جرداء. فلو أراد فرد أن يكون "كاهنا" أو "قائدا"، فإن ذلك لا يأتي إلا غلابا. فلا القوة والحكم، ولا المنافع الاقتصادية تنتقل وتورث من جيل لآخر. يكون الفرد شديد الغنى، أو له تأثير وسطوة في المجتمع؛ بقدر ما يحققه لنفسه، وعلى قدر فعله. فعندما يموت "قائدا" تجد أن هناك الكثير من المرشحين الجاهزين للتنافس على المكانة الاجتماعية المرموقة التي أصبحت شاغرة. أبناؤه يقفون في الصف نفسه الذي يقف فيه كل الآخرين.

إحدى المميزات المهمة لمثل هذه المجتمعات أن الموجود خارج محيط دائرتها يمكنه بسهولة نسبية أن يدخلها. يقول "أرفا سورم" (**Arve Sorum**) أستاذ الأنثربولوجي في جامعة أوسلو، والذي قام بدراسة حقلية لمجتمعات "البدامين" (**Bedamin**) في "غنيا الجديدة" : "الناس في هذه المجتمعات يصبحون أقرباء بأكلهم من الوعاء نفسه"، (ويقول إنه اكتسب الكثير من الأقرباء هناك بهذه الطريقة). أما في الولايات المتحدة الأمريكية؛ فيصبح الفرد عضوا في المجتمع بتحقيق بعض

الشروط. فالفرد لا يحتاج إلى تقديم لائحة عائلية طويلة، فقط عليه أن يسلك أسلوبا محددا في التعامل مع المجتمع: يحترم القانون والنظام، يعمل لاكتساب المال وإنفاقه، ويتحدث الإنجليزية. بذلك يصبح أمريكيًا، وفي بعض الحالات يكون أسلوب معين للمظهر الخارجي عاملا مساعدًا. في محطة من محطات القطار الداخلي قابلت أمريكيًا له اسم "سلافي"، جاذبته أطراف الحديث، وقلت إن هذا الاسم ليس أمريكيًا، فهز الرجل كتفيه دون اكتراث وقال بالإنجليزية "أى اسم هو اسم أمريكي" "**Any name is an American name**". من الواضح أن مثل هؤلاء الناس لو تعلموا أن يفكروا بأسلوب "الشعب المرجانية" وأنهم شعبة مات أصلها؛ فسوف يواجهون أزمة هوية.

هذه أمثلة مثالية، ولا يوجد مجتمع في العالم يتفاعل كما لو كان أفراده شُعبا مرجانية فحسب، القديم يموت ويحل محله الجديد. أو يتفاعل بأسلوب المجال الكهربي فحسب، أفراده أقطاب تتبادل التأثير، وذلك عند محاولة إجراء دراسة تحليلية للنواحي الثقافية أو الاجتماعية. كل من أسلوبيّ التحليل، أو منشوريّ التحليل (**Prism**) لازمان لفهم الواقع الحالي فهما كاملا. لكن في الوقت نفسه فإن هذين الأسلوبين في التفكير يختلفان اختلافا عميقا، ويخلقا أنواعا مختلفة من: القيود والحصر والمخاطر في علاقتنا وأسلوب تعاملنا مع الأجانب. فلو أننا استخدمنا أسلوب التفكير المبنى على اعتبار المجتمع النرويجي واحدًا مثل "الشعب المرجانية"؛ فسيصبح الوافدون للنرويج يمثلون دائما بالنسبة لنا "الآخر". ولم لا؟ وهم قد انفصلوا من أماكن هي أصلا، مواطنهم الأصلية. وعلى العكس من ذلك، لو اعتبرنا مثال "المجال الكهربي" خريطة لقراءة التضاريس، فسوف نظل طول الوقت نقيس "تردد الذبذبات" لهم ولنا، ونقارنها من حالة إلى أخرى. وربما في كثير من المواقف سوف نكتشف؛ أن "المشترك" بيننا وبين مهاجر مسلم، أكثر مما نجده عند جارنا ذي الأصل النرويجي. وسوف نجد أن الأصولي المسلم لديه من

"المشترك" مع الأصولي المسيحي أكثر مما يجده عند المسلم، الذي لا يمثل له الدين أساسا وأسلوبا في الحياة.

إن هذا العصر الذي نعيش فيه الآن؛ رائد فيما يتعلق بالتغيرات. وكثير من العمليات الثقافية يمكن فهمها بطريقة أفضل لو اعتبرنا العالم المعاصر حقلا واحدا يقع تحت تأثير مجال كهربي، عما لو اعتبرناه عدة جزر من الثقافات المختلفة. إننا نعيش في الحقيقة في عصر يتميز بفورة داخلية، من التمايز الثقافي. وعلى هذا يمكننا القول إن الاختلافات الثقافية تحدث في الداخل، وأن قطع الموازييك الثقافي العالمي تنتثر في شظايا صغيرة، وتهبط في أماكن متفرقة، شديدة الاختلاف عن محيطها. ونتيجة لذلك سوف تصبح مضطرة؛ أن تختلط بدرجات متزايدة مع بعضها بعضًا، وسوف يصبح أكثر صعوبة أن نحيط مدينة ما بجدار من الخوف، خاصة كلما كانت المدينة صغيرة.

من وجهة نظر الدراسات والبحوث في الظواهر الثقافية؛ فإن المجتمعات متعددة الإثنية علاوة على الثورة الإلكترونية الحديثة؛ تعتبران صفحتين في كتاب واحد. كلتاهما يبيّن أن من الضروري أن نفكر بأسلوب جديد، فالتطور الذي حدث في تقنية المعلومات كان قوة دافعة لحدوث التغييرات في الثقافات. وفي هذا الشأن فليس من المبالغة في شيء أن نزعم أن الطائرات، والإرسال التليفزيوني عن طريق البث الفضائي بواسطة الأقمار الصناعية، وحديثا جدا الحاسب الشخصي والإنترنت، أصبحوا من أهم عوامل التغيير في العقود الأخيرة. لقد جعلت الطائرة الانتقال بسرعة وراحة حول العالم أمرا ممكنا، وأصبحت السياحة، والمبعوثون الأجانب المقيمون بصفة دائمة، عوامل مهمة، ولهم فضل كبير، في خلق التطورات العظيمة التي حدثت في السنوات الأخيرة. في الأربعينيات من القرن الماضي؛ زار الولايات المتحدة الأمريكية ٢,٤ مليونً إنسان في العام الواحد في المتوسط. في الثمانينيات من القرن نفسه؛ كان الرقم المقابل ١١٨,٩ مليونًا، وتبعا لبعض

التوقعات سيزيد هذا الرقم إلى ما يقرب من مائتي مليون في غضون السنوات الأولى من القرن الحالي. وبالإضافة إلى ذلك؛ فإن المهاجرين والسياح سوف يقيمون اتصالا دائمًا ببلادهم الأصلية، من خلال وسائل الاتصال الحديثة من فاكس وتليفون خطى وتليفون متنقل وإنترنت. وأصبح من الواضح أن الاختلافات الثقافية المتعددة لم تعد مرتبطة ارتباطا لا فكاك منه بالمكان والمسافة. ويستطيع الفرد أن يعيش بأسلوب الحياة الباكستانية (بالطبع ليس مائة في المائة) في "تُويَن" (**Tøyen**) أحد أحياء المدينة أوسلو (**Oslo**) الواقعة في الشمال الأوروبي. وكذلك يمكنه الحياة بالأسلوب الذي يحبه في "كوالالمبور" (**Kuala Lumpur**) العاصمة الماليزية، أو "نيروبي" (**Nairobi**) العاصمة الكينية، أو "كاراكاس" (**Caracas**) العاصمة الفنزويلية، لو أنه امتلك القدرة المادية على ذلك. لقد ساعد البث الفضائي عبر القارات على أن يقلل من الاختلافات، ولكن بالطبع ليست كلها، ويزيد من معلومات البشر– حتى العامة– عن بعضهم بعضًا.

التطور الذي حدث في السنوات الأخيرة في شبكة وسائل المعلومات غير المرتبطة بالمكان؛ تؤكد مثل هذا الميل. فالمستعملون لأجهزة الكمبيوتر والإنترنت خريف ١٩٩٤ يقعون بين عشرين وثلاثين مليونا، ويتوقع مضاعفة هذه الأرقام بشكل هائل، وضخم يثير الدهشة. وخلال بضع سنين سوف يستعمل عشرات الملايين من البشر الإنترنت لإرسال واستقبال الرسائل الإلكترونية، ويشاركون في مجموعات حوارية تناقش موضوعات متخصصة، أو غير متخصصة. ويقرءون آخر الأخبار من وكالة " أسوسياتد برس" (**AP**) أو وكالة الأنباء النرويجية (**NTB**)، أو يشترون كتابا من المكتبات العالمية. فعلى الإنترنت يكون التواصل بين الناس غير معتمد على المكان، وسواء كان الطرفان في غرفتين متلاصقتين لا يحجبهم إلا حائط، أو أن كلا منهما في قارة مختلفة؛ فلن يغير ذلك في الموضوع

من شيء. إن ذلك يرجع إلى أن الإنترنت– كما هى الحال في الفضائيات – ليست مكانية (not localized)، أي أنها ليست محدودة ومرتبطة بالمكان(*).

في جميع هذه الحالات، فإن التحدي الأساسي، هو إيجاد ما يمكن تسميته "الحدود المشتركة الودية" (Friendly interface) بين المستعملين. ففي حالة التواصل عن طريق الإنترنت تكون هذه الحدود معروفة، ويمكن تسميتها وتحديدها بمعرفة اللغة الإنجليزية، ومعلومات أساسية بسيطة عن الكمبيوتر. إلى جانب ذلك تأتي قدرة الفرد على امتلاك، أو فرصة لاستعمال، الكمبيوتر. في السؤال: إلى أي درجة تواؤم ثقافي يتطلبها الاندماج في المجتمع يمكننا طلبها من المهاجرين والقادمين للنرويج؟ وبأسلوب آخر يمكننا القول: إن المشكلة تكمن في إيجاد "الحدود المشتركة الودية" بين هؤلاء القادمين من الخارج من ناحية، والموجودين في الداخل أصلا من ناحية أخرى. كذلك التوافق على أي من جوانب الحياة يمكن لكل المواطنين في بلد من البلاد أن يوجدوا أساليب وقواعد حياتية مشتركة، وتواصلا وتفاهمًا مشتركًا. وفى أي مجال يُسمح للوافدين أنْ يفعلوا ما شاءوا؟ ويجب الأخذ في الحسبان أن في مثل هذه الحالات التي تتميز بالاتصال الدائم، والتفاعل الوثيق، بين أفراد كان الاتصال بينهم قليلا، أو منعدمًا؛ يتولد في كل منها الكثير من التشابه، والكثير من الخلافات والاختلافات بين البشر. وأن هؤلاء الذين يوجدون في أماكن الاحتكاك يصبحون أكثر تشابها وتماثلا، لأنهم يضطرون إلى دخول المنطقة نفسها، منطقة "الحدود المشتركة الودية". لكن الاختلافات بينهم تتولد أيضا، وذلك لأنهم دائمو الاتصال بعضهم ببعض، وبالتالي فهم ليسوا منعزلين كما كانوا سابقا، وكما هو معروف أن الاختلافات تظهر عندما تبدأ المقارنة.

(*) في أثناء مراجعة هذا الكتاب اهتزت سماء الدنيا بأخبار تسونامي الثورات العربية، في كل من تونس ومصر، ومازال حتى كتابة هذه الكلمات ينتفض الشعب في كل من اليمن وليبيا وسوريا، والحبل على الجرار. وكثير من المحللين يعزون أسباب الثورة إلى سرعة تبادل المعلومات بين الشعوب، وبتعبير أخر تزايد الإنتروبيا الثقافية – المترجم

صحيح أنه مازال الملايين من البشر علاقتهم بالعالم الحديث قليلة، أو تكاد تنعدم؛ لكن على الرغم من ذلك فقد أصبح الحديث عما يسمى "الثقافة الأصلية" لا معنى له. الفقراء في إفريقيا وآسيا مثال واضح في هذا المجال، هؤلاء جردوا من معظم وسائل الحداثة، بينما على الجانب الآخر، أو قل الغرب- يوجد الكثير من الحداثة والأساليب الحديثة، ولكن في الوقت نفسه فإن المظاهر الثقافية المختلفة أصبحت منتشرة في كل العالم، على الرغم من وجودها في مدن دون أخرى. هذه المظاهر الثقافية من سلاسل الفنادق العالمية، والأخبار التليفزيونية، ومحلات الأكلات السريعة، والموديلات العالمية من الملابس، وموسيقى الجاز الصاخبة في المراقص والملاهي الليلية، كل هذا يمكن أن يذكر باعتباره مشتركًا بين قطاع كبير من البشر، يشمل هؤلاء الذين لاعتبارات أخرى يعيشون بطرق جد مختلفة. وخوفا من أن يعتبر ذلك تبسيطًا شديدًا، يمكننا القول إن المستهلكين في أنحاء العالم، يأتي كل منهم من عالمه الخاص، ليتقابلون مع رموز المدينة والحداثة في الأسواق. إنهم يتقابلون في رموز مشتركة، مثل: "جينز ليفي" (**Levis Jeans**)، وزجاجة الويسكي، والساعات الكوارتز، وساعة التوقيع بالحضور والانصراف من العمل، وفى المطارات.

على الرغم من أن مئات الملايين من البشر يشاركون في أنظمة جيدة ثقافية واقتصادية؛ فإنهم سوف يظلون مختلفين في جـوانب أخرى، وحتى لو شـاهدوا الـ "سي.إن.إن" (**C.N.N**)، ولبسوا الساعات من " باتك فيليبا" (**Patek Philippe**). وسيظل لاعب الجولف العربي يوجه وجهه خمس مرات في اليوم والليلة تجاه "مكة" (**Mecca**). وسيبقى بعض الرجال يتزوجون أكثر من زوجة، والكثير منهم في الحقيقة لم يمس الكحوليات، حتى ولو مرة واحدة في السر. والأمريكيون الشماليون يستعملون السيارات، وساعات مشاهدتهم للتليفزيون أكثر من أي مجموعة بشرية أخرى ، لكنهم يستطيعون في المتوسط إتقان لغات أجنبية أقل من الكثير من الآخرين. والهنود غالبا يفضلون العيش في عائلات كبيرة، وينتسبون

إلى مكانة اجتماعية (Cast) متوارثة، والتي مازالت لها أهمية كبيرة، ويبدو أنها ستواصل البقاء طويلا في القرن الواحد والعشرين.

الرموز المشتركة للمدنية والحداثة تعمل، في بعض الأحيان، وكأنها مقشطة، تقشط وتزيل الفروق والاختلافات الثقافية. في الماضي كانت بعض المجتمعات عبارة عن مزارعين، وموسيقيين، وآخرون كانوا صيادين ويلتقطون ثمار الغابات، بينما ظل آخرون يعيشون في المدن. بعض المجتمعات استخدمت نظام المقايضة، بينما آخرون استعملوا العملات الذهبية، وبقى آخرون يمتلكون تقنيات معلوماتية لا يمكن مقايضتها بالنقود. في عصرنا الحالي تنتسب معظم هذه الاختلافات إلى الماضي. النظام الاقتصادي النقدي أصبح قاسما مشتركا للغالبية العظمى من البشر. ولكن في الوقت نفسه سوف تظل الاختلافات الثقافية أهم كثيرا مما كانت عليه في الماضي. ذلك لأن المجموعات البشرية المختلفة لها الآن ارتباطات مع بعضها بعضا أكثر مما كانت عليه في الماضي. فمثلا حكومة إرهابية في إيران يمكنها بفضل العولمة أن ترسل موجة فجائية من الرعب إلي العالم بأسره، وذلك بمجرد أن تصدر فتوى بالقتل لكاتب بريطاني، وتعلنها وتنشرها بسرعة البرق عن طريق البث الفضائي. وإلى الآن الزواج المخطط له مسبقا؛ شائع بين الهنود الحداثيين. وعلى أساس هذه الميول في التطور؛ فإن من أهم واجباتنا في الدراسات الثقافية، أن نبحث عن أي الفروق الثقافية هي التي يجب أن تزال وتمحى، وأيهما يمكن أن تبقى وتستمر، وأي أنماط ثقافية جديدة يمكن أن تنشأ عندما يتم لقاء ما هو محلى وما هو عالمي.

هذه العملية تبدو سهلة وبسيطة ودون مشاكل، لكن الحقيقة ليست بالطبع هكذا، فهذه الفورات الداخلية المتزايدة من الفروقات الثقافية تؤدى عمليا إلى مواجهة مباشرة بين نموذج "الشُعب المرجانية " ونموذج "المجال الكهربي"، هذان النموذجان ليسا متصالحين ومتوافقين، على الأقل ليس عمليا. التطور التكنولوجي

يولد وينشئ فروقا طبقية، بين هؤلاء الذين يسيطرون على التقنية، وهؤلاء الذين تسيطر عليهم التقنية. هذه الحالة تتطلب درجات عالية من المرونة والقابلية للمواءمة الاجتماعية، لا يستطيع الكثيرون ولا يرغبون أن يقدموها. فهذا الخليط الثقافي يبدو وكأنه خطر مهدد لقيمنا، وأسلوب حياتنا الذي بنيناه من قبل. إن العالم قد تغير، ولا يمكن أن نعتبره جزيرة ثقافية، أو مكانًا موحدًا متجانسًا. ولكن يمكننا القول: إن العالم مكان واحد لكن كل جزء فيه مُصنع محليا.

٣

هذه الأحوال الجديدة تتطلب أدوات جديدة للتفكير، ومصطلحات جديدة للتعبير. لقد اقترحت في السنوات الأخيرة مصطلحات مثل "الكريولية" (Creolization) و"العولمة الثقافية" لتساعدنا في وضع هذا الميل للتطور والتغير الحادث في العالم في الأطر المناسبة. هذه المصطلحات بدت لنا وكأنها خطوة على الطريق؛ لتحل محل المصطلحات الاجتماعية الكلاسيكية، مثل "الإمبريالية الثقافية"، و"التغريب" (alienate)، و"فقدان المعايير"(anomie)، وكلها مصطلحات فيها جنوح أخلاقي تفتقده المصطلحات الجديدة. ولقد لاحظت الباحثة النرويجية في مجال الأنثروبولوجية الاجتماعية "مارينًا جُولاَستاد" (Marianne Gullestad) أن استخدام مثل هذه المصطلحات يمكن أن يولد ظاهرة اجتماعية سلبية أخلاقيا. ولكن مصطلح مثل "التغريب" – بمعنى تغريب المجتمع- يمكن أن يصبح ذا قيمة، ويكون مقبولا وله قيمة إيجابية داخل هذا الإطار من التفكير فقط عندما تستخدم مصطلحات تلبس ثيابا مناسبة من الحرية الفردية والمرونة، وهي سمات مهمة بالطبع للحداثة. هذه الملاحظة التي عبرت عنها الباحثة مهمة، والمصطلحات المستعملة في الحوار بين الثقافات يجب أن تكون أكثر دقة وتوازنًا، ولا يجب ألا تُقيَم الحوارات بأوصاف

مثل "جيدة " أو "سيئة"، فذلك ليس كافيا. ولكن على العموم فإن مثل هذه الحوارات حول هذه التناقضات لم تبدأ إلا حديثا.

في بعض المناسبات والحالات يمكن أن يكون مقبولا أن نتكلم عن التناقض الكلاسيكي بين "الحرية" و"الأمن" الاجتماعيين. وفي حالات أخرى سيكون أكثر أهمية أن ندرس العلاقة بين الليبرالية الاقتصادية والتهجين الثقافي. وربما تكون عملية إزالة الحدود في الجانب الاقتصادي مؤدية إلى فقدان القوة بشكل كبير، بينما تكون العملية نفسها من إزالة الحدود في الجانب الثقافي مؤدية إلى حرية أكبر؟ إن العولمة الاقتصادية تولد تركيزا لرأس المال، وزيادة قوة ونفوذ الشركات المتعددة الجنسيات، أو الأجنبية (transnational)، التي لا تؤدي التزاماتهما المحلية. وتؤدي أيضا إلى إضعاف النقابات العمالية (unionism). وعلى العكس فإن العولمة الثقافية تؤدي إلى سهولة الحصول على المعلومات، وبالتالي تؤدي إلى القدرة على تطوير الديمقــراطية. لكن في الوقت نفسه؛ لن يكون من المــؤكد أن نتمكن من احتــواء أو إضعاف أي من الجانبين دون أن نضطر إلى قبول الجانب الآخر في الصفقة.

عولمة الثقافة تحمل في طياتها أن "الرسالة" المنتجة بكثرة، تُرسل إلى كل مكان، وأنها لم تعد ترتبط بمكان الإنتاج. وهذا ينطبق إلى درجة معينة على"الثقافات". ففي، ومع ظروف الهجرة، والسفر، ووسائل الاتصالات الحديثة، تنساب الثقافات وتتدفق، وتتداخل في بعضها بعضًا، وتتشكل جيوب من مختلف أشكال الثقافات في الأماكن الجديدة. هذه الظاهرة ليست نادرة ويمكن حدوثها في أي مكان في العالم. في أحد "الميكروباصات" في إحدى غابات جزيرة "جاوة" (Guganas) الإندونيسية؛ شاهدت "جاويًا" مستغرقا في قراءة عدد قديم من جريدة "البرافدا" (Pravda) الروسية المعروفة، بينما جلس في المعقد الخلفي هنديان مضطربان، جيوبهما مليئة "بالبودرة" (Powder) البيضاء، الآتية من "كولومبيا"

(Colombia). وأفضل مطاعم "التنادوري"[*] (tandoori) الهندية في العالم، ربما هي تلك الموجودة في بريطانيا العظمى. ونرويجي الجنسية باكستاني المولد، يشاهد فيلما باكستانيا في العاصمة النرويجية أوسلو على الفيديو، والآن على إحدى القنوات الفضائية. إن أشكالا متباينة من ما يمكن تسميته " ثقافة تركية – ألمانية"، أو تركية – فرنسية، أو تركية – دانماركية، أو تركية – هولندية، تنشأ بسبب؛ أن الأقليات التركية في البلاد المختلفة تطور ثقافة خاصة بها. ثقافة تتواءم وتتناسب محليا، ولكنها تتبع أساسا من الثقافة التركية. وعلى ذلك؛ أن تكون تُركِيًا في ألمانيا، تعني شيئا مختلفا، عن أن تكون تُركِيًا في الدانمارك. لقد أصبح من الضروري، أن نطور لغة نظرية، لكي نصف ظواهر من مثل هذا النوع. عند ذلك سوف لا نجد أننا بعيدون عن مصطلحات ثقافية تصف وتُعرِف "الثقافات " كما لو كانت إستاتيكية ساكنة، ومنغلقة محدودة بالمكان.

إنه من الطبيعي ألا نهمل البعد المكاني كليا من كل الظواهر الثقافية، رغما عن أني اخترت أن أركز على تلك الظواهر التي يكون فيها المكان عنصرا أساسيا. إن ردود الفعل الناجمة في الوعي الجمعي للمجتمع ضد الميل للتماثل (equalizing tendensy) تمثل جزءا مهما من الصورة الكلية. والمطالبة بالنقاء الاجتماعي، وإحاطة المجتمع بالحدود، والمشاريع التي تهدف إلى بناء مجتمع نقى ومحاط بسياج عازل، فقط به رموز عالمية مثل المسلسلات التليفزيونية الاجتماعية العالمية (مثل أوبرا الصابون – Soap Opera) وصناديق الكوكاكولا، كل ذلك يمكن أن يفهم بأنه رد فعل مباشر لعولمة الثقافة، ويطلق عليها مباشرة تعبيرات مثل "جعل الثقافة محلية".

(*) التاندوري فرن من الطين، وهو اسم هندي، ويستخدم في شمال الهند وباكستان، ويستخدم فيه الفحم لطهي الطعام، أو الخبز – المترجم

وبدلا من المصطلح الأنثروبولوجي القديم للثقافة، الذي يعتبر الثقافة أنها تلك" السمات والسلوك المشترك الذي يميز مجتمعًا بشريًا عن آخر"، أريد تعريف الثقافة بأنها "كل ما يجعل التواصل بين البشر ممكنا"، فقط بهذه الطريقة يمكننا أن نفهم أن البشر يتقاسمون الكثير من "المشترك" فيما بينهم. بعض هذا "المشترك" شديد الأهمية، بعضٌ آخر أقل أهمية، وبعض يتولد ويتحلل في سرعة فائقة بينما سمات مشتركة أخرى متجذرة وجوهرية بدرجة تجعلها صعبة التغيير. فمثلا لو كنت أنا: نرويجيا، رجلا، وأميل إلى الجنس الآخر (**heterosexual**)، وعاشقا لبتهوفن (**Beethovem**)، وميالا للثقافة الفرنسية (**Francophile**)، ومتخصصا في الحشرات المدغشقرية، ولون بشرتي داكنة، وأعتقد بما يعتقده "الهنود السيخ" (**Sikh**)، واشتراكيا، وتخطيت الأربعين من العمر، وعضوًا في "الروتاري" (**Rotary**) الدولي، فماذا تكون هويتي؟ من المؤكد أن عضويتي في نادي الروتاري ليست بنفس أهمية كوني رجلا. وبالطبع خبرتي وتجاربي كرجل أهم بكثير من كوني عضوا في الروتارى. ولكن هل أنا نرويجي أكثر منه اشتراكيا؟ للإجابة عن مثل هذا السؤال يجب على الباحث، أن يتعمق في دراسة سيرتي الذاتية.

حقا إنه ليس من السهل أن نغير أسلوب التفكير في الثقافة والهوية الراسخة فينا. وهناك محاولة حسنة النية، لكنها ليست دون مشاكل. محاولة تتناول مشكلة التنوع العرقي والثقافي في البلاد الأوروبية الغربية الغنية تحت اسم "التعددية الثقافية" (**multiculturalism**). هذه الإيديولوجية التي تنادى بحماية مؤسساتية رسمية للخصوصية الثقافية عند الأقليات، يمكن أن ينتج عنها آثار جانبية محزنة غير مقصودة. مثل هذه الإيديولوجية تنحدر من نظريات "هردر" (**Herder**) الآفلة، فحماية الأقليات يمكن أن تعاني من مخاطرة التطور إلى ما هو أسوأ، وهنالك يضطر الكثيرون من هؤلاء الذين تحتويهم المجموعة قبول ما لا يحبون، فهؤلاء يتوقعون أن لهم ثقافة خاصة يجب أن تحترم، ويفخرون بها، ويستمرون في ممارستها، بل ويسوقونها للآخرين. ولو أنهم بدلا من ذلك انتهوا إلى مبادئ وقيم

الأغلبية، أو طوروا قيما خاصة بهم تتكون من " أجزاء هويات" (identity bits)، فهنالك سوف تتولد عندهم مشاكل الهوية. إنهم يقعون في المنطقة الرمادية، التي تعتبر من وجهة نظر معتنقي التنوع الثقافي أنهم "أرض بلا مالك" (no man`s land)، أو أنهم أفراد لا انتماء لهم. أو بأسلوب آخر؛ أنهم قد انفصلوا من " الشعب المرجانية" يتيهون في ملكوت البحر، أو أنهم ربما يعيشون في واقع ثقافي آخر، واقع أقل جمودا تكون فيه الحدود ليست مطلقة. ولو أن الهدف هو أن نصنع مجتمعا متناغما خاليا من الفروق، ولا يوجد به مواطنون من الدرجة الأولى، وآخرون من الدرجة الثانية؛ فيجب أن يحصل هؤلاء البشر على المقدار نفسه من القبول والتقدير على الرغم من اختيارهم لثقافة مجتمعاتهم البسيطة. وهذا القبول والتقدير حق لهم، حتى في حالة اعتبار البعض لهم بأنهم "غير أنقياء" (impure)، انطلاقا من الفرض القائل: إن الثقافات محددة المعالم، أو وحدات كاملة منفصلة، وإن كل ثقافة لها منطقها الخاص.

"التعددية الثقافية" مبنية على الفرض الذي يعتبر الثقافات شيئا له حدود مكانية منعزلة، وكل ما بداخلها أفراد متماثلون متشابهون، ويتقارب مصطلح "الكريولية" (Creolization) من الأسلوب والتفكير الآخر عن الثقافة. والكريولية، وهي إنتاج وصناعة ثقافة الكريولي، والكريولي تاريخيا، هو الفرد الذي ولد في أمريكا الجنوبية لكنه من أصل إسباني. ومثله مثل الأنجلو ساكسوني الذي ولد في الولايات المتحدة الأمريكية. وبالتالي فإن الكريولية هي في الحقيقة أن يعيش الفرد في المنطقة الرمادية، أي ما بين ثقافتين، وهذا يمكن تشبيهه بما يحدث في مجال كهربي مليء بأقطاب كبيرة وصغيرة، كل منها يرسل بحشد من الإشارات[*].

(*) في الفيزياء عندما توجد شحنات كهربية، أو جسيمات مغناطيسية منعزلة عن بعضها بعضا؛ في مجال كهربي ، أو مغناطيسي، فهي تتأثر وتؤثر، أي تتفاعل مع قوى المجال، جذبا وانجذابا – المترجم.

والأصل اللغوي للكريولية مقتبس من لفظ "الكريولو" (Criollo) في اللغة الإسبانية، وتعني" المولود في العالم الجديد"، واستخدم هذا اللفظ عندما بدأ الإسبان في استعمار العالم الجديد، أمريكا الجنوبية. وتُعرف اللغة الكريولية بأنها "لغة منطوقة"، أو"رطن" (Pidgin) تصبح بعد فترة، اللسان الأصلي (mother tongue) لشخصين على الأقل. وهي لغة تطورت أصلا من اتصال لغوى بدائى بين جانبين من البشر، ليس بينهما لغة مشتركة. ومثال يضرب لمثل هذا الرطن، أو اللغة، هي لغة "روسا- نوشك" (أو روسي - نرويجي). وقد كانت تمثل لغة التفاهم، وينطق بها بضعة آلاف من البشر على الحدود الروسية النرويجية، في كل من البلدين قبل ثورة ١٩١٧. فعندما نشأت تجارة نشطة للخشب، والفودكا، والسمك على الحدود؛ ظهرت الحاجة إلى التواصل بين البشر. حدث ذلك قبل محاولات المحطة التليفزيونية للموسيقى (MTV) وجريدة "النيوزويك" (News Week) الأمريكية لإرساء تواصل بين البشر، أينما كانوا في أركان المعمورة باللاتينية المعاصرة. هذه التجارة اضطرت المتاجرين إلى تأسيس وسيلة للاتصال والتفاهم من الصفر. فاللغة الروسية واللغة النرويجية ليس بينهما كلمات مشتركة تصلح لأن تكون بداية للتفاهم، وكانت النتيجة لغة تفاهم، أو"رطن" (Pidgin)، تتكون من حوالي أربعمائة كلمة أتاحت للروس والنرويجيين الحديث والتفاهم عن السمك والفودكا والنساء، وحتى المفاصلة في الأسعار.

هذه اللغة "روسا- نوشك" ماتت موتا طبيعيا، وذلك عندما أُغلقت الحدود بعد الثورة البلشفية التي قامت في أكتوبر ١٩١٧ بقيادة لينين. ولكن تصور لو أن التبادل التجاري على الحدود تضاعف أضعافا كثيرة، وأصبح أكثر نشاطا، وأن الروس والنرويجيين استمروا في التزاوج بدرجة كبيرة في المنطقة الحدودية، وأن التواصل بين غالبية الروس، ذوي اللسان الروسي النقي، وغالبية النرويجيين ذوي اللسان النرويجي النقي، قد تطور ووصل إلى الذروة، لدرجة أن المجتمع الروسي - النرويجي على الجانبين من الحدود أصبح له كيان، واستطاع أن يحافظ على

مقومات استمراره؛ إذا لكانت هناك احتمالية كبيرة في أن اللغة "روسا- نوشك" تطور نفسها إلى إحدى اللغات الكريولية. المفردات ستزيد، وتركيب الجمل سيصبح أكثر تعقيدا، وينتج عن ذلك تعريف أفعال دقيق، وبعد جيل أو جيلين فإن الأطفال لتلك العائلات المختلطة لن يتكلموا اللغة الروسية أو اللغة النرويجية؛ بل سيتكلمون "روسا- نوشك" من أول يوم. ولن يصبحوا نرويجيين أو روسيين، لكن سيصبحون خليطا من "الروسي- النرويجي". وأسماء مثل "إيفان" و"ناتاشا" (Ivan and Natasja) اللذين يستعملان في المجتمعين الروسي والنرويجي؛ سوف يصبحان هما الاختيار الأفضل الطبيعي للوالدين المتزوجين حديثا.

ربما يبدو أن هذا المثال غير واقعي، لكن الحقيقة أن هذه العملية بالضبط قد تكررت عديدًا من المرات في تاريخ الثقافات. فلو ذكرنا اليوم أمام أحد الجامعيين الأوروبيين عبارة، اللغة الكريولية؛ فسينصرف فكره، أو فكرها، في الحال إلى " les patoisdes iles" أو لغات الجزر. وهى اللغات التي تطورت في مستعمرات السكر الاستوائية، عندما اختلط الأوروبيون مع العبيد الأفارقة. والسبب في أن اللغة الكريولية تطورت بسرعة في هذه المناطق المستعمرة بسيط، فبعد ما جاء العبيد من أماكن مختلفة من إفريقيا، لم يكن بينهم لغة تفاهم مشتركة. وخوفا من أن ينظموا أنفسهم سياسيا؛ فقد حاول مالكوهم أن يفرقوا بين العائلات التي تتحدث اللغة نفسها. فكانت النتيجة أن اللغة الوحيدة المشتركة التي تعلمها واستعملها العبيد بنيت أساسا على لغة السيد المالك. في "جودالوبا" (Guadeloupe)، و"هايتي" (Haiti)، و"لوسيا المقدسة" (St.Lucia)، و"موريشيوس" (Mauritius)، و"ريونيون" (La Reunion)، وكلها من الجزر والمستعمرات السابقة، يتكلمون وحتى يومنا هذا لغة كريولية، تتكون ألفاظها الأساسية من الفرنسية، مثلما كان يتحدث البحارة الفرنسيون في القرن السابع والثامن عشر، مع ملاحظة أن قواعد اللغة فيها آثار من اللغات المستعملة في إفريقيا الغربية. أما في "جاميكا" (Jamaica) فهم يتكلمون لغة كريولية أساسها الإنجليزية. أما في جزر "الأنتيل الهولندية" (Netherlands

Antilles) – الجزر تشمل: جزر"أيه بي سي" (ABC، "أوروبا" (Aurba)، "بونير" (Bonaire)، "كوراكو" (Curacao) – فيتحدثون بـــالبابيامنتو (Papiamento)، التي أساسها اللغة البرتغالية والهولندية. و"البابيامنتو" لم ترق إطلاقا إلى درجة لغة كريولية – ولكنها "رطن" (Pidgin) مهم، وربما تكون هي اللغة "السورينامية" المستخدمة في جمهورية سورينام في أمريكا الجنوبية. وفي هذا الرطن "سرانان السورينامي" (Surinamic Sranan) يمكن للإنسان أن يتعرف على كلمات أو عناصر أخرى من الإنجليزية والهولندية والإسبانية والفرنسية والبرتغالية وحتى العبرية!.

ليس فقط المستعمرات، والناس فاقدو الجذور هم الذين مروا بعملية الكريولية اللغوية. فعلى سبيل المثال، اللغة المعروفة اليوم باسم الإنجليزية، تعتبر ناتجا من اختلاط اللهجات الأنجلوساكسونية، والنورماندية الفرنسية، منذ عهد "ويليم الفاتح" (William the Conqureor) الذي قاد الحملة النورماندية على إنجلترا، واستيلائه على السلطة عام ١٠٦٦م. وكذلك اللغة الفرنسية بدورها؛ نتيجة التلاقي بين اللهجات اللاتينية، والجرمانية الفرنكية (Frankish) في العصور القديمة والوسطى.

من الواضح أن الحديث عن الكريولية وعلاقتها باللغة شديد الأهمية. لكن السؤال هو: هل الحديث عنها في الحالة الثقافية سيكون أيضا له القيمة نفسها. النموذج الذي عرضناه في عملية الكريولية اللغوية؛ بالتأكيد يوضح اثنين أو أكثر من اللغات المستقرة عندما تتقابل، وبعد وقت من الاضطراب، وعدم الاستقرار والاختلاط، تستقر الأمور وتتوازن مرة أخرى. اللغة الكريولية في "موريشيوس" على سبيل المثال لا الحصر، لم تتغير تغيرا ذا قيمة لقرنين من الزمان. فقط تضاعفت المفردات بسبب التغيُرات الاجتماعية والثقافية. كلمة الكريولية إذا يصاحبها إحساس غير مريح، وغير مبهج، عندما نبني تفكيرنا على الاعتقاد بأن الاستقرار الثقافي هو الحالة الطبيعية، وأن الاضطراب والتغيير هو الذي يجب

تجنبه. ولكن في وقتنا الحاضر، وأكثر من أي وقت مضى؛ فالواقع هو أن الجوانب الثقافية هي التي تتأثر، وبالتالي فإن الديناميكية، أو "الحركة والتغيير" هي الوضع الطبيعي المتوقع بالتأكيد.

لقد أصبح من الواضح أن مصطلح الكريولية لا يمكنه إعطاء فهم كامل في حال وصف ظاهرة ثقافية، على الأقل في الناحية اللغوية. ولكن المشكلة نفسها تبقى ولا تزول؛ عندما نستخدم مصطلح "التهجين" (**Hybridising**)، والذي يفضل استعماله بعض الباحثين، وربما يكون أكثر شمولا أن نتحدث عن "التوفيق" (**Syncretism**) بدلا من المصطلحين السابقين، هذا لو أردنا استعارة مصطلح استخدم في البحوث الدينية بدلا من اللغة؟ هذا المصطلح يعطي على الأقل انطباعا بالديناميكية، فهو لا يفرض متطلبات من التوازن والاستقرار، يجب أن تصل إليها الحالة، بعدما يتم عصر عادات وتقاليد مختلفة معا. إلا أن أسلوب التوفيق هذا، للأسف، يعاني أيضا من الضعف نفسه الذي تعاني منه الكريولية. وذلك لأن الديانة التوافقية (**syncretical religion**) الناتجة تُعرف بأنها خليط من اثنين أو أكثر من الطقوس الدينية، والتي تعتبر كل واحدة منها وحدة متكاملة مندمجة لا تقبل التقسيم. وبهذا الفهم يمكننا أن نقول في حالات معينة، إن كل البشر نتاج الكريولية والتوافقية، فلا يوجد أحد من البشر نقي مائة في المائة. واللغة النرويجية، بما فيها النرويجية الجديدة، مليئة بالكلمات المستعارة من اللغات الأخرى، وستصبح لغة شديدة الفقر دونها. ومعظم الناس يؤمنون قليلا، في كثير من المواقف، في القوى الخارقة الغيبية غير العادية (**Overnatural**) المختلفة، التي تسيطر على كل شيء من المستقبل (وهذا ما يوصف بالحظ في الدراسات الثقافية) وحتى الإله البروتستانتي (**Protestantic God**).

صحيح أن مصطلح الكريولية يمكن انتقاده، ووصفه بأنه مبسط ويؤدى إلى فهم ودلالة خاطئة. ولكن، ورغما عن ذلك؛ فلست راغبا في التنازل بالكامل عنه. السبب في ذلك، أن هذا المصطلح – وبالضبط لكونه مليئًا بالتناقض– ربما يمكنه القيام بوظيفة "جسر" بين أسلوب التفكير الذي يعتبر العالم جزيرة ثقافية، وبين

أسلوب التفكير الذي يُصور العالم، وكأنه مجال كهربي واحد ليس به حدود واضحة. وحتى لا نغض الطرف تماما عن محاولات تجديد مصطلح يستخدم لوصف ظاهرة ثقافية ما جديدة، وقدمت من أجله البراهين والحجج، وليس فقط لأن يقال إننا نفكر بطريقة فاتنة، وشديدة الوضوح، وأفضل كثيرا عما قدمه من سبقونا من أجيال. ويعتبر اختياره أيضا؛ رد فعل ناتجًا عن التغيرات الحادثة في العالم الخارجي، الذي اقترب من إرسال القومية الكلاسيكية - التي بالتأكيد قد جلبت مشاكل للتعددية الثقافية- إلى مزبلة التاريخ. التغيرات التي أقامت شبكة متقاربة، ومكثفة من الجسور بين جزر ثقافية، ربما لم يكن بينها سابق إلا رحلة مركب للنقل، يتردد بينهما مرة كل شهر.

٤

هذه الفورات الثقافية التي تحدث في عالمنا المعاصر في داخل المجتمعات، تفرض علينا أن نعمد إلى التفكير في مشكلة "الهوية". لقد استخدمت هذه الكلمة لأول مرة في الخمسينيات من القرن الماضي في الدراسات الاجتماعية التي أجراها عالم النفس الاجتماعي "أريك هـ. أريكسون"(*) (**Erik H. Erikson**) الذي كان

(*) أريك إريكسون، يعتبر أحد رواد التحليل النفسي، والتطور الإنساني. يرى أنه من المهم، أن يُأخذ في الاعتبار العوامل التاريخية والاجتماعية والثقافية، التي أحاطت بالفرد، عند دراسة وتحليل النفس. ولد من والدين دانماركيين عام ١٩٠٢ في فرانكفورت الألمانية، وعاش في ألمانيا حتى الحرب العالمية الأولى، ثم رحل إلى فيينا، ودرس السيكولوجي، والتحليل النفسي مع ابنة فرويد "أنّا فرويد" (**Anna Freued**). رحل إلى أمريكا عام ١٩٣٣، وعمل في جامعة هارفارد. لم يكن راضيا تماما عن نظرية فرويد في التحليل النفسي، لهذا بنى نظريته الخاصة المبنية على نموذج يأخذ في الاعتبار أن للبيولوجيا تأثيرا على السلوك الاجتماعي (**Bio- Psycosocial Model**)، ونشر كتابه الأول عام ١٩٥٠ بعنوان "الطفولة والمجتمع" (**Chieldhood And Society**)، وبعده كتاب "أزمة الهوية"(**Identity Crises**). مات ١٩٩٤ – المترجم.

في الحقيقة، يتحدث عن الهوية الشخصية للفرد. وكلمات مثل "الهوية الثقافية"، و"الهوية القومية"، و"الهوية ،عرقية"، أو الإثنية، أصبحت تستخدم بصورة مكثفة وأساسية، كلغة الحوار بين الباحثين في العلوم الاجتماعية في ثمانينيات القرن الماضي. وبتعبير آخر فإن المجتمع لم يكن مهيأ للخشية على هويته القومية، أو الثقافية، أو الإثنية. وعموما فإن المجتمعات لا تفكر في مسألة الهوية قبل أن يتولد الإحساس بالتهديد. ويحدث ذلك بداية عندما يجدوا أن اتصالهم بالعالم الخارجي أصبح مفروضًا عليهم. هذا الإحساس بالفرض، للتواصل مع العالم الخارجي؛ يولد عند الإنسان، خشية التأثر بالآخرين. بعدها يتولد خوف لدى الإنسان من احتمال أن يصبح إنسانا (أو مجتمعًا) مغايرا تماما، لما كان يعتبره هو، ملامح شخصيته وهويته. ولذلك فليس هناك أي تناقض في أن ظاهرة انتشار العولمة الثقافية يصاحبها يدًا بيد، وفى الوقت نفسه نشوء حركات اجتماعية غاضبة وكبرها، تنادى بالحفاظ على الهوية. وترفض أن تتواءم مع هذا التيار الجارف المتقدم. وغالبا ما يعتبرون أنفسهم متميزين ومتفردين ثقافيا، ويختلفون تماما عن الثقافات الأخرى.

الهوية يمكن تعريفها إما أن تصبح شبيها لنفسك أو شبيها لآخرين. أو أن تكون مختلفا عن آخرين. وهذه مشكلة تواجه جميع المجتمعات الإنسانية، ذلك لأنه يوجد هناك دائما من لا يرغب في أن يساير الجميع وأن يبقى متميزا. وحتى يصبح للفرد (هوية) يجب أن توجد (لا هوية)، أو قل هوية مخالفة يقارن هويته بها. فالرجال لا يصبحون رجالا إلا إذا وجدت النساء، وكلمة "صغير" تصبح غير مفهومة إذا لم يكن هناك "كبير" أو "عجوز"، ولا يمكن أن تصبح نرويجيا إلا إذا كان هناك سويدي أو دانماركي. فهوية الإنسان الاجتماعية لا تنشأ إلا عندما يكتشف أن هناك من يتشابه معه، أو في الوقت نفسه يكتشف أن هناك من يختلف عنهم.

وبفرض أن هؤلاء الآخرين لم يكن لهم وجود؛ لكان لزاما أن نخلقهم. كان ذلك منطق "إميل دوركهيم" (Emile Durkheim ١٨٥٨-١٩١٦)، العالم الاجتماعي الفرنسي المعروف في تفسيره الكلاسيكي للانحراف السلوكي الاجتماعي. وفيه أوضح كيف أن "المجرمين" لهم أهمية وظيفية في تكوين الشعور الجمعي للمجتمع. نمط فكرى اتبعه "نيلز كريستي" (Nils Christi) أستاذ علوم الجريمة في جامعة أوسلو؛ عند إشارته لذلك في تعبيره واصفا مدمني المخدرات بأنهم "الأعداء الجيدون" للمجتمعات الحديثة، فمن الممكن عزلهم، وشيطنتهم (demonize)، ووصفهم بالقذرين المجرمين المتوحشين البهيميين (bestial)، وبذلك يمكن تعريف المجتمع بوصفه مجتمعًا أخلاقيًا في مقابل مجتمع لا أخلاقي أو لا اجتماعي.

وهكذا دائما؛ الهوية تولد وتنمو فقط عندما يوجد آخرون في المقابل، سواء كان ذلك الآخر يختلف عنا في الجنس، أو العمر، أو لون البشرة، أو اللغة، أو الدين، أو أي شيء آخر. ولكن هناك فروق مهمة بين طرق خلق الهوية ينبغي الانتباه لها، فهناك هوية يمكن إيجادها خلال الدولة بأدواتها القوية، وهناك هوية يمكن بقاؤها خاصة وشخصية وفردية. فعندما يذهب فرد إلى الحرب، ويموت من أجل قومه ووطنه، يتطلب ذلك الولاء الكامل من الفرد. بينما عندما تنظم الفرق الموسيقية حفلات؛ يوزع دخلها على الأعمال الخيرية الاجتماعية، فذلك ولاء جزئي، يكفى منه بضع مرات قليلة في السنة. مثل هذه الهوية يمكن أن تتوافق وتنسجم مع الهويات الأخرى. تماما مثلما تتوافق هوية الجنس مع عمر معين. وكذلك الهوية الطبقية الاجتماعية أو الهوية القومية. لكن هناك هويات تعزل الهويات الأخرى، وتضع حولها سياجا، مثلما تفعل الديانات والقوميات في كثير من الأحيان.

الدولة النرويجية لا تسمح لمواطنيها بازدواج الجنسية. فهم يتطلبون أن يكون الولاء السياسي مرتبطا كليا للدولة النرويجية. بينما بعض الدول توافق – على العكس من ذلك– أن يقتسم مواطنوها روابط الولاء، فيمكن لمواطنيها أن

يكونوا "هذا وذاك" بدلا من "هذا أو ذاك". كذلك الديانة المسيحية، لا تسمح للمؤمنين بها أن يؤمنوا بآلهة أخرى، بينما تكون هذه القضية مشكلة بسيطة في بعض الديانات الأخرى. الهندوسية مثلا قادرة على امتصاص واحتواء العقائد الأخرى، وذلك عن طريق أن إله المسيحيين والمسيح ذاته؛ يمكن أن يكون لهما مكان بجانب الآخرين في عالم الآلهة الهندوسية. وديانات محلية في إفريقيا، على سبيل المثال، يمكنها أن تتعايش وتتصالح مع المسيحية أو الإسلام. بينما في حالة مخالفة كان المبشرون النرويجيون في مدغشقر يُطردون من الأهالي. لقد ظن المبشرون بالمسيحية أن السبب هو أن المدغشقريين مناهضون للعقيدة "الإنجيلية- اللوثرية" (evangelical-lutheram)، وأنهم مازالوا يحترمون ويقدسون الآباء. والحقيقة هي، أن المدغشقريين لم يكونوا رافضين تماما للمسيحية، بل لأنهم ظنوا أنه يجب عليهم أن يتحولوا إلى الاعتقاد بآلهة أخرى. وكان عالمهم يسمح لكل الآلهة "هذا وذاك"، خلافا للمبشرين، الذين كانوا من عالم "هذا أو ذاك".

إن الفرق بين أسلوب "هذا أو ذاك" وأسلوب "هذا وذاك" فرق أساسي ومهم. حيث إن أسلوب "هذا أو ذاك"؛ يخلق تباينًا حادًا. بينما أسلوب "هذا وذاك" يخلق منطقة رمادية، ويمهد لانتقال تدريجي ناعم والتباس وغموض، وبالتأكيد، فإنه أسلوب، غالبا ما يحتوى تضاربًا وعدم انسجام بين محتوياته. لكن لقبول هذا النمط؛ يجب على الإنسان أن يقبل مبدأ أن: الحياة الإنسانية نفسها لا تشكل "كلا" مصمتا متناغما منطقيا. إن كل من له قاعدة معرفية عن الأخلاق أوسع من تلك التي نقرأها في كتب " الفلسفة الأخلاقية" (moral philosophy)، يعرف أن الصواب والخطأ ليس له علاقة بالمبادئ فحسب، ولكن يتطلب أيضا أن نتعامل مع كل حالة قائمة بذاتها. وهذا رغما عن كثير من المتشائمين الواثقين بأنه من الصحيح أن نقتل نفسا إنسانية في ظروف معينة. إن وجود التناقض في الداخل؛ لا يمثل في الحقيقة مشكلة عملية كبيرة. فلو تأملنا، فيما نتأمل، الأمثال الشعبية النرويجية، نجدها غالبا ما تعطي إشارات أخلاقية متناقضة. يقولون "لا تبع الجلد قبل صيد الدب"، وفي

الوقت نفسه يقولون "من يخشى السباق لن يربح". أن تكون نرويجيا، ورجلا، ومسيحيا، أو باكستانيا، فإن ذلك لا يجب أن يكون "علامة" مقضيًا عليك أن تتحملها في كل المواقف الحياتية. فكلٌ من هذه الصفات تكون ذات موضوعية فقط في مناسبات معينة.

يوجد أيضا فرق مهم آخر ينشأ عند تصنيف الهويات بين "منفتحة" و"منغلقة". في مناسبات الحوار عن النعرة القومية، نجد أنه من الصعب بمكان أن نفرق بين "القومية الألمانية" و"القومية الفرنسية". يقال إن القومية الألمانية ليست منطقية، ولا عقلانية، إيديولوجية "الدم واللحم" **(Blut-und-Boden-ideologi)**. هذه القومية مبنية على روابط الدم والقرابة. فلو أن فردا لم يولد ألمانيا فلن يستطيع أبدا أن يكون كذلك. وعلى العكس فإن القومية الفرنسية توصف بأنها نموذج لقومية منفتحة، تتيح لأيّ من كان أن يصبح فرنسيًا، عليه أو عليها فقط؛ أن يتبنى المبادئ والقيم العالمية التي تمثلها الحضارة الفرنسية. الحقيقة أن كِلا النموذجين استبعادي النزعة من نموذج "إما هذا أو ذاك"، لكن ما زال الفرق له آثار كبيرة. نظريا يمكن لأيّ من كان أن يصبح فرنسيًّا، بغض النظر عن لون بشرته، أو نشأته الإثنية. وفي المقابل فإن أيًا من كان لا يستطيع أن يصبح ألمانيًا، لو لم يكن مولودا من والدين ألمانيين. ومن الممكن أن نربط بين المأساة التي حدثت في البلقان **(Balkan)** إلى مثل هذا الفرق. فالإنسان لا يصبح كرواتيًا تلقائيا لأنه وُلد في كرواتيا، بل يجب أن يكون والداه كرواتيين. وبالتالي فإن الصرب الذين ولدوا في كرواتيا يعاملون على أنهم ليسوا كرواتيين، يتبع ذلك إحساسهم بأنهم أقلية، وأنهم يعتبرون عامل ضعف كامنًا في بنية الشأن الكرواتي. صحيح أن من الصعب اعتبار هذا العامل وحده هو الذي يرجع إليه انطلاق الحرب في البلقان، ولكنه بالتأكيد لم يكن هو العامل الأقل أهمية.

إن الفرق بين ألمانيا وفرنسا- وهو الذي يجاهد المثقفون الفرنسيون لتسويقه- لا يجب أن يبالغ فيه. فالاندماج الفرنسي المتقلص؛ كثيرا ما وصف أنه إمبريالية داخلية، وإجبار على الذوبان، بالنسبة لأقليات مثل "البريتانيون" (Bretons) الموجودة في شمال غرب فرنسا، و"الباسكيون" (Basques) في غرب فرنسا وشرق إسبانيا، وإنه بعيد عن الحقيقة كل البعد أن يقال إن "التفرقة العنصرية" غير موجودة في فرنسا. إنه ليس كافيا أن يكون الإنسان ذا ذوق رفيع، وعادات ممتازة على مائدة الطعام؛ حتى يقبله رجل مثل "لي بن" (Le-Pen) - اليميني الفرنسي المعروف- كفرنسي. وبالنسبة لألمانيا، فإن الذي يروجه مُرَوجو الشائعات للنيل من الألمان، أن السبب الوحيد الذي يجعل الألمان ذوي الأصول التركية لا يحصلون على الجنسية الألمانية، هو العنصرية الألمانية، ذلك ليس حقا وليس صحيحا. الحاصل في الواقع أن تركيا وألمانيا لا يسمحون بازدواج الجنسية، وبالتالي فإن الكثير من ذوى الأصول التركية لا يطلبون الجنسية الألمانية، وذلك لأنهم لا يريدون فقدان حقوقهم في ميراث الممتلكات من عقار وغيره، الموجودة في تركيا في حال ما تخلوا عن جنسيتهم التركية. القومية الألمانية كانت في البداية، من "هردر" و"فيتشا" (Fiche)، داعية إلى سياسة تشمل الجميع (includering)، وحاولت تقليد المثال الفرنسي في إذابة (assimilate) كل من هو ليس ألمانيًا. وكما يحاول بعض من ذوي الميول الدينية المسيحية من السياسيين (Christians)، أو الاشتراكيين الديمقراطيين (Social Democrates) النرويجيين، إذابة الأجانب؛ أراد الألمان إعطاء السلافيين أفضل ما يمكن إعطاؤهم، وهو الحق في أن يصبحوا ألمانا، بالضبط مثلهم. لقد بدأت القومية الألمانية في التطور في الاتجاه العنصري؛ عندما اكتشف الألمان أنهم أبدا لن يستطيعوا أن يحولوا البولنديين إلى ألمان.

إن جوانب القيم والمبادئ هي التي تهمنا، عند مناقشة موضوع الهوية في هذا المقام. وبالتالي علينا التعرف على الفروق بين ما تعنيه مقولة الهويتين، المنفتحة والمنغلقة. في "غينيا الجديدة" (New-Guinea)، توجد مجتمعات بشرية

يصبح فيها الغريب من أقربائهم بمجرد أن يأكل معهم في الوعاء نفسه. لكن هناك مجتمعات أخرى تؤمن بأن القرابة تكون فقط "بيولوجية" (biological). حقيقة، يوجد حوار جرى في القرن التاسع عشر، ويكون له معنى وقيمة في مثل هذا النقاش. إنه الخلاف والتعارض بين "لامارك" (Lamarck) و"داروين" (Darwin) في تفسير نشوء الأنواع وتطورها. "لامارك" كان يرى أن "الصفات المكتسبة" تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق الوراثة. وكان مثاله المشهور الذي كان دائما يضربه، في مثل هذه الحوارات- وكان هناك الكثير ممن يسخرون منه- هو لماذا يكون للزرافة رقبة طويلة جدا؟ وتفسير "لامارك" هو أن الزراف، وخلال أجيال كثيرة، كان يحاول أن يمد عنقه للوصول إلى أوراق الشجر الطرية الغضة، وهكذا أصبح العنق أطول قليلا في كل جيل عن الجيل الذي يسبقه. مثل هذا الأسلوب في التفكير يمكن أن يؤدي بأحد الدارونيين الجدد- الداروينية الجديدة هي: الداروينية مضاف إليها القواعد الوراثية لمندل(Mendel) – يموت من الضحك، وذلك لأنه أصبح من المؤكد في " الداروينية الحديثة " أن المعلومات لا يمكن أن تنتقل من الجسد إلى الجينات الوراثية (الصبغيات). "داروين" و"مندل" من بعده، أوضحا أن الصفات الموروثة هي فقط التي تنتقل بالوراثة من جيل إلى آخر. أما التغيير فيحدث في عالم الغيب، كما لو قيل خلال الطفرات الجينية أو التغييرات الفجائية. فالإنسان لا يصبح إنسانا ما لم يولد هكذا. وتطور الأنواع يكون بسبب محاولات مواءمة عدة، الكثير منها غير ناجح، والقليل جدا هو الذي ينجح، فقط هذه المحاولات الناجحة هي التي تستمر وتعيش، وهذا ما قاله "داروين". هذا القول نقله واستعمله "هربرت سبنسر" (Herbert Spencer)، الفيلسوف والطبيب النفسي الإنجليزي (١٨٢٠-١٩٠٣)، في الاجتماعيات والأخلاق، وذلك عندما دافع عن مبدأ "The Survival of the Fittest"، أو بالعربية "البقاء للأصلح"، فيما عرف بالداروينية الاجتماعية" (Social Darwinism).

لقد أصبح اليوم من المتفق عليه أن "داروين" قد ربح الجولة من "لامارك". إنها الصفات الموَرثة، وليست المكتسبة؛ هي التي تنتقل من جيل إلى جيل. فالضفدعة لا يمكنها أن تصبح من الثدييات، لو لم تتم العديد من المحاولات التطورية، حتى لو حصلت على كيلو جرام من الأرجل الصناعية، ولن يكون وليدها في هذه الحالة به أي آثار من الصفات الثديية. ولكن هل تصلح هذه القاعدة للتطبيق أيضا في حالة الثقافة والهوية؟ ليس هناك أي سبب يجعلنا نعتقد أن هذا سوف يكون. الإنسان الفرد يستطيع أن يكون: فوضويا، أو ناشطا لإرساء السلام في العالم، أو رأسماليا يمينيا، أو حتى أنثويا؛ فقط عليه أن يلزم نفسه بأشياء حتى يصبح ما يريد، ولكن عليه أن يعلم أنه لن يستطيع تغيير نفسه مائة في المائة. ومن الطبيعي أيضا، أن الفرد يمكنه أن يعود إلى ما كان عليه قبل التغيير، سواء دوما أو لفترة محدودة.

هناك الكثير مما لا يستطيع الفرد تغييره. "الإنسان الحديث" أو ما يسمى علميا "هومو سابينس" (**Homo Sapiens**)، على سبيل المثال، لا يستطيع أن يقرر أن يصبح نوعا من الثدييات الطائرة. وأنا لا أستطيع أن أصبح أسود اللون، أو أنثى، حتى لو رغبت فى ذلك. لربما أستطيع تغيير جنسيتي بوصفي نرويجيا، ولكنى لا أستطيع تغيير لغتي الأصلية. ولكن هل تصبح الصفات المكتسبة من الولادة، أو المهارات المكتسبة، هي الأساس الذي يمثل شرطا لتقرير أي حقوق يحصل عليها الفرد؟ وأي قيم ومبادئ تلمس أعمق ولاءات الإنسان وأحاسيسه هي التي نستطيع فرضها؟ الثابت والمؤكد هو أن تصنيف البشر تبعا للصفات الوراثية؛ تولد في المجتمع رائحة كريهة، تماثل تلك التي تنتج من الفكر العنصري القديم، الذي يدمر أساليب فكر الإنسانية المتحضرة.

•••

في هذا العرض تم وصف عالمين، أحدهما يتألف من ثقافات منغلقة ومعزولة، تبدو لها حدود خارجية ملحوظة، متواصلة متماسكة من الداخل. فيها يبدو الأفراد مندمجين، متواصلين مع بعضهم بعضًا. الهوية فيها منغلقة، والتقاليد فيها كلمة مهمة وأساسية. التعدد الثقافي، والثورة الإلكترونية، والهجرة، والكريولية الثقافية أو التمازج الثقافي؛ كل ذلك يعتبر فيها ظواهر غير طبيعية. مثل هذه الثقافة تكون حدودها رقمية محددة المعالم، قاطعة إما "هذا أو ذاك"، إما "مفتوح أو منغلق" (off-on) إما "نعم أو لا" (yes-no).

العالم الآخر يبدو لا نهائيًا متواصلا، غير واضح يفتقد الحدود، تسبح فيه الأفراد والأفكار، الأفراد فيه يغيرون هويتهم وولاءهم من حالة إلى أخرى، ليس به شيء مطلق ثابت غير قابل للتغير، كل شيء فيه قابل للحوار؛ من العلاقات الجنسية وحتى دستوره، فيه الهويات تتداخل، بعضها في بعض. مثل هذا العالم يصبح دائما متعدد الثقافة، وذلك بمفهوم أن التواصل والتفاهم بين اثنين لم يكن قط بالغ الكمال. كلمة مثل "أفكار" لها نفس مكانة كلمة "التقاليد" في العالم المنغلق. الحدود فيه "متناظرة" (analoge)، التغير الحادث من "أ" إلى "ب"؛ تدريجي وغير حاد.

الصورتان لعالمين متمايزين، يمكن تشبيههما بالضوء، الذي له خواص "موجات الطاقة"، وفى الوقت نفسه له خواص "جزئيات المادة". كلا الصورتين ضروريتان؛ لفهم مصطلحات مثل الثقافة، والهوية، والمجتمع فهمًا كاملا. لكن الصورتان تنتجان أنماطًا مختلفة من الفهم. هاتان الصورتان متكاملتان.

حجتي لاختياري صورة عالم الموجات بدلا من صورة عالم الجزئيات بوصفها وجهة نظر أساسية (هذا يقابل اختيار مثال المجال الكهربي بدلا من مثال حيوان المرجان – الشعب المرجانية)؛ ليس لأنه يعطى نظرة عميقة فحسب، وإنما – ربما – لأن القرن العشرين بأحداثه، وتاريخه، يبين بالبراهين القوية التي تؤيد صحة هذا الاختيار. ليس فقط ما عايشناه، ورأيناه، من أن القومية، والعنصرية،

والغزو التدميري للثقافات الأخرى، يصل مداه إلى اتخاذ طريق خاطئ بمجرد أن نقبل التفكير عن الثقافات وكأنها أيقونات مقدسة، من أحجام مختلفة منغلقة. ولكن إضافة إلى ذلك فإن الثورة التكنولوجية دفعتنا بقوة إلى بعضنا بعضًا، وقاربت فيما بيننا، وجعلت من المستحيل أن نزعم وندعى أن "الثقافات" منعزلة ومختلفة، وأن أي ميل إلى الكريولية يجب أن يعامل وكأنه حالة طوارئ. إن دورة عجلات التغيير وترّوسه؛ قد فجرت النماذج (Paradigm) والأيقونات. إننا نحتاج إلى خريطة إبحار جديدة لنقود سفينة المجتمع بما يتناسب من هذه التضاريس الجديدة.

الجـزء الثاني

المقال الأول

بومباي: المدنية المفرطة، على النموذج الهندي"

١

هل الهند دولة بالفعل؟ يتساءل ساخرا، عالم الاجتماع والمؤرخ الأمريكى "إمانيول ڤالرشتاين"(*) (Iammanuel Wallerstein) في إحدى مقالاته المنشورة في "Unthinking Social Science". الإجابة عن هذا السؤال سوف تكون سلبية، على الأقل جزئيا. يريد "ڤالرشتاين" أن يبين أن الصورة التي تعبر عن مصطلح "الهند"، تعني نسبيا كيانًا له تركيبة جديدة لهؤلاء الذين يعيشون في المنطقة، وليس لهم تاريخ مشترك واضح، ولهم قوميات متعددة. كما في كثير من الحالات؛ فإن الأمة "الهندية " نشأت وأصبحت واقعا بعد إنشاء "الدولة الهندية"، وظهورها في الواقع. ولقد كان معروفا منذ البداية، أن الأمة الهندية لن تكون أمة متجانسة ثقافيا كما في النموذج الأوروبي. دولة الهند؛ يوجد فيها عدة مئات من اللغات (وهناك دراسة تقول إن عدد اللغات في الهند ٧٢٣)، منهم ست عشرة لغة رسمية. والدولة فيها، كل من الديانات الصغيرة والكبيرة، وبها من السكان ضعف ما يوجد ببلاد الاتحاد الأوروبي. وعلى عكس الدول الأوروبية فقد صورت الهند على أنها متجانسة، بينما لم تبن الدول الأوروبية إطلاقا على فكرة أن يكون لسكانها تاريخ مشترك

(*) إمانيول ڤالرشتاين عالم اجتماع أمريكي مازال يكتب حتى الآن، ويعمل مديرا لمعهد فيرناند برايودل، وهو تابع لجامعة بينجهامتون في ولاية نيويورك. متخصص في الاقتصاد الاجتماعي، ويكتب في الشئون التاريخية والحضارة – المترجم.

وثقافة مشتركة. هذا التصور الأوروبي عن الهند قد تزعزع في العقود الأخيرة، ولأول مرة يوجد من يتفهم هذا الواقع.

على الرغم من أن باكستان انفصلت، وأصبحت دولة قائمة بذاتها، عام ١٩٤٧؛ فإن الهند بقي بها الكثير من عناصر التمايز والاختلاف. مثلا، المتحدثون باللسان "الدرافيدي"(*) (Dravidian) في جنوب الهند؛ يشعرون أنهم تحت سيطرة الشمال الهندو- أوروبي، ويحتجون خاصة على كل محاولة تريد اعتبار اللغة الهندية(Indian Language) لغة قومية. وهناك أيضا خلاف عميق بين من يؤمن بصلاحية النظام الطبقي، المسمى "الكاستا"(**) (Caste) الموجود في الهند وآخرون ممن يعارضونه. ولكن على الرغم من أن الكثير يعلن أنه من المعارضين له، فإنه نظام شديد العمق، ومن الصعب القضاء عليه. في مساحات كبيرة تقع على أطراف مناطق الغابات في قطاعي "أسام"(***) (Assam) و"أنديرا برادش"(****) (Andhra Pradesh)؛ يقاتل عقائديون ماركسيون، تحت اسم "الناكساليتر"(*****) (Naxalitter)، جنبا إلى جنب مع المضطهدين من السكان الأصليين- ولهم تعاطف محلي كبير؛ لإقامة نظام اجتماعي عادل، غير نظام "الكاستا"، ومجتمع تزول فيه الطبقات الاجتماعية. وفى الشمال الغربي في إقليم "البنجاب" (Punjab)، وكذلك في

(*) من المتفق عليه عند باحثي اللغات والتاريخ، أن اللغات الدرافيدية كانت هي المستخدمة في شبه القارة الهندية، ثم اضطروا هؤلاء إلى الرحيل إلى الجنوب بواسطة القادمين المتحدثين باللغة الهندية، وذلك قبل ألف عام من الميلاد. الآن يوجد قرابة ١٦٠ مليوناً يتحدثون قرابة سبعين لغة درافيدية منها: التاميلي (Tamil)، والتلوجو(Telugu)، والميالالم (Mayalalm)، والكانادا (Kannada) – المترجم.

(**) يوجد في الهند نظام اجتماعي طبقي يقسم المواطنين إلى أربع طبقات، أو فئات، أعلاها البراهمان (Brahman) وهم عادة رجال الدين، وأقلها السودرا (Sudra) – المترجم.

(***) إقليم في الشمال الشرقي من شبه القارة الهندية – المترجم.

(****) إقليم يقع في الجنوب الشرقي في الهند وهو مجاور لمدينة مادرس – المترجم.

(*****) الناكساليتر مجموعة من المتمردين عددهم بين أربعة الآف وخمسة، وهم مسلحون يناضلون من أجل إنهاء نظام الكاستا، وتعتنق الجماعة الفكر الشيوعي ومبادئ ماوتسي كونج الزعيم الصيني – المترجم.

الشمال الشرقي في إقليم "أسام" (Assam) توجد حركات تحرر مسلحة. وفى الجنوب يشعر الكثير من "التاميل" في الهند – وهم أكثر من خمسين مليونا – بالغضب من الطريقة التي ترسم بها سياسة البلد الأم، بالنسبة لعلاقتها مع "سري لانكا". إلى جانب هذا، فإن الهند تعاني من مشاكل حدودية مزمنة مع باكستان والصين. وجيران الهند الصغار – خصوصا " نيبال " (Nepal) و"سري لانكا" (Sri Lanka)– ينظرون إلى القوة العظمى الأقرب إليهم، على أنها تتصرف بوحشية وبدائية غير مبررة في حل مشاكل الحدود.

ولكن في الوقت نفسه؛ فإن الهند دولة فيدرالية، تسمح بنظام حكم محلي متسع. هذه اللامركزية في الحكم، جنبا إلي جنب مع النظرة السائدة التي تعتبر أن الفروق الثقافية هي أكثر الأمور طبيعية في الحياة البشرية؛ كافية بما فيه الكفاية لأن تقلل الضغوط لدرجة أنه لا يوجد خوف آني؛ أن تعانى الهند من المستقبل نفسه الذي عاناه الاتحاد السوفيتي، أو يوغسلافيا السابقان. على أي حال، فسوف يظل خطر التقسيم قائما، وأنه متوقع، لمثل هذا الخليط من الحديث والقديم الموجود في الهند.

لا يحتـــاج الفرد أن يترك بومبـــاي؛ ليكتشف أن ســـؤال "ڤالرشتاين" (Wallerstein) عن حقيقة وجود الهند بوصفها دولة، سؤال في محله. فهذه المدينة المليونية في الحقيقة تحوي أهم السمات المتناقضة، التي يتميز بها المجتمع الهندي: ففيها نجد فروقا تدمي القلب بين قلائل من الأغنياء، وغالبية من الفقراء (لحسن الحظ ؛ يوجد فريق آخر آخذ في التزايد من الطبقة المتوسطة). وفيها لغات كثيرة مختلفة يتحدث بها قاطنو المدينة الذين لهم أصول تنتمي إلى أماكن وثقافات مختلفة. وفيها الطقوس الهندوسية الممعنة في القدم، تمارس جنبا إلى جنب مع طقوس حديثة. وعلى سبيل المثال نجد من يعبر عن حداثته خلال إعلانات "الواقي الذكرى" وأفلام "الماسلا " (Masala). ويبدو للمتأمل أن هناك شيئا آخر مختلفا؛ هو الذي يجمع بين السكان، وليس الاشتراك في اقتصاد السوق. إن بومباي يمكن أن يطلق

عليها بحق مجتمع متعدد، فمن الصعب أن نقول إن المجموعات الكثيرة المكونة للمدينة لهم ثقافة مشتركة. في المدينة نجد العلمانيين (atheistical) والأصوليين (fundamentalist)، والمتحررين (Libertarian) الذين يستمتعون بكل ملذات الحياة، والمتزمتين النباتيين. وفيها نجد كلا من اليهودي والجريجي في انسجام كامل يمكننا من القول إنه ليس هناك من يعتبر ذلك مشكلة. إن بومباي مجتمع عالمي، ومعقد، يجعل الزائرين المساكين يجاهدون لأن يجدوا له تصنيفا. دعنا إذا نبدأ من البداية؛ بتحليل بعض الأحداث، والوقائع التاريخية، التي ثبتت وتكررت في كتب التاريخ بحيث نجد من الصعوبة بمكان أن نتساءل عنها.

٢

عندما غرس أحد ممثلي الأسطول البرتغالي، وهو ببزته العسكرية، العلم الملكي في عام ١٥٣٤ ميلادية، في أرض "أنّو دوميني" (Anno Domini)، التي تسمى الآن بومباي، كانت هذه الجزيرة الرطبة يقطنها صيادو السمك فقط، الذين لا نجد لهم أثرا الآن. ولم يخطر على بال، أو كان في قدرة هؤلاء الصيادين مقاومة القادمين. وعلى خلاف مثلائهم من الهولنديين في أركان أخرى من العالم؛ لم يضطر البرتغاليون إلى دفع ملء اليد من حبات الكرات الزجاجية البراقة، ثمناً للمدينة. ولم يتصور أحد منهم؛ أن هذه الجزيرة الرطبة المتسخة، ستصبح ذا قيمة تذكر، بالطريقة نفسها مثل جزر "شتلاند" (Shetland)، وجزر "الأوركني" (Orkney(s)) الأسكتلنديتين، اللتين - في تاريخ آخر- بددهما الملك النرويجي الغبي بإهدائهما مهرًا لزوجته. وتقريبا بمثل هذه الطريقة بيعت "نيو أمستردام" (Nieuw Ameterdam) بثمن بخس، دراهم معدودة للإنجليز. الذين غيروا اسمها من "نيو أمستردام" إلى "نيو يورك" (New York) تشريفا لدوق "يورك" (Duke of

York). وأصبحت بومباي من ممتلكات الملك الأسكتلندي "شارلز الثاني"(Charles 2) عندما تزوج من أميرة "براجنزا " (Braganza) البرتغالية عام ١٦٦١. وفى يومنا هذا فإن اسم المدينة البرتغالية "براجنزا" (Braganza) هو أحد ألقاب العائلة البرتغالية المستخدمة كثيرا في بومباي. والحاملون لهذا اللقب؛ لا يستطيع إنسان تمييزهم من هنود آخرين ذوي أصول هندية نقية يسكنون بجوارهم و يحملون أسماء مثل " سنج" (Singh) و"باتل" (Patel).

في عهد الملك " شارلز الثاني"، وأميرة براجنزا "كاترين"؛ تزايد عدد السكان إلى خمسين ألف نفس، كلهم ذابوا ولا يبدو لهم أثر تقريبا. وفى مطلع القرن العشرين، كان عدد السكان ٨٥٠٠٠٠ نسمة، وأصبحت المدينة ميناء مهمًا لتصدير الصوف، والمواد الأخرى المهمة اقتصاديا إلى الإمبراطورية البريطانية. وفى المقابل؛ حصلت بومباي على الكثير من المباني الرائعة، والتي تعطى المدينة نكهة تميزها. وربما يكون ذلك أحد الأسباب التي تقلل من عدد الناقمين على فترة الاستعمار في باقي أنحاء الهند. هؤلاء الملايين العشرة الذين يقطنون بومباي اليوم؛ لا يحسون إطلاقا أن محطات القطار ذات الهندسة المعمارية الفيكتورية، تمثل عناصر ثقافية غريبة لا صلة لها بهم.

لا يمكن لأحد يحمل ذرة من المصداقية، أن يزعم أن بومباي هي من نتاج الحضارة الهندية القديمة. فالمدينة وليد شرعي لعصر التحديث. وهى مدينة حضارية، تماما مثلها مثل "كينجستون" (Kingston) و"تورنتو"(Toronto)، لا أقل ولا أكثر. ولو أن سلمان رشدي[*] الهارب من الغاضبين عليه؛ أراد التخفي في أحد أزقة بومباي الخلفية، فلن يكون ذلك اختيارا ذكيا. الجميع سيتعرفون عليه، لقد رأوه في التليفزيون، وفى الصحف. وبالمناسبة فإن الهند؛ كانت من أوائل البلاد التي

(*) سلمان رشدي: هو كاتب قصة بريطاني من أصل هندي ، من بومباي. وقد أفتى الزعيم الديني الإيراني الخميني بإهدار دمه، بعد صدور روايته "آيات شيطانية في لندن" – المترجم.

منعت نشر كتابه "آيات شيطانية". كان ذلك مراعاة لشعور الأقلية المسلمة الكبيرة العدد الموجودة في الهند. إن الذي يميز بين بومباي والمدن الكبيرة الحديثة الأخرى، هو أننا نواجه فيها مدنية هندية، أي مدنية بأسلوب هندي، أو"مدنية المهراجا"(Maharashtra modernity) لو رغبنا في إطلاق المصطلحات. وهي المدنية الحديثة، المتفاعلة بعمق، مع العادات الثقافية الهندية المميزة. تماما مثل المدنية النرويجية المتواصلة مع، والنابعة من المسيحية. التي لا تلتزم بالطقوس الكنسية، وتبدو فيها آثار من ثقافة الفلاحة، والرومانسية، وحب الطبيعة. فمثلا عندما يحاول مُصنّعو "الواقي الذكري" (الكندوم) تسويق بضاعته- التي اختاروا لها بالتأكيد، اسما هنديا: "كاما سوترا" Kama Sutra- فإنهم يفعلون ذلك بأسلوب فج، لا حياء فيه؛ حتى يقال عنهم إنهم ممن يجيدون ما يصنعون. والحقيقة أنه أسلوب يبدو عموما طفوليًا، لا يثير أي إسكندنافي، نشأ وترعرع مع أنواع "الكندوم" المختلفة، الناعمة منها والمنزلقة والمعقمة وأصناف لا حصر لها.

مثلها مثل كل الأماكن الحديثة، فإن بومباي تتميز بكل من المعالم المتواصلة مع كل ما هو عالمي، والمحليات التي لم تمسها يد المدينة. الكثير يمكن ربطه بالمجتمعات الحديثة الأخرى- مثل الهندسة المعمارية للفنادق، والاختناق المروري، وثقافة الاستهلاك، ولغة التسويق، والإعلانات، والكثير الكثير من علامات المدنية الأخرى – بينما على مستوى آخر فيمكن اعتبار أن كل شيء في بومباي محلي مائة في المائة. فليس هناك أي مدينة كبرى أخرى يتشابه نظامها المروري تماما مع ما هو موجود في بومباي. ولا توجد أي مدينة كبرى أخرى بها رائحة مزيج التوابل، مع رائحة عادم السيارات، مع رائحة البحر في الشوارع. ولا توجد أي مدينة كبرى أخرى تسوّق الأخبار من خلال الصحف، بالطريقة نفسها المتبعة في بومباي. ومثل هذا؛ الكثير مما يمكن ذكره. إلا أنني أريد أن أطيل النظر قليلا في "المنطقة الحدودية" (Interface)، التي يتلاقى فيها المحلي والعالمي، والتي يمكن أن يكون من الصعوبة بمكان إيجاد مصطلحات دقيقة لوصفها. وذلك لأننا تعودنا أن

نفكر في عناصر المتشابه والمختلف بأسلوب استبعادي: أما أن يصبح الكل متشابهًا، أو متماثلاً (لاحظ أن بومباي ليست مثالا لكل الهند، إنها كأي مدينة كبرى أخرى)، أو يوصف الكل بأنه مغاير ومختلف (تذكر أيضا أن بومباي مدينة هندية متفردة، ولا يمكن مقارنتها بأي مدينة أخرى). وحتى نفهم الحالة الثقافية في بومباي؛ فسوف يكون من الضروري أن نعتبر أن كلا الجانبين صحيحان في الوقت نفسه.

وكما المدن الكبرى الأخرى في العالم، فإن بومباي فخورة بأن تكون المكان الذي يلتقي فيه الشرق والغرب. ما هو شرقي، أو ما هو غربي؛ فذلك مسألة نسبية. وبالطبع فكل المدن الكبرى تحاول وصف نفسها بأنها في المنتصف بين المشرق والمغرب. براغ، ونيويورك، وهونج كونج، وسنغافورة، وبرلين، وإسطنبول من بين تلك المحاولات الناجحة في هذا التصنيف.

عند الحكم على بومباي من مكان موجود أقرب إلى الغرب – أوسلو مثلا- سواء كان بمنظور نسبي أو مطلق، فإن بومباي توصف من أوجه مختلفة كثيرة أنها ذات طابع شرقي. المدينة سميت على اسم الآلة الهندية "مومباي دفي" (**Mumbai Devi**)، وتدور معركة في الأروقة الرسمية، يؤيدها السكان؛ لتغيير اسم المدينة إلى "بومباي". واللغة الرسمية في المدينة هي الهندية (**Hindi**)، والماراثية (**marathi**)، علما بأن الذين يفهمون الإنجليزية أعدادهم كبيرة تقارب الذين يعرفون الهندية. رائحة الكزبرة (**Cardamom**)، وعادم السيارات، والعرق، و"ورنيش" تلميع الأحذية، والقرنفل (**nellik**)، كل هذا يشمه الإنسان في الشوارع. الكثير من الأفراد يرتدون ملابس سوف تثير الانتباه خارج محيط "جيتو" الأجانب في مدن أوروبا الشمالية. اللوحات البراقة، التي تكاد تخطف البصر، التي تسوق أفلامًا لها أسماء غير مفهومة، لكل من لا يعرف الهندية. وأكثر صعوبة لكل من لا يمكنه نطق حتى حرف واحد من حروف اللسان "الدفانجاري" (**Devanagari**) ولو لمرة واحدة. الصحف والمجلات التي تباع على الأرصفة، والمكتوبة بعدة لغات، تنشرها

مؤسسة "أخبار- والله" (Newspaper-Wallah) الصحفية، وعناوينها مكتوبة بعدة لغات: "الأردو (Urdu)، والهندية (Hindi)، والإنجليزية، والماراثية (marathi)، والسنديهية (Sindhi)، والجوجراتية (gujerati). مواقف السيارات والتي تبدو وكأنها من الماضي السحيق، وذلك بسبب استراتيجية الهند الصناعية، التي سنت القوانين لحماية المنتج المحلي، والاكتفاء الذاتي. أحد النتائج الكثيرة لهذه العزلة الطويلة، أن موديل عام ٨٩ للسيارة العادية هناك، "برمير بادميني" (Premier Padmini)، يبدو وكأنها سيارة إنجليزية من الأربعينيات. فقر مدقع أزلي، تراه في كل مكان، وفي كل لحظة (omni present). على أرصفة جميع أحياء قلب المدينة، يعيش الناس في عشش (Shed). في الصباح الباكر يلتف الناس، والجزء الأعلى من أجسامهم عاريا، حول المزاريب (guttes) وهم ينظفون أسنانهم. ومن حين لآخر، يضطر الماشي في الطريق، أن يتخطى أحد الأجساد الراقدة، بينما هو في طريقه إلى أحد المكاتب المكيفة الهواء، في "مجمع ناريمان"(Nariman point).

ولو استطاع إنسان لبضع لحظات، أن يتناسى هذه القاعدة الفقيرة، التي تحيط بالرفاهية والثراء من كل جانب. ولو أنه استطاع أيضا، تناسى تلك السمات الهندية الأصيلة في المدينة؛ فسوف يكتشف بسهولة، أن بومباي بها كثير من المشترك، بينها وبين المدن الكبيرة. ومثلها مثل جميع المدن الأخرى؛ فسوف تجد فيها الكثير من السيارات الخاصة. وتلوث الهواء فيها يماثل نظيره في "بانكوك" (Bangkok)، علما بأن وصول السيارة إلي الهدف أفضل قليلا، دعنا نقول إنها تتشابه تقريبا، مع "مانهاتن" (Manhattan). أسعار الأرض، وإيجار المنازل، شديدة الارتفاع في قلب المدينة. إنها أقل منها في طوكيو، ولكنها مرتفعة إلى حد أن الكثير من المحلات في قلب المدينة التجاري، المسمى "كولابا "(Colaba)، يضطر أن يعرض بضاعته من الملابس على مشاجب قائمة على الرصيف، مليئة بصفوف من البناطيل، والفانلات المعروفة باسم "تي شيرت" (T.Shirt). في كتابه الحديث عن الهند (India: A Million Mutinies Now)، أو " الهند: ملايين المتمردين الآن "، يصف الكاتب "نايبول" (V.S.Naipaul)، وهو ذو أصل هندي

وحائز على جائزة نوبل للأداب، زيارة لأحد المحامين الناجحين يسكن في قلب المدينة بومباي، يقول المحامي: إنه يرتدى أبهى الحُلات الجميلة، ويتابع ما ينتج من أحدث "الموديلات"، مثله كأي رجل من الطبقة المرفهة الغنية في مجتمع عصري. إنه يملك سيارة، وفيديو، وكل الأجهزة الكهربية الحديثة، لكنه أب لثلاثة أولاد، مضطرين إلى السكن في مساحة ٢٥ مترًا مربعًا. حجرة حوائطها رقيقة، رقة الورق لدرجة أنهم يسمعون شخير الجيران ليلا.

سويا مع مدن أخرى، مثل عاصمة كولومبيا "بوجوتا" **(Bogota)**، وأمستردام؛ فإن بومباي واحدة من الأماكن الرئيسية في العالم للمخدرات. وأقوال شعبية من مثل **"Future is Black when Sugar is Brown"** قد كتبت على لوحات مزينة ببعض الجماجم. وظاهرة أخرى يلاحظها الجميع هي انتشار الإيدز، وللأسف فإن المسئولين في الجهات الرسمية بدءوا متكاسلين في اتخاذ خطوات لمكافحته والاهتمام بالمشكلة. وللأسف الشديد فقد أصبح من المعروف، أن عددًا ضخمًا من مومسات المدينة حاملات للفيروس، وقادرات على نقله ونشره. وتبعا لأحد الخبراء في هذا المجال، وهو بطبيعة الحال منزعج لهذا التطور، يقول: في بدايات الألفية الثالثة؛ فسوف يكون بالهند حالات مرضية من الإيدز، أكثر من كل بلاد العالم مجتمعة.

وعلى العكس من ذلك، فإن بومباي بها جرائم قليلة نسبيا. صحيح أني قوبلت بجسد غارق في دمائه، ملقى على أحد الأرصفة صباح يوم أحد، لكن تبعا لأقوال الكثير من الأفراد الذين شاهدوا الحادثة، أنه لم يكن حريصا، وأظهر النقود الكثيرة التي كان يحملها أمام هؤلاء المجرمين، في ساعات متأخرة من الليل. وكزائر للمدينة؛ فنادرا أو أبدا ما يشعر الإنسان أنه مهدد. وهذا ما يميز بومباي عن مدن أخرى، مثل "كنجستون" **(Kingston)** الكندية، ونيويورك الأمريكية. والنصف تقريبا، من هؤلاء الذين يقابلهم الإنسان في "كولابا" **(Colaba)** بعد حلول الظلام، هم من الذين يرتدون أحد الأزياء الرسمية المتعددة، والباقي عبارة عن بائعي منشطات جنسية، أو بائعات هوى.

لا توجد بالنرويج مدن كبيرة يمكن مقارنتها ببومباي، وبالتالي لا يمكن لنرويجي أن يتصور سهولة السيطرة على كل ما يفعله سكان بومباي. ولنا أن نتصور كيف سيكون الحال لو سنّ المسئولون النرويجيون قانونا، يفرض استخدام خوذة وقاية الرأس، عند قيادة الدراجة، أو قانونا يفرض على العاملين في مراقبة أماكن انتظار السيارات أسلوبا للتعامل مع الناس بأدب وبشاشة.

٣

في بومباي توجد أيضا عناصر" شرقية "، لا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نصنفها وكأنها نتيجة تطوير محلي، أو انحراف بسيط عما هو سائد من مصطلحات عالمية. المثال الواضح في هذا المجال، هو تقييم البشر اجتماعيا، وتصنيفهم في طبقات متمايزة، والمسمى بـ" نظام الكاست" **(Caste System)**. صحيح إنه غير ملموس، ويصعب على العين الحديثة في المجتمع أن ترصده، ولكن ليس صحيحا أنه تام الاختفاء والتنكر. خلال علامات وإشارات، تبدو لمن هم من خارج المجتمع غير منظورة، يستطيع الهندي أن يشير إلى مظاهر وجود هذا النظام. هذا ينطبق أيضا على مدن كبيرة مثل بومباي، وخليط من" لغة الجسد"**(Body Language)**، وأسلوب ارتداء الثياب، وتعبيرات الوجه؛ غالبا ما تكون كافية للتصنيف. وفى كثير من الأحيان؛ تكون نوعية العمل الذي يقوم به الفرد، دالة على انتمائه الطبقي في "نظام الكاست". وعلى سبيل المثال؛ فلن يوجد الكثير من أعضاء الطبقات الثلاث العليا من يقبل وظيفة كنس الشوارع وتنظيفها، بغض النظر عن مدى حاجتهم ودرجة فقرهم.

في النظام الديني الاجتماعي الهندي يقسم المجتمع إلى أربع طبقات اجتماعية رئيسية، أو أربع "فارنا" (Castes) (Varna)، وآلاف من طبقات فرعية، يسمونها "جاتي" (Jati)، وكل "جاتي" تنتمي إلى إحدى الكاست الأربع الرئيسية. الطبقات، أو الكاست الثلاث الأعلى، في هذا النظام، هم: "البراهمة" (Brahmin) أو رجال الدين، و"الكشتريا" (Kshatriya) أو طبقة العسكريين والمحاربين، و"فايشيا" (Vaisya) أو طبقة التجار ورجال الأعمال، هؤلاء يعتبرون وكأنهم ولدوا مرتين(Twice - born)، وأنهم أنقياء "أطهار" (Pure). بينما الطبقة الرابعة "الشودرا" (Sudra)؛ فيعتبرون من "الأنجاس" أو غير الطاهرين (unpure). وهناك أكثر من مائة وخمسين مليونا من مسلمي الهند، دائما ما يصنفون من "الشودرا"، أو من هذه الطبقة النجسة. ويوجد أيضا خارج نظام الكاست هذا ملايين عديدة، ليس لهم جذور هندية، أو لأي سبب آخر؛ يفقدون انتماءهم الطبقي. لقد كان البريطانيون هم الذين أطلقوا اسم "الذين لا يجب لمسهم" أو "untouchable ". ذلك لأنه لو فُرِض أن أحد أفراد الكاست العالية لمسهم؛ فعليه أو عليها، أن يتطهر، وذلك خلال طقوس تطهيرية شاملة، حتى يستعيد نقاءه، وطهارته.

هؤلاء الذين لا ينتمون إلى "كاست" معينة، هم الذين أعاد المهاتما غاندي تعميدهم، وأسماهم " هاريجنز" (Harijans)، وهي تعني بالهندية أبناء الله. وطالب غاندي بتمثيلهم بنسب معينة في المؤسسات الرسمية. هذه السياسة ووفق عليها، وعمل بها، ولكن مازالت الهند فيها الكثير مما لا "كاست" لهم. وهؤلاء والسكان الأصليون هم الذين أوكِل إليهم تنظيف المراحيض ودورات المياه. أما بالنسبة للأوروبيين؛ فقد اعتبروا دائما فرعا من "الكاست" العالية، على الرغم من أنهم يأكلون كلا من الخنزير والبقر، وعلى الرغم من أن كثيرا منهم أشعث أغبر، ورث الثياب، سائحون يتصرفون كالهيبز (Hippies)، ويتدفقون إلى أماكن مختلفة من البلاد راغبين في التجارب الدينية، وكل ما هو مجاني. هذا السلوك هو الذي قلل من شأن هذه الطبقة، بعض الشيء.

إلى أيّ مدى يعتبر نظام "الكاست" مهما في هند اليوم؟ دعني أجيب بهذه الطريقة: الجميع يعرف إلى أيّ "كاست" هم ينتمون. وإلى أيّ مكانة في المجتمع بالتقريب توجد هذه الطبقة، في هذا النظام "الهيراركي" (hierarchy) الهرمي المتشابك والمعقد. ولكن؛ وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك الملايين من الهنود من يعتبرون نظام الكاست غير ملائم، ولا يمكن أن يكون صالحا لعصرنا. وهناك الكثير من القوانين التي تناهض النظام، وتحترمها جميع الأحزاب السياسية، على الأقل، على الورق.

ويمكننا قولها بطريقة أخرى، وبالتالي يصبح الموضوع أكثر تعقيدا. فعندما نشر "لويس دومونت" (Louis Dumomt) أستاذ الأنثروبولوجي، كتابه "Homo Hierarchious" أو "الهيراركية الإنسانية" عن النظام الطبقي "الكاست"، عام ١٩٦٨؛ مرت فترة من الرفض، في أوساط الجناح الاشتراكي من المثقفين المناطقة المبعثرين في مؤسسات الهند المختلفة. لقد زعم "دومونت" أن نظام الكاست أساسي، ولا يمكن مقارنته بأي نظام طبقي، أو طائفي في أي مجتمع آخر. ذلك لأن الثقافة الهندية مبنية على أسلوب هيراركي للتفكير. بأسلوب آخر، لقد كان يعنى أن الهنود يعتبرون الفروق في الجودة والقيمة الإنسانية بين طبقة "البراهمة"، وطبقة "الشودرا"، هي شيء "طبقي بيولوجي"، يصاحبهم عند الولادة. فنظام الكاست إذًا؛ يجب اعتباره مَعْلَمًا من معالم الثقافة الهندية، وليس نظام تقسيم طبقي اجتماعي، وعلى عكسنا نحن الغربيين، وتبعا لنظرة "دومونت"، الذي يعتقد أن أسلوب الغربيين الفكري مبنى على "الفردية " العميقة المتأصلة؛ فإن الثقافة الهندية تتميز بأسلوب تفكير "جماعي كلى" (holistic). فالهنود لا يقيمون وزنا لحقوق الفرد، ولكن يركزون على حقوق المجتمع ككل، و يعتبرونه وكأنه كائن حي، حيث إن كلا من القدمين والرأس، لهما مكانتهما، ووظيفتهما الخاصة. و"الشودرا"– وهم الطبقة السفلى في طبقات الكاست الأربع– يعتبرون في هذا التشبيه مثل "الأقدام"، وذلك لو اعتبارنا النظرة المحافظة (Orthodex) في الدين الهندوسي. وحتى غاندي

نفسه، كان يمثل الفرد في المجتمع كقطرة من بحر، وهي التى تصبح غير ذات قيمة أو معنى؛ لو اعتبرناها منفصلة، عن البحر الذي يحتويها. وكان غاندي أيضا، وهو الذي أراد إعادة تشكيل نظام الكاست؛ يعتبر الفرد جزءًا من كل تابع بدرجة كبيرة للجماعة.

رد الفعل عن نظرة "دومونت" (Dumont) وتحليله لم ينتظر إلا قليلا. فقد جاء الأنثروبولوجي "جيرالد برّمان" (Gerald Berreman) [جيرالد برّمان، بروفيسور أمريكي معاصر، متخصص في مقارنة الثقافات، ويدرس علوم الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية، في جامعة بركلي – المترجم] وهو متخصص أيضا في الشأن الهندي، أوضح أن المصدر الرئيسي لمعلومات "دومونت"، كان مصدرها من "البراهمة". وبالطبع فإن هؤلاء لهم مصالح شخصية خاصة، في أن يعطوا انطباعًا بأن الجميع قد رضي، وقبل بهذا النظام. ولقد تعرف "برمان" (Berreman) شخصيا بالكثير من الهنود من الكاست الدنيا، الذين لم يكونوا سعداء، أو متقبلين لهذا الأسلوب في تقييم البشر. ومثل "ألفريد كروبر" (Alfred Kroeber) الذي سبقه، ذهب "برمان" بعيدا عن الحقيقة. لقد ادعى أن نظام الكاستا موجود أيضا في الولايات المتحدة الأمريكية. ففيها نظام طبقي اجتماعي يصنف البشر على أساس وراثي. فقد صنف هذا النظام كلا من الهنود الحمر، والسود، في فئة الأنجاس (impure categories). ولكن الحقيقة إن هذا الموضوع له قصة أخرى. وبالتأكيد فإن من المهم أن نذكر في هذا المقام، أنه لا توجد في الحقيقة مقالات علمية، تشرح لماذا لا يسجل الباحثون الغربيون نقدهم لمنظور البراهمة، وتأثيره الكبير في المجتمع، والثقافة الهندية؟ ربما يكون تفسير ذلك هو: أن البراهمة، وهم عادة الكاست المتعلمة الكاتبة، لهم أسلوب في تحليل الظواهر الاجتماعية يتشابه مع أساليب علم الاجتماع. وبالتالي فإن ذلك يعطى نظرتهم قدرا من التفهم والإقناع بطريقة مباشرة، لأنها تتوافق مع أسلوب التفكير في البحث العلمي السائد في الغرب.

القول إن نظام "الكاست" أصيل في الثقافة الهندية، من الممكن أن يكون مضللا. بالتالي علينا أن نتفحص هذا القول في ضوء هند اليوم. فلو كان الأمر هكذا، كما يقول البراهمة؛ فسوف نلاحظ أن الكثير من الهنود لا يشاركون في هذه الثقافة الهندية. وسوف يكون من السهل أن نوجه عناية البروفيسور"دومونت" إلى قسم ما يكتبه القراء، في أي صحيفة من صحف الهند، كل يوم تقريبا تجد من يراسلون الصحيفة، ويشتكون، وينتقدون التفرقة في المعاملة، بسبب الانتماء إلى كاست دنيا (ويمكن التعرف على طبقة الكاست من اسم عائلة القارئ). في الوقت نفسه نقرأ رد رئاسة التحرير، التي دائما ما تنتقد، وتكتب صراحة: إن الدولة الهندية تقل قدرتها على الإنتاج والكثير من حيويتها بسبب "إيديولوجية الكاست" البالية. كذلك فإن كثيرًا من المطبوعات الشعبية الباحثة عن الإثارة فيها ما ينم عن عدم الرضا لنظام الكاست، لدرجة أن رسوما وأقوالا ساخرة، يتناول فيها البقرة (Cow- Jokes). وهذا بالطبع يمثل أقصى درجات الجرأة في بلد فيه غالبية هندوسية، تتجاوز الستمائة مليون (ما يقوله المدافعون عن النظام: إن هذه النكت الساخرة يفهمها القارئ ويعتبر أنها فقط للفكاهة، وتتجاوز الواقع. وهذا يبين مدى سيطرة الفكر الديني وعمقه في المؤسسات). إلى جانب حقيقة أن الكثيرين من القيادات السياسية، ورجال الأعمال، والمثقفين في الهند كانت نشأتهم وانتماؤهم إلى كاست متدنية، وذلك يمثل عددًا لا بأس به، من البراهين التي تؤيد الفرض القائل إن آليات أخرى غير الكاست هي التي تقرر مكانة الفرد في المجتمع. ولكن في الوقت نفسه فإن إعلانًا لطلب زوجة في صحيفة "الصنداي تيمز الهندية" (The snaday Times if India) غالبا ما نجده يصنف الناس تبعا للكاست، مثلا نجد الإعلان التالي: رجل أعمال "براهيمى" مهذب، ومحترم يبحث عن سيدة "براهمية" جميلة. وينتظر دائما، أن والدي الفتاة هما اللذان يجيبان نيابة عنها.

لم يكن من غير المتوقع؛ أن تكون إحدى الروايات التي كتبت بالإنجليزية لأحد الكتاب الهنود، هي أحد أهم المساهمات الحديثة، لتحليل تركيبة "نظام الكاست" (Caste system) وتوصيفه. الكاتب هو"فيكرام سث" (Vikram Seth)، والرواية هي "فتى مناسب"(A Suitable Boy). جاءت الرواية طويلة ضخمة، ويصف نظام

الكاست كنهر "جانجا" (Ganga)، يقول: إنه نهر عريض متسخ طويل، يجذب إليه النفايات والغذاء في أثناء انسيابه. يتلوى بكسل واضح خلال المدن، والحقول، والغابات، والمستنقعات. يستولى على أنهارها الكبيرة والصغيرة، نهر يحتوي على كل شيء متناقض، وهو عالمي وهندي، كلاهما في الوقت نفسه.

مثل كُتاب من أمثال "نايبول" (V.S.Naipaul)؛ و"نارايان" (R.K.Narayan)، وسلمان رشدي (Salman Rushdie)، و"روهنتون مستري" (Rohinton Mistry)؛ فإن "فكرام سث" (Vikram Seth) ينتمي إلى مجموعة كبيرة من هنود المهجر أو NRI (Non Resident Indians). وهم كتّاب عالميون، منتشرون وموزعون في أنحاء كثيرة من العوالم الناطقة بالإنجليزية، من "أوكلاند" (Auekland)، و"هونج كونج" (Hong Kong)، إلى "سان فرانسيسكو" (San Francisco) و"فانكوفر" (Vancouver). هذه المجموعة يقيم البعض منهم حينا من الدهر في "دلهي"(Delhi)، و"بومباي" (Bombay)، و"كالكتا" (Calcutta)، والصفة المشتركة والمميزة لهم؛ أنهم كلهم ثنائيو الخبرة والثقافة، وعلاقتهم بالهند علاقة متجددة، ولهم معرفة مباشرة عنها. ولكن في الوقت نفسه ينظرون إليها عن بعد من محلات إقامتهم، في "تورنتو" (Teronto)، أو" كاليفورنيا" (Califernia)، أو "لندن". و"فيكرام سث" ليس استثناء من هؤلاء، هو يكتب عن بلاده الأصلية، لكن كتاباته الشعرية يصعب تصنيفها بأنها من شعر المهجر، وكذلك كتاباته الأخرى.

العنصر المحوري لأحد المجلدين اللذين تأتى فيهما روايته، هو النظرة المتحيرة للفتاة الصغيرة "لاتا" إلى مستقبلها المحتوم كزوجة. ثم تتبلور الأحداث، ويبقى أمام الفتاة ثلاثة اختيارات جدية: الأول صبي جميل ذكي، وقعت في شباك غرامه وعشقه، لكنه مسلم، وبالتالي فإنه خيار مستبعد من ناحية العائلة. الثاني أحد الشعراء وهو ذكي أيضا، وجذاب، لكنه حالم مشرد الذهن وانطوائي. المرشح الثالث عادي، مثله مثل كثير من الناس، يمضغ الـ"بان"[*]، وهب حياته لصناعة

(*) نبات البان، يسمى "بان" (Paan) في كثير من اللغات الهندية ويسمى "بيدا" في التاميلية. يمضغه الناس في الهند بغرض تطهير الفم والحنجرة والنفس، و يقدم للضيوف كجزء من كرم الضيافة، لكن مضغه أصبح يمثل عادة مزعجة، لأن الكثيرين يبصقونه في الأماكن العامة فيلتصق بأحذية المشاة. (المترجم)

الأحذية. و"لاتا" فتاة صغيرة، غير مجربة، ومترددة، وزوجات إخوتها الناضجات المجربات اللاتي يعشن في "كالكتا" (Calcutta)، دائما ما كن يقلن لها: إنك قد اخترت اللون الخطأ في "الساري" الذي ترغبينه(*). يقصدن بالطبع اختيارها للمسلم كان خطأ. لذا لم يكن من الغريب، ولا من المثير للعجب؛ أن تقرر اختيار العريس الذي عنده عمى ألوان. لقد تنازلت عن حقها، وتخلت عن حبيب قلبها، الولد المسلم. ببساطة؛ لأن مثل هذا الزواج سوف يخلق مشاكل لعائلتها لا يمكن حلها. وتبعا لذلك فإنها حرة الاختيار، داخل إطار هي نفسها لم تختره. ولكن ألا نفعل نحن جميعا الشيء نفسه؟.

حكاية "لاتا"، والرواية، تبين لنا الكثير من القيم الهندية المعتادة. أولا وقبل كل شيء، تلك القيم التي لها شأن، عندما نتحدث عن استقرار العائلة وتماسكها. من منظور شمال أوروبي، فإن هذه القيم والمبادئ لا تتواءم، ولا تتصالح، مع مجتمع حديث، يضع متطلبات من الفردية، و"المريتوقراسى"(**) (meritocracy) وهي متطلبات تقييم البشر على أساس قدراتهم وكفاءتهم الذاتية. ولكن هل من الإمكان لمجتمع مؤسس على تقييم وتصنيف اجتماعي موروث، وترابط عائلي قوى، أن يصبح مجتمعًا حديثًا بحق؟ الإجابة هي: أن المعاصرة (modernity) قد أبانت أنها كائن متعدد الرءوس. وأنه – على سبيل المثال– ليس من الضروري أن يُبنى مجتمع حداثي على أساس فلسفة "كالفينية" (calivinistic)، أو حتمية قدرية، حتى يستوفي متطلبات الرأسمالية. إن هذا لا يعني بالضرورة أن أي نظام قيمّي ثقافي، لا يمكنه أن يتوافق ويتصالح بسهولة مع الرأسمالية والحداثة، وقد شاهدنا أمثلة على ذلك في مجتمعات إفريقية. ولكن المقصود أنه من الممكن أن توجد حلول مختلفة، لتلك التحديات التي يتطلبها المجتمع الحديث. ويجب ملاحظة أنه ليس من الأكيد أن

(*) الساري، هو لباس السيدات المشهور الهندي غير المخيط . (المترجم)

(**) المريتوقراسي، نظام اجتماعي، يعتمد على تقييم الفرد على حسب قدراته وكفاءته، وأسلوبه في الحياة، وليس على أساس حسبه ونسبه في المجتمع. ويطلق أيضا على النظام السياسي الذي يكون أساسه العدالة الاجتماعية. (المترجم)

منظومة القيم الغرب – أوروبية، والأمريكية الشمالية هي صاحبة الأداء الأفضل، وهى الأفضل من الناحية الوظيفية. هنا أيضا يجب التأكيد على حقيقة أن التنافس الحر بين الأفراد، و"المريتوقراطية" (meritocracy)، أو العدالة الاجتماعية، وتعلم الأفراد العطاء، هي الأسس التي تخلق النماء، والرخاء الاقتصادي. وذلك لأن هذه القيم والمبادئ هي التي تجعل الأفراد يبذلون أقصى ما في وسعهم وطاقتهم.

لقد زُعم أن الديمقراطية البرلمانية هي شرط أساسي للتطور، لكن التجربة اليابانية المبنية على خليط من مبادئ المنافسة الفردية، والعلاقات الأسرية، والإيديولوجية المؤسساتية الإقطاعية؛ قد برهنت على أنها "التلميذ الأنجب في الفصل". وكذلك فإن كوريا الجنوبية؛ أصبحت مجتمعا صناعيا حديثًا بحق، تحت نظام يميني شمولي. وأن شيلي حققت بعض التطور، والنمو الاقتصادي؛ تحت رئاسة الديكتاتور اليميني "بينوشه"(Pinochet).

هذه المدنية الهندية – مثلها مثل المدنية اليابانية – مزيج من إيديولوجية تنافسية فردية شديدة، بينما يبدو فيها وتطغى التزامات الفرد للمجتمع. والمجتمع يمكن أن يكون العائلة، أو الكاست (Caste)، أو الطائفة الدينية. بالتالي؛ وفي مثل هذا المجتمع، يصبح جلب رأس مال للاستثمار أمرًا أسهل منه في مجتمع يتكون فقط من أفراد منعزلين لا تربطهم أية روابط. يبرهن على صحة هذا الوضع في "موريشيوس" (Mauritius)، حيث تظهر فيه كل إيجابيات التماسك، والترابط العائلي في المجتمع الرأسمالي. الكريوليون مثلا، وهم الأفراد الموريشيوسيون ذوو الأصول الإفريقية، لم يستطيعوا إنشاء أي مؤسسة تجارية أو صناعية، بينما على العكس استطاع الهنود. كان ذلك بأن يتوحد الإخوة والأبناء ويجمعون أول رأسمال كاف؛ لبداية المؤسسة. يتعاون بعضهم مع بعض، ليس اقتصاديا فحسب؛ ولكن بكل الطرق الأخرى. هكذا يصبح الفرد فيهم نغمة في سيمفونية. كل فرد يفعل ما في وسعه؛ ليوفر لأقربائه عملا ومكانا للإقامة. يمكننا أن نصف هذا بمحاباة للأقارب

(nepotism)، ويكون الوصف هو الأقرب إلى الواقع، ومن السهل أن نرفض مثل هذا التعامل أخلاقيا، فهو نظام يبدو تمايزيا، فأي فرد من العائلة؛ يُفضل ويقدم قبل آخرين، من الممكن أن يكونوا أكثر كفاءة منه، ويحتاج العمل تخصصه. لكن على مثل هذا القول يجيبك أيْ هندي: ولكن، كيف تنظر إليّ لو لم أهتم بعائلتي؟.

نظام الكاست الطبقي والعائلة، يلعبان دورا أساسيا – بالتأكيد- في خلق مجتمع تشيع فيه عدم المساواة، والتمايز بين البشر. فيه يرتبط مستقبل الفرد، ارتباطا وثيقا؛ بانتماء عميق موروث إلى كاستا، والي طائفة، مما يخلق بصورة منتظمة فروقا عميقة بين الأفراد. ولكن من قال إن المساواة، أو الديمقراطية، قواعد أساسية لبناء مجتمعات تكون منتجة وعصرية؟.

توجد دائما طرق مختلفة لتجنب، أو إعادة تعريف، لنظام الكاست الطبقي في الهند، فالنظام مرن، ويطور نفسه بطرق مختلفة، ليتواءم مع العصر. وهو كذلك ينتج فئات، وطوائف لها صفات متجددة، تشبه نظام الكاست. في أحد إعلانات طلب الزواج، في صحيفة "صنداي تيمز الهندية" (The Sunday Times of India)، يظهر أحد أصناف الكاست الحديثة المهمة. إنها طبقة، أو فئة الـ"NRI"، أو "حاملو الكارت الأخضر"، وهؤلاء هم الأفراد الذين يحملون تصريحا للإقامة، والعمل في الولايات المتحدة الأمريكية. أفراد هذه الفئة من الممكن أن يحصلوا على نقاط عالية في السلم الاجتماعي، ربما مثل البراهمة في بعض الأوساط.

إنه من الممكن لنظام الكاست – في صورة أو أخرى- أن يبدى كلا من: القابلية للحياة، والقدرة على الأداء، والإنتاج، في الدولة الهندية الحديثة. لكن؛ وقبل كل شيء، يجب أن يكون لدينا أسلوب تنظيمي، يجعل من الممكن؛ أن نقسم مجتمعًا غير منظم، إلى مجموعات، أو طوائف فرعية، واضحة المعالم. في الوقت نفسه؛ فإن المقاومة لهذا النظام، في زيادة مستمرة. أحد الأساليب للتفكير في هذا السياق – والذي سوف أناقشه لاحقا- هو أن إيديولوجية أوروبية غربية، أو أمريكية شمالية

عن الحداثة، لا ترتكز أساسا على الحقوق المدنية، وتكافئ فرص الفرد في سوق العمل، سوف تكون عاملا من العوامل، التي تخلق مقاومة، ضد نظام الكاست، وتخلق أيضا قومية مدمرة، مثل هذا النوع الموجود في الغرب.

توجد مجموعات ضخمة من الهنود لا يعتنقون منطق نظام الكاست، ولا يعيشون في ظله، على الرغم من صحة القول بأنهم يتأثرون به. الكثير قد تزوجوا من خارج كاستهم، أو طبقتهم الاجتماعية، وبعضهم تزوج من الأديان الأخرى، والكثير لا يمارسون أي طقوس دينية. حقيقة هم يحسبون على النظام، لكن بعدما يزيد العدد، ويصبحون كثرًا؛ فإنه من السهل أن يمارسوا حياتهم خارج نظام الكاست. خاصة لو أقاموا في مدينة عالمية كبيرة مثل بومباي. على أية حال؛ فإن نظام الكاست، والهندوسية الهيراركية الهرمية، هما اللذان يُرتقا وشائج شبه القارة الهندية. وهما اللذان يعطيانها النكهة المميزة، ويجعلونها متميزة عن الآخرين.

٤

مع نظام "الكاست" الفاعل والمؤثر، وبه؛ فإن بومباي مدينة مختلفة عن المدن الكبرى، التي نعرفها في أوروبا، أو أمريكا الشمالية. لكن هناك الكثير من التشابه، في بعض الجوانب،(ومع بعض الاستثناءات، يمكننا اعتبار نيويورك، في الحقيقة، هي بومباي الولايات المتحدة). فهي مدينة سريعة الإيقاع، شديدة الحيوية، مزدحمة لدرجة الهرج والمرج، معقدة، ومن الصعب فهمها، أو تحليلها. بومباي، ربما، تكون واحدة من ثلاث، أو أربع مدن في العالم، فيها يصعب على الفرد؛ أن يشعر بالانتماء القومي الإقليمي. المدينة عدد سكانها أكثر قليلا من واحد في المائة فقط، من مجموع سكان الهند. لكن قيمتها الاقتصادية، والثقافية الحضارية، تزيد كثيرا عما تمثله هذه

النسبة من عدد السكان. كدولة مس. تقلة فسوف تصبح "بومباي – الكبرى" مركزًا من مراكز القوى، في جنوب آسيا. وربما يمكن تشبيهها بسنغافورة (**Singapore**)، أو هونج كونج. إلى الآن، لم يطالب أحد بالاستقلال عن الهند، نيابة عن المدينة، لكنه من الطبيعي؛ أن نتوقع حدوث ذلك، في أي وقت من الأوقات.

"روديارد كيبلينج"[*] (**Rudyard Kipling**)، القائل: "الشرق شرق، والغرب غرب، ولا يمكن أن يتلاقيا"، كان مخطأ. فالشرق والغرب يتقابلان يوميا، ومجرد زيارة سريعة للندن أو بومباي، تؤكد ذلك دون جدال. و"كيبلينج" هذا، هو الكاتب الروائي البريطاني، الذي كتب سلسلة كتب عن الغابة (**Jungle Books**). وكان أحد أقوى المثاليين المدافعين عن الإمبريالية البريطانية، في الحقبة الفيكتورية المتأخرة.

لقد كانت الهند في نظرة "كيبلينج"، يمثلها الشمال "الهندو– أوروبي" (**Indo-European**) فقط. أما الجنوب "الدرافيدي" (**Dravidian or Dravi**)، المتحدث باللغة الدرافيدية، فلم يأخذه في الحسبان. لقد كانت بومباي عالمية، أكثر من "كيبلينج". فالشرق والغرب لم يتقابلا في أهم ميناء هندي فحسب، بل تقابلت اثنتان من أكبر حضارات العالم وأعرقها: الحضارة الدرافيدية، والحضارة الهندو– أوروبية.

المتحدثون بالماريثية (**Marathi**)، وهم غالبية السكان؛ يتحدثون لغة "هندو– أوروبية"(**Indo- European**) ، وهي من عائلة اللغة "الهندية" (**Hindi**) نفسها، و"الأردية" (**Urdu**) الباكستانية. بينما المدينة بومباي قد جذبت إليها الآلاف من التاميل (**Tamil**)، والتولوجو (**Telugu**). رالمتحدثين باللغة "الكاناكية" (**Kannaka**)، القادمين من الجنوب ذي الطقس الحار. هذا في الحقيقة يعطى انطباعًا مثيرًا،

(*) روديارد كيبلينج، كاتب إنجليزي ولد في بومباي عام ١٨٦٥. كان والده مدير مدرسة الفنون في لاهور. تعلم في إنجلترا، ثم عاد إلى الهند عام ١٨٨٠، حيث شغل عدة مناصب مهمة، وكتب العديد من الروايات منها سلسلة كتب الغابة (**Jungle Books**). أدين بأنه كان مدافعا قويا عن الإمبريالية والسياسة القومية الهجومية المتعجرفة (**Jingoism**). منح جائزة نوبل للأداب والثقافة عام ١٩٠٧، وتوفى في علم ١٩٣٦. (المترجم)

ومشوقًا للمتحدثين باللغات الأوروبية التي لها جذور هندو- أوروبية، عندما يستمعون إلى أهل المدينة، ... ن ما يقال ويحدث. ومن المهم ذكر أن الفروق بين أجزاء الهند "الدرافيدية"، والأخرى "الهندو- أوروبية"، هي التي يشير إليها "إيمانيول والرستين" (Immanuel Wallerstein)، عندما يتساءل إن كانت دولة الهند موجودة، ويجيب بالإنكار. إن الكثير من هنود الشمال، هم الذين يرغبون في التفرقة، ويعتبرون أن هناك فروقا ثقافية مهمة بين "المهرشترا" (Maharashtra)، و"الكارنتكا" (Karnataka)، ويحاولون التأكيد على أن اللاتينية (Latin)، واليونانية، والهندية، لهم أصول مشتركة في "السنسكريتية" (Sanskrit)، بينما التاميلية" (Tamili)، والتلوجوية " (Telugu)، ينتميان إلى عائلة لغوية مختلفة تماما. ولو أردنا استخدام تعبيرات أخرى، فنقول إن الأوروبيين الشماليين، ينتمون إلى الإطار الثقافي نفسه الموجود في دلهي وبومباي، وليس الإطار الثقافي لهؤلاء القاطنين في "مدراس" (Madras).

في خطوط موازية لذلك القول؛ فقد أراد المؤرخ، والباحث في مقارنة الثقافات، "جورجس دومازيل" (Georges Dumezil)، أن يبرهن على أن الأوروبيين الشماليين لهم أصول ثقافية مشتركة مع الهنود الشماليين. ففي دراسته المثيرة للجدل، والتي أثارت ضجة في الأوساط العلمية، حاول "دومازيل" أن يبين بأي أساليب تتفق الثقافة الأوروبية، والثقافة الهندية. لقد حاول أن يثبت، أن هناك علاقة وتشابهًا واضحًا، بين الآلهة الكلاسيكيين: الهندي "براهمن" (Brahman)، والروماني "جوبيتر" (Jupiter). وذلك أن الكلمة "راج" (Raj)، وهي التي تعنى "الملك" بالهندية القديمة، والكلمة "ركس" (Rex)، وتعنى الملك أيضا باللاتيني، يعودان في الأصل، إلى الظاهرة الثقافية نفسها في أسلوب تسمية الآلهة، وأن المنطق لنظام الكاست الهندي؛ تلاحظه، وتكتشفه بسهولة، في النظام الطبقي الروماني، الذي يصنف الناس تبعا لأنسابهم (Stund Society). ثم بعد ذلك في النظام الطبقي الإقطاعي (Feudal) الأوروبي القديم. وبالنسبة للأوروبي الذي

يدرس اللغة الهندية، فسوف تكون مفاجأة له، أن يرى كمّ المشترك بين اللغتين، صحيح إن الكلمات، على وجه العموم، مختلفة تماما، لكن البناء اللغوي والتركيب (Syntax)، كذلك القواعد، سوف يجد فيها تشابهًا غريبًا.

هذا النوع من التوازي، بين الثقافة الهندية والثقافة الأوروبية؛ نعرفه الآن بأنه نتيجة لشيء واحد؛ شيء مختلف تماما، إنه التشابه الناتج من اختلاط الثقافات وتقابلها. إنها العولمة الثقافية والكريولية. أكثر من أيّ وصف آخر؛ فإن بومباي تتميز بأنها مدينة الأجانب، وكانت دائما كذلك، ولذلك فإن فيها درجة غير عادية من التسامح، وقبول الآخر. وأي زائر ليس بيده؛ إلا أن يلاحظ الود والانفتاح في وجوه كل من يتعامل معهم ويقابلهم، فمن المتسولين الذين يقبعون على أرصفة الطرق، حول ناطحات السحاب، الموجودة عند نقطة الالتقاء "ناريمان" (Nariman Point)، وحتى أعضاء أعلى الطبقات المتوسطة، الجميع أعدوا أنفسهم، وزودوها بقدر محدود من اللياقة اللازمة للتواصل، عندما يتقابلون مع ثقافات شديدة الاختلاف، حتى ينجح أداء المجتمع ويتواصل. وعندما يسألون عن البلد الذي أتى منه الأجنبي، فإنهم يفعلون ذلك؛ لخلق موضوع مشترك للحديث ليس إلا، ولا يستخدمونه لتكوين حكم مسبق. وهم لا يناقشون الدين ونظام "الكاست"، في العلن. فقط يكتفون بإطار يحتوي على آراء، ومعارف أساسية للثقافة المشتركة، التي يستخدمها ويفهمها البسطاء. لكن في بيوتهم، ومع أصدقائهم، والمقربين؛ يكون الحوار والآراء أكثر عمقا وغنى. أما في الشارع فيستعملون مصطلحات، كثيرا ما تذّكر بمصطلحات تستعملها الأوساط النخبوية في الثقافات الأخرى. في بومباي يستطيع الفرد المساومة في الأسعار، أو يكوّن صداقة بسرعة البرق، تُنسى وتنتهي بالسرعة نفسها، ويبدأ في تحسس البضائع، ويتكلم عن الطقس، ويسأل عن الشوارع والطرق. ولكن، على العكس؛ فعلى المرء ألا يتوقع أن محادثه سوف يبادله الحماس، عندما يناقشه في الدين أو في نظام الكاست، ولا يجب أن يكون واثقا أن محادثه سوف يغير من أسلوبه المتحفظ.

"كولابا" (Colaba)، وهو الجزء من بومباي الذي يقصده معظم السياح، تجد فيه من وقت لآخر زوارًا من عرب رياضة الجولف القادمين من شبه الجزيرة العربية المحافظة، لقضاء إجازتهم في بومباي. وترى الرحالة ذوي الثياب الرثة، القادمين من أوروبا وأستراليا وشمال أمريكا الذين يحاولون بكل الوسائل، التهرب من الدفع، حتى تكون إقامتهم أرخص ما يمكن. إلى جانب هذا فإن بومباي، خلال تاريخها البالغ ثلاثمائة عام؛ قد استقبلت مجموعات من اللاجئين الدينيين، واستقبلت الباحثين عن الحظ، والتجار، وكذلك - خاصة فى السنوات الأخيرة- النازحين بسبب سوء اقتصادهم، من أماكن لم يعد لهم فيها مكان مناسب للحياة والرزق. وفيها تجد أتباع الديانتين "الفارسية (Parsee) و"اليانية"(*) (Jainism)، الذين طاردهم القادة الإسلاميون- كل في منطقته- قد وجدوا مكانا مناسبا، وآمنا، حيث يعيشون بحرية في بومباي. هؤلاء تمركز وجودهم حيث يؤدون طقوس ديانتهم، وذلك حول ما يسمى "برج الصمت"(Towers of Silence)، الذي يقع قرب قلب المدينة. وهم يمثلون آخر أتباع "زارادشت" (Zarathustra)، الذين اعتنقوا ديانة ازدهرت قبل كل من المسيحية والإسلام. وكما استطاع يهود أوروبا في العصور الوسطى أن يجدوا ملجأ في أراضى هولندا المسموح فيها بحرية العقيدة، وكذلك فى الشمال الإفريقي، ومؤخرا في الولايات المتحدة الأمريكية؛ فإن "الزارادشتيين" فروا من بلاد "فارس" (إيران الحالية) في الألفية الأولى، وما بعدها، وأصبح الكثير منهم رجال أعمال أغنياء، في قطاع الشمال الغربي من شبه القارة الهندية "جوجيرات" (Gujerat)، و"ماهرشترا"(Maharashtra). ويصف "روهنتون ميستري" (Rohinton Mistry)، الكاتب الكندي ذو الأصول الهندية الفارسية، في روايته "يالها من رحلة طويلة" (Such a Long Journey) هذا الوسط الفارسي، ويقدمهم على أنهم ناس منفتحون للمدنية، لكن توجههم فردى، وبالتالي فهم غير قادرين على التأثير

(*) اليانية دين هندي، نشأ في القرن السادس قبل الميلاد، وقوامه تحرير الروح بالمعرفة والإيمان وحسن السلوك . (المترجم)

السياسي، وبالتالي ضعفاء، سهل النيل منهم. لكنهم مع ذلك استطاعوا البقاء والاستمرار في بومباي، التي تمثل مدينة كبيرة عالمية، وهم فيها لا يبدون شواذا غرباء، بل جزءا لا يتجزأ من نسيج مجتمع مدينة مزدحمة بأمشاج من الأديان، ومجموعات عرقية، وطبقات من الكاست، وحتى أفراد تجاوزوا العرقية وذابوا في بوائق ثقافية رمادية اللون.

بومباي بها أيضا آلاف عديدة من السيخ الذين هاجروا من إقليم البنجاب ليعملوا فيها سائقي تاكسي، ومحامين، ورجال شرطة، وأطباء. وعلى الرغم من أن نصف سكان بومباي من الهنود؛ فإنه يوجد بها على الأقل سبع ديانات، ممثلة بوضوح في المدينة، ومنها المسيحية والإسلام والبوذية واليهودية. والمدينة تموج بالمتحررين والخالين من كل أحكام مسبقة. ومليئة بالتنافس، والفروق الطبقية، والآمال الكبيرة الباحثة عن النجاح. والنظرة الفاحصة يمكنها أن تلحظ رجال إعلانات ناجحين، يلبسون ساعات الرولكس(**Rolex**)، والبذلات الحريرية المفضلة لديهم، جنبا إلى جنب، مع أناس آخرين، لا يملكون إلا الملابس الرثة، التي يرتدونها، والوعاء البلاستيكي الذي يجمعون فيه الصدقات. "إنه الغنى الفاحش والفقر المدقع". جملة تسمعها من أي من أفراد الطبقة المتوسطة، وهو يهز كتفيه دون اكتراث، ومتسائلا "ماذا يستطيعون فعله، غير هذا. القليل جدا ممن قابلتهم؛ كانت "المارثية" هي لسان أمهم، رغما عن أنها هي والهندية، هما اللغتان الرسميتان في إقليم "المهاراشترا" (**Mahrashtra**). قال أحد سائقي التاكسي: إن عليه أن يتعلم ست أو سبع لغات، حتى يكون جاهزا للتفاهم، مع زبائنه المختلفين. من بينهم لاعبو الجولف العرب، الذين لا يعرفون لغة أخرى غير العربية. كل ذلك يذكرنا بمدينة نيويورك، حيث من العادي، أن الفتاة التي تخدم الزبائن، في محل من محلات "ماكدونالد"، لا يأتيها من يتحدث الإنجليزية إلا نادرا.

هناك البعض من قيادات طائفة السيخ، من يحاول أن يصور السيخ في المؤتمرات العالمية، وكأنهم طبقة واقعة تحت اضطهاد منظم، وأن وضعهم لا يطاق. وبالتالي فمن الواجب أن يكون لهم دولة مستقلة، بأسرع ما يمكن. ولكن في بومباي، لا تجد سيخيا واحدًا، يعطي مثل هذه الصورة. ولو قارنا الأتراك المقيمين في "هانوفر"(Hannover) في ألمانيا، بهم كمثال؛ فسوف يتبين لنا، أن الكفة ستميل للسيخ، فالكثير من السيخ، من يعملون في مؤسسات تسمح لهم بلبس زيّ موحد رسمي (يونيفورم). ونادرا ما يرى المرء أناسًا واثقين من أنفسهم، ومندمجين في المجتمع مثل السيخ في بومباي. محاولة الحديث عن الاضطهاد الديني في مدينة مثل بومباي لا معنى له. تماما كما لو استمعنا إلى حديث بعض السياسيين النرويجيين، ومحاولاتهم سن قوانين لإلغاء أماكن انتظار السيارات، بدعوة الحفاظ على البيئة.

الساحة، التي تمتد من "تاج محل"، المعلم الأثري المعروف عالميا، والتي تقع في نهاية "كولابا"(Colaba)، تعتبر أكثر الأماكن زيارة من السياح في بومباي. هناك تجد من يبيع كروت البريد للبناء الجميل، ومنهم من يمثل العشرون كارتًا كل رأس ماله. آخرون يبيعون "لاسي"(Lassi)، ويعني اللبن الرايب "كفير"(Kefir بالنرويجية والإنجليزية). والسائح الأوروبي الذي يريد أن يجربه يجب أن يكون واثقا ثقة عمياء في قدرته على الهضم. وهناك تجد رجال دين يضعون حلية من الفضة أو الذهب على شكل دائرة صغيرة تسمى بالهندية "تيكاس" (tikas) على جبهتهم، يتسولون بأدب. وهناك من السائحين الأجانب ويشربون المياه الغازية، ويأكلون "الأيس كريم"، ويرتدون قمصانا زاهية الألوان. وسائحون من الهنود بلحاهم الكثة، ونظارات الشمس. وثلاث سيدات يبيعون ريش الطاووس لكل من يرغب في اقتناء مثل هذه الأشياء. وتجد رجلا عجوزا قابضا على عنق كيس رمادي اللون منتفخ، ويسأل كل المارين إن كان لديهم رغبة في رؤية ثعبانه "الكوبرا" وهو يرقص على أنغام قيثارته. وفي نهاية الساحة قوس النصر، الواضح

للعيان، يعلوه كتابة بالإنجليزية "The Gate Way to India" أو "بوابة الهند"، وهو القوس الذي أقيم في مناسبة زيارة الملك "جورج الخامس" (GeorgeV) والملكة "ماري" (Mary) للهند عام ١٩١١. بوابة تبدو عن بعد وكأنها "قوس نصر" عادي، لكن عندما تُدَرس التفاصيل من قرب؛ فسيجد المرء تأثيرًا واضحًا وكبيرًا للفنون الشرقية، السائدة في القرن السابع عشر(وبكثير من الثقة يمكن القول إنها "جوجرتية"(*)". وقوس النصر هذا، يمكن أن يعطي صورة عن الكريولية الثقافية. هذه الكريولية، هي التي تعطي بومباي الرائحة والنكهة الخاصة المميزة لها.

معالم الإمبراطورية البريطانية تبدو أوضح في بومباي عنها في نيويورك. ويبدو ذلك طبيعيا؛ عندما نأخذ في الحسبان، أن فترة سيطرة الإمبراطورية البريطانية استمرت لفترة أطول بكثير في الهند عنها في المستعمرات الأمريكية الشمالية. لقد كان لقب الملكة "فيكتوريا" الشرفي إمبراطورة الهند. ومعالم الحقبة الفيكتورية، مازالت تُلقي بظلالها الواضحة علي بومباي، مثلما هي في أطراف لندن الفيكتورية. مكتب البريد الرئيسي، ومحطات القطار الرئيسية، و"متحف أمير ويلز" (The Prince of Wales Museum)، كل ذلك أمثلة شديدة الدلالة على المعمار، والفن الفيكتوري، الذي شاع فيما قبل القرن الماضي. صحيح إن سيارات النقل العمومية الحمراء ذات الطابقين قد جاءت بعد الحقبة الفيكتورية، ولكنها تذكرنا بأن المستقبل الهندي والبريطاني، كان مترابطا بشدة، وعلى مدى فترة طويلة. ورغما عن مقولة "كيبلينج" (Kipling) الشهيرة: "الشرق شرق، والغرب غرب، لا يلتقيان"، فقد نشأ انسجام وتوافق متبادل، من البداية بين البريطانيين والهنود. فالنظام الطبقي البريطاني قد تناغم وتوافق بسهولة، مع نظام الكاست الهندي. كلاهما كان نظاما هرميا متسلسلا، سواء كان في تأثيره السياسي، أو

(*) جوجرات Gujarat ، مدينة غرب الهند، لها شاطئ طويل على بحر العرب، عاصمتها جاندهناجار، وتكونت عام ١٩٦٠ من الأجزاء الشمالية الغربية من بومباي، وهي من أكثر المناطق الصناعية إنتاجا وتصنيعا. (المترجم)

بالنظر إلى شفرة السلوك الطبقي الراقي الصحيح. إن "الجنتلمان" (gentleman) البريطاني، يطلق عليه الهنود "بوكا صاحب" (pukka Sahib)، ويعنى السيد النبيل المحترم. وهو في نظر الكثير من الهنود الرجل الذي يسلك سلوكا راقيا اجتماعيا، ويعتبرونه مثالا لشخصية رجل من الكاست العالية. أما كونُ البريطانيون أجانب، لم يكن يمثل ذلك شيئا غير عادى في الهند، حيث كانت أجزاء كبيرة من البلاد، في كل من الشمال والجنوب، قد غزاها وحكمها قادة مسلمون من المغول (Maghals)، في فترات تاريخية سابقة. بالطبع لا يعنى ذلك أن كل الهنود أحبوا الإمبريالية، فذلك بعيد جدا عن الحقيقة، لكن السيمات البريطانية المميزة في هند اليوم؛ يصعب اعتبارها "عناصر غريبة" مثلما تعتبر في بلد إفريقي، مثلا. الإنجليزية هي لغة هندية الأصل، وتاريخها ليس جديدًا على أية حال. لقد استخدمت في أجزاء من الهند، سواء من البريطانيين، أو الهنود، على مدى أكثر من ثلاثمائة سنة. لكن الإنجليزية الهندية لها طابعها المحلى الملحوظ، ليس في طريقة النطق فحسب؛ بل أيضا في المفردات. يحاول "إيفور لويس" (Ivor Lewis)، وهو المتخصص في الشئون الهندية، في كتابه الممتع، الغنى بالمعلومات، الذي أسماه: "صاحبس، نابوبس وبوكس واللز" (Sahibs , Nabobs and Boxwallahs)، وعنوان الكتاب كلمات هندية يمكن ترجمتها إلى: "السادة، الأغنياء الموسرون، ورجال الأعمال"، يحاول أن يبرهن؛ أن الإنجليزية الهندية، لها طابعها الخاص. فاللغة قد تطورت، لكل من المُستعمِرين والمُستعمَرين، مرة بأن تُنحت كلمات جديدة، مبنية على الكلمة الإنجليزية الأصلية، ومرة أخرى بأن تحول الكلمة الهندية الأصل إلى الإنجليزية. إن هناك الكثير من الكلمات الإنجليزية التي لها أصل هندي مثل: "Cash" (كاش- وهي نقود تدفع نقدا وفورا)، و"Din" (دِن- وهو الضجيج الشديد الذي يصيب بالصمم)، و"Pariah" (باريه- وهو فرد من طبقة المنبوذين، في نظام الكاست الهندي)، و"Widow" (ويدو- وهى الزوجة الأرملة). وهى كلمات لا يعرف الكثيرون من مستعملي الإنجليزية اليوم أن أصلها هندي.

لقد كان كتاب "..Sahibs" المذكور، عملا رائعا، وذلك لأن المقصود منه هو تجديد كتاب اعتبر بحق ذروة في بحوث اللغة – على الرغم من عدم توثيقه– وهو كتاب "هوبسن– جوبسن" (Hobson-Jobson)، الذي كتبه كل من الضابط العسكري (Oberst) "هنرى يولز" (Henry Yules)، والبروفيسور "أ.س.بورنلز" (A.C.Burnells) عام ١٨٨٦، وأعيد طبعه في ١٩٣٩، ثم مؤخرا في ١٩٩٦. وعنوان الكتاب "هوبسون– جوبسون"؛ يدل على طبيعة، واتجاه ما فيه. هذا التعبير أصله مأخوذ من موكب سنوى يتم في شهر محرم من كل سنة، تنظمه الطوائف الشيعية. وفيه يضربون صدورهم، ويلطمون خدودهم، ويصيحون "يا حسن! يا حسين!"، وذلك ذكرى لشهيدي المسلمين العظيمين"الحسن" و"الحسين"، حفيدي محمد النبي (صلى الله عليه وسلم). وقد كان أحد الجنود الإنجليز، في وقت الاستعمار، يشاهد هذا الموكب، الذي يمثل أحد الطقوس الشيعية؛ فكتب إلى قادته مبديا تعجبه، قائلا: "إن هناك جمعًا من أبناء البلد، سائرين في موكب كبير، تحت الشمس المحرقة، يصيحون بألفاظ تُسمع وكأنها، "هوبسون– جوبسن". وأضاف "يولا" (Yule) و"برنل" (Burnell): إن هذا الكلام، يمكن أن ينطق بطرق أخرى، مثل "هوسين– جوسين" (Hossen-Gosseen)، و"هوسي–جوسي" (Hossy-Gossy). بينما يمكن أن ينطقه البرتغاليون "سوسم– سوسم" (Saucem-Saucem)، والهولنديون ينطقونها "ياخشوم– باخشوم" (Jaksom-Baksom).

إن استيعاب اللغة الهندية للغة الإنجليزية بسهولة؛ يمكن أن يرجع إلى الفلسفة الدينية الهندية. حيث لا نجد فيها إطلاقا الحديث عن الإله "الواحد" (The only one)، الذي يوجد في المسيحية والإسلام، ولكن عن "الكثير"(The many). فبالإ‍ ‍ إلى الإله "شيفا" (Shiva) و"فيشنو" (Vishnu) و"براهمن" (Brahman)– وهم الآلهة الموجودون في أشكال متعددة مختلفة– يوجد الكثير من الآلهة الهندية الأخرى. والمسيح (عليه السلام) الموجود في الديانة المسيحية واحد من هؤلاء، وهو شائع ومعروف، خاصة في مناطق الشاطئ الغربي الجنوبي للهند. و ربما بالطريقة نفسها–

التي في كل درجاتها تبنى على "الاختلاف" وليس "التماثل" – استطاع المجتمع الهندي استيعاب اللغة الإنجليزية، دون أن يفقد الهندية. وبالطريقة نفسها استوعب "الجوجيراتى"(*) (Gujarati)، واللغات الهندية الأخرى الباقية. إن المجتمع الذي يعتبر أن له ثقافة واحدة نقية متفردة، وليست ثقافات متشابهة متمازجة، هو فقط المجتمع الذي سوف يواجه صعوبة في امتصاص واستيعاب عناصر ثقافية أخرى، دون الإحساس بفقدان هويته. لهذا السبب؛ فإن مجتمعا مثل المجتمع النرويجي، يدور فيه حوار لاعقلاني سخيف، عن "ثقافة نرويجية نقية"، مقابل "ثقافة أجنبية" وافدة مستعارة. ولهذا السبب أيضا، فقد يعتبر في بلد مثل النرويج، أنه شيء مثير للدهشة – حيث اعتاد الناس علي لغة واحدة – أن يوجد كاتب هندي، يكتب رواياته باللغة الإنجليزية. الوثائق التي ذكرت في الكتابين "هوبسون– جوبسون" (Hobson-Jobson) و"صاحبس، نابوبس، وبوكسواللز" (Sahibs , Nabobs and Boxwallahs)؛ تقدم لنا أيضا بعض خصائص اللغة الإنجليزية. فالكتابان يذكران الكلمات التي أصلها هندي، ثم اقتبستها الإنجليزية، واستُخدمت في بريطانيا العظمى، على نطاق واسع. وقد كتب الأديب اللغوي "أنتونى بورجس" (Anthony Burgess) عن الإنجليزية، لغة أمه، فيقول: إن عظمة هذه اللغة؛ تكمن في قدرتها على اقتباس كلمات جديدة، من كل أنحاء العالم، وتحولها إلى كلمات إنجليزية. في الوقت نفسه، تستبعد " لبنات البناء الميتة" (Dead Structural Wood)، وتستبعد أيضا، تفاصيل القواعد الدقيقة، التي أصبحت زائدة عن اللازم. وبالمقارنة على مستوى اللغات الأوروبية؛ فالإنجليزية، التي بدأت بوصفها لغة كريولية في فترة الشاعر الإنجليزي "جيوفرى شوسر" (Geoffrey Chaucer) (١٣٤٥–١٤٠٠)، أي منذ القرن الرابع عشر الميلادي، ظلت مثالا جيدًا يدل على استمرارها كلغة كريولية، تُطَعِم نفسها دوما، بكلمات من لغات أخرى. خلافا للفرنسية –

(*) الجوجيراتية (Gujarati): لغة تنتسب إلى إحدى مجموعات اللغات الهندية. وهي مشتقة من السانسكريت (Sanskrit)، ويتحدث بها ٤٥ مليون إنسان، على الأخص في مقاطعة جوجيرات. وتكتب في صورة الحروف "الدفانجارية" (Devanagri). (المترجم)

التي سُنت القوانين للحفاظ على مفرداتها نقية، خوفا من تأثير الإنجليزية عليها- استعارت الإنجليزية مفردات جديدة، من كل ناحية. في الطبعة الكاملة لمعجم أوكسفورد (OED، Oxford English Dictionay) نجد ٧٠٠ ألف كلمة. بينما المعجم الفرنسي "لاروس" (Larousse)؛ يكتفي باحتواء عُشر هذا العدد. في الوقت نفسه فإن الفرد لا يحتاج العديد من المفردات الإنجليزية؛ ليعبر عما يريد، بطريقة مفهومة. فهل كان ذلك مجرد صدفة أن الإنجليزية أصبحت لغة عالمية ذات قواعد شديدة السهولة، ومفردات مرنة؟ بالتأكيد فإن ذلك لم يكن صدفة. إن تذكرة الدخول للغة الإنجليزية جد رخيصة، خاصة في صورتها الشمال أمريكية، التي وصفت بقدرتها على إنتاج مناطق تواصل، بينها وبين لغات محلية متأصلة الجذور. ولكن كل شيء له ثمن يجب دفعه – يشمل ذلك كريولية اللغة- فكثير من صور اللغة الإنجليزية المعروفة عالميا، تفتقد المترادفات والعمق، وهي لا تفرق بين "التجربة المشتركة"، و"المعرفة الضمنية". وبالطبع؛ فإن بومباي، بها ما يُمكنُها أن تزهو به، أكثر بكثير من النظام الطبقي "الكاست". فمثلما في نيويورك، فإن بومباي بها صناعة سينما ضخمة. وهناك بعض البرامج الخفيفة، التي تستدرج المشاهد؛ بأسئلة للهو وإضاعة الوقت، فيطرحون السؤال: ما المدينة التي تنتج أكبر عدد من الأفلام في العالم؟ والمقصود بالطبع أن تكون الإجابة هي: "هوليود" (Hollywood)، ولكن الإجابة الصحيحة في الواقع، هي بومباي. وبالنسبة لكثير من الهنود؛ فإن صناعة السينما المشرقة المليئة بالزينة، هي بالضبط التي تعطى بومباي جاذبيتها القوية وسحرها الخاص. تسمى الأفلام الهندية "أفلام الماسلا" (Masala Films)، والماسلا كلمة تطلق على خليط من البهارات المختلفة. والاسم يبين أن الفيلم الهندي الجيد، يجب أن يحتوى على "القليل من كل شيء":عنف، صراع قوى الحق والباطل، تصوير لأسلوب حياة الطبقات العليا، غرام وعشق تذوب منه القلوب، وقبل كل شيء، الأغاني التي تأسر الوجدان. وبالتأكيد يمكننا القول بأسلوب مؤدب، وبنظرة متمعنة، إن الأفلام الهندية تعتبر؛ بالنسبة للملايين من المزارعين، والعمال الذين يقضون ساعتين من كل أسبوع في السينما، في الحقيقة

"هروبًا من الواقع". وتعتبر أيضا تجسيدا، وتحقيقا لأحلامهم، الساكنة في أعماق أعماقهم. فهناك الحلم عن حياة سعيدة مريحة، فيها انتصر على منافسيه، وفاز؛ ليس فقط بأميرة أحلامه، أو أمير أحلامها، بل بنى أيضا بيتًا جميلا كبيرًا، وحصل على ملابس جيدة، مصنوعة من أفضل الخامات. هذه الأحلام، الموجودة جنبا إلى جنب، مع واقع اقتصادي ميئوس منه، موجود في الكثير من القرى والمدن الهندية؛ يمثلان العاملين الأساسيين اللذين يجذبان أعدادًا ضخمة، غير معلومة العدد من الشباب – خاصة من الذكور – إلى بومباي كل عام. الممثلون في الأفلام كثيرا ما يبذلون كل ما في وسعهم؛ ليعيشوا هذه الأساطير عن الرفاهية واليسر، في أوقات فراغهم، ويحاولون تحقيقها في واقعهم المادي. تجد الكثير منهم؛ ضيوفًا منتظمين على فندق "تاج محل" العالمي، والذي يعتبر أحد أفضل الفنادق وأجملها في العالم. من ناحية أخرى، الممثلون من الذكور، يتقاضون أربعين "لخًا" (**Lakh**) عن أداء الفيلم الواحد. واللخ كلمة هندية، وهو يساوي مائة ألف روبية (الروبية الهندية تساوي تقريبا ٤ كرونات نرويجية، والكرونة النرويجية تعادل تقريبا سدس دولار). أما الممثلات الإناث، فتتقاضى الواحدة منهم ١٥ "لخًا" مع الشكر والحمد. هذا الاختلاف في الأجر يقبلونه ويعتبرونه طبيعيا، على الأقل من وجهة نظر الرجال. وللمقارنة؛ فإن البائع في المحلات، يتقاضى ما بين ألف، وألف وسبعمائة روبية في الشهر، بينما يتقاضى المزارع ما بين ثلاثمائة، وخمسمائة روبية في الشهر. هذه الأرقام كثيرا ما يذكرها الصحفيون، والكتاب من الأوروبيين، والأمريكيين الشماليين؛ للتدليل على صحة زعمهم، التي تقول: إن الطبقة المتوسطة لا وجود لها في الهند. لو دخل فرد إلى قاعة فندق "تاج محل" الرائعة؛ فسوف تقابله الجميلات من النساء، يتزينون ب" ساري" (**Saree , Sari**) حريري، وحليّ من الذهب بمئات الآلاف، يرافقهم رجال في بذلات حريرية، في جيوبهم محافظ مليئة بكروت الدفع البنكية. بينما يجد الزائر خارج الفندق شحاذين جالسين، وقد أضناهم الجوع وأفقدهم أسنانهم. وربما لا يصدق أحد؛ أنهم قد تعلموا بضع جمل،

بالعديد من مختلف اللغات الأوروبية، آملين أن تثير إعجاب الزوار حتى يتصدقون عليهم بروبيتين. لقد تحدث الكثير منهم معي بالإيطالية، ولا أدرى ما السبب.

المشهد الموصوف، يمثل طرفي نقيض. لكن هناك الملايين من الهنود يعيشون بأسلوب مختلف. هؤلاء ليسوا أغنياء، لكنهم ليسوا فقراء. ليس لديهم القدرة على أن يتناولوا وجباتهم فى "تاج محل"، لكنهم يستطيعون الجلوس والأكل في أحد مقاهي المدينة الكثيرة، الجيدة. لا يملكون مرسيدس مستوردة، ولكن ربما؛ يملكون سيارة مستعملة من إنتاج الهند المحلى "بريمر بادمينى" (**Premier Padmini**)، أو دراجة بخارية خفيفة "سكوتر" (**Scooter**). يملكون هاتفًا بالمنزل، أو ربما عند الجيران. يملكون "تلفزيونًا" ودولابًا ذا واجهة زجاجية (**Vitrine**) تعلق عليها صور لأفراد الأسرة. الكثير منهم يرتبط بالدين ارتباطا عمليا؛ يأكلون قليلا من اللحوم، ويشربون "البيرة" في أوقات متفاوتة، ولكن بطبيعة الحال يتبعون "أسلوب طهارة معين"، تصفه لهم كاستاتهم التي ينتمون إليها. أغلب العائلات، يعلمون أبناءهم تعليما عاليا، وكذلك يتعلمون لغتين أجنبيتين، أو أكثر. البعض يتحدث عن أن هذه الفئة المتوسطة تمثل حوالي ١٧٠ مليونًا من البشر، ولكن للأسف، يكتب عنهم أقل القليل خارج الكتب الأدبية. وهم بالنسبة للصورة الأوروبية التقليدية المتوارثة عن شبه القارة، يمثلون الخروج عن القاعدة والمنطقة الرمادية. لكنهم يحطمون هذه الصورة النمطية الجامدة، ويشكلون صعوبة للباحث الذي يريد أن يطلق وصفا أمينا أخلاقيا مبسطا يصف به شبه القارة الهندية.

فكرة الفيلم الهندي وموضوعه تحتاج إلى تعليق. ربما نستطيع القول إنها تمثل "ماسلا أخلاقية"، أي إنها؛ تمثل مجموعة مختلطة من النصائح، والإرشادات الأخلاقية السلوكية. كل الأفلام الهندية الشائعة والمشهورة تقريبا؛ تتناول العلاقة، بين الزواج عن طريق الترتيب والفرض على الأبناء، وبين "زواج الحب" (**Love marriage**)، والبعض يعتقد أن هذا هو موضوع أكثر من نصف الأفلام. أغلب

هذه الأفلام تنتهي بحصول كل من الحبيبين على الآخر، أو بأسلوب آخر، التقاء الحبيبين، وكما يقولون بالعربية ينتهي "نهاية سعيدة". ونادرا ما يأتي الفيلم بحبيبين، قد تلاقيا رغما عن إرادة الوالدين ورغبتهما. المخالفون للنظام الاجتماعي، عادة ما يقدمهم الفيلم؛ بوصفهم متغربين تابعين للعادات الأوروبية، أو مدمنين خمر، لهم لحى كثيفة قبيحة، ويطلقون الضحكات بأسلوب مزعج، وكثيرا ما يحيطون أنفسهم بشقراوات كاسيات عاريات. من هذا المنطلق يمكننا القول إن صناعة السينما الهندية، تشارك في تخدير الناس، وتخوفهم من تفسخ الغرب، وما يمثله الغرب من خطورة، على القيم الهندية السامية.

الصورة المرسومة حتى الآن ليست كاملة، فالوسط الاجتماعي المحيط، الذي تعرض فيه أفلام "الماسلا" دائما ما يكون من الطبقة العليا. البطل والبطلة يروحون ويعودون، دخولا وخروجا؛ بين أثاث جميل، و"تراس" متسع ممتد، يشربون الأنخاب من المشروبات غير الكحولية، ويتبادلون جملة أو جملتين بالإنجليزية، عندما يحلو لهم ذلك. يتحركون في سياراتهم، ويشاهدون التليفزيون. ومن الطبيعي؛ أن يكون البطل من الباحثين عن المناصب العليا في الهيئات الحكومية، وغالبا ما يرتدي "البذلة" السوداء، عوضا عن الدوطي (**Dhoti**)، وهو الزى الشعبي الهندي.

رسالة الأفلام إذًا، معقدة وليست بسيطة. وهذه الأفلام، التي يشاهدها الملايين من الفقراء، والأقل فقرا، من الهنود في عموم شبه القارة الهندية. ويشاهدها أيضا هنود مهاجرون، في باقي أنحاء المعمورة، حيثما وجدوا. خلاصة الرسالة هي، إنه من الجيد أن يكون الإنسان متمدينا يعيش عصره. لكن؛ ليس معاصرا بأسلوب ينسلخ منه الاحترام للعادات والتقاليد الهندية. تعليقات من مثل: هل رأيت أو سمعت بمثل هذا الأسلوب من قبل؟ انظر إلى هؤلاء الذين يشربون "الويسكي"، ذوى اللحى الكثيفة، والياقات العريضة، عرضها مثل طائرات الورق الكبيرة، هؤلاء يخطئون

خطأ كبيرا واضحا، إلى جانب أنهم سيئون. لقد انقلعوا من جذورهم، ويتشبهون بالأوروبيين. إنهم يظلمون أنفسهم. إنهم متعالون، يطلقون الشعارات الكبيرة، تماما مثل أعضاء هيئة إدارة الحفاظ على اللغة النرويجية القديمة.

في عصرنا الحالي، وعندما تختلط الثقافات المختلفة، فدائما ما يحمل اللقاء بين طياته، عنصرا من عناصر المواجهة والخلاف، بين الحداثة والعادات والتقاليد. وغالبا ما يبدو ذلك، وكأنه تباين بين التحرر، والتفسخ (decadence) الاجتماعي من ناحية، وبين الأمان والمحافظة والاحترام من ناحية أخرى. والهند ليست استثناءً من هذه الناحية. ومثلما حدث في النرويج؛ عندما تحدث أفراد من فريق "لا.. للاتحاد الأوروبي"، عن النرويج وكأنها دولة مختلفة. كان محتوى خطابهم، مثلما يقال في أفلام "الماسلا" الهندية. قالوا: نريد أن نكون حداثيين، ولكن لا نريد أن نكون تابعين نفقد مبادئنا. و نريد أن نفعل الأشياء بطريقتنا وأسلوبنا. ذلك يعنى في النرويج أنه؛ يجب الحفاظ على الزراعة، والصيد من البحر، على الرغم من عدم جدواها اقتصاديا. أما في الهند، فإن احترام الأسرة، والديانة، يجب أن يبقيا على قيد الحياة، رغما عن أن الناس بدءوا في لبس البدلات المكونة من ثلاثة أجزاء، ويُستخدم التليفون المتنقل اللاسلكي. كثير من المجتمعات يدور فيها مثل هذا الحوار في داخلها، وبين أفرادها.

الكريولية تجلب الواقعية. في إحدى الليالي، تناولت الغداء، بصحبة أحد العاملين في جامعة بومباي، في فندق "تاج محل"، وهو الذي به أحد أفضل المطاعم في العالم. اسم الرجل، ما كان لأحد أن يخطأ في التعرف على انتمائه الطبقي. لقد كان براهيميًا، أي من طبقة المتدينين الهندوس، وبالتالي فقد أدهشني أنه أمَر بوجبة من "البيف" (Biff)، المعمولة من لحم البقر، و بجانبها كأس من النبيذ الأحمر. لم يكن الرجل من المرتدين الكافرين، فلم يألُ جهدا في تبيان أهمية محافظة الهنود على عاداتهم، وتقاليدهم، في العصر الحالي، وذلك لأن المدنية، والحداثة أوشكت

أن تمسك بزمام الأمور كلها في البلاد. وخلفنا جلس عازف للبيانو، يرتدي "السموكينج" (Smoking)، يعزف مقطوعات موسيقية، لـ"لينون" (John Winston Lenon)، و"ماكرتيني" (Paul Mccartney) من فرقة "البيتلز" (The Beatles) البريطانية. بعدما أكلنا، وشبعنا لم أستطع أن أكبح جماح فضولي، سألته عما إذا كان طبيعيا أن يأكل "لحم البقر"؟ أجاب وهو يضحك من أعماقه، موضحا أن كل "البيف" الذي يقدم في المطاعم الهندية هو من "لحم الجاموس"، وليس البقر، وبالتالي فلا مشاكل مع الدين. أما النبيذ الأحمر فيمكن اعتباره – على العكس- ضريبة المعاصرة العملية. ويمكن تشبيهه مثل الويسكي الأسكتلندي الذي يضاف إلى القهوة الأسكتلندية.

٥

هل الهند قومية واحدة؟ لا، ولن تصبح أبدا كذلك، لو كانت المقارنة بالمعايير الأوروبية. إنها "بساط مزركش"، يزدحم بالكثير من طبقات الكاست، والأعراف، واللغات، والعادات، والتقاليد المختلفة. الهند بلد له تاريخ ممعن في القدم، وشديد التنوع، كما قال "نايبول"(N.S.Naipul). نظام الكاست، والتدين، والفوارق الاجتماعية بين الطبقات، والخلافات بين الشمال والجنوب، وبين الهندوس والمسلمين، والإحساس بالضخامة وجنون العظمة السياسي، بكل هذا التاريخ الثري؛ تصبح مشاكل الهند أكثر تعقيدا. هذا التاريخ الذي لم يُنتج فقط، مجتمعا مليئا بمختلف الأعراق والكاست، لا يمكن التحكم فيه وإدارته فحسب؛ بل خلق في الوقت نفسه تفسيرات مختلفة، من جميع فئات المجتمع. ومن الطبيعي أن يكون لكل فئة منهم، فهم وتفسير للتاريخ بأسلوب خاص بهم. عندما كتب "نايبول" عن فترة صباه، في كتابه " منطقة من الظلام" (An Area of Darkness)، ووصف

رحلته إلى الهند؛ بأسلوب مليء بالمرارة، لم يكن وقتها، يتفهم جذور الهنود العميقة، في التاريخ والأساطير. لكنه عندما كتب كتابه "الهند: مليون متمرد، الآن"؛ حينها كان "نايبول" أكبر سنا، وأقل حدة. لقد أصبح أكثر تفهما لأهمية الأساطير، ودرجة تأثيرها في المجتمع الهندي. لكنه؛ لم يكن هناك شك في أي جانب ينحاز ويتضامن. إن الذين يستحقون الاحترام في الهند، من وجهة نظر "نايبول"، هم: العقلانيون والمتدينون والمفكرون. وتبعا لفهم "نايبول"، فإن المبادئ الإنسانية، والإدارة العقلانية الموضوعية، هما فقط القادران على وضع نهاية؛ لتفجر العنف الذي ساد البلاد في فترات عديدة وعلى مدى سنين طويلة.

وبعدما سافر نايبول إلى كل مكان في الهند، وعلى مدى عام كامل، ازداد قناعة، أن هذا البلد متعدد الرئات التي يتنفس بها، ومعقد التركيب، ذو مساحة شاسعة. يمكنها فقط، أن تصبح دولة، عندما تكون هناك درجة كبيرة من التكامل المرن، واللامركزية. في الوقت نفسه يجب أن تقودها حكومة مركزية، تأخذ في الحسبان القيم والحقوق الإنسانية. هكذا تبين له الأمر، بينما كان يجلس في فندقه المكيف الهواء، المبني في فترة الاستعمار، عند شلالات المياه في كشمير، وحيث كان يستطيع أن يتمدد بعيدا عن الغبار والوسخ. هكذا بدت له البلاد وكأنها اكتشاف غير معقول، فيها يختلط المتماثل، وغير المتماثل، بأساليب غريبة، شديدة الغرابة. فيها يجد المرء، العادات والتقاليد شديدة الاختلاف؛ توجد جنبا إلى جنب. والفروق الجغرافية والمناخية، بين جبال الهمالايا، وبين "مادرس" (**Madras**)، المدينة الكبيرة الرطبة؛ تماثل الفروق الاقتصادية بين الطبقات. وهي بالاتساع نفسه، بين دخل مخرج أفلام في بومباي والقابع في قصر مشيد متسع، وبين دخل الشحاذين، الذين يحيطون بحائط حديقته ذات السور الأبيض الطباشيري. هناك أيضا الاختلاف الثقافي العميق، بين طقوس أبناء الكاست الدنيا، في قرى البنغال، وبين المسجد الإسلامي في القرى المجاورة. وفيها تجد دور العرض الصغيرة في المدن الصغيرة ومبنى المهندسين الشامخ في نيودلهي. والهند مشهورة بوجود العدد الكبير

من الفقراء، لكن في الوقت نفسه؛ بها أكبر طبقة متوسطة في العالم. والبلد معروفة بأنها موطن الهندوس، لكن يقطن فيها الملايين من المسلمين، والسيخ، والمسيحيين، والبوذيين، واليانيين (Jains)، والفارسيين، واليهود. ونظام الكاست الهندى معروف أنه المنتشر في شبه القارة، لكن هناك أيضا، جماعات عديدة تحسب خارجه، بطريقة أو بأخرى. وفي الهند ست عشرة لغة رسمية.

"نايبول" يعتبر، أن التمرد والعنف الداخلي كله، يوحي بإشارة إيجابية، تدل على أن البلاد في طريقها، إلى الخروج من فترة الاحتلال الطويلة. إذا فهي تمر بفترة يقظة من ثبات عميق. يقول: "إن هذه الوحدة الهندية، كانت أكبر من مجموع أجزائها. العديد من هذه الممارسات العنيفة؛ قد زادت الدولة قوة، وعَرّفَتها بأنها مصدر للقانون، وحقوق المواطنة، والعقلانية".

مثل هذا القول، لا يجب أن يساء فهمه على أنه توجه في اتجاه الدفاع عن العنف والقتل. و"نايبول" يوضح مراده فيضيف: "إن العنف والمآسي التي حدثت من قبل، بصورة منتظمة في الهند؛ لم يحرك لها السياسيون إصبعا لمنعها. ومن حسن الحظ أن اليوم؛ يعتبر العنف، على العكس من ذلك، أنه اعتداء". ويأمل "نايبول"، أن القيم، والمبادئ الإنسانية العامة، سوف تتغير. وتصبح كما هو في البلاد المتحضرة. وذلك بعد انتهاء المواجهات التي يتم فيها، للأسف؛ استعمال العنف، للقضاء عليها بأساليب وحشية. فإلى الآن، فإن قيمة حياة الفرد رخيصة في الهند. حتى التسعينيات، من القرن العشرين؛ مازال أهالي، الضحايا وأطفالهم ، ينتظرون التعويضات من الشركة الأمريكية الشمالية "يونين كربيد" (Union Carbide)، بعد كارثة تسرب الكيماويات السامة، التي وقعت عام ١٩٨٤، في "بوبال" (Bhopal)، ومات فيها عدة آلاف. وكثيرا ما يلاحظ القارئ المدقق، خبرا صغيرا محشورا في الصفحات الداخلية للجريدة، وليس عنوانا رئيسيا في الصفحات الأولى، أن بضع مئات من البشر قد ماتوا، نتيجة تسمم نتج عن شربهم "كحول الميثانول" (يسمى

أيضا كحول الخشب)، الذي اشتروه من مصنع محلي للخمور. وذلك عندما شاركوا في إحدى الحفلات، التي أقيمت في القرية.

ولحسن الحظ، فإن الحزب القومي الهندي (BJP-Party)، الذي يتحمل جزءا كبيرا من مسئولية اندلاع الحروب الدينية، وفقا لكثير من الآراء؛ لم يحصل على تأييد شعبي، أو مكانة سياسية مسيطرة بين القوى السياسية، في السنوات الأخيرة، وحتى انتهى "تايبول" من كتابة آخر كلمة في كتابه خريف عام ١٩٨٩. إن النصف الأول من التسعينيات، في القرن الماضي؛ قد شهد ازدهار مجموعات هندوسية قوية، تهدف وتعمل من أجل تغيير الدولة المبنية، على مبادئ المواطنة، الموجودة حاليا، إلى دولة هندوسية. ويبدو للمراقبين؛ أن أي من الانفصاليين في الشمال والجنوب، أو الثوريين المتمردين، أو الأصوليين من السياسيين في دلهي، لن ينجحوا في الوصول إلى أهدافهم، الداعية إلى سياسة غير منطقية.

وبغض النظر عما سيكون الحل لمشاكل الهند، التي تتشابك مع بعضها بعضنا؛ فإن أي دعوة، أو إصلاح، يُبنى على أساس ثقافي قومي، يساوي ويعني انتحارًا للأمة الهندية تماما. وهذا متفق عليه، بين كل المعلقين، والملاحظين الأجانب، ومعظم الهنود. لكن، وعلى الرغم من ذلك الاتفاق، فقد ظهرت في العقود الأخيرة قومية هندوسية قوية، مبنية على مبادئ ثقافية هندوسية، تتلخص في فكرتهم عن "هندو- تفا" (Hindutva)، التي تعنى أن دولة المواطنة، يجب أن تستبدل بدولة مبنية على مبادئ هندوسية. هؤلاء القوميون الهندوس، منظمون في كثير من المؤسسات الكبيرة، ويطلق عليها أسماء ذات دلالة ثقافية، لكنها في الواقع العملي، تقوم بدور المؤسسات السياسية، أو على الأقل تتضامن معها. كما هو حادث في "الحزب القومي الهندي" (BJP) المؤسس حديثا. ولو أردنا المقارنة فإن تأثيره في الحياة السياسية الهندية، يشبه تأثير "جين مارى لوبان" (Jean-Marie Le

Pen) في الساحة السياسية الفرنسية. ويمكن اعتبار هذا الحزب الهندوسي BJP، مثل الخلايا السرطانية التي تنذر الجسد الهندي بتدمير ثقافته السياسية.

وعلى المنوال نفسه، يزعم بعض الصحفيين ذوو النظرة القصيرة والأفق الضيق، وبمعلوماتهم القليلة، ينطقون باسم أمراء الحرب الصرب، فيدعون أن الكراهية والعداء بين الأعراق في البلقان يعود إلى عدة قرون ماضية ،(بينما في الحقيقة؛ فإن الوقائع تؤكد أنه لم توجد أي كراهية بين الصرب والكروات قبل القرن العشرين). ومثل ذلك أيضا، تجد بعض الكتاب، مزودين بمصادر معلومات رديئة، وفقدوا شعورهم بالمسئولية، يزعمون أن المسلمين والهندوس، كرهوا بعضهم بعضًا، وبصفة مستمرة ودائمة، منذ أول غزو جاءهم من الغرب من قبل المسلمين في القرن الثالث عشر.

من حسن الحظ، أن قليلاً من المتخصصين في الشأن الهندي من الهنود، من يتفق مع وجهة النظر هذه. صحيح إنه قد وجدت بعض الخلافات، والمواجهات، بين المسلمين والهندوس؛ إلا أن السلام والتسامح كانا هما الحال بينهما، عبر فترات زمنية طويلة، وفى كثير من المناطق. يتضح ذلك في كل من المظهر الخارجي، فالمسلمون والهندوس يشبهون بعضهم بعضًا، مما يؤكد أنه، قد حدث بينهم اختلاط جيني. وكذلك التشابه في العادات والتقاليد واللغة. "الأردو" هي لغة المسلمين الأساسية، وتكتب بالحروف العربية، بينما "الهندي"، وهي تمثل اللغة القومية للهنود في الشمال؛ فتكتب بحروف "الدفاناجارى" (Devanagari). من ناحية الرسم والكتابة، يبدو وكأن اللغتين لا قرابة بينهما، وأن كلاً منهما قائم بذاته، ولكن في القرى والمدن الصغيرة، حيث يعيش كل من الهندوس والمسلمين جنبا إلى جنب؛ سرعان ما يكتشف المرء، أن لغة الحديث بينهما عمليا متطابقة.

إن نفس فكرة؛ أن الهند مجتمع واحد، أي كيان سياسي قائم بذاته، عمرها حوالي قرن ونصف فقط من الزمان، وحتى فترة معقولة، في بدايات القرن التاسع

عشر؛ كان من المعتاد أن تُطلق كلمة "هندي" (**Hindu**) على أي فرد من سكان شبه القارة. ومفهوم، أن كل من يعتقد بالدين الهندوسي، ينتمون إلى طائفة واحدة منفصلة دينيا وسياسيا؛ هو مفهوم ذو تاريخ نشوء حديث. تقليديا؛ فقد استخدم التعبير "هندي"، لتمايز بين طبقات "الكاست" المختلفة. وكان من الطبيعي، أن يكون للمسلمين، والمسيحيين، "كاستتهم"، وطبقاتهم الاجتماعية في مجتمعاتهم المحلية. هذا النظام تأثر بعقيدة "الوحدة العنصرية"، وما نتج عنه؛ من تخصيص نوعية العمل، بين الطبقات المختلفة. وبالتالي، فإن الطرح الذي يتحدث عن التساوي والتماثل، يعتبر من مستورد المصطلحات الدخيلة على المجتمع الهندي. فكرة "الهندوتفا"، يزعمون أنها نظام اجتماعي، عريق قديم، لكنها في الحقيقة، فكرة مستحدثة، استوحيت من القوميين العرقيين، يحاولون محاكاة المثال الأوروبي. إنهم يحاولون تغيير العالم ذي الأقطاب المتعددة، ذي الاختلافات البسيطة فيما بينهم، إلى عالم أقطابه قليلة العدد، لكنها ضخمة الحجم، مثلهم مثل القومية الإثنية الأوروبية تماما. يستطيع المرء؛ أن يتصور رحلة طويلة، يصل مداها حوالي ألف كيلو متر، تمتد من مدينة "برجن"(**Bergen**)، في أقصى الغرب النرويجي، وحتى مدينة "ستوكهولم" (**Stockholm**)، العاصمة السويدية، وذلك قبل انفصال الدولتين، وإنشاء الممالك المستقلة، دعنا نقول عام ١٨٤٠؛ فسوف يكتشف المرء أن كل واد صغير له لهجته الخاصة به، ولكن سيكون من المستحيل عليه، أن يقول بدقة، أين تنتهي اللهجات النرويجية، وأين تبدأ اللهجات السويدية. اليوم، وبعد حوالي قرن ونصف، من رسم الحدود، وخلق القوميات؛ فإن اختلاف اللهجات، أقل كثيرا، شرق الحدود وغربها. ولكن يمكن للمرء؛ أن يحدد بسهولة، أين توجد الحدود، بين اللغة النرويجية، والسويدية. لقد كان عالما مكونا من مجموعات كثيرة، بينها اختلافات بسيطة، حولته الحدود إلى عالم، أجزاؤه قليلة، لكنها ضخمة. مثل ذلك يريد القوميون الهندوس أن يفعلوا، وذلك بإزالة الفروق بين الهنود. وبهذا الأسلوب، يدفع كل من ليس هندوسيا، الثمن باهظا. ويصبح الشرخ بين أفراد المجتمع أكثر عمقا مما كان عليه.

في مثل هذا المقام، يمكن أن يكون طبيعيا، أن نلقى باللوم على الاستعمار، في فهم ظهور، وتطور، وكبر، هذه الحركات الهندوسية المسلحة المتطرفة. وكذلك فهم تسييس مبادئ الدين. لكن، مثل هذا التحليل، يكون سطحيا غير متعمق. صحيح أن البريطانيين، كانوا نشطين في رص صفوف جماعات، في مواجهة جماعات أخرى. وذلك باستعمال أسلوب "فرق- تسد"، ولكنهم، أي البريطانيون، كانوا مستفيدين أكبر فائدة، من ألا تقع مواجهة بين الهندوس والمسلمين. ويظل تحليل "نايبول"، يشاركه الباحث المتخصص في الشئون الهندية "بيتر فان در فير" (**Peter Van der Veer**)، هو الأفضل، وهو الأكثر قبولا. يقول "نايبول": عندما يشارك الفرد في مجتمع ضخم متعدد، يبدأ في التنبه والاهتمام بالهوية. وبسبب الحداثة وديناميكية المجتمع؛ تبدأ السياسة إلى تبني العرقية. فعندما يذهب الطفل إلى المدرسة؛ ويتعلم عن تاريخه، تتطور لغة، يعبر بها عن ثقافته، فيزداد عمق اختلافها، وتمايزها عن الثقافات الأخرى. وهنالك، يترسخ في ذهن الفرد منطق؛ يذكر بنشوء القومية الأوروبية، ويألف معادلة "أمة واحدة، تساوي مكانًا واحدًا، تساوي ثقافة واحدة، تساوى دولة واحدة". بعد ما انفصلت باكستان، كدولة مستقلة عام ١٩٤٧؛ تزايد عدد الهنود الذين ينظرون إلى العلاقة بين المسلمين، والهندوس نظرة غير ودية، وغير قابلة للتصالح. لقد تناسوا تماما، كل التاريخ المشترك، والثقافة المشتركة، وبناء الاقتصاد وتقاسمه. وبدأ كل من الطرفين، في قراءة الماضي والحاضر داخل إطار تفسيري؛ يولد إحساسًا بأنهم غير مقبولين من الطرف الآخر، وأن حقوقهم قد غبنت. ومن المثير للدهشة والسخرية معا، أن تزايد القومية الهندوسية؛ صاحبه تزايد في حالات "زواج الحب"، وبدأ وكأن لهما الجذور نفسها، في فكر الفردية، و المساواة.

الحركات التمردية، والنزاعات العرقية، ظاهرة حديثة. ولقد اختار "نايبول" أن يفسرها بأسلوب متفائل بقدر الإمكان. يقول: عندما تتعرف، وتحدد، الجماعات المضطهدة حقوقها؛ فمن الطبيعي أن يحصلوا عليها سريعا. وربما يكون ذلك

صحيحا، لو تحدثنا فقط عن حركات التمرد، من الجماعات فاقدي الكاست، أو من لا كاست لهم، وكذلك السكان الأصليين، والميلشيات المسلحة من اليساريين المسماة "النكساليتر" (Naxalitter guerrilla). ولكن، لو نظرنا إلى القوميين الهنود عموما؛ فسوف يبدو الوضع مختلفا، في هذه الحالة. فنحن لا نتعامل مع جماعة تطالب بحقوق متساوية فحسب، لكنها في الحقيقة جماعة تطالب بالسيطرة الكاملة. إن البعض منهم بدأ في إطلاق اسم "المغول" (Mughals) على المسلمين، الذي يوحي بأن الهنود المسلمين، غزاة أجانب. الطرح الذي يذهب إلى أن الهندوس، هم الفئة السيدة في الهند، وأن المجموعات الأخرى، نازحون غير مرحب بهم، أو أنهم على أقل تقدير فئة ثانوية، قد قويت شوكة من يتبنونه في الفترة الأخيرة، وبطرق مختلفة. يحكي سلمان رشدي، عن مؤتمر للأدباء والكُتّاب الهنود، أقيم في لندن عام ١٩٨٢، حيث شارك العديد من رواد الكُتّاب الهنود، أن أديبا هندوسيا، بدأ محاضرته بقراءة قصيدة بالسنكريتية. ثم أضاف: إن كل الأدباء، والأكاديميين، من الهنود سوف يفهمونها. يضيف رشدي: "وفي قاعة المؤتمر، وجد كُتّاب هنود من كل الأوساط. مسيحيون، فارسيون، مسلمون، سيخ، ولم يكن أحد منا، قد نشأ في وسط سنسكريتي، لكننا في الوقت نفسه، كنا جميعا عاليّ الثقافة والتعليم نسبيا. إذا، ما هي بالضبط رسالته، التي أراد أن يوصلها لنا؟ ربما أراد أن يقول: إنكم في الحقيقة، لستم هنودا !".

مساهمة مهمة، في تقوية، وتأجج الشعور القومي الهندوسي، كانت، ولا شك، إذاعة المسلسل التليفزيوني "رامايانا" (Ramayana)، في الفترة ما بين ١٩٨٧-١٩٨٨. هذا المسلسل السنسكريتي الكلاسيكي، والذي حُوِّل إلى "مسلسل درامي اجتماعي" (Soap-Opera)، وتدور أحداثه في ٧٨ حلقة؛ قد أمد النار بالزيت (gave water to the mill)، وأعطى قوة دفع للمتزمتين "البيوريتان" (Puritans)، وأيقظ شعورا جماعيا للثقافة القومية الهندوسية، بين الهنود في جميع أنحاء البلاد. لقد ساعد المسلسل المؤسسات الثقافية، في خلق قومية هندوسية،

انتشرت بشكل واسع على مستوى الهند. وبالطبع أمكن استغلاله، والاستفادة منه سياسيا. وتبعا لباحثين في شئون وسائل الإعلام؛ فإن حوالي مائة مليون هندي، قد تابع هذا المسلسل، بطريقة أو بأخرى، وباستمرار. في هذا المسلسل التليفزيوني "رامايانا"، ذُكرت الجماهير المشاهدة له، عن أماكن في الهند، تعتبر مقدسة، تبعا للطقوس الدينية "السنسكريتية". أحد تلك الأماكن "أيودهيا" (Ayodhya)، حيث يُعتقد أن الإله الهندوسي "رام" (Ram)، كان قد وُلد فيه. وكان "أيودهيا" بالفعل؛ هو المكان الذي بسببه؛ وقعت مواجهات بين المسلمين والهندوس، بالتحديد في عام ١٨٥٥، وذلك عندما بدأ كل من الهندوس والمسلمين، في استخدام المكان لبناء معبد، أو جامع.

بهذه الخلفية؛ ليس من الغريب إذا؛ أن تستمر، وتتصاعد وتيرة المواجهة، على مدى سنين عديدة، بين الهندوس والمسلمين. وقاد المواجهات سياسيون، أقل ما يمكن وصفهم به، أنهم غير مسئولين. وبلغت المواجهة ذروتها في ١٩٩٢، حيث تم تدمير المسجد في "أيودهيا". لقد كانت جمهرة من الهندوس، المشتعلين غضبا، هم الذين هدموه، حجرا من بعد حجر. لقد اعتبر الملايين من الهندوس أن وجود المسجد، في هذا المكان، يعتبر إهانة للهندوسية، ومن المفروض أن يكون في المكان معبد، تشريفا للإله "رام".

هدّم المسجد في "أيودهيا"، أطلق الشرارة الأولى، لبدأ مواجهات عنيفة ومتعددة، بين الهندوس، والمسلمين في ربيع ١٩٩٣. واعتقد المراقبون الأوروبيون، ولفترة طويلة، أن الدولة الهندية لن تستطيع أن تتماسك. لقد شبهوها – ربما – بيوغسلافيا السابقة. لقد نسوا بسرعة؛ أنه أبدا، لم يظهر مثال واحد من القيادات الهندية رفع شعار: أن الهند، يجب أن تكون دولة وحيدة الديانة، أو العرق. إن القوميين الهندوس، بقيادة BJP، وهم يمثلون رأس حربة، موجودون في مكانة لا يحسدون عليها. وتقدمهم الآني، يمكن أن يقف، ويقاوم. ولقد مُنِيُوا بهزيمة ساحقة،

في الانتخابات المحلية عام ١٩٩٣. ولنا أن نأمل ألا يعودوا أبدا، فلو أرادت الهند أن تستمر كأمة واحدة؛ فعليها أن تكون أمة، في دولة تحترم الفروق، دون تفضيل طائفة على أخرى. إن هذا يخلق تنوعا للعادات والتقاليد، ويثرى المجتمع، حيث تختلط طوائفه المختلفة بعضهم ببعض بملايين الطرق، والأساليب. لقد كان هذا هو الحلم الكبير لـ"تاجورس رابيندرانس" **(Tagores Rabindranath)** الحائز على جائزة نوبل. ويمكننا قول إن "هند المستقبل"، تعتمد على أن يكون الهندوس وغير الهندوس؛ قادرين على خلق تحالف مستقر، على الرغم من الحدود الدينية، واللغوية. تعتمد الهند أيضا، على أن يقوى المجتمع المدني في البلد. وهو مجتمع شديد الحيوية، في المدن الكبرى مثل: بومباي، ومدراس، وكالكتا. لكنه ضعيف جدا، في باقي أرجاء البلاد. ولا يجب أن تنخدع الدولة الهندية؛ وتحتذي بالمثال القومي الغربي، وعليهم أن يتذكروا، قاعدتهم القوية، تتمثل في الفيدرالية، واللامركزية. وأخيرا؛ فإن الدولة الهندية، تحتاج إلى قيادات سياسية، تتقبل التعددية الثقافية وتشجعها ، داخل أطر نظام سياسي مشترك، يستطيع أن يحتضن التنوعات الثقافية، دون أن يزنها على ميزان القيم والتحضر، ثم يضعها في مستويات مختلفة. إن الهند تملك كل المقومات التاريخية؛ لنجاح هذه "المعزوفة الرائعة" **(Master Piece)**. ولكنها – للأسف – فيها أيضا المقومات التاريخية، لحدوث مآسي الحروب الأهلية، لذلك فإن من الضروري، التذكير مرارا وتكرارا، أنه من الخطأ، وتزييف للتاريخ، أن تعتبر الهند دولة هندوسية. هذه الدولة الشبه قارة، لم تكن قط كذلك.

***

الفقر والرائحة الكريهة العفنة، تلفح وجه السائر في شوارع بومباي. لكن معظم الذين يقابلهم المرء، من المملوءين بالأمل، البادئين في مشاريع. أو دعنا نقول إن عندهم حلمًا يحفظ لهم طاقة الاستمرار. هناك الكثير ممن يسيرون في ملابس رثة، تلتصق أجزاؤها بعضها ببعض. لكن هناك عدد كبير ممن يمشى في

ثياب متكاملة نظيفة. والكثير منهم يرتدى ملابس أنيقة، خاصة من النساء. إن بومباي هي أرض الأحلام، والقلعة الحصينة للفردية في الهند. وهي المكان الذي يحج إليه الراغبون في تحقيق الحلم الهندي. فيها، تجد "عربات اليد" (**rickshaw-wallahs**) أقل منها في كالكتا. وهنا تجد عددا أكبر من سائقي التاكسي. إنه هنا في بومباي، وليس في أي مكان آخر، يجد المرء خليطا من شركات إعلان، وشركات طيران، وبنوك، واستوديوهات الأفلام، والمراكز التجارية، التي تجذب أصحاب المواهب إليها. وكذلك تغرى المواهب الجديدة، بتجريب حظها. هناك الكثير من الأملين، و حتى اليائسين، من القوى العاملة من غير المتخصصين، الذين هم على استعداد كامل، لتقديم جهودهم بأسعار زهيدة، لا تذكر. فلو أراد الإنسان أن يغسل ملابسه، أو ينظف حذاءه، أو ينقل غذاءه اليومي، من منزله ليوصله إلى محل عمله، وذلك من خلال نظام نقل يدوى معقد يسمى "دابا" (**daba system**)، أو أراد أن ينقل حقيبة ثقيلة، من المكان "أ" إلى المكان "ب"؛ فما عليه إلا أن يقف في الشارع، ويهمس بطلبه في الهواء. أو حتى تبدو الحاجة إلى المساعدة على وجهه. بعد لحظة واحدة سيجد رجلا راغبا في خدمته، يقف أمامه، وهو آمل في أجر زهيد، يدفع له لقاء ذلك. والأجر بالفعل زهيد، على الرغم من المغالاة في طلبه، عندما يكون طالب الخدمة أجنبيا. حتى أعضاء الطبقة المتوسطة، يستعينون بالخدم، على الرغم من أن هؤلاء – ربما – يبلغ دخل الأسرة فيهم، لا يزيد على ألف كرونة نرويجية في الشهر. ولو قيل إن هناك فروقًا عميقة بين الطبقات، فذلك حقيقة، لكن ذلك يجعل المجتمع سهل الانسياب، ديناميكيًا، مليئًا بالمتغيرات. بومباي، يمكن وصفها بأي وصف آخر، غير أن توصف بأنها مجتمع من اليائسين، والقدريين، الذين ينظرون للواقع نظرة متشائمة، الزاهدين فيه. والآملين أن تكون حياتهم الأخرى، بعد البعث هي الأفضل. وهم أفضل بكثير؛ مما يحاول "مروجو الإشاعات" أن يقدموهم على أنهم مثال للهندي (**Typical Indian**)، المتواكل اليائس.

في نقاط الاختلاط، والتلاقي الثقافي، مثل بومباي؛ فإن من المستحيل أن يكون الإنسان، أو المجتمع، أصوليا متزمتا، معتدا بثقافته؛ دون أن يتفتت ويتشرذم. في أي مكان يتجه إليه الفرد في بومباي؛ فسوف يرى، على الأقل، معلما ثقافيا واحدا، أساسا لا يعبر عن دين فرد، أو طائفة معينة، أو عن خلفيتهم الثقافية. هل يمكننا أن نقول ببساطة: إن ذلك هو بالضبط ما جعل الأصوليين المتزمتين، من أن يستشيطوا غضبا. ويتصرفون بجنون؟ بعد سنة من آخر زيارة لي، لبومباي، نشرت وكالات الأنباء العالمية خبرًا عن معارك، ذات خلفية دينية، في شوارع المدينة. وكانت أحداث "أيودهيا" المأساوية، هي الملهمة لها. نظريا فإن مثل هذه المعارك يستحيل حدوثها، ذلك لأن التعددية الدينية، والإثنية، هما الرئتان اللتان تتنفس بهم المدينة. وبومباي لا يمكن أن تصبح إلا مكانا للقاء وتعايش الثقافات، والكريولية الثقافية. هذه المعارك التي اندلعت، لا يمكن أن تكون قد اندلعت؛ تبعا للمنطق السائد في المدينة. ولكنها اندلعت؛ نتيجة إيديولوجية، تتخطى "الحدود" بين الطبقات، و"طهارة" تتميز بها إثنية عرقية عن أخرى. هذه الإيديولوجية، غريبة على بومباي، ولو أعيد إحياؤها؛ لسبب ذلك إغماءة دائمة، وموتًا أكيدًا للمدينة.

المقال الثاني

موريشيوس: الانسلاخ والمعجزة

١

"دولة صغيرة عظيمة". جملة قالتها "إنديرا غاندى" (Indira Gandhi) الزعيمة الهندية، عن "موريشيوس" (Mauritius). وقبلها، كتب عنها الكاتب الأمريكي "مارك توين"(Twain Mark)، "يبدو أن الله قد اتخذ موريشيوس نموذجا عندما خلق الجنة". بعد ذلك اتخذ القائمون على مجال السياحة المزدهرة هذه الجملة، ورفعوها شعارا على مطبوعاتهم التسويقية. بالطبع هذه شعارات حملات إعلانية سياحية، والحقيقة إنه يصعب على الإنسان، ألا يأخذ بجمال "موريشيوس" الرائع، عندما يقضى فترة فيها. ولو استطعنا أن نغض الطرف عن شعارات السياحة، فيمكننا تشبيه "موريشيوس" بالجزيرة المتوسطية الإسبانية "كوستا ديل سول" (Costa del Sol)، والأخرى الفرنسية "كوت دى أزور" (Cote d`Azur). والحقيقة إن موريشيوس جنة في الجنوب تهفو إليها النفس. مجتمعها مسالم، متعدد الأعراق. ولكنها في الوقت نفسه، واحدة من أكثر أماكن العالم الداعية للاستغراب، والسخرية. وهي من أكثر أماكن العالم المعقدة التركيب، المليئة بالمتناقضات، التي يمكن تصورها. وإلا، ماذا نقول عن دولة عضو في كل من "الكومنولث الجديد" (New Commonwealth)، و"الفرنكوفونية" (La Francophonic)؟ دولة، حيث يجب دبلجة الأفلام الأمريكية الشمالية إلى الفرنسية، رغما عن مرور١٨٠ عاما على اعتبار الإنجليزية اللغة الرسمية، وحيث تكون الوحدة النقدية للبلد هي "الروبية" (Rupee). وماذا نقول عن دولة، يلتف حول عنق بعضهم سلسلة، تحمل اسم "فرانسوا- موتوسامى – ياوتنج" (Francoise – Mootoosamy – Yaw Tang)، بلد يتعايش، وتتوافق فيه أربعة أديان كبيرة. تندمج في توافق عجيب

غريب مع بعضها بعضًا. وماذا نقول عن بلد، فيها تتحدث مجلة مطبوعة باللغة الفرنسية، عن أفلام هندية؟ كل هذه المتناقضات موجودة في جزيرة مساحتها حوالي ألفى كيلومتر مربع، ويقطنها حوالي مليون إنسان.

المجتمع الموريشيوسي، مجتمع يشبه في حبكته، السجادة المزركشة الجميلة، المكونة من أطياف، وخيوط عديدة، من عادات، وتقاليد ثقافية مختلفة، نسجت غالبا بأساليب تخدع أي زائر أجنبي. في التسويق السياحي الإعلامي، يستخدمون أحيانا مصطلح "**Une Societe a` L`arc en ciel**"، جملة تعنى "مجتمع قوس قزح"، وذلك حتى يعلم الأجنبي أن "موريشيوس" مجتمع غنى بالألوان والأطياف. في الوقت نفسه، فإن بحوثا علمية أجريت، بناءً على طلبات مؤسسات المستعمر البريطاني المتكررة، قد حددت ثلاث مشاكل رئيسية للبلاد. هذه المشاكل الاجتماعية هي: الاعتماد الكامل على إنتاج السكر وتصديره باعتباره أساسًا للدخل القومي. الثانية: هي التزايد الضخم في عدد السكان. الثالثة هي: التناقضات الإثنية. عبّر عن ذلك "تايبول" في مقال له، خفيف الظل، عنَونهُ بعنوان ساخر، كتب يصف "موريشيوس" أنها: "غرفة الحجز المزدحمة" أو(**The Overcrowded Barracoon**). في المقال عبر عن انطباعات عن "موريشيوس"، تولدت عنده بعد زيارة لها، في بداية السبعينيات من القرن الماضي، وشبهها بمسقط رأسه، ومكان طفولته "ترينيداد" (**Trinidad**). قال إن كليهما، يحوي مجتمعا غريب الأطوار، شديد اللاعقلانية. في كليهما يجد المرء السوقية والخشونة. ويجد نشأة خليط غريب متفرد من الأجانب، لا أصول لهم ولا جذور. مثلهما مثل ما رأى في طفولته وصباه اللذين قضاهما في "ترينيداد". لقد لاحظ أن المستقبل الوظيفي الواعد لمعظم الموريشيوسيين هو: تعلم التمريض، حتى يتمكن، هو أو هي، من بناء أمل الحصول على وظيفة، يحتاجها العالم الخارجي.

هذا ما قاله "نايبول"، أما الأنثربولوجي "بورتون بندكت" (**Burton Benedict**)؛ فقد كان له رأى آخر. من ناحيته كتب تقريرا في عام ١٩٦٥ وفيه هذا التحذير: "إن الخطوط الفارقة للخلافات بين الأعراق في "موريشيوس" أخذة في التغيير، (....)، وخطورة الخلافات والمواجهات بين الأعراق في تزايد" بعد سنتين فقط؛ تبين أن "بندكت" كان على حق. في الانتخابات الشعبية العامة، على مبدأ الاستقلال من بريطانيا، والتي أجريت في ١٩٦٧، صوت ٤٤ في المائة من السكان ضد الاستقلال. لقد خافوا من أن يجعل ذوو الأصول الهندية، الذين يمثلون المجموعة العرقية الأكبر؛ من موريشيوس "الهند الصغيرة"، حيث يُمنع الحديث باللغة الفرنسية، وحيث يضطرون النساء إلى لبس "الساري"، وهو زى النساء التقليدي في الهند. لقد كان شعار السياسي الكريولي (**Creol**) ذي الأصول الموريشيوسية "جاتان دوفال" (**Gaetan Duvals**) في تلك الفترة هو: "مالبارنو با أوولا" (**Malbarnu Pa Ule**)، ومعناها، يمكن ترجمته إلى "إننا لسنا ذيلا للخنزير الهندي". وفي وقت الانتخابات ما حوله، والذي كان وقتا مليئا بالإضرابات، وقد عُبر عن ذلك بأساليب مختلفة، منها المظاهرات، والإضرابات، التي انتشرت في العاصمة "بورت لويس" (**Port-Louis**)، وفى أماكن أخرى. وفيها سقط كثير من الناس صرعى، واضطر المسئولون إلى إعلان حالة الطوارئ. وما هو إلا وقت قصير حتى أصبحت الصدامات وحكاياتها جزءا مهما من الميثولوجيا (**mythology**) القومية الضيقة. من ناحية أخرى؛ تولدت القومية الموريشيوسية نتيجة لهذه النزاعات، التي أوضحت للموريشيوسيين، مدى أهمية تعايش الأعراق المختلفة، في سلام مع بعضهم بعضا. ومن هذا التصور والتجربة؛ ما زال الجيل الجديد، حتى يومنا هذا، يتحدث عن "النزاعات العرقية" (**Les bagarres raciales**) التي وقعت في نهايات الستينيات.

ومنذ الاستقلال عام ١٩٦٨؛ استطاع الموريشيوسيون أن يعالجوا كلا من المواجهات العرقية، والمشاكل الأخرى، بطرق ديمقراطية ذكية تثير الإعجاب. لقد

كانت الحرية الكاملة هي القاعدة؛ في كل من: الدين، والتعبير، والصحافة المزدهرة. وفى العديد من المرات، كان على الحزب الحاكم، أن يتنازل سلميا عن السلطة بعد الانتخابات. أما الاقتصاد، الذي اعتمد على تصدير السكر باعتباره منتجا قوميا وحيدا؛ فقد تطور في اتجاه السياحة، وصناعة النسيج. واليوم يوصف المستوى الاجتماعي، والاقتصادي في الجزيرة، بالحسن. والكثير من المجموعات الإثنية المختلفة، تجد نفسها في عمليات تقارب وانسجام، مع المجموعات الأخرى. وحتى هذا الانسجام أيضا، كان موجودا قبل أن يتحسن الاقتصاد. أما تزايد عدد السكان الذي كان ٣,٥ في المائة، في منتصف الستينيات، فقد تناقص إلى ١,٤ في المائة. والآن تتماثل نسبته مع مستوى دول غرب أوروبا. ويستطيع الفرد الآن أن يتجول مطمئنا في الشوارع الجانبية، حتى وقت متأخر من الليل، وحتى لو مشى وهو يرتدي الشورت، بعدما حرقته شمس النهار، ولو تخوف البعض، من كلاب نصف مستأنسة، والتي يمتلكها جزء لا بأس به من الموريشيوسيين؛ فما عليه إلا أن يتجنب أحياء الطبقات المتوسطة. أما كلاب الطبقة العاملة الفقيرة، فهي في الحقيقة أضعف من أن تهاجم، وأكثر جبنا من كلاب "الشيفرد" (Shepherd) التي تمتلكها عائلات الطبقة الغنية. وبالتالي فعلى هؤلاء، الذين يؤمنون بأن البلاد المختلفة عرقيا هي بلاد مصطنعة، وتمثل خطورة على شعوبهم، وعلى شعوب البلاد المحيطة بهم، في أرجاء المعمورة ؛ عليهم أن يعيدوا النظر، بعد التأمل ودراسة الديمقراطية المستقرة على خط الاستواء، التي تتكون من "موزاييك عرقي"، كما في موريشيوس.

الموريشيوسيون مضيفون كرماء للأجانب. والكثير منهم يتحدث الفرنسية بدرجة جيدة. ويعيشون في أحد أجمل الجزر الاستوائية في العالم، حيث تجد شواطئ ذات رمال بيضاء كالطباشير، ونخيل جوز الهند، يتمايل مع النسيم الرقيق، والأشجار حاملة الأزهار القانية الجميلة، وجبال كثيفة الخضرة، وحقول قصب السكر الخضراء، التي يتماوج طلعها. وهكذا فإن كل يوم يمر، يفقد كل من"بورتن بنديكت"(Burton Bernedict) و"ف.إس.نايبول" (V.S.Naipul) شيئا من مصداقية نبوءاتهما عن موريشيوس.

مجتمع مثل المجتمع الموريشيوسي، ربما ينير الطريق، ويعطى بعض الإيضاح لمجتمعات أخرى، جذورها أكثر امتدادا في العمق، عن كيفية تطوير المجتمعات، في ظل متغيرات من المدنية، والحداثة تُفرض عليهم. فعلى الرغم من موقعها الجغرافي؛ فإن موريشيوس تمثل جزءا لا يتجزأ من العالم الحديث. فهي مع كل من قارتي أمريكا (من ألاسكا وحتى "تيرا دل فوجو" (Tierra del Fuego)، وأستراليا. فمنذ البداية المبكرة، كان المجتمع الموريشيوسى جزءا من الاقتصاد الرأسمالي، الذي اتسم بطبيعة عالمية، على الرغم من أنهم يمثلون جزءًا صغيرًا نسبيًا من التعداد السكاني للعالم، وعلى الرغم من أن هذا المجتمع أُسس بقصد تغطية الحاجة العالمية لطريق تجارى إلى الشرق، وكذلك تغطية حاجة البلاد الأوروبية من السكر. وعلى عكس مجتمعات آسيا، وأمريكا الجنوبية، وإفريقيا، التي وقعت تحت سيطرة الاستعمار، فقد كان المجتمع الموريشيوسى، مجتمعا متحررا اجتماعيا، عندما طبقت فيه النظم الرأسمالية. ولذا يمكن أن يقال، إن المجتمع الموريشيوسى قد تمت له عملية العولمة (globalised)، وكان منذ البداية "سن في ترس ضئيل"، في ماكينة عالمية تدور وتعمل. العبيد الذين أصبحوا بعد ذلك يستأجرون الهنود، ويشاركون في الإنتاج للسوق العالمية. ومنذ اللحظة الأولى التي وضعوا فيها أقدامهم في الجزيرة؛ شاركوا في مسيرة الاقتصاد العالمي.

٢

اعتبر "ميلان كوندرا" (Milan Kundera) – الروائي الفرنسي الجنسية، التشيكي المولد والنشأة – أن قلب أوروبا أو مركزها، يقع عند "برج البارود" (gunpowder tower) في ميدان "فكلاف" (Vaclav-Square) بمدينة "براغ" (Praha). فقد كانت طرق التجارة العالمية الكبيرة، التي تربط بين الشرق والغرب من ناحية، والشمال والجنوب من ناحية أخرى؛ تتقابل وتتقاطع فيها، هكذا اعتقد

"ميلان". وعندما جئت أنا، لأول مرة إلى موريشيوس؛ اخترت شقة مكونة من حجرة واحدة، كانت مقابلة لموقف الباصات في "روز- هيل" (Rose-Hill) (وتنطق "روزيل"، بحرف R الفرنسي، وتشديد الجزء الأخير من الحروف)، ولقد تبين لي فيما بعد أنه كان اختيارا موفقا. هناك وجدت نفسي بحق في قلب موريشيوس. هناك تتقابل الباصات التي تتجه إلى الجنوب، حيث مدينة "كور بيب" (Cure pipe) المطيرة، ومزارع الشاي على الهضاب وسفحها. وعلى مرمى حجر من هناك، يقع أيضا الشاطئ في "فلكن فلك" (Flic-en-Flac)، و"تامارين" (Tamarin) في الجنوب الغربي. ومن هناك توجد الباصات التي تتجه شرقا، إلى الجامعة في "لا ردويت" (Le Reduit)، وحتى قرى السكر الغبراء في "فلاك" (Flacq). وفي النهاية نجد عاصمة موريشيوس الرطبة "بورت لويس" (Port-Louis)، والتي تبعد فقط نصف ساعة تحت المنحدر.

على خريطة العالم؛ فإن موريشيوس تعتبر "فضلة ذبابة" (Fly Shit). ولذلك فإن الزائر لا يتهيأ نفسيا للقراءة عنها، وسوف يدهش، عندما يصل إليها. البعض منهم أسمى الجزيرة "كونًا مجهريًا" (micro-cosmos)، و"معملاً صغيرًا" لدراسة العالم. دعنا نأخذ طقس موريشيوس مثالا، يبين المتناقضات. في العاصمة "بورت لويس" يكون متوسط درجة الحرارة السنوي ٢٤ درجة. وفي المدينة التالية لها في الكبر "كور- بيّب" (cure pipe) يكون الرقم ١٧ درجة. في "بورت لويس"، نادرا ما تهبط درجة الحرارة إلى ما دون العشرين، حتى في فصل الشتاء، أي في الشهور من مايو وحتى سبتمبر. أما في "كور- بيّب"؛ فإن درجة الحرارة المعتادة في الليل، فهي حوالي عشر درجات. وهناك تجد من السكان الكثير قد اشتروا مدفئة. أما الفقراء منهم فيكتفون بما تجمع لهم المؤسسات الخيرية من الأغطية الصوفية. مثل هذه الفروق، يمكن ملاحظتها بسهولة، وتصبح أكثر وضوحا عندما تكون رحلة السيارة حتى الطريق الرئيسي للسيارات (motorway)، لا تستغرق أكثر من نصف ساعة. في "كور- بيّب" تمطر السماء طوال العام، ومقياس سقوط

المطر هناك ٣٥٠٠ مليمتر في المتوسط ، بينما نجد هذا الرقم في "بورت لويس" ١٠٠٠ مليمتر. بالتالي يمكننا تفهم الأسباب التي تدفع المواطن "الفرانكو موريشيوسي" (Franco Mauritian)- ومعظمهم من الأغنياء - والذي يعيش في "كور- بيّب"، يمتلك بيتا صغيرا على الشاطئ. الشاطئ الذي يبعد عنه ساعة واحدة بالسيارة، حيث يقضي فيه معظم فصل الشتاء.

أما بالنسبة لتعدد المظاهر الثقافية؛ فإن المشهد أكثر إثارة للدهشة. في "كور- بيّب"، تجد عائلة قد بنت في حديقة منزلها نسخة من "برج إيفل" يصل ارتفاعه إلى ستة أمتار. بينما في "كاسيس" (Cassis)، التي تقع غرب العاصمة؛ يجد المرء نسخة من كاتدرائية "نوتر- دام" (Notre-Dame) مقامة هناك. ولو توجهنا جنوبا في الجزيرة؛ فسوف نجد المياه المطهرة "جراند باسين" (Grand-Bassin)، التي يتوجه إليها الهنود في رحلة حجهم، في أثناء احتفالهم السنوي، المعروف باسم "مها شيفاراتري" (Maha Shivaratri Calebration)، والذي يعتقد بعضهم أنه يوجد مجرى سري ما تحت الأرض بينه وبين النهر المقدس"جانجا" (Ganges، وتنطق Ganga بالهندية) كانت قد نشأت. و"جانجا" نهر يقع في شمال الهند وبنجالاديش، ويقدسه الهندوس. دور العرض "ABC" و"بكينج هام" (Buckingham)، تبعد إحداهما عن الأخرى فقط عشر دقائق مشيا على الأقدام. إحداهما تعرض الأفلام الأوروبية، والشمال أمريكية، المدبلجة إلى الفرنسية، والأخرى تعرض فقط أفلام "الماسلا" التي تصنع في "بومباي" الهندية. أما في "قهوة الصين" (Café de Chine)، المقامة في مدينة "روز-هيل"؛ فتجد في قائمة ما تقدمه من أطعمة، الوجبات الهندية "بريتز" (brianis) والكارى (Carris)، والوجبة الكريولية " دابس دى بوسون" (daubes de poisson)، والوجبة البطاطس المقلية على الطريقة الصينية "مينس فريتس" (mines frites) بجانب الطبق الفرنسي المشهور "الإنتروكوت" (entrecotes). بعض من هذا التعدد والتنوع، ينسحب على اللغة الكريولية؛ فمعظم كلماتها في الحقيقة، مقتبسة من الفرنسية، لكنها تحتوى

أيضا على كلمات من اللغات : "البهوجبرية" (Bhojpuri)، و"الهندية" (hindi)، و"الأردية" (urdu)، و"الإنجليزية"، و"التاميلية" (tamilian). بعض اللغويين حاولوا أن يبرهنوا على أن تركيب قواعد اللغة، فى "الكريولية الموريشيوسية" – وهى في الحقيقة مختلفة كثيرا عن الفرنسية – مشتقة من لغة إفريقية. لغويون آخرون يعتبرون اللغة الكريولية، بدلا من ذلك، إحدى الدعائم التي تدعم قول: إن ثقافة موريشيوسية متفردة، نشأت بكاملها من لقاء الثقافات وتلاقحها التي كونت الموريشيوسيين أنفسهم.

ما الذي يعرفه النرويجي العادي عن موريشيوس؟ إن أكثر من تسع سنوات من الاهتمام بشئون موريشيوس، تجعلني أعتبر نفسي مؤهلا للقيام بعملية تصنيف تقريبية. المجموعة الأولى من النرويجيين لا يستطيعون التمييز بين "موريشيوس" و"مارتينيكو" (Martinique). وهناك ما هو أسوأ، فقد وجدتُ بعضا، لا يستطيع التمييز بين موريشيوس وموريتانيا" (Mauretania). الفئة الثانية، تضم هؤلاء الذين يعرفون عن موريشيوس أنها جزر جنوبية جميلة. أو ربما، مجموعة من الجزر، دون أن يعرفوا أين تقع جغرافيا. ثم يأتي هؤلاء الذين يستطيعون تحديد مكان الجزيرة على الخريطة، وتتأتى تلك المقدرة لأسباب مختلفة، مثل أن يكون عاملا على سفينة تجارية (وذلك أعرفه معرفة مباشرة)، أو يكون له اهتمامات خاصة بالجغرافيا. والقليل منهم يعرف تاريخ "الدرونتن" (Dronten)، أو"الدودو" (Dodo)، ذلك الطائر النادر الذي يشبه الإوزة، ولا يستطيع الطيران، يتمايل ويتبختر بطريقة أثارت فضول البحارة الهولنديين، عندما كانوا يرونه على الشاطئ فيطاردونه بالهراوات حتى الموت؛ إلى أن انقرض. اليوم نجده فقط محنطا في المتاحف العلمية. هذه الفئة من النرويجيين تشمل: الكاتب "ترون أوجريم" (Tron Ogrim)، الذي أثارت انتباهه، وشدته إليها اللغة الكريولية المستعملة هناك. كذلك "يون ميتشل"(Jon Michelet)، و "يان شارستاد" (Jan Kjærstad) اللذان زارا موريشيوس، وكتبا عنها كتبا، بنيت مادته على أسس معرفية اكتسبت من

موريشيوس. لقد اختار "يون ميتشل" بطلا لروايته القصيرة التي أسماها " Le Coconut"، أو "جوز الهند"، من أفراد الهجين الملونين الموريشيوسيين (الكريول). بينما نقل "شارستاد"، في الحقيقة؛ النرويج إلى موريشيوس، ذلك في روايته التي سماها "المغامرة الكبرى". إلى جانب هؤلاء؛ فمن الذين يعرفون عن موريشيوس، كثير من أعضاء الأرستقراطيين، الذين استغلوا فرصة وظيفتهم، التي حتمت وجودهم في "زامبيا" و"بتسوانا" أو "زمبابوي"، وقضوا عطلتهم من العمل، لمدة أسبوعين في الجزيرة. لكن "كثيرا ما تخدع المظاهر؛ فموريشيوس لا تتماثل في الحقيقة مع "جزر الكناريا"، رغما عن أن كثيرا من السائحين النرويجيين سوف يعتقدون ذلك .

على الرغم من أن البحارة العرب اكتشفوا الجزيرة منذ زمن طويل، فإنها ظلت غير مسكونة حتى وضعها البرتغاليون على خريطتهم في القرن السادس عشر. لقد حدد البرتغاليون موقعها على الخريطة تقريبا، بين "رأس الرجاء الصالح" (Cape of Good Hope) في جنوب إفريقيا، ومدينة "كالكتا" (Calicut) الهندية، واعتبروها محطة جيدة في الطريق إلى الهند. وظلت الجزيرة لوقت قصير، في قبضة الاستعمار البرتغالي، تبعهم بعد ذلك الهولنديون، الذين استعمروها لعشرات السنين. وفي عام ١٧١٠ هاجمتهم الفئران، وكانوا قليلي العدد، وتمرد عليهم العبيد، وأصابتهم الأمراض المختلفة، مما اضطرهم إلى "غلق المحل"، وهجرة الجزيرة. وبالطبع قبل أن يطفئوا الأنوار "عَمَّدُوا " (baptized) الجزيرة. وأطلقوا عليها اسم أميرهم، وريث العرش "ماريتس فان ناسو" (Maurits Van Nassau). إلى جانب هذا؛ قضوا على طائر "الدودو"، واستوردوا "الظبي الجاوي" (Jawa Hort). ومن المهم ذكر أنهم توسعوا في زراعة قصب السكر، ونظام العبيد. وكلاهما بدا واضحا في تأثيره على تاريخ الجزيرة، على مر الزمن. من عام ١٧١٥ وحتى ١٨١٤، أخذت"موريشيوس" اسم "إيلا- دي- فرانس" (-Ile de-France)، وحتى الآن نجد بسهولة من الموريشيوسيين من ذوي الأصول

فرنسية، من يتحدث عن هذه الفترة بحنين وشوق. خاصة عندما كانت تحت إمرة حاكم الجزيرة "ماها دي لبوردنياس" (Mahe` de labourdonnais) (١٧٣٥-١٧٤٧). في هذه الفترة، كانت هناك زيادة كبيرة في تجارة العبيد، وإنتاج السكر، وتزايد السكان. وفى تلك الفترة أيضا، أصبح المجتمع الموريشيوسي؛ مجتمعا متعدد الثقافات بحق. استقدمت العبيد من الشاطئ الشرقي الإفريقي، ومدغشقر (Madagaskar). وكان مالكوهم، من الطبقة الأرستقراطية الفرنسية، ذوو الثروة والممتلكات القليلة. إلى جانب هؤلاء العبيد، جاء عدد واضح الكبر من الهنود، هاجروا إلى الجزيرة واشتغلوا في البيع، والأعمال اليدوية في الفترة ذاتها.

وفي فترة الاضطرابات في أثناء الثورة الفرنسية؛ فإن كثيرا من الأرستقراطيين، الذين شعروا أن الزمن قد أدار لهم ظهره، وأن الغوغاء قد بدءوا في السيطرة على الأمور في فرنسا، وهي حالة أتاحتها الديمقراطية، ولذا فإن شد الرحال يجب أن يتجه إلى المستعمرات. موريشيوس، أو كما سموها " إيلا دي فرانس"، كانت بصفة خاصة الوجهة المفضلة، لمثل هؤلاء النبلاء القلقين. هناك ما زال "النبلاء" "الأرستقراطيون"، محترمين. ومن المتوقع أن يظل هذا الوضع فترة طويلة. وهناك من الظواهر- في عدد أصابع اليد - ما يؤكد صحة هذا التوقع. منها نمو طبقة من "gens de couleur" أو "الملونين"، منذ بداية عام ١٧٨٠ وما تلاه. هذه الجماعة من الملونين المهجنين قد لعبوا دورا شديد الخصوصية في تطور المجتمع الموريشيوسي الحديث ونموه. لقد كان هؤلاء هم الطبقة العرقية الوحيدة التي نشأت في موريشيوس، ودافعت عن "الموريشيوسية". وعلى الرغم من أعدادهم القليلة فإن تأثيرهم على الحياة العامة، كان كبيرا، وشديد الوضوح. فمن حين لآخر، يستولي على المرء انطباع أن كل المصورين والصحفيين في موريشيوس، يحملوا ألقابا، مثل "ميشيل" (Michel)، وتمثل الفرنسية لسانهم، إلى جانب بشرتهم بنية اللون، مثل القهوة "الأولية" الفرنسية (Café`-au-lait). ويمكن تفسير ذلك، بأن أبناء مالكي المزارع، الذين أُنجبوا من إمائهم ، لم يكن لهم الحق

في أن يرثوا آباءهم. وبالتالي؛ وبدلا عن الأموال، حاول الآباء أن يعطوهم حقوقهم في صورة قسط وافر من التعليم.

عندما خسر نابليون حروبه، كان من بعض الشروط التي فرضت عليه، أن يُسلم "إيلا-دي- فرانس" للبريطانيين. وهكذا استرجعت الجزيرة اسمها الأصلي موريشيوس، وولي عليها حكام جدد. ولكن في عام ١٨١٤، سادت إيديولوجية التعدد الثقافي في الجزيرة. وكذلك بعد تغيير الحكام، سُمح للفرنسيين المقيمين فيها بالاحتفاظ بملكية أراضيهم، ووعدهم البريطانيون بأن يسمح لهم ممارسة ثقافتهم، ولغتهم، ودينهم بحرية. وهذا ربما ما دعا "شارلز داروين"(**Charles Darwin**) إلى الاستياء عندما زار موريشيوس عام ١٨٣٩؛ من أن الجزيرة كانت تبدو فرنسية، على الرغم من كونها مستعمرة تابعة للتاج البريطاني. وإلى الآن، لو أنه زار الجزيرة الأسبوع الماضي، لقال القول نفسه. حتى يومنا هذا، فإن مظاهر الثقافة الفرنسية، والتأثير الفرنسي على الجزيرة، أكثر وضوحا، منه عن التأثير البريطاني. والقانون هناك خليط من القانون البريطاني، و"كود نابليون" (**Code Napaleon**). وعلى الرغم من أن اللغة الإنجليزية كانت لغة الإدارة، على مدى أكثر من ١٨٠ عاما؛ فإن الفرنسية ما زالت هي الغالبة، والمنتشرة. واليوم، يمكن للمرء أن يرى ذوي البشرة الوردية، والبنية، والسوداء، جزءا لا يتجزأ من سكان الجزيرة. وكلهم كاثوليك، اتخذوا الفرنسية لغة كتابتهم. ومما يثير الاهتمام أنه؛ حتى الموريشيوسيون ذوو الأصول الهندية، يتحدثون الفرنسية أفضل من الإنجليزية.

ألغيت العبودية رسميا عام ١٨٣٩، لكن الحاجة إلى الأيدي العاملة، للعمل في المزارع؛ اضطرت البريطانيين لتوجيه نظرهم للهند، التي كانت مصدرا لا ينفد للعمالة الرخيصة من غير المتخصصين (**Coolie labour**). وفي الفترة ما بين ١٨٤٠-١٩١٧، أغرى البحارة البريطانيون، الملايين من فقراء الهند، بعقود عمل جذابة – (بعض الباحثين يعتقدون أن الهنود قد خدعوا وأجبروا على السفر مع

البحارة) – حتى يهاجروا إلى كل من: "فيجى" (Fiji) و"ناتال" (Natal)، و"جويانا" (Guyana)، و"ترينيداد" (Trinidad)، و"موريشيوس". لقد جاءوا من أنحاء مختلفة من الهند. اليوم يفرق الموريشيوسيون، بين المتحدثين بالهندية القادمين من "بيهار" (Bihar) – وهم الذين في الحقيقة غالبا ما لا يستطيعون شرح ما يعنونه حتى بالهندية – وبين الهنود المتحدثين "بالماراثية" (Maratha)، وهي اللغة الشائعة في إقليم "ماهرشترا" (Maharashtra). كذلك يفرقون بين "التاميل" (Tamil)، و"التلوجو" (Telugu)، القادمين من الجنوب "الدرافيدى" (Dravidian). ويضاف إلى ذلك بالطبع، الفرق بين المسلم والهندوسي، وبين "البراهما" (brahmin) و"الشودرا" (Shudra).

وفى النصف الأول من القرن العشرين، جاء إلى الجزيرة مجموعة عرقية أخرى، تداخلت في النسيج السكاني في موريشيوس. هؤلاء كانوا عبارة عن آلاف الصينيين، الذين عبروا البحر الهندي الجنوبي، ومعظمهم كانوا من منطقة "كانتون" (Canton) ، لمزاولة التجارة ، ثم آلت بهم الحال إلى الاستقرار في الجزيرة. اليوم، يتكون المجتمع الموريشيوسي من أكثر قليلا من مليون من السكان. وذلك حسب تعداد منتصف التسعينيات. من هؤلاء ٢٨٠ ألفًا من أصول إفريقية، وأصول مهجنة مختلفة، وهؤلاء يسمون الكريوليين. وهناك حوالي عشرين ألفا من أصول فرنسية، وقد كانوا في الحقيقة أكثر من هذا العدد، لكن الكثير منهم هاجر إلى جنوب إفريقيا وأستراليا، في فترات التحرر الموريشيوسي. وهناك ١٧٠ ألف مسلم من أصول هندية، وثمانية وعشرون ألف صيني. أما الباقي، والذي يمثل حوالي نصف سكان موريشيوس، فهم من الهنود.

ولكن ماذا يعنى أن تكون هنديا؟ التاميل (Tamil) (حوالي ٥٠ ألفًا) على سبيل المثال، لا يعتبرون أنفسهم أعضاء في الفئة العرقية نفسها، التي انحدر منها المتحدثون بالهندية من منطقة "سهل جانج" (Ganges -plain). والفئات التى انحدرت

من "الكاست" الدنيا، غالبا ما تؤلف أحزابا، مخالفة لتلك التي ينشئها أفراد "الكاست" العالية. وهناك فروق ضخمة بين المدينة والقرية. ولو حاولنا الإجابة عن السؤال: كم هو عدد المجموعات العرقية في موريشيوس؟ فلن نجد إجابة سهلة، ودقيقة.

أكثر صعوبة من ذلك، أن نحاول البحث عن الآثار العملية في الواقع الحياتي الناتج من انتساب المرء العرقي في موريشيوس. ويمكن طرح أسئلة من صنف: هل الانتساب العرقي، هو العامل الرئيس الذي يحدد نوع العمل الذي يستطيع المرء الحصول عليه؟ وهل تقرر الكاست نوعية الأصدقاء؟ أو تقضي بنوعية الحي السكني الذي يمكن للمرء أن يقطنه؟ أو تحدد له نوعية شريك حياته عندما يريد الزواج؟ أو تسمي له الحزب السياسي الذي يجب أن يصوت له؟ وهل الكاستا، هي التي تكون عقيدة المرء، فيما يخص السؤال عن الحياة بعد الموت أو البعث؟ وما الكيفية التي تكون عليها العلاقة، بين المجموعات العرقية، والطبقات الاجتماعية؟ وما الذي يتغير في المجموعات والهويات العرقية، عندما يتحول المجتمع، إلى مجتمع صناعي؟ ليس هناك إجابة سهلة يسيرة لأي من هذه الأسئلة. والسبب هو أن التضاريس الاجتماعية، تتغير بسرعة أكبر بكثير من سرعة رسم الخريطة، منذ لحظة بداية الرسم. إن المعلومات المكتوبة، في الكتب العلمية المختصة، والمنشورة قبل عام ١٩٨٥، القائلة بأن تصنيف الأعمال في موريشيوس له قاعدة عرقية، ليس صحيحا. والذين كتبوا هذه المعلومات قالوا إن الهنود هم عمال صناعة السكر، وإن الكريوليين هم الصيادون والعمال اليدويون، وهكذا. وهذا ليس دقيقا. والصحيح، أن صناعة السياحة وصناعة الغزل والنسيج، هما أكبر مُوظفينِ للعمالة، في الجزيرة. وفيهما يجد المتأمل أن جميع الألوان، والأطياف، والديانات، كلها ممثلة ومنتشرة. وذلك لو غضضنا النظر، عن أن البعض أكثر تمثيلا من آخرين.

٣

"تعيش موريشيوس على قصب السكر، والهمز واللمز لبعضهم بعضاً". هذا ما كتبه الشاعر الموريشيوسى "مالكوم دى شازل" (**Malcolm de Chazal**) في الخمسينيات من القرن الماضي. كانت هذه المقولة إجابة عن سؤال وجهّ له: ماذا يعني "الانتساب العرقي" بالنسبة لك؟ ليس من الصعب أن نتفق على: أن خلفية الإنسان، من حيث لون البشرة والدين والثقافة؛ لها الأهمية نفسها في هذه الجزيرة الصغيرة الآمنة كما هي في جنوب إفريقيا، أو البلقان. لكن الموريشيوسيون لم يجهدوا أنفسهم في محاولات الانتساب إلى عرق معين، كما فعل الرؤساء اليوغسلافيون، كل في فترة قيادته، بدلا من ذلك؛ فقد أكدوا على أن يفصلوا بين خلفية الفرد الثقافية وبين حقوقه السياسية. رسميا لا توجد مجموعة عرقية لها حقوق مميزة أكثر من أى مجموعة عرقية أخرى. لقد وزعت مقاعد البرلمان بطريقة تحفظ حق كل مجموعة عرقية أن تكون ممثلة بطريقة عادلة. هذا التنظيم الذي ينظر إلى الانتساب العرقي على أنه عامل لا يجب أن يكون مهما، وجد من ينتقده، بطبيعة الحال. فواقع الأمر، ومرة بعد مرة؛ أثبتت نتائج الانتخابات أن الانتساب العرقي والطائفي هو العامل الأهم الذي على أساسه ينتخب معظم الموريشيوسيين، وأن الفروق العرقية الطائفية بين المجموعات المختلفة، لم تفتأ نابضة بالحياة. هذه الحقيقة لا يمكن للغريب اكتشافها؛ إلا بعد إقامة دائمة في الجزيرة، على الأقل لعدة شهور.

في الحياة اليومية يذهب الهنود والمسلمون والكاثوليك والبوذيون دون احتكاك تقريبا. فهم يعملون معا، ويأكلوا وجبة الغداء معا، ويناقشون الخطوط

العريضة للسياسة وهم يشربون القهوة في وقت الاستراحة. ولكن، دعني أسأل سؤالا: متى رأيت هنديا مدعوا في حفلة عشاء "فرانكو-موريشيوسية"؟ إنه ما زال – وحتى الآن (١٩٩٤) – ينظر إلى دعوة "ملون" (gen de ceuleur) إلى العشاء من عائلة بيضاء، وكأنها "تحرر زائد"، وجرأة، رغما عن كونه يحمل الدرجة العلمية نفسها، ويتحدث بـ"لغة البدن" نفسها تماما مثلهم. الأحكام المسبقة (sterotype) التي يحملونها بالنسبة للملونين؛ ما زالت تنبض بالحياة، على الرغم من إلغائها رسميا على الورق.

وعلى الرغم من أن هناك اتفاقًا على قواعد سياسية مشتركة، وعلاقات توافقية مقبولة بين جميع الموريشيوسيين، فإن الخلافات ما زالت عميقة بينهم. وفى الحقيقة فإن الدين لا يخلق مثل هذه الخلافات، فهم يستبعدونه من المجال السياسي، دون أن يرى أحد أن ذلك يمثل مشكلة. وعلى العكس فإن الخلاف على اللغة يناقش بانفعال، وعاطفة جياشة، وألم شديد. ويظهر ذلك في الحياة العملية ومتطلبات لا يمكن التغاضي عنها أو إهمالها. مثلا: إنه من الضروري اتخاذ قرار لاختيار اللغة الإلزامية في المدارس، كذلك أي لغة يجب استعمالها في الإذاعة والتليفزيون. وعلى أية حال يستقر الاختيـار، ويكون الحل؛ فسوف تجد – دائمـا – جمـاعة أو جماعات؛ تشعر بأن حقوقها قد هضمت. وتجد من السياسيين من يستغل هذا الشعور بالظلم بغرض الحصول على مزيد من أصوات المنتخبين. هذا الخلاف اللغوي وجد حكومة تتبنى حله، واتخذ حزب "إم إم إم" (MMM) قرارا باتخاذ "الكريولية" لغة قومية، وذلك عام ١٩٨٢. هذا القرار ولّد غضبًا وانزعاجًا للمتحدثين باللغة "الهندو- موريشيوسية"، وكان له تأثير قوي في ولادة انقسام بين أفراد الحزب في العام التالي مباشرة.

الإنجليزية، وهى اللغة الرسمية المتخذة قديما والتي ما زالت باقية، لا خلاف عليها، فلا توجد مجموعة عرقية في موريشيوس تمثل الإنجليزية لها لسان الأم،

ولا يوجد – بالتالي– من له مشاعر مرتبطة بهذه اللغة، سواء سلبا أو إيجابا. وهم يعتبرونها لغة عملية، وليست لغة بيروقراطية رمادية (grey).

أما بالنسبة للغة الفرنسية ففيها اختلاف. "الفرانكو-موريشيوسيون" الملونون (leagens de cadeur) – وهم الذين ما زالوا يتحكمون في الحياة الثقافية في الجزيرة– ما زالوا يستخدمونها، وبالتالي مازالت الفرنسية تزداد انتشارا في وسائل الإعلام. وبالطبع؛ ليس الجميع مرتاحًا وسعيدًا بهذه الحال. وكثير من الموريشيوسيين من أصول هندية يربطون الفرنسية بعهود الاضطهاد والعنصرية، وبالتالي فهم يفضلون استخدام الإنجليزية، على الرغم من عدم إجادتهم لها.

ولكن، الإنجليزية والفرنسية لا يتحدث بهما في داخل البيوت أكثر من اثنين ونصف في المائة من الموريشيوسيين. فاللغة العامية هي "الكريولية"، أو "الموريسية" كما يسميها اليساريون، هي التي تأتي قبل أي لغة أخرى. والمعروف أن اللغة الكريولية هي: اللغة التي نشأت وتكونت من استعمال العبيد لها كوسيلة للتواصل، ومعظم ألفاظ هذه اللغة مستعارة من الفرنسية. وفي الوقت الحالي فهي اللغة الشائعة بين كل الموريشيوسيين، لكنها مازالت تُعامل كلغة الرجل الفرنسي البسيط، فهي ليست "اللغة الفرنسية"؛ بل "تقريبا فرنسية" تنطق بطريقة سيئة. قد استعارت من اللغة الفرنسية القواعد الأساسية، وهي التي كان يتحدث بها القادمون حديثًا إلى البلاد في القرن التاسع عشر. وحتى يومنا هذا فإن معظم الموريشيوسيين – باستثناء يساريي الثقافة – متفقون على أن "الكريولية" هي الوسيلة العملية للتخاطب الشفهي، لكنها تعتبر "لغة بربرية" إذا ما استعملت في الكتابة. ويأتي إلى جانب هذا الحقيقة المرة، أن الكريولية ما فتأت مرتبطة بالمجموعة العرقية: الكريوليين.

وعلى هذا فإن الهنود والمسلمين الذين يحتقرون الكريولية، ولا يحبون الفرنسية؛ يتحولون إلى الحديث بالإنجليزية تلقائيا. ليس هذا فحسب، بل يبدعون في إحياء لغة أسلافهم، سواء كانت "أوردو"، أو "هندي"، أو "تاميلي"، أو حتى "عربية".

آلاف كثيرة من مسلمي موريشيوس انضموا إلى حركات إسلامية، مركز ثقلها موجود في الشرق الأوسط، وليس في شبه القارة الهندية. ويتبع ذلك تعريف انتمائهم الحضاري وتاريخهم، ويقدمون أنفسهم للجهات الإحصائية السكانية على أن لغة أجدادهم هي "العربية"، وليست "الأوردو"، أو "الهندي".

نظريا، هناك خمس عشرة لغة مستعملة في موريشيوس. وأي محاولة لتبني لغة قومية مشتركة، تبدو ميئوسًا منها. تماما كما هي الحال في البرلمان الأوروبي. في الواقع العملي فإن مشكلة اللغة أكثر يسرا من تلك الصورة، ففي أعماق معظم الموريشيوسيين عقيدة متفق عليها، وهى أن "الكريولية" هي اللغة المشتركة القومية، وذلك على المستوى الشعبي، وليس الرسمي. وهم متفقون أيضا على وجوب الاحتفاظ بمكانة اللغتين الفرنسية والإنجليزية كلغات ثقافية، ورسمية. أما ما يبقى من جدال في مشكلة اللغة، وما يجعل الحوار يحتد والمناقشة تشتعل؛ فهو السياسة. إن اللغة ليست رمزا من الرموز، إنها تمثل الهوية الثقافية للإنسان أكثر من أي شيء آخر. القيادات الهندية المعروفة - من حين لآخر، وبعدما يبدون انتماءهم العرقي في بيوت الثقافة- دائما ما يحاولون الإيحاء بأن "البهجابورية" (وهى إحدى لهجات اللغة الهندية) في الحقيقة؛ هي لغة أمهاتهم، وهى التي يجب الحديث بها، ولو تركوا بناتهم يتحدثون بالفرنسية، أو الكريولية، فسوف يتركون في الحال لبس "الساري"، ويرتدون "الجينز"، ويدخنون الماريجوانا.

مثل هذا القول يتوافق مع هوى عائلاتهم المقيمة في الهند، ويمثل برهانًا على أن أبناءهم لم ينسوا قط لغة جداتهم. وعلى الرغم من العلم بأن لغة منسية يمكن أن تقوم بعمل أساسي في تكوين الشخصية الثقافية - كما في الحالة الأيرلندية؛ فإن هذه القضية اللغوية في موريشيوس، ما زالت أداة يستخدمها السياسيون الذين يرغبون في توسيع قاعدتهم الانتخابية. ويبدعون في رفع شعارات:

"الحدود"، و"النقاء العرقي"، وقيمة الإنسان التي تزداد كلما استطاع أن يتمسك بما يميزه، وينفرد به عن الآخرين.

ولقد حاولت دراسة هذه الظاهرة لفترة ليست بالقصيرة. وذلك في التسعينيات من القرن الماضي، عندما عدت إلى موريشيوس- بعد سنوات عديدة - بغرض مقابلة المعارف، وفي الوقت نفسه "الدراسة المبدئية". لقد كنت بطبيعة الحال متشوقا إلى معرفة إلى أي درجة حدث التغيير؟.

٤

في التو واللحظة التي ينزل فيها الفرد من سلم طائرة "شركة الطيران الموريشيوسية" (**Air Mauritius**) رحلة بومباي- الطريق الرئيسي القديم لتهريب الهيرويين للبلاد؛ يكتشف أن زمنا جديدا قد حل. التغيير الذي حدث في مطار "بليسان" (**Plaisanc**) كبير. المبنى الأسمنتي الرمادي الصغير، الذي لم يكتمل بناؤه بعد، والذي تعوّد أن يرحب بكل القادمين: "أهلا وسهلا في موريشيوس"، أصبح الآن مبنى من ثلاثة طوابق من الزجاج والألومنيوم، ويسمى "مطار السيد سي وساجور رامجولام الدولي" (**Sir Seeweosagur Ramgoolam International Air port**)، وهو بنفس مساحة مطار العاصمة النرويجية القديم "فورنبو" (**Fornabu**)، أو مطار القاهرة الدولي القديم، وبداخل المبنى بعض اللافتات التي تنظم الحركة، وسير متحرك ينقل حقائب المسافرين.

أما رحلة التاكسي من المطار وحتى "روزهيل"، فهي تؤكد الانطباع الأول بأن تغييرا كبيرا قد حدث. فذلك الطريق القديم الصغير الضيق غير المستوي؛ يبدو وكأنه قد اختفى. فبعدما كان غالبا ما يعج بشاحنات مليئة بقصب السكر، وسيارات

النقل العام المزعجة ذات الرائحة العطنة الكريهة، اللتين كانتا تجوبان بصعوبة أزقة القرى الملتوية الضيقة، متجهة إلى المناطق التي بها حقول الشاي حول العاصمة "كورابيب" (Curapipe)؛ يبدو الآن بدلا منه طريق إسفلتي سريع للسيارات (motor Way)، مقسم إلى أربع حارات، ويمر في مسار يلتف حول مزارع القصب خارج المناطق المأهولة بالسكان، ينقل المسافر على طول الجزيرة وعرضها، في زمن قياسي. أما التاكسي فقد كان جديدا، مريحا ومزودا بكل من راديو سيارة، وجهاز لتبريد الهواء. "هذه السيارات لم تكن موجودة في موريشيوس منذ خمس سنوات خلت"، كانت هذه ملاحظتي التي أبحت بها لسائق التاكسي، الذي أومأ برأسه موافقا، ثم أضاف: "يبدو أنك غادرت موريشيوس منذ خمس سنوات، لقد حدث تطور هائل في هذه الفترة القصيرة".

عندما قدمت إلى موريشيوس لأول مرة في أوائل عام ١٩٨٦، كان السياسيون والمعلقون الصحفيون والكتاب، يبدون التشاؤم من تزايد نسبة العاطلين عن العمل، وتزايد تصدير العمالة الرخيصة إلى الخليج العربي، بعقود استعبادية. وعندما غادرت الجزيرة في نهاية السنة، كانت أعداد العاطلين عن العمل تقارب الصفر. وفي فترة إقامتي هناك، خُلقت حوالي خمسين ألف فرصة عمل جديدة، كانت موزعة أساسا في مجال الفندقة وصناعة النسيج. هذا العدد من فرص العمل، يعتبر كبيرا قياسا إلى تعداد سكان يصل إلى حوالي المليون. والآن يستورد قطاع البناء الموريشيوسى أيدي عاملة ماليزية.

هذه المعجزة الموريشيوسية شارك في ولادتها الكثيرون: سياسيون أكفاء، ومهندسون نشطون، وبنى تحتية تؤدى الغرض لنظام تعليمي تركه البريطانيون، ومناخ وشواطئ جميلة تجذب السياح، وقبل هذا وبعده؛ استقرار سياسي. هذه العوامل مجتمعة لا يُشكر عليها أحد إلا الموريشسيون أنفسهم. باستمرار تتزايد أهمية صناعة السكر، وتزداد المساحة المزروعة حتى قربت من نصف مساحة الجزيرة، وهى الصناعة التي تنمو نموا يذكر منذ أعوام ١٨٨٠.

التغيير والتطور طال مستوى الأسعار أيضا، ففي عام ١٩٨٦ كانت رحلة من المطار إلى "روز هيل" تتكلف ١٦٠ روبية (الروبية الموريشيوسية في ذلك الوقت كانت تعادل ٠,٥٨ كرونة نرويجية)، الرحلة نفسها في التسعينيات تتكلف ٣٠٠ روبية (الروبية الموريشيوسية تعادل في التسعينيات ٠,٤٠ كرونة نرويجية)، ويمكن قول: إن ٤٠٠ روبية على السائح أن يدفعها أجرة للمسافة نفسها، حتى يثبت للسائق أنه شخصية غير عادية (VIP).

في الوقت نفسه فقد زادت المرتبات بمعدل أكبر من زيادة الأسعار. ففي بداية رحلتي إلى "روزهيل" لاحظت وجود مركزين كبيرين للتسوق، يتخصصان في بيع الأثاث المنزلي والأجهزة الكهربية المنزلية. وفى العام نفسه ١٩٨٦ كان من العادي أن يكون للعائلة متوسطة الدخل بعض الخدم. فمثلا عائلة طبيب، أو محام، تستطيع استئجار بستاني متفرغ، و"فتاة مطبخ" تساعد العائلة في نظافة البيت، وإعداد الطعام. أما في عام ١٩٩٢ فقد أصبح ذلك مكلفا إلى درجة اضطرت العائلة لشراء أجهزة كهربية متعددة، مثل غسالة ملابس، وغسالة صحون، و"شافطة تراب" أو مكنسة كهربية، لتستعين بهم على أعمال المنزل، التي يتوجب عليهم القيام بها بأنفسهم بدلا من الخدم. ويجب التوقف هنا لشكر نظام التقسيط المريح في الدفع، حيث يستطيع المرء شراء كل شيء تقريبا، ويدفع أقساطه الشهرية على فترة تتراوح بين سنتين أو ثلاث. هذا النظام سمح للجميع شراء الأجهزة . وحتى الخدم، أصبحت لهم القدرة على اقتناء الغسالات الكهربية. وفي مدة زمنية لا تتجاوز عشر سنوات ازداد الدخل القومي (Gross National Product -GNP) إلى ثلاثة أضعاف تقريبا. وفى عام ١٩٩٤ كان دخل الفرد ٣٠٠٠ دولار أمريكي.

شعارات العدالة الاجتماعية، التي تصدرت الخطاب السياسي الموريشيوسى في السبعينيات والنصف الأول من الثمانينيات من القرن الماضي؛ قد تبخرت واختفت. الأحزاب الأربعة الرئيسية، لا تجد من بينهم من يتحدث عن التأميم لقطاع الإنتاج. "المنظرون ذوو اللحى"، المنتشرون في الجامعات، لم يعودوا ينتقدون

العائلات العشر الفرانكو- موريشيوسية، التي أحكمت قبضتها على صناعة السكر، ولم يعد المرء يسمع كلماتهم اللاذعة المريرة ضدهم. ولا تجد الآن من يشتكى ويتأوه من انخفاض راتبه في صناعات النسيج. ولا تجد من يعتبر السياحة صورة جديدة من "استعمار جديد" كما كان في السابق. موجة السياسة اليمينية التي هبت على موريشيوس؛ كُتب لها النجاح العظيم، و"لا أحد يستطيع انتقاد النجاح" (**You can't argue with success**).

في سبتمبر ١٩٩١ جرى انتخاب برلماني، دون أن يدفع الصحافة العالمية لكتابة، حتى ولو عنوان واحد عنها. لماذا، وماذا تكتب الصحافة، لو مرت الانتخابات دون أن تطلق رصاصة واحدة، وطبق النظام البرلماني بحذافيره؟ وكان ذلك الانتخاب هو الخامس منذ استقلال موريشيوس من الاستعمار البريطاني عام ١٩٦٨. لم تكن انتخابات سلمية فحسب، لكن لم يشوبها إلا - إن وجدت- بعض الشعارات الدينية الصغيرة. في هذه الانتخابات ائتلف الحزبان الكبيريان **MSM** (**Mouvement Socialiste Mauricien**)، أو "الحركة الموريشيوسية الاشتراكية"، مع حزب "الحركة العسكرية الموريشيوسية **MMM** (**Mouvement Militant Mauricien**). وعلى عكس دلالة اسميهما، توجه الحزبان اتجاها سياسيا، واقتصاديا ليبراليا حرا. وكذلك فعلت المعارضة المكونة من حزبي: **PMSD** (**Parti Mauricien Soceial Democrate**) أو "الحزب الموريشيوسي الاشتراكي الديمقراطي"، والآخر **PTr.** (**Parti Travailiste**) أو "القائمة العمالية"، الذي يقابل حزب العمال في النرويج(*).

هذان الحزبان الأخيران استطاعا أن يجعلا الانتخابات؛ انتخابات عرقية، وذلك من خلال شعارات ملتهبة، ومعركة انتخابية خشنة، وساخنة. رفعا شعارات مبنية أساسا على "التحذير من الإسلام". والخوف من الإسلام له جذور قوية لغير

(*) حزب العمال النرويجي هو حزب اشتراكي ديموقراطي، وهو الذي أقام الدولة النرويجية الحديثة، وكان يحصل على ما يقارب من نصف عدد المنتخبين، إلا أن أسهمه قد قلت في العقدين الأخيرين إلى ما دون الثلاثين في المائة . (المترجم)

المسلمين أيضا في موريشيوس. ذلك لأن البعض يعتبر "الجبهة العسكرية الموريشيوسية" (MMM) حزبا إسلاميا. وقد اختلق أحدهم إشاعة كاذبة، ونشرها في القرى الهندية. تقول الإشاعة: إن ابن رئيس الوزراء "أنيرود جوجناوثس" (Aneerood Jugnauths) قد تزوج من فتاة مسلمة. لكن ذلك لم يكن كافيا للهنود لنزع رئيس الوزراء من كرسي الحكم. فكما قيل بشكل متكرر: "لا أحد يستطيع انتقاد النجاح" (You can`t argue with success).

"روت رويال" و"روزهيل"، وهما الشارعان الرئيسيان، تصيبهما الهستيريا والتشتت ليلة عيد الميلاد، فما هي إلا ساعات قليلة وتغلق المحلات أبوابها. و"صنابير المياه" (Water holes) الكثيرة المنتشرة على طول الطريق، تعج بالرجال المتعجلين العطاشى، وهم يشربون في أثناء تسوقهم. محلات الملابس، والمحلات التي تبيع الأجهزة الكهربية "الهاى – فاى" والمولات الضخمة، كلها مليئة بالزبائن، وتبدو كخلايا النمل، ولا يقل عنهما المركزان التجاريان اللذان أنشآ حديثا. ووسائل المواصلات متوقفة، والأرصفة وكأنها علب السردين، وخارج مبنى المحافظة "بلازا"، يصتف بائعو شجرة عيد الميلاد، لبيع الأشجار، من نوع "سابينس دى نويل" (Sapins de Noel). هذا المشهد يعتبر مثيرًا لزائر إسكندنافي، يمشي بينهم لابسا قميص "نصف كم"، ويتصبب العرق من جبينه، بينما أعداد من أشجار عيد الميلاد تختفي مع مشتريها. ومن محل مفضل لدي يسمى "الباتسيريا المتميزة" (Patisserie unic) اشتريت خمس كعكات من الصنف الذي أفضله، وهى عبارة عن كعكة على شكل مخروط مغطاة بالكريم وجوز الهند. بعد ذلك دخلت إلى "روجر ليم فونج" (Roger Lim Foong) حيث كان واقفا خلف منضدته في دكانه " كوين أيديال" (Coin Ideal)، لقد حقق أرباحا كثيرة نسبيا، منذ آخر مرة زرته فيها، منذ خمس سنوات. بضاعته توسعت وزادت أصنافها بوضوح، ولاحظت أنه يعرض الكثير من أنواع الخمور المستوردة، على ما يبدو أن حركة بيعه لم تتأثر بافتتاح محل منافس على مسافة قصيرة فقط.

بعد رحلة صعبة تجوالا في شوارع الكريسماس؛ استقرت قدماي في "قهوة فرنسا" (café de France) حتى أحصل على شيء يأكل. هذا المطعم من أحد أغلى مطاعم المدينة، وهو يتميز بأن له شُرفة معلقة خارجة في الهواء الطلق، وتطل على شارع "روت رويال" (Route Royale). وهناك طلبت كعكة تسمى "بول رنفيرسه" (Bol renverse)، وهي تشبه الكعكة النرويجية الكروية التي تشبه القبة. وطلبت أيضا الطبق الصيني المشهور، وهو عبارة عن أرز مفروش على سطح الطبق، ومغطى بخضار ممزوج بالصلصة (الصوص) الصينية المميزة (Chop Suey). إلى جانب هذا نصف لتر بيرة من نوع يسمونه "سوبين" (em Sopinn labyer)، وهو اسم يقابله بالفرنسية "شوبين" (une chopine de biere) وبالإنجليزية "بلسنر" أو"لاجر" (Pilsener or lager beer). وبدأت في تصفح جريدة "L'express" (الإكسبرس) وجريدة "Le Mauricien" (موريشيوس)، الأولى صباحية والثانية مسائية، والجريدتان عادة ما يحتويان على مادة جيدة للقراءة، إلا أنهما في ذلك اليوم كانتا لا تقرأن. العنوان الرئيسي للجريدة "موريشيوس" عبارة عن عنوان وجداني ديني، يستعرض تاريخ عيد الميلاد، أما الجريدة الأخرى " إكسبرس" فيحتوي معظمها على إعلانات موضوعة في إطار من الزهور، لتسويق بضاعة تتناسب مع هذا الوقت ذي الطابع الروحي: إعلانات للشمبانيا، والويسكي المستورد خصيصا لاحتفالات عيد رأس السنة الميلادية، ولعب أطفال إلكترونية، وأدوات زينة (Make up)، وأطعمة مرتبطة "بالكريسماس"، كما توجد أيضا أطعمة حلال خاصة بمناسبة الكريسماس خاصة للمسلمين، وأجهزة "ستريو"، وأجهزة اتصالات من نوع "واك مان"، ومكانس، وغسالات، وأجهزة مطبخ كهربية أخرى. جنون الشراء والاندفاع نحوه؛ ليس أقل في موريشيوس منه في أي مكان آخر في العالم. وفي صيف ١٩٩٢ أنشأ وزير التخطيط نوعًا جديدًا من السندات ليشجع الناس على التوفير، لكن إلى الآن لم يكتب له النجاح. كثير من الموريشيوسيين يعتقدون أنهم أحسن حالا من ذي قبل في السنوات الخمس الماضية. "ألين جيوفرى"

(Aline Geoffrey)- التي تحول اسمها بعد الزواج إلى "ألين ريوكس"، لم تكن مرتاحة للأوضاع تماما. حين تعرفت بها عام ١٩٨٦ كانت عاطلة عن العمل، وتقيم هي وابنتها عند أمها في شقة متواضعة، وفي نهاية العام ساعدتها في إيجاد عمل براتب قليل عند أحد المعارف، الذي كان يدير مصنعا صغيرا لتفصيل القمصان. أما اليوم فقد تزوجت وانتقلت مع زوجها إلى شقة جديدة، وتعمل في عمل ذي راتب جيد في بار للوجبات السريعة، في أحد مراكز التسوق الكبيرة، التي أنشئت مؤخرا في الجزيرة. وأسرتها الآن تمتلك تلفزيونا ملونا، وجهاز "ستريو"، والجهازان اشتروهما بالطريقة الموريشيوسية المعتادة، أي بنظام التقسيط المريح. "ألين" وزوجها "سيرج" (Serge)، وعلى الرغم من هذا التحسن؛ يعتقدان أن موريشيوس مازالت بها مشكلة عظيمة، هي سيطرة الهنود الكاملة على الهيئات الحكومية تحديدا. فبغض النظر عن المؤهلات الجيدة العالية التي يحملها الفرد؛ لا يستطيع الحصول على عمل محترم في الهيئات الحكومية، لو أنه كان من "الكريول". التنهيدة نفسها يسمعها الفرد بصورة متكررة، من معظم "الكريوليين"، فهم يؤمنون أنهم لم يحصلوا على نصيبهم العادل من هذه الرفاهية.

ويمكن أيضا سماع الانتقاد للحالة التي وصلت إليها "موريشيوس" من فريق آخر. فمثلاً، "رولاند" (Roland) – وهو "فرانكو- موريشيوسي" متوسط العمر، ذو نشأة أرستوقراطية- يلخص تصوره للعالم عندما يزعم بثقة متناهية، أن رحلة انحدار الغرب وهبوطه؛ قد بدأت. وبالتحديد عندما نشر "جين جاك روسو" (Jean Jacques Rousseau) "العقدة الاجتماعي"، (Le contract Social) الذي أصبح الكتاب المقدس للثورة الفرنسية. ذات ليلة جلست معه خارج منزله، المبني في جزيرة تملكها العائلة. جلس يدفئ كئوس "الكونياك" بين بطن كفيه، بينما كنا مشغولين بتتبع الأسماك، التي تسبح في المياه المحيطة بضوء بطارية جيب صغيرة. سهرنا في تلك الليلة بما فيه الكفاية، وتركت للساني العنان، وحاولت توضيح أن فكرة تفوق (hegemony) الجنس الأبيض يمكن أن تفهم في ضوء أي

سبب آخر غير العطاء الإلهي. ولم يكن "رولاند" متأخرا في رد الفعل؛ قائلاً: إن الله هو من ولى أول ملك فرنسي "كلوفيس الأول" (Clovis.I) الحكم. وأن ثورة ١٧٨٩ الفرنسية، كانت جريمة بشعة، في حق "عقيدة التثليث المقدسة" (The Holy Trinity).

"رولاند" ينتمي إلى أقلية آخذة في الانكماش والتضاؤل، في موريشيوس. وهي في الحقيقة مجموعة من "الفرانكو- موريشيوسيين"، التي – على قدر استطاعتها- تفكر وتسلك في الحياة، وكأن الثورة الفرنسية لم تقم، ولم تحدث. عندما استقلت موريشيوس اختار الهجرة إلى "جنوب إفريقيا" الكثير منهم ، والبعض الكثير الآخر تعايش مع الوضع الجديد دون مشاكل كبيرة، ولكن البعض القليل منهم – مثل "رولاند"- اختار العزلة وفضلها.

قبل أربعين سنة كانت عائلة "رولاند" تمتلك خمسين ألف متر مربع من الغابات، وهى أرض كافية لإيجارها لخمسين مستأجر. وتمتلك أيضا ممتلكات ضخمة أخرى؛ كافية لتشغيل خمسين آخرين من الخدم. اليوم، معظم هذه المساحة قد بيعت، والمتبقي من أفراد العائلة الذين لم يهاجروا إلى "دوربان" (Durban) بجنوب إفريقيا، تحصنوا في جزرهم الخاصة. وهذه الجزيرة تسمى "إلوت فورتير" (Ilot Fortier) تبعد حوالي ثلاثة كيلومترات من أقرب قرية، وهناك يستطيع "رولاند" ألا يذكره أحد بالتطور السياسي والاقتصادي الذي أدى إلى تغيير اجتماعي في موريشيوس. ولا يذكره أحد بأن الأعراق المختلفة من الموريشيوسيين قد حلوا المشاكل التي اعتبرها البريطانيون والفرنسيون؛ مشاكل مستعصية على الحل، وهي أن يقبل بعضهم العيش مع البعض الآخر. أما بالنسبة لــ"رولاند" وأمثاله، فإن المعركة قد خُسرت، وإن "البربرية قد انتصرت". والبربرية التي يقصدونها هي نفسها؛ التي دفعت آباءهم للهجرة من فرنسا، معارضين للديمقراطية الوطنية، وحكم الأغلبية، في أثناء الثورة الفرنسية. وها هو"روندلا" يستكمل

مقاومته لها، على الأقل، في منزله. في أثناء تناول الغداء، أشارت أمه العجوز- وهى سيدة فظة تقارب الثمانين من عمرها- إلى التليفزيون قائلة: "الآن وبينما نحن نأكل الطعام الأوروبي الجيد والنبيذ الجيد، يجلس رئيس الوزراء "جوجناوث" (Jugnauth) في المطبخ، ومعه زوجته أمام "فرن الغاز"، يبتلعا "الفراثة" (faratha)، و"الدال بورى" (dall puri) ويلتقطها بأصابعه.. أوف". وهناك هز ولدها رأسه مؤمنا، وغمغم يقول: "الخطأ في هؤلاء أنهم يفتقدون الذوق الرفيع والجاذبية، وتلك هي المصيبة".

هذا الصلف "الأرستوقراطي" قد خسر منذ زمن طويل، والناس من مثل "رولاند" يمثلون طبقة منقرضة، أو "هابطة" لو أردنا استعمال مصطلحات "كارل ماركس". عائلة "رولاند" لم تستثمر النقود بعد بيع الممتلكات. وإذا كان صحيحا ما يقال: إن الكريولي لو امتلك عشر روبيات ينفق خمس عشرة، بينما الهندي ينفق سبعا فقط؛ فإن من الصحيح القول: "إن الفرانكو- موريشيوسى" من أمثال "رولاند" ينفق عشرة آلاف على الويسكى، وتعيين بستاني أفضل من أن يشترى أسهما في رأسمال مصنع للنسيج، مثلا. ولا يحتاج المرء إلى "ماكس فبر" (Max Weber) (عالم الاجتماع الألماني) ليعلمنا أن مثل هذه الطبقة خاسرة في "الاقتصاد الرأسمالي". مثال آخر مخالف تماما. وهو مثال يمثل المستقبل: "مالن أوديا" (Malenn Oadiah) متخصص في علوم الاجتماع السياسي، وكان من أعضاء حزب الثوريين المسلحين. وكنت حينئذ قد بدأت في دراستي الميدانية في عام ١٩٨٦، بينما كان هو يعد أطروحة للدكتوراه عن النقابات العمالية، وفرص زيادة تأثيرها في المجتمع. وهو اليوم من كتاب الصحف، ويكتب تعليقات ومقالات نقدية. وفى الوقت نفسه فهو مسئول عن تطوير "سلسلة فندقية"، ومع بعض الزملاء أنشأ بيتا للخبرة. وتبعا لتصور "مالن"؛ فإن موريشيوس تواجه مشكلتين كبيرتين، تمثلان عائقا في سبيل تطوير الاقتصاد. ويجب التغلب عليهما لو أريد النجاح لتنفيذ المرحلة الأولي لتصنيع الجزيرة.

المشكلة الأولى تتمثل في التعارض بين: نظام تعيين أهل الثقة والمعارف (Cleintism) وأفراد العائلة (nepotism) من ناحية، وتعيين أهل الكفاءة أو "الميرتوقراطية" (meritocraey) من الناحية الأخرى. وهذا بالطبع يؤدى إلى ضعف في كفاءة الأجهزة والهيئات الحكومية، مما يؤدى بهذه الهيئات إلى عدم القدرة على المنافسة، ودفع مرتبات مجزية، مثلما هي الحال في المؤسسات الصناعية المختلفة. أما المشكلة الثانية فإن الناس في الجزيرة أمامهم طريق طويل لتعليم "الثقافة المؤسسية"، أو "ثقافة المؤسسات" (organization culture). لعشر سنوات أو تزيد، تردد على سمع الناس؛ أنهم لا يصلحون لشيء، وهم يشعرون ب"الدونية" (inferiorty)، وأصبحوا تابعين خاضعين لسيدهم الأبيض (white patrons)، وبالتالي فهم لم يتعودوا على أخذ المبادرة، وتحمل المسئولية. وهذا ينسحب أساسا على الكريوليين. فلو أعطينا موقعا قياديا لأحد الكويوليين؛ فلن يعرف كيف يتصرف، ولا يستطيع اتخاذ قرار، وذلك سهل الفهم لأنه ببساطة كان دائما تابعا طائعا، ولم يمارس إعطاء أوامر قط.

هل تحليل "مالن" هذا؛ صواب؟ في صباح اليوم التالي أخذت "الأتوبيس" إلى "كاس نويال" (Case Noyale)، وهى قرية (السماكون) التي كنت أجريت فيها دراسات ميدانية في فترة سابقة؛ حتى أطلع على التطورات التي أحدثتها المعجزة الموريشيوسية في مثل هذه الأحياء الشعبية.

في "كاس نويال"، كان كل السكان تقريبا من الكريول. ومن النظرة الأولى بدت، وكأنها كما كانت من قبل لم يحدث بها أي تطور للأسف. الأتوبيس القادم من "كواترا- بورنس" (Quatre- Bornes) توقف- كما كان دائما- بصوت متهالك، أمام بناء وحيد من الصفيح، مجهز بهوائي للتلفزيون يعلوه الصدأ، ومثبت على سطح يغطيه الصدأ أيضا. وقريب من ذلك، "بيير ليم شانص" (Prerre Lim chans)، وهو محل لبيع احتياجات المنزل اليومية، لم ينل نصيبه من مختلف الأصناف التي يبيعها، ومن الترتيب والنظافة. في الصباح تأتيه النساء لشراء ما

يحتاجونه من أرز وصابون. ويأتي السماكون من بعد العصر لشراء عشرين سمكة من سمك "المتلوت" (Matelots) والبيرة، وهناك يتجاذبون أطراف الحديث ويتجادلون. وهناك ترى وسيلة النقل في الأزقة "التونتون" (Tontons) المتهالكة. وترى الأطفال الذين تغيبوا عن المدارس ينتشرون هناك معظم اليوم، حيث يؤكد ذلك انعدام وجود مكان أفضل في الحي لقضاء أوقات فراغهم. وعلى الجانب الآخر من الطريق؛ يجلس الرجال في مجموعات صغيرة، تماما كما كان من قبل. تحت ظل شجرة ضخم من نوع "البانيان" (Banian) يتبادلون السجائر بينهم. وعلى اليمين من المحل، تقف النساء عند مضخة المياه يتبادلون الأخبار. وصاحب المحل نفسه "بيير" يقف خلف "الديسك" بقميصه التحتي أو الصديري (Singlet)، الذي كان يرتدي مثله منذ خمس سنوات، وهو يبيع الأرز والبيرة والبلاستر والسمك المجفف، والويسكى الرخيص المصنوع من السكر، ويسمونه "سبشيال" (Special)، ونبيذ الفاكهة الأرخص من الويسكى، ويسمونه "مالاجا فرانسيس" (Malaga Francais)، ويبيع حبوب الصداع، وسمك "المتلوت"، ونوعًا آخر من سمك أغلى سعرا يسمى "الماتينيس" (Matinees). أما عن "بيير" نفسه، فقد قلّت أسنانه عن ذي قبل. واللون الأحمر الذي غطى بشرته تحت الجفن الأسفل لعينيه؛ يشهد على بدء مرحلة الشيخوخة. هذه السنين التي مرت جعلت من الصعب عليّ التعرف عليه.

هذه الصعوبة، وجدتها في التعرف على أسرتي المضيفة سابقا، "كوتا" (Coote). لقد أصبحوا أكبر سنا، وأكثر فقرا، ويبدو عليهم الإجهاد أكثر من ذي قبل، ومازالوا يقيمون في منزل من ثلاث حجرات، دون كهرباء أو ماء تصل إليهم. ومازالت الحشائش العالية تحيط بالمنزل، كما هو معتاد. وبعد دقائق من الترحيب الحار النابع من القلب، وإبداء الفرحة بالهدايا، أحسست وكأنني لم أغب عنهم قط. بعد دقائق معدودة؛ تذكر الأولاد الجملة التي رددوها من قبل: "مستر توماس من فضلك أعطني بعض الدراهم". أما ابنهم الأكبر "جاك" (Jacque) فما فتئ رأسه مملوءًا بأحلام اليقظة، عن المشاريع التجارية غير القابلة للتحقيق، التي تحتاج أموالا طائلة لتحقيقها.

الكريوليون، أو الكريول، يحفظون جملا يرددونها كثيرا إلى درجة الملل:"لا تتعب رأسك بالفكر، فذلك لا يعود إلا بوجع الرأس". "لا تفكر كثيرا، ودع الخلق للخالق". "اشرب والعب بالكارت"، و"كن لطيفا وكريما". الناس في حي السمك، شديدو اللطف والبشاشة، لا حدود للطفهم وبشاشتهم. لا يتعاركون أو يتجادلون، يساعدون بعضهم بعضا بالمال على قدر ما يمتلكون. يدعون كل من يقابلونه للزيارة، والأكل. ويقضون ساعات طائلة مع بعضهم بعضا. وربما تكون أنماط السلوك هذه، هي التي جعلت قطار التطور يفوتهم. أسلوب حياتهم لا ينسجم، ولا يتصالح أبدا مع المجتمع الصناعي، الذي يبعد عنهم ساعة واحدة فقط بالأتوبيس. والكريوليون- أبناء العبيد- هم الخاسر الأكبر، في "التحول الموريشيوسي". رغما عن ادعاء الكثير منهم السعادة بما لديهم. ولكن هل لديهم العسل والزبد؟ من الصعب الإجابة بنعم. إذا؛ هل تحليل "مالين" وتشخيصه لحالتهم؛ فيه شيء من الصحة؟ هذا الذي لا جدال ولا شك فيه.

٥

ذات مساء استوائي الطقس، جلسنا في شقة "مالين" الحديثة، التي تقع وسط المدينة "روز-هيل"، وبدأنا في تجرع كئوس البيرة المثلجة من نوع "العنقاء" (Phoenix Lager)، وبينما كنا ندخن السجائر من نوع "الماتنية" (Matinees)، و"ثلاث خمسات" (555)، ونشعل السيجارة من الأخرى؛ سألت "مالن" عما يتوقع لمستقبل الاشتراكية في موريشيوس، فقد كان ما يثير دهشتي أنه لا يوجد اشتراكيون في الجزيرة، رغما عن مظاهر الفقر. وبالطبع لابد وأن ذلك يمثل واقعا مثيرا لفكر الاشتراكيين القوميين. وعلى ما يبدو أن موريشيوس التي اختارت

"النظام الليبرالي"؛ قد نجحت في تطبيقه نجاحا فائقا، لدرجة أن معظم الناس راضون به.

وجاء جواب "مالن": أولا، ليس صحيحا تماما أن الرأسمالية تطبق بشكل كامل وعميق في موريشيوس". واستطرد: "مازالت إيديولوجيا "دولة العدالة الاجتماعية والرفاهية" موجودة، وكثيرة الانتشار هنا". التعليم المجاني، والعمال لهم الحقوق نفسها مثل نظائرهم في البلاد الأوروبية، وحرية التعبير بصورة كاملة، أيضا موجودة، واللامركزية في الإدارة. ولذا فإن تشبيه موريشيوس بسنغافورة – كما يحلو للبعض أن يفعل، خطأ جسيم. "ثانيا، وعلى سبيل المثال، إن من الجنون أن نحدث الناس عن عالم طوبوي، تزول فيه العلاقة بين "الإنتاج"، و"القوى المنتجة". إن الناس يرغبون؛ أن يمتلك كل فرد منهم منزلة. ويريدون حمامًا دافئا في الصباح. ويشاهدون أفلامًا يوم الثلاثاء في منازلهم بالألوان. ويتمنون أن تمتلك الأسرة؛ سيارة صغيرة تحملهم إلى شاطئ "فيليك فلاك" (**Flic-en-Flac**) أيام الآحاد. مثل هذه الأمنيات وغيرها؛ يجب أن يحترمها المجتمع، ولكن على الفرد أن يعمل لتحقيقها. وأن يأخذ في الحسبان، أنه توجد أولويات". الهوة كبيرة بين الفقراء والأغنياء، وهي مازالت كبيرة، وإن كانت آخذة في الانكماش، والمثقفون الموريشيسيون منزعجون من "الآثار الاجتماعية والثقافية"؛ لمثل هذا التغير المتسارع. لقد أصبحت موريشيوس بلدا صناعيا. وهي تصنع بدرجة أكبر من كثير من البلاد الأوروبية، بما فيها النرويج. ولكن قطاع كبير من المواطنين، ما فتئ أسلوب حياتهم عميق الاختلاف؛ عن ذلك الأسلوب المتمدين، رغم دورة عجلة الزمان. وكثير من الناس، من بدأ في سكب دموع الحزن على الماضي، ماضي ما قبل التسعينيات من القرن الماضي. حيث كان يسمح وقتهم للقاء مباشر لأفراد العائلة والأصدقاء وجها لوجه، لا يحتاجون للتليفون المحمول المتنقل، ولا لمفكرة تذكرهم بالمواعيد. حين ذاك كانت الأتوبيسات أقل نظافة وسرعة عنها الآن، ولكن كان يسمح للراكب أن يجلس في المقعد الخلفي، ويتلذذ بتدخين سيجارته. وبينما بائعو الفول السوداني يتجولون خلال الأتوبيس؛ لبيع أكياس صغيرة معبأة بالفول المملح

المحمص، التي لا يزيد سعرها على روبية واحدة. وهم يعرضون بضاعتهم بطريقة رديئة؛ وكأنهم يفرضونها عليك. من بضع سنوات صدر قرار بمنع بائعي الفول السوداني من الدخول لوسائل النقل العام. ولكن ما هي إلا فترة قصيرة، وما عاد أحد يقيم وزنا للقانون، "وعادت ربما لعادتها القديمة"، وهذا هو الطبيعي في موريشيوس. الطلاق أصبح شيئا عاديا في المدينة. ومشاكل المخدرات زادت وتضخمت منذ بداية التسعينيات. واليوم، وعلى الرغم من اختفاء الهيروين تقريبا، يعتقد أنه قد استبدل بمخدرات مصنعة مستوردة. أيضا، أعلن مؤخرا في موريشيوس أول حالة "إيدز". وفي بعض الحالات والمواقف، تذوب الفروق العرقية. وذلك عندما يعمل الهنود، والمسلمون، والكريول في المكان نفسه، فيصبح من الصعب الاحتفاظ بالمسافات بينهم. إنهم في القارب نفسه، ويعملون العمل نفسه، ومضطرون للتعاون مع بعضهم بعضًا. وفي كثير من الأحوال، تم الزواج فيما بينهم. هذا التطور يمكن أن يمثل في الواقع، بداية النهاية للتفرقة العنصرية في موريشيوس.

بين المجموعات العرقية المختلفة في موريشيوس كثير من "المشترك" من الناحية الثقافية. الغالبية منهم، لهم "لسان" واحد: "الكريولية". اللغة التي وُلدت ونشأت في عهد الاستعباد، والتي تطورت أساسا من الفرنسية. أما اللغات الهندية، مثل "البهجبوري" (Bhojpuri)، فهي في تراجع واضمحلال. الموريشيوسيون- بوجه عام؛ يشاهدون البرامج التلفزيونية نفسها. ويقرءون الصحف المنشورة باللغة الفرنسية نفسها. ويرسلون أطفالهم إلى المدارس نفسها. ولهم تخصصاتهم في الوظائف نفسها في أسواق العمل. كل هذا لم يكن من قبل؛ عندما كان الهنود عمال صناعة السكر والكريوليون صيادى سمك. حيث مجموعات من العمال، وأخرى من الصيادين، عاشت معزولة، والاتصال بينهم قليل.

في الوقت نفسه، فهناك توافق واسع على أن تبقى موريشيوس مجتمعًا متعدد الأعراق. وعلى الرغم من أن الهنود يمثلون الأغلبية من حيث العدد، لم يحدث إطلاقا أن طالبوا باقي السكان ليصبحوا هنودا. التخويف القديم - الذي يستخدمه

بعض السياسيين الماكرين المتسلقين- من مثل: "الكاثوليكي المؤمن، سيضطر بناته إلى لبس "الساري"- لباس المرأة الهندية، لو فاز خصومهم السياسيون بالانتخابات، وجاءوا إلى الحكم"؛ أثبتت التجارب الانتخابية أنه أصبح غير فعال. بل تعتبر مثل هذه الأقوال مجنونة تماما. الأمة الموريشيوسية- لو جاز هذا التعبير- تُبنى على التسامح، والتعدد، والعيش المشترك جنبا إلى جنب. وفي محاولة إيجاد رموز ثقافية قومية يقبلها الجميع؛ حاول السياسيون إيجاد حلول وسطية، تم التفاهم والاتفاق عليها، حتى لا تقدم موريشيوس للعالم وكأنها ذات مجموعات عرقية مختلفة. المشاهير، والمناسبات التي استخدمت في فترة الاستعمار، تستخدم الآن بوصفها رموزًا قومية مشتركة. ولا تجد في موريشيوس عموما، من يتحفظ على فترة الاستعمار. أما اللغة الإنجليزية، فهي مقبولة من الجميع، ومتعارف عليها لتكون هي اللغة القومية. وهذا على الرغم من عدم وجود مجموعة عرقية تكون الإنجليزية بالنسبة لهم هي لسان الأم. وفي الوقت نفسه فكل المجموعات العرقية مدعوة للاحتفاظ بعادتهم، وتقاليدهم التي تميزهم. اللغات الشرقية، التي نُسيت تقريبا؛ يمكن تعلمها في المدارس كلغة أجنبية. وفى السنوات الأخيرة افتتحت مراكز ثقافية إفريقية وصينية. أما الراديو والتليفزيون؛ فيتم إرسال البرامج بسبع أو ثماني لغات مختلفة. ورغما عن أن الفرد يتبع أقلية عرقية- "التيلوجويون" (-Telugu) مثلا نسبتهم لا تتجاوز اثنين ونصف في المائة من السكان؛ فإن الجميع لهم حق في مشاطرة وقت الإرسال.

شعار الموريشيوسيين هو: "يعيش التعدد والاختلاف" (**Vive la difference**). وحديثا حذر رئيس الأساقفة (**Archbishop**) الموريشيوسى "جين مارجوت" (**Jean Margeot**) من أن ألوان "قوس قزح" قد اندمجت مع بعضها، ثم قال: "دعونا نحتفظ بالألوان منفردة، فإن "قوس قزح" الموريشيوسي بديع الجمال". وفي موريشيوس لا يجد المرء سياسيا واحدا؛ يدعو المجموعات العرقية المختلفة علانية؛ للزواج المختلط، طوال فترة حكمه الخمسية. ولكن ما الذي يحدث في الواقع؟ الذي يحدث هو أن أعداد الزيجات المختلطة تتضاعف في كل عقد، وذلك

منذ ١٩٦٠. ويمثل الزواج المختلط الآن عشرة في المائة من كل الزيجات. أي قومية ينتمي إليها طفل هو ثمرة زواج "كريولي- هندي"؟ هل تضيف الأم من ثقافتها؛ أكثر مما يضيف الأب؟ أم أن الأطفال يصبحون كريوليين رغما عن الجميع، لأن الثقافة الكريولية أكثر انفتاحا ومرونة، من الثقافة الهندية؟ وأي مشاكل نفسية؛ تتطور عند الفرد، عندما يفقد "هويته العرقية"، بينما يعيش في مجتمع، يُصنف الناس فيه أساسا على الانتماء العرقي؟.

كثير من الموريشيوسيين يعتقدون أن الزواج المختلط؛ محكوم عليه بالفشل. وعندما أعلنت رغبتي في دراسة هذه الحالات، أخبرني أحد المعارف بحزن وألم: أن أفضل مكان لدراسة الزواج المختلط هو كوبري "لو بونت دى ريدويت" (**Le pont de Reduit**). هذا الكوبري، وهو الأعلى في موريشيوس؛ هو مكان الجريمة المفضل للانتحار، لكثير ممن قضى عليهم القدر بالحب الممنوع المحرم، من الشبان والشابات الصغار.

تماما مثل كثير من الدول الأخرى، ينقسم الموريشيوسيون بين محافظين، وحداثيين. المحافظون يسعون إلى التعرف على قرى آبائهم، وتحديد "الملامح الثقافية" (**cultural feature**)، والبحث عن جذورهم العائلية. الحداثيون ينظرون إلى المستقبل، ولا يجهدون أنفسهم في أي من الأحوال؛ بالبحث المضني عن جذورهم وأصولهم. نأخذ على سبيل المثال الكاتب الصحفي "جلبرت أهنى" (**Gilbert Ahnee**)، إنه يدخن سجائر "جيتان" (**Gitane**) الفرنسية، ويشرب القهوة "الإكسبرسو" (**ekspresso**) الإيطالية، وهو مثقف ولد في قلب المدينة "روزهيل"، يقول بلهجته الباريسية، التي اكتسبها في أثناء دراسته هناك: "أيجب عليّ أن أبدأ رحلة البحث عن أصلي؟ ويجيب بالنفي. ويستطرد قائلا: "انظر إليّ- "أهنى" يتميز بحول خفيف في عينيه، وشعر متوج، وبشرة خمرية (**golden skin**)، وشعر ذقنه مائل للاحمرار- إن جذوري موزعة على الأقل بين ثمانية بلاد: بداية من مقاطعة "والز" (**Wales**) في غرب المملكة المتحدة، و"برتاجن" (**Bretagne**) في الشمال

الشرقي الفرنسي؛ إلى "كانتون" (Canton) في الصين، و"كالكتا" (Calcutta) في الهند، هل يجب عليّ إذا؛ أن أبدأ البحث عن مولد آبائي وأجدادي؟! إنه العبث بعينه"، ويحرك ذراعيه يائسا ثم يشعل سيجارة "جيتان" جديدة بلطف.

٦

في موريشيوس كما في كل الأماكن الحديثة، يجد المرء تقاطعًا بين تيارين: أحدهما عالمي، والآخر محلي. حزب "لاليت" (lalit)- التي تعنى الجهاد- مثلا؛ اتخذ رمزه المطرقة والمنجل الطويل، الذي يستعمل في موريشيوس لقطع قصب السكر؛ بدلا من الرمز الشيوعي المطرقة والمنجل المعروف، وذلك على الرغم من اعتناقهم "التروتسكية" (Trotskyism) المتحفظة(*). الفرقة الموسيقية المحلية تغني باللغة الكريولية، ويسمون موسيقاهم "السيجا" (Seggae). والاسم مشتق من اسم موسيقى "الريجا" (reggae)، التي اشتهرت على يد "بوب مارلي" (Bob Marley) في السبعينيات، والموسيقى المحلية "السيجا" (Sega). ومثل هذه الأشكال المختلطة (Mixed Forms) المتلاقحة ثقافيا، نجد مثلها في كل أنحاء العالم. لكن الذي يميز الثقافة الموريشيوسية؛ أنها ناشئة من ثقافات كثيرة ومتنوعة. ويبدو أن كل تيار منهم وكأن جذوره قد جاءت من الخارج عبر البحار. وربما يمكن القول: إن ثقافة الجزيرة ربما تكون مولوذا شرعيًا، شديد الارتباط بالخارج. وعادة مثل هذه الثقافة؛ ما تعاني من "عقدة النقص" (inferiority Complex) - (أو عقدة جمعة

(*) التروتسكية، مذهب سياسي شيوعي متطرف. ينسب إلى "ليون تروسكي"(١٨٧٩- ١٩٤٠) الثوري الروسي. وكان يدعو إلى ثورة عالمية شاملة في السياسة والاقتصاد والاجتماع. وأصبح المذهب يطلق على كل مذهب اشتراكي متطرف. (المترجم)

تبعا لرواية "روبنسون كروز" أو رحلات روبنسون للكاتب دانيال دفور (**Daniel Defor**)- التي تولد الرغبة الشديدة في تقليد ثقافة المدن المركزية العظيمة. ومع ذلك فإن الهنود في موريشيوس، يؤمنون أنهم شيء آخر غير الهنود في الهند. والكريوليون واثقون من أنهم لا يستطيعون أن يصبحوا فرنسيين، أو إفريقيين أبدا. كذلك الفرانكو- موريشيوسيون متفقون على أنهم لن يصبحوا فرنسيين. لكن هذه المعرفة؛ لا تمنع شوق الانتساب إلى أوروبا، عند كثير من الموريشيوسيين. ولا يتوقف هذا الشوق للانتساب؛ عند ذوي البشرة الملونة فحسب، بل يتعداه إلى أخرين. وربما تكون الحقيقة هي المقولة: "إن موريشيوس وجدت عن طريق الخطأ؛ ثمانمائة كيلو متر شرق مدغشقر، وإن مكانها الطبيعي الذي أريد لها بداية هو البحر المتوسط".

إن موريشيوس ابن شرعي: للمدنية الحديثة، وللمبتكرات التكنولوجية التي ساهمت في إيجاد المكتشفات العظيمة. وهي ابن شرعي لـ"المركنتلية" (**mercantilism**)، وهى السياسة ذو الأضلاع الثلاثة، اللازمة لتعزيز ثروة الأمة عن طريق زيادة الزراعة والصناعة والتصدير. هذه السياسة التي اتهمها المؤرخ "أريك ويليم" (**Aric Williams**) بأنها كانت ضرورية لتعاظم الرأسمالية الصناعية. و"أريك ويليم" هو الذي ألف كتاب "الرأسمالية والعبودية" (**Capitalism and Slavery**)، والذي أصبح بعد ذلك أول رئيس وزراء "ترينيداد وتوباجو" (**Trinidad and Tobagos**). وعلى عكس جزر الكاريبي؛ فإن موريشيوس لم يكن بها سكان أصليون عندما سُكنت أول مرة. ولقد بدت للبعض حينها أن موريشيوس العذراء، هي مثال رائع للجنة الطبيعية- رواية الحب الشاعرية المرهفة "بول وفرجينيا" (**Paul et Virginie**) التي كتبها أحد حواري جاك روسو، الكاتب "بيرناردين دى سانت بيرز" (**Bernardin de Saint- Pierres**)- خير مثال يبين هذا الإحساس. وتبدو موريشيوس للبعض الآخر؛ بوتقة انصهار لسلاطة الفواكه العرقية، التي تعطى

صورة للمدنية ووجوهها الكثيرة المدهشة، حيث تذوب العديد من السمات الثقافية في بعضها بعضًا، بينما يحتفظ بالبعض قائما بذاته عن وعي وقصد.

هل موريشيوس أمة؟ تبعا للاسم فإن الإجابة هي: نعم، في المرتبة نفسها مثل الولايات المتحدة الأمريكية، والجمهورية الفرنسية، وكينيا. لكن لو قارناها ببلاد أخرى كثيرة - مثل معظم البلاد الأوروبية؛ فسيكون من الصعب استنباط تاريخ واحد واضح، وغير ضبابي للأجيال الحديثة. فلا يمكننا مثلا، الحديث عن قرابة، ورباط دم، وجذور عرقية؛ يمكن نسبها إلى أي مكان واحد. السياسيون والمثقفون يعملون دأبًا بجد واجتهاد لخلق أساطير مشتركة، ورموز قومية مشتركة، ومشاعر قومية موحدة. باختصار يحاولون خلق: "أمة واحدة"(*). والدرس الذي يمكن تعلمه من الحالة الموريشيوسية هو؛ إن بناء الأمة الواحدة، يكون أفضل لو كان طبيعيا، وغير مخطط له، فليس في مقدور أحد أن يخلق شعورًا قوميًا مشتركًا باستصدار قوانين رسمية، والحال في ألمانيا الشرقية يؤكد ذلك. وبدلا من محاولات الخلق؛ فإن الشعور القومي المشترك للموريشيوسيين قد أخذ خطوات واسعة في التبلور، دون أن يخطط لذلك أحد. ولقد ساعدت في ذلك الأحداث العنصرية العرقية، التي وقعت في الستينيات، من القرن الماضي، والتي أوضحت للناس أهمية التعايش في ظل "التسامح العرقي". سبب آخر لا يقل أهمية في تبلور الشعور القومي تلقائيا، ووصوله إلى قمم عالية جديدة، هو: الأوليمبياد المصغر الذي أقيم في "البحر الهندي" في ثمانينيات القرن الماضي. في هذه الفترة، ما بين أواخر عام ١٩٨٥ وعام ١٩٨٦؛ حصلت الدولة الموريشيوسية - دون محاولة منها- على أول شعار قومي لها. كان ذلك عندما مات مؤسس الدولة "السيد سي وساجور رام

(*) Gemeinschaft بالألمانية، تعني تجمع بشري نشأ بطريقة طبيعية، ونشأت بينهم روابط وعلاقات اجتماعية عضوية، تتصف بأنها علاقات وروابط قرابة ونسب متبادلة وقوية ووجدانية. والمصطلح لا مقابل له في الإنجليزية والنرويجية، ويستعاض عنه بكلمة "مجتمع" أو society. وربما تكون أفضل ترجمة له بالعربية هو "أمة واحدة" (كبيرة أو صغيرة). (المترجم)

جولام" (Sir Seewoosagur Ramgoolam). "رام جولام" هذا، هو أول رئيس وزراء لموريشيوس، والذي أصبح بعد موته؛ رمزا طيبا، إلى درجة أن كل الموريشيوسيين قبلوه كرمز لدولتهم. ورغما عن أنه لم يسلم في أثناء حياته؛ من الهجوم عليه وانتقاده. قيل عنه إنه الزعيم الأوحد للهنود، واتهم بالفساد الذي لم يحصن نفسه ضده، واتهم بالمحسوبية (nepotisme)، وأنه "فرعون عجوز" (old man dominion). ولكن الآن، يتحدث عنه الكريوليون والفرانكو- موريشيسيون باحترام عظيم. يرجعون إليه بناء الجسور بين العادات والتقاليد المختلفة. وعندما أجريت له "طقوس حرق الجثة" (cremating) في القصر العظيم "جاردن دي باميليموسس" اختير بذكاء مقطوعة موسيقية مناسبة لوداعه. لقد كانت لأحد مؤلفي الموسيقى ذي الأصل المزدوج، إنه "شوبان" (Chopin) البولندى- الفرنسي. وهكذا أصبح "رام جولام" رمز التسامح، والتوافق الموريشيوسي.

إن ما يميز الموريشيوسيين هو أن كل واحد من مثقفيهم متعجل لبناء الأمة، يريدون الإبقاء على التعدد الثقافي بالطريقة الموريشيوسية، ويريدونها الآن وليس غدا. إنهم هم الذين عارضوا حزب "ثرى إم" (MMM)؛ عندما رغب في التغيير الثقافي. أراد هذا الحزب أن يستصدر قانونا يتخذ الكريولية لغة قومية. وكان موقفهم من هذه السياسة أنها سياسة غير مقبولة بالمرة، ومثلوها بقرار يتخذ بتخفيض الدعم عن الأرز، الذي يأكله الجميع. في مثل هذا الاتجاه، الذي لا شعبية له في السياسة الثقافية، ومحاولات فرض الثقافة الكريولية من خلال قوانين ومراسيم؛ يحاول "الماوي" – (نسبة إلى ماوتسي كونج الزعيم الاشتراكي الصيني) – "دف فيراهساومى" (Dev Virahsawmy) طيلة فترة الاستقلال، أن يبذل جهدا مضاعفا بمفرده؛ لتغيير السياسة الثقافية. "فيراهساومى" شاعر وباحث، حصل على جوائز في الدراما. في عام ١٩٦٦ كتب أطروحته العلمية عن اللغة الكريولية، في الجامعة في "إدنبره" (Edinburgh) باللغة الإنجليزية، واستمر يعرض دواوين شعر "يوتوبى" بالكريولية، وفى هذا تناقض بما فيه الكفاية. لكنه، على أية حال، تناقض

من الممكن قبوله والتسامح فيه؛ على عكس مشروعه الذي ينادي فيه بالوحدة الدينية. منذ سنتين أحضر "فيراهساومى" البخور، وأحد تماثيل "كريشنا" (Krishna) في كاتدرائية "بورت – لويس" (Port-Lauis)؛ ليحتفل بعيد "الدوالي" (Diwali)، وهو "عيد النور" عند الهنود. وبعد شهرين، وبالتحديد في الخامس والعشرين من ديسمبر، أي في عيد ميلاد المسيح (عليه الصلاة والسلام)؛ زين بيته بتماثيل "بوذا"، ومهد ممشى حتى أقرب "كاليماى" (Kalimai) بالكافور (Cappher). و"الكاليماي" هو المكان الذي يضحي فيه أفراد "الكاست" الأدنى من الهنود تبعا لعقيدتهم.

الذي غاب عن بال "فيراهساومى" وهو في عجلة من أمره، أن موريشيوس مليئة بالمتدينين المؤمنين، وهؤلاء يتوجهون إلى قياداتهم الدينية؛ لتلقي الهداية والرشاد بدلا من توجههم إليه. وكانت النتيجة الطبيعية لمحاولاته في بناء جسور الوحدة الدينية؛ هي المرارة والألم. بعدها بدأ عمق الاختلافات العرقية يظهر للعيان، ويؤكد على أن الوجه الآخر للتسامح الطائفي، يمكن أن يكون له التأثير نفسه في المجتمعات متعددة الأعراق والأديان.

٧

محاولات السياسيين والمثقفين كانت تسير جنبا إلى جنب؛ لإيجاد توافق وتناغم، بين الثقافات المختلفة، وربما نتيجة لذلك، تظهر وتنمو ثقافة جديدة في المشهد الاجتماعي. هذا التطور ليس هو نفسه ما تطلق عليه الأحزاب السياسية "احترام العادات والتقاليد" في شعاراتهم الانتخابية، أو الذي يسميه المثقفون "التعدد الثقافي". هذه الثقافة الخاصة يمكن وصفها: إنها ثقافة ليس فيها – على الأقل؛ سب "المسيح" (عليه الصلاة والسلام)، أو "فيشنو" (Vishnu)، أو "لينين" (Lenin). إنها

ثقافة، تقبل وترحب بترجمة القرآن إلى الكريولية، وأن يرقص رئيس الوزراء "جوجناوث" (Jugnauth) "السيجا" (Sega). أما الواقع الجامد فهو ذو طابع اقتصادي. فمجتمع موريشيوس، في الطريق إلى الاندماج في نظام اقتصادي خاص موحد وموجه، والمصانع تترجم بعد وقت قصير. وتكون النتيجة في صورة مساكن وفيلات، وبناطيل من ماركة "ليفيس" (levis). وواقيات حمل ذكرية، وكوكايين، و"سيلفستر ستالون" (Sylvester Stallone)، وآخر المنوعات الغنائية التي يقدمها تليفزيون الموسيقى (MTV). إنها في الحقيقة تبدو وكأن ثقافة أمريكا الشمالية تزيل التناقض والاختلافات بين الأوروبي، وروح الجماعة التي نراها في سلوك المجتمع الآسيوي والإفريقي في موريشيوس... ربما؟

ساكنو موريشيوس، هم من بين أكثر الناس حداثة، ومدنية في العالم. وفى الحقيقة فإن تاريخ الجزيرة يبدأ مع تاريخ الحداثة والمدنية. لقد كُتب تاريخها بدقة؛ من أول يوم في مراجع متاحة، ولا يوجد فيه فترات منسية، أو ضبابية، غنية بالأساطير، وأبطال تاريخيون. كل ما في الجزيرة متسم بثقافة معروفة التاريخ وموثقة. الروايات والقصص والأساطير "الهندو- موريشيوسية"، والكريولية، عن الأيام الخوالي؛ دائما ما تصف وقائع وردت بدقة وتفصيل، في المصادر التاريخية. أسماء الجبال والقرى هي نفسها التي مازالت تستعمل حتى الآن. القصص والأساطير التي تروى عن "أصول وجذور الأفراد" - وبوجه عام، فإن جميع "ماكينات الكلام" التي تتجاوز حقائق التاريخ، حسب تعبير "ليفي شتراوس" (Levi-Strauss)- لا تصلح للعمل، ولا الإقناع"؛ فتاريخ الطوائف كلها واضح، وشفاف ويعرفه الجميع.

على العموم فإن هذا مشهد من الصورة، ولقد ذكرت من قبل كيف نسيت وأصبحت حوادث الصدامات العرقية التي وقعت في الستينيات من القرن الماضي في عداد الأساطير للجميع. رغما عن ذلك فإن الانتساب العرقي مازال هو الأهم،

الطوائف المختلفة دائبة المحاولة لجلب تاريخ لها، والمحافظة عليه من قبل أن تنقطع الروابط مع التاريخ القديم، ويصبحوا لا جذور لهم. كثير منهم يتوجه بقلبه إلى الهند. آخرون يتطلعون إلى فرنسا، في بحثهم عن جذور ضاربة في الأعماق، في محاولة لتأصيل هويتهم الشخصية. أما الصينيون فهم ما زالوا حديثي العهد بالجزيرة، ولم يتركوا الصين إلا منذ زمن قصير، وبالتالي لم يتولد لديهم إحساس، وحاجة إلى إعادة الاتصال مع وطنهم القديم. (على عكس السود في العالم الجديد، يوجد حوالي ثلاثمائة ألف مواطن ذي نشأة إفريقية - كلية كانت أم جزئية- يتوجهون بفكرهم ناحية إفريقيا). بعض الهنود الموريشيوسيين يحجون إلى الهند؛ في محاولة لإيجاد نسب لهم، بعد أربعة أو ربما خمسة أجيال. "كول فينكاتاسامي" (Coll venkatasamy) واحد من هؤلاء، كتب مقالا يسخر فيه من نفسه، تحت عنوان مثير وساخر: "عند أهلي كونتا كينتير"، في نهاية المقال اضطر لقبول نتيجة محاولته السخيفة، في البحث عن موطن آبائه، في أنديرا براديش (Andhra Pradesh)، حيث وبعد جهد جهيد ومرور فترة زمنية طويلة، وجد قرية يمكن أن تشبه الوصف الذي وصف له عن موطن آبائه. تلك القرية كانت تمثل فقط فردا واحدا من عائلته المتشعبة. ولم يجد أحدا في أهل القرية من سمع عن؛ أو علم بأحد يحمل اسم "فينكاتاسامي". ولم يجد في القرية أحدا يعرف موريشيوس. ولم يقابل أحدا قد أظهر سعادته، عند لقاء "أحد أبناء القرية المفقودين"، والذي عاد إليها في زيارة.

ربما تكتفي أعداد كبيرة من الموريشيوسيين بوصفهم أبناء للحداثة والمدينة، بدلا من البحث المرهق عن الأصول العرقية، ويكتفون بالإيمان بإيديولوجيات عصرية. في السبعينيات كانت الأفكار الاشتراكية قوية، لكن في الوقت الحاضر؛ فإن الأفكار المرتبطة بالرأسمالية الفردية، واتخاذها أساسا للتطور، هي التي يدور حولها الحوار، بشكل منفرد تقريبا، في محافل الحوار العامة.

وإلى جانب هذا يجب ذكر أن أعدادا ضخمة جدا من الموريشيوسيين يعتبرون أنفسهم متدينين، ويمارسون الشعائر والطقوس الخاصة بدياناتهم المتوارثة، وهذا ينطبق على المسيحيين والهنود والمسلمين. على كل حال فإن عناصر تكوين الثقافة الموريشيوسية شديدة التعقيد. وهو مجال شديد الإثارة والحساسية، ويتكون من منظومة فيها يختلط كل من: العالمي والمحلي، وترتبط "العادات والتقاليد" المحلية، بثقافة المنشأ، وتأتي في النهاية العلاقة بين الثقافة العرقية، والثقافة الكريولية.

حاليا يدور الحديث بين الموريشيوسيين حول أن "لسان الأباء" يمثل مصدرا مهما للهوية، لكنهم وبالتأكيد؛ لا يميلون إلى الذهاب في البحث عن تاريخ النشأة إلى أعماق سحيقة، فضلا عن الإحساس بالحاجة إلى الانتماء لثقافة عرقية. "مالن أودية" (Malenn Oodiah) هو أحد الأمثلة لموريشيوسي يتبنى ويتعامل مع المدنية بشكل جاد. يقول: إن الكريولية هي لسان آبائه، وسيسأل الكثير: ألست أنت من "التاميل"؟، وستكون إجابتي: نعم إن أصولي من التاميل، لكنّ والديَ تحدثا معي دائما بالكريولية، وأجدادي تحدثوا بلسان معظمه كريولي، على الرغم من معرفتهم للتاميلي أيضا، لماذا إذن أذهب إلى الزمن السحيق في محاولة لإيجاد جذور؟! "مالن" له أيضا تصور خاص في تعريف مصطلح "زواج مختلط". إنه متزوج من فتاة لها خلفية هندية، وعلى الرغم من أن هنود الشمال والتاميل في جنوب الهند، يعتبرون طوائف عرقية مختلفة في موريشيوس؛ فإنه لا يرى أن حالته تعتبر زواجًا مختلطًا. يقول في وصف حالته الاجتماعية: "آدي" (Adi) وأنا، تربينا معا في المدينة نفسها، ودرسنا في الجامعة نفسها، ولنا تقريبا الخلفية الاجتماعية نفسها، فماذا يعني "زواج مختلط" في هذه الحالة؟ أين هو الاختلاط؟ فكر "مالن"، الذي يعتبر أن هناك عوامل أكثر تأثيرا وأهمية من الانتماء العرقي؛ مازال غير شائع. ولكن الإحصائيات تقول: إن نسبة الزواج العرقي المختلط زادت، من واحد في المائة، إلى عشرة في المائة، في فترة عقدين فقط: أفراد الطبقة المتوسطة في

المدينة، غالبا، هم من يعبرون الحدود للزواج. وفي هذا المقام يجب أن نذكر أن وجود ظاهرة الزواج المختلط لا يلغي حقيقة وجود متطرفين وأصوليين من الذين يضعون الحدود.

لقد كان الزواج المختلط شيئا عاديا جدا في "سرايفو" (Sarajevo) و"بلجراد" (Beograd) و"زغرب" (Zagreb)، ولم يمنع ذلك الحرب الأهلية في يوغسلافيا السابقة. وهذا لا يلغي وجود متطفلين من إيديولوجي النقاء العرقي؛ يرفعون عقيرتهم ويطلقون تحذيراتهم: إن عاداتنا وتقاليدنا آخذة في الانهيار في حالة زوال الحدود. من مثل هؤلاء يوجد في موريشيوس أيضا، لكن إيديولوجية نقاء الأعراق في الجزيرة، لها إطار من اللياقة، على الأقل يتبع قانونًا ونظامًا.

عند التأمل في واقع الحالة الموريشيوسية؛ نجد: أن القاعدة الثقافية التي أسس عليها المجتمع؛ تقول بأن ثقافاته قد وردت إليه من مناطق مختلفة من العالم. ومثل هذه المجتمعات، غالبا ما تظهر فيها نتائج هذه المؤثرات الخارجية. الموريشيوسيون يتعلمون في مدارسهم الكثير عن أوروبا (لاحق بعد ذلك، جاء التعليم عن الهند) أكثر مما يتعلمون عن مجتمعهم الحالي. وهذا أدى بهم إلى احتقار لغتهم، وولّد الإعجاب باللغات العالمية، الفرنسية والإنجليزية. ويشاهدون الأفلام الأوروبية، والشمال أمريكية، والهندية، في كل من التلفزيون والسينما. ولا يوجد هناك الكثير من السمات الثقافية، أو العادات المحلية، التي يفخرون بها ويربطونها بـــ"الأمة الموريشيوسية". فرق الكرة المحلية تتخذ أسماء غربية، مثل: "ألبيون بروموينش الغربية"(West Bromwich Albion)، و"سوندرلاند" (Sunderland). والكثير منهم أقام في بلاد غنية غربية أوروبية، وأمريكية، فترات تتراوح بين القصيرة والطويلة، ومعلوماتهم عن هذا الجزء من العالم غزيرة خاصة عن المدن الكبرى فيها.

بالإضافة إلى هذا فإن موريشيوس جزيرة صغيرة معزولة، يقطنها حوالي المليون من البشر، ويعتمدون أساسا على ثلاثة مصادر للتصدير: صناعة السكر والنسيج والسياحة. والسوق العالمي موجة إلي هذه النشاطات الصناعية الثلاثة في الجزيرة. الموريشيوسيون اليوم شديدو الانفتاح، ولن تجد هناك أحدا ينكر هذا الوصف. "موريشيوس"، والجملة القائلة؛ "ليس هنا أوروبا، لكنها جنة على أية حال"، هي كلمات تجري على ألسنتهم، ويسمعها الأجنبي بطريقة متزايدة أينما حل، فقد تبلورت نتيجة لثقافتهم المتأثرة بالثقافة العالمية بدرجة كبيرة، في مختلف المجالات. وبمثل هذه الأقوال يضع الموريشيوسيون بلادهم في مكانها على الخريطة العالمية. وهم فخورون بتقديم بلادهم وثقافتها لأي أجنبي، أسترالئًا كان أو فرنسيًا، أو أي أحد آخر يزور بلادهم.

من ناحية أخرى، فهم يعتبرون أن تصنيف الآخرين لهم- بوصفه نتاجًا للثقافة والاقتصاد العالميين- أو تصنيفهم على أنهم منتَج من مخلفات الاستعمار؛ ضرب من ضروب الإهانة لهم. والموريشيوسيون يستعملون اللغات العالمية الفرنسية والإنجليزية، لكنّ هاتين اللغتين لم يجدا انتشارا محليا واسعا. فاللغة الإنجليزية الموريشيوسية ذات مفردات محدودة وجافة ورسمية، إنها لغة مؤسسات الدولة. أما الفرنسية الموريشيوسية فهي أدبية، وشاعرية مجازية، وتتسم باستعمالها لمفردات ميتة، ومصطلحات لغوية قديمة، هذا إلى جانب مفردات كريولية مندسة في لغة الآداب والإعلام. أما المعلومات العالمية- سواء كانت في أجزاء منها أو كاملة - فلابد لها من تأصيل محلي، وإلا فلن تصمد طويلا، ولا تُثبِّت أقدامها، وسرعان ما تتبخر وتطير مع الرياح، تماما كما يحدث في كل أنحاء المعمورة. في بعض الحالات؛ يتم امتصاصها في تراكيب لغوية موجودة أصلا؛ دون أن يصيبها تغيير محلي ملحوظ. وفي حالات أخرى؛ يسبب امتصاصها اختلافًا عميقًا في الدلالة. "المحلي" و"العالمي"؛ دائما ما يكون لهما تأثير "توافقي - تبادلي"، وذلك لأن الحرف الذي لا أصل له، لا يمكن ملاحظته إلا في حالات؛ حيث يحتوى

السياق على عناصر رست وثبتت محليا. لذا فالحديث عن "تغريب الثقافة" يصبح قليل الأهمية، بغض النظر عن مصدره الذي جاء منه.

عندما يحاول المرء التعرف والتفرقة؛ بين ما هو عالمي، وما هو محلي، سريعا ما يقع في مشاكل. تماما مثل من يقوم بمحاولة الجمع بينهما. مثال بسيط، فبينما كنت أكتب ملاحظاتي لهذا الجزء من الكتاب؛ في أطراف ليلة يوم رطب من أيام شهر فبراير، شربت حوالي نصف لتر من قهوة "إسبرسو" (وهو النطق المحلي لقهوة "الإكسبرسو" الإيطالية، التي تشبه القهوة التركية والمصرية) حتى أستطيع التركيز بعد حفلة غداء ثقيلة. وفي ذلك الحفل؛ لعبنا "الرومي" (**rummy**) (وهو عبارة عن أسلوب خاص للعب بورق اللعب المعروف) قبل الأكل، بينما كانت "موسيقى البوب" (**Pop music**) الفرنسية، والبريطانية تعصف بأذاننا منبعثة من أجهزة "ستريو" (**Stereo-**). وفى الصالة، فوق مائدة الطعام؛ علقت "صورة جزئية" (**Portrait**) للملكة "إليزابيث الثانية" (**Elizabeth 2**) ملكة بريطانية العظمى. وكانت الحفلة منفتحة، ومثيرة شربنا فيها البيرة والويسكي المصنوع منزليا من السكر. أما وجبة العشاء فكانت "كارى بوسون" (**Curry Pwason**)، وهى وجبة محلية مكونة من السمك المقلي والأرز.

مثل هذه الحفلة، كانت فيها عناصر، يمكن للمرء التفرقة بين ما هو محلي، وما هو عالمي. لقد كان المضيفون مشغولين بذلك. يسألون هل سمعت هذا الأغنية من قبل؟ هل هذا المغني معروف عندكم في النرويج؟ وهكذا. سألوني لو كنت قد أحببت الطعام، أم أنه قد بدا لي غريبا؟ وسألوني عما إن كان النريجيون يلعبون "الرومي" بالطريقة نفسها التي يلعبون بها؟ لقد ناقشنا مكونات "المطبخ الموريشيوسي" (**Le Cuisine mauricienne**)، من حيث أصل عناصره: أهندية هي، أم فرنسية، أم صينية كانتونية (أي من مدينة كانتون الصينية)، أو ربما أيضا تحتوي عناصر جنوب شرق إفريقية. و حددنا نقاط تواصل، بين عالمهم المحلي، وعالم آخر يبعد كثيرا عنهم، يقع في أقصى الشمال الأوروبي. ولقد أشار المضيفون إلى أن بعض الوسائط كانت عبارة عن عناصر مقتبسة من ثقافات

عالمية. وعلى ذلك توافقنا على أن ما هو عالمي؛ يمكن ربطه ودمجه بالواقع المحلي، الذي في النهاية يُنتج "أسلوبا مشتركا"، بغض النظر عن أصله ومكان مجيئه من العالم.

هناك مستوى آخر من التفسير والتحليل؛ يمكنه توضيح العلاقة بين "العناصر الثقافية" و"بعدها المعنوى". بالتأكيد فإن البعد المعنوي لتعليق صورة الملكة "إليزابيث" في موريشيوس؛ سيكون مختلفا عما لو كان في منزل لعامل في مدينة "شيفلد" (Sheffield) البريطانية، وممارسة لعبة الورق قبل تناول الطعام؛ سيكون لها خواص من المرح، والطرافة؛ عما يكون في أماكن أخرى من العالم. الثقافة العالمية يكتمل معناها بداية؛ عندما تُرى في ضوء معناها المحلي، وعلى الباحث عن كيفية تأثير العناصر العالمية؛ أن يبحث عن تأثيراتها الاجتماعية. إن وعي الفرد أو المجتمع بانتمائه المزدوج، إلى "مجتمع عالمي" وآخر "محلي"، يترتب عليه نتائج متراكمة شديدة التشابك في المجتمعات العصرية المعقدة. وفي هذه الحالات؛ تنتج تناقضات ومشاكل من الضروري حلها وتفكيكها. في مثل هذه الحالة سوف يتحتم على الفرد أن يكون انتماؤه؛ إما محليا معزولا، أو فاقد الهوية والموطن والأصل.

هذا أسلوب واحد فقط من أساليب التحليل، لدراسة "عولمة الثقافة". وهو أسلوب مختلف عنه في حالة "الإمبريالية الثقافية"، ففي الحالة الأخيرة، تأخذ نقطة بداية التحليل اعتبار تعريف "القوة الثقافية"، وتنطلق من تصور مموه زائف، يؤمن بأن التواصل الكثيف بين الثقافات لا يفيدها. وزاوية ثالثة للمعالجة؛ يمكن أن تتمثل في "نظرية الانتشار الكلاسيكية" (Classical diffusion Theory) – وهو علم انتشار السمة الثقافية– حيث يدرس الباحث الاجتماعي كيفية انتشار البناطيل "الجينز"، أو انتشار موسيقى "البوب"، أو الكمبيوتر المحمول، على سبيل المثال؛ ثم يبدأ في "التحليل النوعي"، وينسبه إلى سياقه المحلي. بعد ذلك يحاول الإجابة عن سؤال: لماذا تنتشر بعض الظواهر الثقافية، بسهولة في جميع أنحاء العالم؛ بينما لا

يحدث ذلك للبعض الآخر؟ لا أحد من هذه الاستراتيجيات البحثية يمكن استبعادها في البحث والتحليل.

إن وضع الحدود، ونشأة المصطلحات المحلية وازديادها؛ نتيجة طبيعية لعولمة الثقافة. أغلب الموريشيوسيين لم يكتشفوا أنهم موريشيوسيون قبل سفرهم للخارج. أو قيل إن علموا أن موريشيوس بلد يتحتم عليه المنافسة مع بلدان أخرى؛ لتسويق بضائعهم ومنتجاتهم. الكثير من الموريشيوسيين لم يكتشفوا أن لهم "سمات مشتركة" كثيرة، وواقعا مشتركا؛ قبل الخروج ومقابلة غير الموريشيوسيين. بعد ذلك اكتشفوا أنهم شيء مختلف عن الهنود، أو الكريوليين، أو المسلمين. لقد أيقنوا ببساطة أنهم موريشيوسيون.

مثال معبر، ويحتوي على الكثير من سمات "عولمة وكريولية الثقافة"، و"أقلمة سوقية" للعادات الموسيقية المحلية، وهو الموسيقى الإفريقية الكلاسيكية التي لا تباع، وليس لها سوق في باريس؛ بينما يباع في باريس موسيقى البوب، التي يعتبرها الفرنسي أنها موسيقى تنتمي إلى الموسيقى الإفريقية. ومن ناحية أخرى؛ فإن الموسيقى التي ذكرت أخيرا؛ تباع في "السنغال" أيضا، فهي تمنح السكان بعض الإحساس بالفخر والتباهي، عن طريق إحساسهم بالوحدة القومية النظرية، وذلك لمعرفتهم أن الموسيقى نفسها محبوبة، ومنتشرة في باريس. العامل المشترك هو: قانون السوق العالمي، وميكانيكية العرض والطلب، وبين هذين يمكن للمرء الحركة وخلق شعار له صبغة محلية.

مثل الكثير من الأشكال الثقافية المعاصرة؛ وصلت إلى موريشيوس الموسيقى العالمية، في عام ١٩٨٨ على وجه التحديد، وذلك عندما بدأ أحد الموسيقيين الموهوبين، من مُغنىّ أغاني "السيجا" (**Sega**)؛ أن يدمج "إيقاعات الريجا" (**Reggae Rhythms**) في أغانيه. و"السيجا" هي أحد أنواع الموسيقى المحلية "الفرنسي-إفريقية"، والتي لم يحدث فيها تغير يذكر في السنوات العشرين الأخيرة. هذا الموسيقي الشاب، وأفراد مجموعته الغنائية، أطلقوا شعورهم؛ ثم جدلوها، ولبسوا

طواقي مقلمة من الصوف. وهو الذي أطلق مصطلح "السيجا" على إيقاعات "الراستا" الجاميكية القديمة. وهو نفسه المغني "راس ناتي بابى" (Ras Natty Baby) الذي ولد في "جامايكا" (Jamaica)، وأصبح معروفا ومحبوبا من كل الشباب في مختلف الأعمار، بعدما استخدم إيقاع "السيجا". اليوم "راسينتاتان" (Racinetatane)، و"راس ميلنزا" (Ras Melanzè) وآخرون؛ يتحدثون عن شيوع هذه الموسيقى في الأسواق العالمية. "راسينتاتان" هو اسمه الفني، ويغني الموسيقى الفرنسية "راسينيس" (Racines)، التي تعتبر أصل موسيقاه. أما "راتسيتاتان" (Ratsitatane) فهو أمير مدغشقري (Malagasy) أقام في "موريشيوس" كمغنى؛ في القرن التاسع عشر بضع سنين، بعدها اكتسب صفة - لا يستحقها- بطل أسود أسطوري. أما بالنسبة للفنان "راس ميلنزا" (Ras Melanzè)، فاسمه أيضا اسم فني مركب. "راس" (Ras) هو اللقب الأمهري (Amharic title) للملك الإثيوبي "راس تافارى" (Ras Tafari) أو "هيلاسيلاسى" (Haile Selassie)، الذي اقتبسه المغني الجامايكي الأصل، وأصبح اسم شهرته في موريشيوس بعد عشرين عاما. ويمكن للمرء أن يفهم كلمة "راس" (Ras)؛ على أنها تعني العرق والسلالة بالكريولية. وفى الحقيقة فإن "راس ميلنزا" (Ras Melanzè) تعنى "عنصرا مختلطا" أو "خليطا عرقيا".

في أحد البرامج التليفزيونية؛ تحدث "راس ناتى بابى" (Ras Natty Baby) عن موسيقى السيجا"، وكأنها من أصل موريشيوسي؛ قال: إنها موسيقانا. ومثل هذا الأسلوب استفز أحد الصحفيين المتخصصين في الفنون الجميلة، وجعله يكتب مقالا ينتقده بشدة يذكره بالحقيقة: إن موسيقى "السيجا" كانت مجرد اقتباس كامل من موسيقى الفنان "بوب مارلى" (Bob Marley) الجاميكي المعروف. والفرق الوحيد؛ هو أنهم استعملوا اللغة الكريولية في الأغاني. وعلاوة على ذلك فإن كلا من موسيقى "السيجا" و"الريجا" أقل جودة. وأنهى المقال بوصية لقرائه؛ أن يسمعوا لـــ "موزارت" (Mozart) و"ميلز دافيس" (Miles Davis). هذا بالطبع لم يرق لـــ راس ناتى بابي" ورد بكلمات مهينة للصحفي، ولكن على ما يبدو أن لا أحد من الناس قد صدقه. هذا الحوار الذي دار، وتبادلوا فيه الآراء؛ يجد المرء فيه بعض العناصر

الجديرة بالتأمل. إن السمة الأكثر أهمية - في رأيي؛ ليس في كون هذه الموسيقى محلية الأصل ثم أصبحت منتشرة وتم تسويقها عالميا، وليس في أن أصلها في الحقيقة "جاميكا". السؤال المهم الذي يجب طرحه هو، كيف لمثل هذه الموسيقى أن تثير تساؤلات في المجتمع عن الانتماء والأصالة؟ فالصعوبة التي تواجه مجتمعات تعمل على الحفاظ على - أو إنشاء - مجتمع له هويته الخاصة، في عصر تذوب فيه كل "الثوابت"؛ هي التفاعل الناجح مع المجتمع العالمي. وفي الوقت نفسه الاحتفاظ بمستوى معين من الهوية المتميزة. وفي موريشيوس استطاعوا أن يخلقوا ويعيدوا إنتاج هويتهم المحلية دون إغلاق الباب؛ في وجه العالمية.

•••

قمت بزيارة "يان بوليه" (Yan Boullé) وزوجته، وابنتهما حديثة الولادة، في فيلتهم الرحبة، القريبة من "كورا بيب" (Cure Pipe). "يان" ينتسب إلى الطبقة "الفرانكو- موريشيوسية". هذه الطبقة عاصرت الانهيار التدريجي في قوتهم، وسيطرتهم السابقة. السيطرة التي كانت دون منازع. وكان ذلك في ثمانينيات القرن الماضي. إنهم لم يعودوا أسياد الجزيرة، على الرغم عن كونهم ما زالوا يعيشون في بحبوحة من العيش. الآن فإن الهنود هم الذين يسيطرون على الساحة السياسية. أما الصينيون فيستولون على أهم العناصر الاقتصادية، أما في ناحية الفن والثقافة؛ فتأتي مشاركات مهمة، من جميع الطوائف العرقية. وفي حالة "يان" فإنه ببساطة؛ استبدل بالخدم، الأجهزة الكهربية المساعدة في المطبخ، وسائر أعمال المنزل. ولحسن الحظ فهو قليل الحنين إلى الماضي.

مشيت معه على طريق مفروش بالحصى يقسم المساحة الخضراء إلى اثنين، أبلغني أنه سوف يسافر بعد بضعة شهور إلى مصيف العائلة؛ على شاطئ "بوسته لافيتا" (Poste Lafayette)، ليقضي شهور الشتاء هناك. قلت دون أن أوجه الكلام إليه خاصة: "إن الموريشيوسيين يتميزون بشخصية وروح خاصة، ليست عادية". وجاءت موافقته الفورية على قولي.

المثير للانتباه اليوم؛ أن الكثير من الموريشيوسيين يتفقون على مثل هذا الرأي. منذ خمسة عشر عاما مضت؛ كان أكثر من ثلاثة أرباع السكان، ينصحون أبناءهم بالهجرة خارج موريشيوس، حتى يجدوا الفرصة السانحة.

المقال الثالث

ترينيداد: الكريولية في أعلى درجاتها ؟

"كل يوم يتوّجب علي؛ تحديد ملامح هويتي".....

شيفا نايبول (Shiva Naipaul).

١

تصور العامة عن الأنثروبولوجي : أنه قصاص أساطير، وإنسان غير منظم غريب الأطوار، يمشي في الغابات البكر، حاملاً بيده مطواة، محاولاً استكشاف قبيلة هندية جديدة. بعد ذلك يكتب ملاحظاته في وريقات، ثم يبدأ بالاستنباط. وأخيرا يسجل ما كتب، في بحث متخشب الكلمات، مليء بالمصطلحات التي لا يفهمها إلا المتخصصون الراغبون في المعرفة عن كيفية المعيشة عند الهنود الحمر، و ما هي أنماط سلوكهم. وبالمناسبة فإن جميع الكتب عن الأنثروبولوجي؛ كانت تسمى لسبب أو لآخر دائما "مونوجراف" (Monograph)، التي تعني ورقة بحثية.

وفي الواقع الآن؛ فإن معظم الأنثروبولوجيين هم من النساء. مثلا في الولايات المتحدة الأمريكية – وهي دولة رائدة ومسيطرة أيضا، في علوم الأنثروبولوجيا – كان الاسم الغالب في لائحة الإحصاء هو "دافيد" (David)، عمره ٣٩ عاما عندما حصل على شهادة الدكتوراه، وغير متزوج وليس عنده أطفال، ولم يحصل على أي عمل أكاديمي عندما تخرج، وبدأ في البحث عن عمل . أما اليوم فمعظم أسماء الأنثروبولوجيين يمثله اسم "سوزان" (Susan)، وهي سيدة بلغت من عمرها أربعين عاما عندما حصلت على الدكتوراه، وهي غير متزوجة، وليس

عندها أطفال، وحاصلة على عمل أكاديمي. هكذا الحال في الولايات المتحدة. أما في النرويج، في أيام الفقر، كان الحال متقاربا. الاسم الغالب في القائمة، ربما كان "سفين" (Svein)، كان عمره ثلاثين عاما عندما حصل على الماجستير، وليس عنده أطفال. الحال اليوم قد تغير؛ فالاسم السائد في القائمة نسائي، وربما يكون "توريد" (Turid)، عمرها ثمانية وعشرون عاما، وهي أم غير متزوجة، ودراستها الحقلية في موضوع "اندماج الأجانب في مؤسسة لرعاية أصحاب المشاكل النفسية والعقلية، في المدن النرويجية".

حقيقة؛ إن الزمان يجري بسرعة، والظروف تتغير. وعندما شرعت في دراستي في الأنثروبولوجي في عام 1989، وعلمت أن حقل الدراسة سيكون في "ترينيداد" (Trinidad)؛ أصبت بخوف سرى في نفسي. وتواردت على مخيلتي أسئلة وصور كثيرة. كيف ستكون النتيجة لو أني بدأت في مقارنة ثقافة المجتمع الترينيدادي بثقافة مجتمعنا؟، "الترينيداديون" (Trinidadian) (الكلمة ليست مشتقة من "ترينتي" Trinity أو عقيدة التثليث في المسيحية)، وبطبيعة الحال لم يكونوا نصف عراة، ولا أميين، ولا أعضاء في طائفة يقدم أفرادها الخنازير المشوية الكاملة قرابين للآلهة. وفي "ترينيداد" لا توجد أفاعٍ سامة، أو عناكب تمص الدماء في أثناء سيرك في رحلة قصيرة أو طويلة، في الغابات، حتى لو حاولت البحث عنهم. ومع ذلك فإن النصائح التي سمعتها تقول: لا تذهب إلى الغابات، لأن مهربي المخدرات الخطرين؛ يختبئون فيها. وبوجه عام فإن "التيرينيداديين" يلبسون "الجينز" (Jeans) والنظارات الشمسية، ويسمعون موسيقى "الصول" الأمريكية من "ستريو" سياراتهم الخاصة، ويتبادلون النكات الساخرة المازحة عن الطفيليات التي تعيش في أمعاء رئيس الوزراء. والترينيداديون بوجه عام يثقون ويفخرون بأنفسهم؛ لدرجة تجعل معظم الزائرين يحسون بذلك عندما يتبادلون الحديث معهم. وخلال الحديث يقدمون للمستمع نظريتهم الخاصة عن مجتمعهم ذي الثقافات المتعددة.

ما الذي يمكن للأنثروبولوجي أن يفعله هناك ؟ سؤال راود مخيلتي في البداية. الأنثروبولوجي العادي ذو الفكر الكلاسيكي، الذي يجري وراء فكرة ما يسمى بـ"الثقافة النقية الأصلية"، أو الذي يبحث عن مكان وقبيلة لم تدرس من قبل، لن يجد هناك ما يفعله، فكل تاريخ "ترينيداد" قد دُرس، وتم وصفه وتحليله من قبل المتخصصين، سواء كانوا أجانب أو ترينيداديين. لقد كُتبت مقالات علمية "essays" عن الإسبان وعجزهم، وعن علاقة محافظ الجزيرة "بيكتون" (Picton) بالكلاب؛ حيث أطلق النار عليهم وقتلهم، عندما أقلقوا نومه بالليل. وعن مغنيي "الكاليبسو" (Calypso) السابقين الأوائل. وعن حاكم الجزيرة البريطاني، ووثائق الولاء والتحية للملكة "فيكتوريا" (Queen Victoria)، حيث سجلوا فيها - عن طريق الخطأ وعدم الفهم؛ شكرهم العميق لها، لأنها صاحبة الفضل والشرف في جلب العبيد إلى الجزيرة في أول مرة. ولقد كتبت رواية واحدة على الأقل عن كل نقطة تحول بارزة في تاريخ الجزيرة.

بعد الحرب العالمية الثانية، كثرت أعداد الأنثروبولوجيين الأجانب الذين زاروا الجزيرة. وكان أغلبهم من الراغبين في دراسة ما تبقى من "الثقافة الأصلية"، عند المجموعات أو الطوائف من ذوي الأصول الإفريقية أو الهندية. وقد وجدوا مثل هذه الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة الأولى لترينيداد، بعنوان "القرية الترينيدادية"(Trinidad Village)، التي نشرت عام 1947، لمؤلفها "ميلفيلا" (Melville) و"فرانسيز هرسكوفيتس" (Frances Herskovits). وقد اهتمت هذه الدراسة بإيضاح أن الترينيداديين ذوي الأصول الإفريقية (Afro - Trinidadians)، يشتركون في كثير من الصفات، مع الإفريقيين في غرب إفريقيا. أما أول الدراسات التي تحدثت عن الهنود في ترينيداد، فكانت لــ "مورتن كلاس"(MORTON KLASS)، باسم "الهنود الشرقيون في ترينيداد" (East Indians in Trinidad). وحاولت، كسابقتها؛ إثبات أن ذوي الأصول الهندية في ترينيداد؛ ما زالوا يتشابهون مع أجدادهم من ثلاثة أجيال سابقة أو أربعة ، الذين

تركوا "بيهار" (Bihar)، أو "أوتار برادش" (Uttar Pradesh)، وهما إقليمان من الأقاليم في شبه القارة الهندية. أما هدفي من دراسة الثقافة والاجتماع في ترينيداد؛ فقد كان شديد الاختلاف. وعلى الرغم من سهولة الزعم، بأني أهملت مواضيع كثيرة؛ فإن دراستي كانت ذات موضوع مميز. لقد كنت أهدف إلى بيان "كيفية تفاعل وتطور مجتمع مثل هذا مع المدنية". وكنت راغبا بوجه خاص، البحث في العلاقة بين الترينيداديين ذوي الأصول الهندية، وبين الترينيداديين ذوي الأصول الإفريقية. لهذا لم يشغلني ملاحظة أن الطريق السريع المسمى "تشرشل - روزفلت"، الذي يمتد من المطار إلى "بورت أوف سبان" (Port of Spain) كان على درجة أعلى في الجودة؛ من أي طريق يمكن أن تجده في النرويج. ولم يشغلني عدد المصانع التي كانت مصفوفة على جانبي الطريق. لقد أديت "الواجب المدرسي"، وبينت الفرق بين "ترينيداد" و"سانت توماس"(St. Thomas)، وهي إحدى جزر البحر الكاريبي، فيما يسمى بالجزر العذراء (Virgin Island). وبينت الفرق بين ترينيداد و"أنتيجوا" (Antigua)، وهي أيضا إحدى جزر الكاريبي المستقلة. ترينيداد لم تكن جزيرة نمطية من جزر جنوب البحر الكاريبي؛ التي تتميز بأشجار النخيل الكثيرة المنتشرة في تلك المنطقة. ولم يكن أهلها مجرد "أفرو- كاريبيين"، يرتدون القبعات الواسعة، المصنوعة من البوص والمثيرة لشهية تصويرهم، حيث كانوا يرقدون تحت شجر "البنيان" (Banian Tree)، وفي جو خانق من الرطوبة على الشاطئ الرملي. وكنت على علم سابق أن ترينيداد سوف تبدو للزائر، وكأنها خليط من "بروكلين" (Brooklyn) الأمريكية، والقرى الهندية. ويمكن للمرء أن يقرأ في المرشد السياحي، أن ترينيداد بها واحد من ثلاثة طرق شاطئية من الإسفلت. و الأخران في فنزويلا وتكساس.

مساء يوم ما قبل العودة إلى النرويج؛ جلست مع كاتب ترينيدادي يدعى "كيم جونسون" (Kim Johnson)، في إحدى شرفات منزله، ذات الطراز المعماري "الفيكتوري"، الذي ينسب إلى عهد الملكة البريطانية فيكتوريا (Victoria). وكنا

نناقش احتمالات وصول رئيس وزراء من أصول هندية إلى حكم البلاد. وكنت أنا من المعتقدين بأن الرئيس العام للنقابات "باسديو بانداي" (Basdeo Panday) أمامه فرصة ذهبية، حيث إن شعبية رئيس الوزراء - في ذلك الوقت "روبنسون" (Robinson)؛ قد سجلت درجة جديدة من التدهور. ولكن "كيم" (Kim) اختلف معي، وقال: لو وصل هذا المتسلق "بانداي" إلى الحكم؛ فسوف تقع حرب أهلية. ثم تابع القول مردفا، يريد تفنيد تحليلي السياسي، بينما كان ذاهبا ليحضر كوبين من البيرة:"إنه من المحزن قولها؛ لكن مثل هذا التحليل السياسي لا يمكن أن يصدر من مواطن ترينيدادي المولد، ولا حتى يمكن أن يقبل حتى على سبيل المجاملة.

٢

مسافة قصيرة هي التي تفصل بين ترينيداد وأرض أمريكا الجنوبية. وهى التي يسمونها "إسبانيا الرئيسية" (The Spanish Main). وفي يوم مشرق بغير غيوم؛ يستطيع المرء أن يرى "فم التنين" (The Dragon's mouth) والقوس الشريطي للساحل الفنزويلي، من "شاجواراماس" (Chaguaramas) في الشمال الغربي. وترينيداد جزيرة كبيرة نسبيا، لكنها تكاد لا ترى لو قسناها بالمعيار القاري، فكل شيء – كما هو معروف– نسبي. والجزيرة تعتبر دولة عظمى؛ لو قورنت بجزر العنتيل (Antilles) الصغيرة الهولندية. وكذلك لو قورنت بحزام الجزر المنتشرة والممتدة من "الجزيرة العذراء"(Virgin Island) شمال ترينيداد. وكثير من سكان الجزر الصغيرة، مثل "جرينادا" (Grenada)، و"سانت فينست" (St.Vincent)، و"بربادوس" (Barbados) كانوا يرحلون إلى ترينيداد، على مدى قرن ونصف القرن، آملين في حرية أكثر، وحياة مليئة بالإثارة والجاذبية، والرفاهية. فالتصور الرئيس عن "ترينيداد" عند سكان هذه الجزر أنها مكان

صاخب مليء بالضوضاء، ومسبب للضغوط والإجهاد. ولو تولد عند أحد القراء أي شك في هذا التصور؛ فإني أقترح عليه، أو عليها؛ أن يقضي نهار يوم في "ميدان الاستقلال" (Idependence Square)، وسوف يسمع، ويرى بأم عينيه.

حصلت "ترينيداد" على اسمها من "كريستوفر كولومبس" (Christoffer Columbus). وهو الذي اكتشف الجزيرة في أثناء رحلته الثالثة عام 1498، ثم أهداها إلى الملكة "إيزابيل" (Isabel). البعض يرجعون هذا الاسم إلى عقيدة الثالوث المقدس المسيحي (Holy Trinity)، وبعض آخر يعتقد أن الاسم له علاقة بالجبال الثلاثة الواقعة في الجنوب الشرقي، وهي أول ما قابل "كولومبس" عندما أبحر في اتجاه الغرب، وعلى امتداد ساحل أمريكا الجنوبية.

على الرغم من اسمها وموقعها الجغرافي؛ فإن ترينيداد بالتأكيد ليست مثل دول أمريكا اللاتينية الأخرى. صحيح أن الجزيرة ظلت من المستعمرات الإسبانية لثلاثة قرون، لكنهم اعتبروها صغيرة وقليلة الأهمية في الأمبراطورية الإسبانية حين ذاك. فالجزيرة تقع على الممر البحري "أورينوكوس" (Orinocos)، واستعملها الإسبان لغرض واحد تقريبا، استعملوها قاعدة لغزواتهم الفاشلة؛ في البحث عن "الألدورادو" (Eldorado)، تلك المدينة الأسطورية، التي اعتقد الإسبان أنها موجودة في مكان ما داخل الأراضي الأمريكية الجنوبية. ولما لم يفكر أحد في الاستثمار الزراعي هناك؛ ظل عدد سكان ترينيداد ثلاثمائة نفس فقط حتى عام 1784. الروابط بين ترينيداد، والبلاد الناطقة بالإسبانية في أمريكا الجنوبية؛ قد انقطعت بشكل فجائي ومحكم في السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي. في البداية شهدت المستعمرة هجرة مكثفة من المزارعين الفرنسيين الإقطاعيين، عندما سمعوا في باريس أن الثوريين يعتزمون القضاء على العبودية. لذا رحلوا من الجزر التابعة لفرنسا في تلك المنطقة، ومعهم العبيد. هؤلاء المهاجرون لقوا ترحابا من القيادات الرسمية الإسبانية، واستقر بهم المقام في

ترينيداد، وأنشأوا قاعدة من المؤسسات والهيئات، التي ما زالت تعتبر مركزية في الدولة الترينيدادية. من أهم هذه المؤسسات والهيئات "الكرنفال" (**Carnival**)، و "الكاليبسو" (**Calypso**). ومنذ عام **1797** وحتى الاستقلال في عام **1962**؛ كانت ترينيداد مستعمرة بريطانية. ولكن على الرغم من تعدد الثقافات في الجزيرة؛ فإن الثقافة فيها تنتسب إلى ثقافة المنطقة الكاريبية، أي إلى ثقافة "الهند الغربية" (**West Indian Culture Reigon**). وعند الاستقلال؛ اتحدت الجزيرة سياسيا مع جزيرة مجاورة تسمى "توباجو" (**Tobago**)، وهي جزيرة أقل نشاطا، وأكثر هدوءا من ترينيداد، ذات التعدد الثقافي والعرقي. ومنذ هذا الحين؛ سميت الدولة "ترينيداد وتوباجو" (**Trinidad and Tobago**) عند الإنشاء والاستقلال. هذا الاسم ليس مفضلا ولا منتشرا في كل من ترينيداد وتوباجو، وذلك لأنه يذكر السكان بالماضي، الذي كانوا فيه تابعين وخاضعين للمستعمر.

من منتصف القرن التاسع عشر الميلادي؛ أصبحت ترينيداد أحد الأقاليم الأكثر رفاهية، في الهند الغربية البريطانية. واستيقظت الجزيرة بعد ثلاثة قرون من اليأس في ظل الحكم الإسباني. وأصبحت جزيرة متطورة ومزدهرة تتميز بالنشاط والحيوية والآمال. وخلال القرن الثامن عشر كله، وجزء لا بأس به من القرن الذي يليه؛ كان السكر يمثل أحد أهم البضائع المُصدرة إلى أوروبا. وبعد الحروب النابليونية دارت المفاوضات، حول مستقبل ممتلكات فرنسا فيما وراء البحار، وخُيّر الفرنسيون بين الاحتفاظ بمقاطعة "كويبك" (**Quebec**) الكندية، أو الاحتفاظ بالجزيرة الكاريبية "جودا لوب" (**Guade loupe**)، الواقعة في شمال ترينيداد. ورغما عن أن مقاطعة "كويبك" لها مساحة تماثل مساحة نصف غرب أوروبا كله؛ فإن الفرنسيين فضلوا الاحتفاظ بجزيرة لإنتاج السكر، في البحر الكاريبي.

وجاء إنتاج السكر متأخرا في ترينيداد، وذلك لانشغال الإسبان في البحث المتواصل عن الذهب. كذلك في بذل المحاولات المستمرة؛ لإيجاد المدينة

الأسطورية "الأولدرادو" (El Dorado). ذلك الأمل الغبي الذي سيطر على عقولهم في تلك الفترة. وبينما شهدت مستعمرات السكر الأخرى، مثل "باربادوس" و"جامايكا"؛ هبوطا في الإنتاج بسبب تدهور خصوبة التربة، كانت ترينيداد عبارة عن غابة بكر لم تحرث بعد. وذلك مما جعل الجزيرة مكانا جذابا في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وفي العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر؛ شاركت ترينيداد في الطفرة الكاكاوية العالمية، وجذبت عمالا مستأجرين من كل أنحاء المنطقة. وخلال القرن العشرين؛ تعاظم دور وأهمية الميناء الترينيدادي "بورت أوف سبان" (Port of Spain)، وكذلك ميناء "سان فيرناندوس" (San Fernandos). وفي أثناء الحرب العالمية الثانية؛ بنى الأمريكان قاعدة عسكرية على الجزيرة. واختلف الترينيداديون على قبولها، لكنها على الأقل جلبت لأبناء الجزيرة آلافا من فرص العمل ذات الراتب الجيد. وفي نهاية الأربعينيات اكتشفوا البترول. وفي النصف الأخير من السبعينيات ارتفع سعر البترول عاليا، وتعاظم النمو الاقتصادي، وتراكم رأس المال إلى درجة أمكنت رئيس الوزراء "أريك ويليامز" (Eric Williams) أن يطلق تصريحا عندما سئل عن التنمية، يقول: "لا مشكلة في التمويل". وهو تصريح كان سابقا لأوانه قليلاً. وقبل نهاية السبعينيات وقدوم السنوات الصعبة في الثمانينيات؛ كان الترينداديون يتداولون بعض النوادر عن أقرباء أو جيران؛ سافروا إلى "ميامي" (Miami) لشراء البصل. وكان الموظفون الصغار والعمال يستطيعون السفر لقضاء عطلة الصيف في "باربادوس"، أو "تورنتو"، أو "نيويورك"، أو "ميامي". وعلى الرغم من الضائقة الاقتصادية التي حلت بالبلاد، وازدياد معدل العاطلين عن العمل في الثمانينيات؛ فإن متوسط دخل الفرد تساوى تقريبا مع دخل الفرد في الدول الصناعية. واستمرت الجزيرة في استقبال تيار من المهاجرين غير الشرعيين القادمين من أنحاء مختلفة من منطقة الكاريبي، خاصة من جزيرة "جويانا" (Guyana) الأقل تقدما، يحدوهم الأمل في العمل و الاستيطان في ترينيداد.

تعتبر ترينيداد "مفترق طرق ثقافي" (Cultural Road cross) في نواحي شتى. ما نوع هذا المفترق الثقافي؟، ربما يمكننا بيانه وتوضيحه بمثال واقعي وهو مفترق طرق موجود في واقع الجزيرة. إنه الطريق الرئيسي الشرقي، الذي يمتد ملتويا من "بورت أوف سبان"، وحتى مدينة "أريما" (Arima)، مارا خلال المنطقة الشرق غربية القديمة. هذا الطريق يمكن وصفه بأي شيء؛ إلا أن يقال إنه "جميل"، فهو رطب، وذو رائحة عطنة كريهة. وهو عبارة عن شريط أسفلتي يربط منطقة المدائن في شمال ترينيداد. آلات تنبيه السيارات السائرة فيه؛ لا تتوقف عن الإزعاج. والهواء مشبع بالتراب وعوادم السيارات. والجو العام محموم تماما كمثله في "منهاتن" (Manhatten) في أثناء ساعة الراحة في الظهيرة. كلا جانبيه مليئة بمحطات البنزين المتلاصقة، وورش الصناعات الخفيفة، وصواني مفترقات الطرق، ومحلات "الروم" (Rum Shops) ذات الطلاء الفاقع الخاص، ومحلات بيع جميع أصناف البضائع، ودور عرض الأفلام، ومصانع صغيرة، وأكشاك الفاكهة، وبيوت مكونة من طابق أو طابقين، ومراكز تسوق ضخمة، و"صالات الدهون" الأمريكية من "ماكدونالد" و"الكينج برجر" وغيرها، ومطاعم الوجبات السريعة الصينية، ومدارس ودور عبادة، بالإضافة إلى مكاتب للعمل بنيت بهندسة معمارية؛ ينقصها التنسيق والجمال. "الميني بص"، وسيارات التاكسي التي يلتف بها شريط أصفر يميزها - والتي يمكن التعرف عليها بقراءة حرف (H) على لوحتها المعدنية الخاصة بالرقم- يتصارعان بشراسة؛ مع السيارات الخاصة على أماكن الانتظار. ومعظم السيارات من موديلات صنعت في بداية الثمانينيات، وهي الفترة التي تذكر المرء بنقطة التحول؛ إلى عصر الطفرة البترولية.

لو أن المرء قاد سيارته في اتجاه الشرق، من "بورت أف سبان"؛ فسوف يشاهد حشدا من الأحياء العشوائية، حيث جزء لا بأس به يقع في "لافن تلا" (Laventille). وسوف يشاهد منازل الطبقة المتوسطة؛ التي تتركز في "سان جوان" (San Juan)، والعشش المؤقتة؛ التي يسكنها المهاجرون بطريق غير شرعي،

والتي تبعد مسافة مرمى حجر، عن المساكن الفاخرة في "فالسيان" (Valsayn). وسوف يمر السائق بحي "الكوربة" (Curepe)، ومنطقة "تونتابونا" (Tunapuna)؛ ذات الأغلبية الهندية. والتي تتميز بما فيها من بائعي الكوكايين والمافيا؛ وذلك قبل أن يصل إلى الأحياء الرحبة، "الألدرادو"، و"تاكاريجوا" (Tacarigua)؛ حيث يجد بيوت الطبقة المتوسطة المزركشة، والتي تقع على الطريق الرئيسي. بعد ذلك يصل السائق إلى "أريما" (Arima)، التي كانت تمثل مدينة مهمة في أثناء "طفرة الكاكاو"، وذلك عندما تحولت ترينيداد إلى زراعة الكاكاو، الذي ازداد الطلب العالمي عليه. ولكنها الآن مدينة هادئة لا حراك فيها. البناء الجميل اللافت للانتباه حقا؛ في كل هذه الناحية، هو مصنع "أنجوستورا" (Angostura). وهو بناء يشبه "مركز بومبيدو" (Pompidou - senter) التجاري المدهش. والمصنع ينتج الجعة، أو البيرة، المسماة "أنجوستورا المُرّة"(Angostura Bitter).

هذا الطريق الذي يصل طوله إلى ثلاثين كيلو مترا؛ عبارة عن منطقة تجارية، وهو مفتوح لمرور جميع السيارات، وفي الوقت نفسه به مساكن، ويتلوى خلال الجزء الشمالي من ترينيداد بقبح شديد. ويعتبر مثالا واضحا على، وتحذيرا من، الكريولية التي تفتقد التخطيط. وعندما يصل المرء إلى نهايته، حيث "ميدان الكوربة" (Curpe Junction)؛ يكون قد أنهك من تنفس الهواء المليء بالعوادم السامة، وربما يسقط مغشيا عليه.

"ميدان الكوربة" هو ملتقى الطرق الأكثر أهمية في ترينيداد. وهو الذي يقع في قلب الناحية المتمدينة، والمسكونة أساسا من الإفريقيين. ولكن به نسبة تتزايد وتكبر من الهنود. في هذا المكان لا يوجد مغزى من التمييز بين المدن المختلفة، وذلك لأنها مترابطة، وينقصها الجمال والتنظيم. هذا إلى أن يصل المرء إلى "ميدان الاستقلال" (Independence Square)، وهو الميدان الذي كان يسمى "ميدان مارين " (Marine Square) في أثناء الاستعمار. وكان يعتبر الميدان الأهم؛ ففيه

تقع المحلات الكبرى، ومبنى البريد الرئيسي، والمحطة الرئيسية للقطارات، والهيئة العامة للجمارك، والمحلات التجارية الأخرى. ومازلنا حتى الآن نلمس فيه العظمة، حيث ترى تماثيل المشاهير، والحديقة الكبيرة، وقريب منه البنك المركزي، الذي يتكون مبناه الإداري من برجين رفيعين قبيحي الشكل، واللذين سرعان ما أسماهما السكان المحليون، وعَمّدُوهما؛ باسمي "دافي ودومي" (Deafy and Dummy)، أول رئيسين للوزراء في الجزيرة، وذلك تكريما لهما.

من يزور ويشاهد "ميدان الاستقلال"؛ يتولد عنده الانطباع أن مدينة ساحلية في الغرب الإفريقي، قد نقلت إلى ترينيداد. البنايات التي بنيت مؤخرا في عهد الاستعمار؛ تصدعت واجهاتها، وكثير منها ترك خاليا بعد إعلان الإفلاس. وفي الجانب المطل على البحر، نجد محلين أو ثلاثة لبيع الخمور، تسمى "روم شوب" (Rum Shops)، وعلى ما يبدو أنها ما زالت تحقق أرباحا من السفن، التي ترسو بانتظام على شواطئ ترينيداد. ولكنها تبدو أوكارا تنبعث منها رائحة عفنة، ويزورها رجال فقدت أسنانهم من الهرم، والقواعد من النساء الفقراء. وفي المواجهة؛ أنشأت محطة استثنائية مؤقتة "للميني بص" (Mini Bus). الضوضاء تصم الآذان، وعلى ما يبدو أن السائقين يحاولون جذب الزبائن، وذلك بتشغيل جهاز التسجيل بالسيارة، وإذاعة موسيقى صاخبة، وبالتالي يصبح من المستحيل تجاهلهم. وعندما نعلم أن خمسة عشر منهم يتسابقون على جذب الانتباه؛ لا يحتاج المرء إلى كثير من الخيال حتى يعلم النتيجة. والرحلة في التاكسي أيضا تجربة لا تنسى. ليس لأن السائقين يدغدغون قوانين المرور فحسب؛ لكن أيضا صوت الموسيقى الصاخبة، الذي ينغرز في أعماق الجسد، ويكاد أن يوقف القلب عن الخفقان.

الجانب الآخر من الميدان - الذي كان في الأصل طريقا رئيسا محفوفا بالأشجار (baulevand)؛ يقوي إحساس المرء بأنه موجود في إفريقيا. المتاجر التي كانت يوما ما تحقق أرباحا؛ أغلقت الآن كلها تقريبا. أمام واجهتها تصطف

البائعات من ربات البيوت على الرصيف، يعرضن للبيع أصنافا قليلة من البضائع المختلفة. يبعن الفاكهة ونظارات شمسية، وثمار جوز الهند، وملابس من كل صنف، وكتبا مدرسية مستعملة، وقصصا للجيب، وشرائط الموسيقى المستنسخة، والفول السوداني، والأقلام الرخيصة، وذلك إلى جانب علب التبغ طبعا. العائد من هذا البيع بالطبع ضئيل، ولو كان الانطباع الوحيد الذي يأخذه الفرد عند زيارة ترينيداد؛ مقصورا على انطباعه من زيارة "ميدان الاستقلال"؛ لغادر الجزيرة وهو يعتقد أنه كان في إحدى البلاد الفقيرة البالية.

للإجابة عن سؤال عن الكيفية التي بها تحول "ميدان الاستقلال" في فترة زمنية لا تتجاوز عدة سنوات قليلة إلى مكان يبدو وكأنه مكان كئيب متسخ؛ يتحصل عليه المرء من زيارة عشرة أماكن على وجه التحديد، في الجزيرة. إنها مراكز البيع، والمولات الحديثة التي بنيت على الطراز الأمريكي. فلقد أصبحت ترينيداد في فترة الطفرة البترولية في السبعينيات من القرن الماضي؛ مجتمعا تأسس على "السيارة الخاصة، وجهاز التليفزيون"، أو بمفردات أخرى مجتمعا استهلاكيًا بني على استعمال "التقنيات الحديثة". وكما هو حادث في الولايات المتحدة الأمريكية؛ فإن داخل المدينة، هو أول ضحايا "البربرية الحديثة" (**Modern Barbarism**).

"كوربة جنكشن" (**Curpe Junchen**) لا يعتبر جزءا من المدينة فحسب، لكنه أيضا؛ يعتبر جسرا بين الشمال "الأفرو- كاريبي"، والجنوب "الهندو- كاريبي"، الذي توجد فيه المحطة الأخيرة لكثير من المواصلات العامة القادمة من الشمال والذاهبة إلى الجنوب حيث "شاجيواناس" (**Chaguanas**)، وهي محل ولادة الكاتب المعروف "ف.س. نايبول" (**V.S.Naipaul**). وهو إلى جانب هذا؛ الواصلة بين الشمال و"سام فرنادز" (**Sam Fernauds**)، وهي المدينة الجميلة، التي تشبه مدينة "برجن" (**Bergen**) التي تعتبر العاصمة الثقافية للنرويج، في نظر بعض النرويجيين. وهو أيضا موصل إلى حقول البترول في الجنوب. وأخبرني أحد

المرشدين الذين صاحبوني في تجوالي في المدينة: "أن هذا الميدان يقع عند الحد الفاصل بين "جانب الكوكايين"، و"جانب الماريجوانا". وهو بذلك يريد بيان مدى التباين الصارخ بين المدينة والقرية. ففي الجزء الشمالي من الجزيرة حيث "العصريون" يستخدمون الكوكايين، أما "البسطاء السذج" (Rustic) في الجنوب؛ فما فتئوا يدخنون ماريجوانا (Mariguana).

وفي مفترق الطرق ذاته؛ يسمع المرء ضوضاء عالية، ويشم رائحة ليست مريحة، لكنه مكان شديد الحيوية. به بالطبع مكتب بريد، ويوجد بنك أو اثنان على مقربة من شركة سياحية تنظم رحلات نهاية الأسبوع إلى "عالم ديزني" (Disney world) و"كاراكاس" العاصمة الفنزويلية. وبه أيضا؛ محطة كبيرة متسخة للتاكسيات، والـ"ميني بص"، ويوجد هناك محلان مظلمان لبيع الكحوليات، بكل منهما طاولتان من "الفورميكا" (Formica)، وبه مطعم صيني للوجبات الجاهزة "تاك أواي" (Take away). ومثل هذه المطاعم انتشرت بسرعة عالية، انتشار النار في الهشيم، بعدما امتلك العامة السيارات الخاصة. وبه مطعم أكثر احتراما يحوي طاولات، وتنسدل على جدرانه ستائر مقلمة. ويشاهد المرء أمام الشركة السياحية؛ أكثر أماكن اللقاء تفضيلا، وهو الفرع المحلي لسلسلة مطاعم "كنتوكي فريد تشيكن" (Kentucky Fried Chicken). وعلى مسافة ليست بالكبيرة؛ يقع المحل الموسيقي "سانش" (SANCH)، حيث يبيع المغني"سيمون ساندي فورد" (Simeon Sandiford) أغاني "طبول الإيقاع المعدنية" (Steel drums)، وكاسيتات وأسطوانات مدمجة مسجل عليها موسيقى "الكاليبسو" (Calypso) التي أداها هو وفرقته. بعد ذلك بمسافة قصيرة؛ يقع "سوبرناتشرال سوبرماركت" (The Supernatural Supermarket)، وهو بالتأكيد ليس خارق الكبر، أو خارق الطبيعة – كما يوحي الاسم- بمقارنته بما تعودنا عليه من محلات عادية، يوجد مثلها في جميع أنحاء العالم. وفي السنوات الأخيرة بدأ – وغيره من المحلات الأخرى – في بيع " أقدام الدجاج" بغرض عمل "شوربة" منها، ويعتبر ذلك مؤشرا على مدى

الأزمة الاقتصادية التي مرت بها البلاد، بسبب الهبوط الحاد في أسعار البترول. وبعد مسافة قصيرة يجد المرء "ملهى ليلي"، وهو معتم شديد البرودة ككل الملاهي الليلية في ترينيداد.

وعلى امتداد الرصيف؛ تتناثر أكشاك لبيع أي نوع من أي شيء. هناك يمكن للمرء أن يشترى الصحف الموضوعية الثقافية الرزينة مثل "الجارديان" (**The Guardian**)، و"الأكسبريس"(**Express**). ويجد كذلك الكثير من المجلات الأسبوعية غير الموضوعية وجرائد الإثارة، مثل: "القنبلة" (**The Bomb**)، و"الانفجار"(**Blast**)، و"صنداي بنش"**Sunday Punch**) ، و"تي آند تي ميرور" (**T'n'T Mirror**)، و"ذاهيت" (**The Heat**)، وأخريات، كلها تشترك في التخصص في نشر الفضائح السياسية والتشهير، ونشر الإعلانات للباس البحر النسائي. وعلى امتداد الرصيف يمكن للمرء أيضا؛ شراء حبات المانجو، والفواكه الأخرى. وكثيرا ما تأتي شاحنة بمقطورة مليئة بثمار جوز الهند، حيث تستعمر مدخل الطريق. وفي ترينيداد يشربون ما بداخل جوز الهند من سائل، ولذا يحصدونه قبل النضوج التام، حيث يحتوي في هذه المرحلة من النضوج؛ أكبر كمية ممكنة من ماء جوز الهند. ثم بعد ذلك يبدءون في أكل اللحم الذي يكون في هذه المرحلة جيلاتيني القوام، ورقيقا طريا إلى درجة كبيرة. ويشبه تقريبا "المحار" (**Oysters**)، وله مذاق خاص طيب؛ لا يتشابه مع أي شيء آخر في العالم. وفي الشارع أيضا، في كشك أو اثنين؛ يباع "أيس كريم منزلي" (**Home made**)، وهو ذو جودة عالية ومذاق طيب. وعلى امتداد الطريق، وفي كل مكان استراتيجي؛ يجد المرء بائعي "الضبلز" (**doubles**). و"الضبلز – ينطقونها هكذا بصيغة الجمع– هي المثيل لاسم "سبيسيال" (**Spessial**) النرويجي. وهو عبارة عن إصبع من "السجق" (**Susage**)؛ في ساندويتش، ويضاف إليه "الماسترد" (**mustard**) و"الكتشاب"، وشرائح من البصل الطازج وسلاطة. كل ذلك ملفوف في لفافة من خبز مصنوع من دقيق يسمى "دقيق البازلاء" ["دقيق البازلاء" هو طحين القمح العادي، مضافا إليه مطحون البازلاء الصفراء، ومعالج بالبخار، ويضاف إليه الكثير من التوابل، ويباع بما يعادل نصف دولار أمريكي

وذلك في فترة أواخر التسعينيات – المترجم]. والترينيداديون مثلهم مثل الأمريكيين الشماليين؛ يهتمون بالنظافة الصحية إلى درجة الهوس. وكل الأطعمة التي تباع في الطريق مغطاة، إما بالبلاستيك أو القماش.

"كوربة جنكشن" يعتبر مفترق طرق بحق. إنه مكان يعبره آلاف الترينيداديين يوميا، معظمهم يشتري شيئا ما؛ ثم ينتقل من مكان إلى آخر بسرعة. هناك من يشتري طابع بريد، أو"ضلبز"، أو جريدة، أو زجاجة كوكاكولا، أو تذكرة أتوبيس.. إلى أخره، ورغما عن أن الترينيداديين مشغلون إلى درجة مرضية بالفروق بين الإفريقيين والهنود؛ فإن المرء لا يجد مظهرا أو أسلوب تعامل في "كوربة جنكشن"، يتحلى بصفة عنصرية. الجميع هناك يتبعون الحكمة: "كل شيء لكل أحد". وهناك لا يوجد "نوادٍ روحية" (Soul Clubs)، أو معابد هندية من أي نوع. والمطاعم هناك لا تحوي قائمة وجباتها المقدمة، على وجبات من "لحم البقر"(*). ولو أراد امرؤ اكتشاف بعض الاعتبارات الإثنية فعليه أن يبحث بعيدا عن هذا المفترق "كوربة جيكشن". والحق يقال؛ إن أماكن كثيرة من"ترينيداد"، تتماثل مع هذا المفترق من هذه الناحية. ولو أن هناك مجتمعا يستحق لقب "بوتقة الانصهار"؛ فسيكون بالتأكيد "ترينيداد". فقط علينا أن نسمع أسماء الأماكن: "شاجيوناز" (Chaguanas)، "سان فيرناندو" (San Fernando)، "كارندج" (Carenage)، "بورت أوف سبان" (Port of spain)، "سانجرا جراند" (Sangre Grande)، "سانت أوجستين" (Saint Augustine)، "فيس أباد" (Fysabad). "مايرو" (Mayaro)، "برنسس تاون" (Princes Town)، "ماتالوت" (Matelot)، "تونابونا" (Tunapuna)، "توكو" (Toco)، "هوفوس" (Huevos). هذه الأسماء من أصول إسبانية، وإنجليزية، وفرنسية، وهندية، وكاريبية. بينما السياسية السائدة، والمسيطرة في الجزيرة– وهي من أصل إفريقي – لم تسمِ اسم مكان واحد يدل

(*) أكل لحم البقر تحرمه العقيدة الهندوسية. (المترجم)

عليها. ففي ترينيداد لا يجب أن تقع مثل هذه الخطيئة. على العكس تماما؛ فإن غياب الأسماء الإفريقية يؤكد لهم انتهاء سمات عصر العبودية، من لغة وتاريخ.

كل شيء في ترينيداد جديد وحديث ومرهف كيس. والشيء الوحيد الذي يذّكر بعصر ما قبل "كولومبس" الكاريبي، هو أسماء بعض الأماكن مثل: "شاجو أراماس" (Chaguaramas)، و"أروكا" (Arouca)، و"شاكاشاكارا" (Chacachacare). وهناك مجموعة بشرية قليلة العدد في "أريما"(Arima) يدّعون انتسابهم إلى الهنود الحمر. وفي كل عام يحتفلون بتتويج ملكة جمال الكاريبي. لكن ليس هناك من يأخذ أقوالهم على محمل الجد.

يصل عدد سكان ترينيداد إلى مليون ونيّف. يتكونون من فريقين من الإفريقيين والهنود، بنسبة متقاربة، وإلى جانب ذلك عدد كثير من "الملونين"، أو ذوي الأصول المهجنة (Mulatto or mulatt). وهم ناتج زواج الأبيض والأسود. وبعض أخر ناتج زواج "إفريقي- هندي"، ويسمونهم الـ"دوجلاس"(douglas) علاوة على بعض الصينيين والأوروبيين، وبضعة آلاف من اللبنانيين والسوريين. أما لقب "كريولي" فيستخدم محليا لكلمة "ترينيدادي"، باستثناء الهنود الخلص. وكل مجموعة من المجموعات الإثنية، يمكن تقسيمها إلى تفرعات تحتية لو أردنا ذلك. و"الأفرو- كاريبيون"، أو الإفريقيون، جزء منهم كاثوليكي المعتقد والآخر بروتستانتي، وفي الفترة الأخيرة تحول بعضهم إلى الإسلام. ومن بين الهنود نجد الهندوس، والمسلمين والمسحيين. أما في المنطقة الرمادية، من حيث التوصيف الإثني، ففيها الأبيض المائل للسمرة، من السوريين واللبنانيين، وبعض من المهجنين شاهقي البياض، أو "حمر" (Reds)، وآخرون ذو لون غامق. ولو تساءلنا: هل الـ"حمر"، أو الـ"ردس"، بيض أم سود، أم لا هذا ولا ذاك؟ فلن نجد جوابًا واضحًا عن السؤال. كذلك فإن العلاقة؛ بين "الردس"، والـ"دوجلاس" (douglas)، ليست واضحة وغالبا ما يجد المرء ثلاثة أجناس أو أكثر في شجرة عائلة الترينيداديين. إلى جانب ذلك، هناك فئة إثنية غامضة، الغامق منهم غالبا ما

ستكون أصوله إسبانية. صحيح إنه كانت هناك هجرة من فنزويلا إلى ترينيداد؛ إلا أنها كانت محدودة، ولم تستطع تكوين مجموعة إثنية كاملة. والذين يدّعُون منهم، أنهم من أصول إسبانية؛ لا يتحدثون الإسبانية، وليس فيهم ملامح إسبانية. وحتى أسلوب حياتهم وعاداتهم، ليست إسبانية أو أمريكية لاتينية. وعلى ما يبدو أنهم من أصول هندية، أو من أصول مختلطة. ويعتقد أن كلمة "إسباني"، مصطلح يطلق على الهندي، الذي مر بعملية "كرولة" تامة أو جزئية في الجنوب. البعض منهم ربما عاش فترة في "فنزويلا". والبعض الآخر أطلق شاربه، ويبدو من على مسافة وكأنه جنوب أمريكي.

تعتبر ترينيداد "بوتقة صهر"، و"مكان لقاء"، الأعراق القادمة من أماكن مختلفة. وفي المقابل كانت الجزيرة أيضا مصدرة للقوى العاملة لعدة عقود. مثلها في ذلك، مثل كل المنطقة الكاريبية، ويمكن اعتبار "نيويورك" **(New York)** الأمريكية الشمالية، هي المدينة الكاريبية الأكبر في العالم، وتليها ربما "تورنتو" **(Toronto)** العاصمة الكندية، ولا يجب أن تغيب لندن وميامي الأمريكية عن القائمة. ويمثل حلم الهجرة، لكثير من الهنود الغربيين، أكثر من أمل لدافع مادي أقل. إنها تعني لهم أيضا؛ خروجًا من العزلة، وانضماما إلى العالم الحقيقي الواقعي، الموجود خارج المنطقة الكاريبية.

الكاتبان الأكثر شهرة في "ترينيداد"، الأخوان "نايبول" **(Naipaul)**، وصفا آمالهما في الهجرة من ترينيداد في كتاباتهما. كتب "ف.إس. نايبول" **(V.S.Naipaul)** في الستينيات من القرن الماضي، أنه قد نسى إغلاق المدفأة ذات ليلة في شقته في لندن، واستيقظ في منتصف الليل، وهو سابح في عرقه من هذا الكابوس، الذي رأى فيه أنه قد رجع مرة أخرى إلى ترينيداد الاستوائية الحارة. أما أخوه الصغير "شيفا نايبول" **(Shiva Naipaul)**، الذي وصف بأنه أفضل من أخيه "فيديا" **(Vidia)** بوصفه كاتبا، ومات وهو صغير جدا بالذبحة الصدرية، كتب عن إحدى زياراته في الطفولة

إلى "بورت أوف سبان"، بعد عدة سنوات من انتقاله إلى "أوكسفورد" (Oxford): "إنه كابوس يلازمني، بمجرد مجيئي هنا، يتولد عندي الشعور بأني وقعت في المصيدة، وأني لن أستطيع الفكاك منها مرة أخرى، وإلى الأبد".

ترينيداد ليس بها ثقافة وتقاليد يمكن أن توصف بأنها "نقية" أو "أصيلة". الجزيرة كانت حديثة منذ البداية، ولا توجد هناك خطط للتغيير. الترينداديون، وبغض النظر عما إذا كانوا "كريول" أو غير ذلك؛ فإنهم يستطيعون الحياة في أي مكان في العالم، ما دام به محل "كانتكي فريد تشيكن" (Kentucky Fried Chicken)، و"بار" بجانبه. والتخوف من الأوروبيين والصورة السيئة لهم، التي يجدها المرء منتشرة في "جاميكا" (Jamaica)، لا وجود لها تقريبا في ترينيداد. وسيجد المرء بديلا عنها في النمط المؤدب والقبول، مثلما هو أيضا في "بربادوس" (Barbados)، الجزيرة التي لا تبعد كثيرا عن ترينيداد. والترينيداديون فخورون بأنهم أكثر المجتمعات حداثة ومدنية في العالم، ولا يعتقدون أن هناك مجتمعا آخر يمكن اتخاذه مثالا يحتذي به. أما نظرتهم الدونية، فهي موجهة إلى الفلاحين البسطاء في القرى، التي لم تتعلم نمط الحياة في المدن الكبيرة، حيث الدهاء، والفطنة، وخفة الدم، والمادية. يطلقون نكتهم الساخرة على أهالي الجزر الصغيرة، الذين لم يروا في حياتهم طابور انتظار أتوبيس، أو "بلورة كوكايين" (Cocain Crystal). ومعضلة الترينيداديين تظهر عند سؤالهم عن تسمية هوية لهم مختلفة عن هؤلاء القرويين. الكثير من الترينيداديين المشهورين، هم أبناء لرجال جاءوا من هذه الجزر الصغيرة. مغني الكاليبسو الشهير "ذا ميتي سبارو" (The Mighty Sparrow)، أو "البلبل العظيم"؛ ولد وترعرع في "جرينادا" (Grenada). وكذلك رئيس نقابات العمال المشهور "أوريا بوز بتلر" (Uriah Buzz Butler). وليس بأقل منهم، "دريك والكوت" (Derek Walcott)، الحائز على جائزة نوبل، وهو من "سانت لوسيا" (ST. Lucia). ولكن الترينيداديون يعتبرون أن هؤلاء منهم، وليسوا من تلك الجزر الصغيرة.

ولعل أحد أهم الأسباب؛ لشرح تلك الثقة بالنفس، والحيوية التي يتمتع بها الترينيداديون، هي أن الجزيرة لم تكن "مجتمع عبيد". تجارة العبيد لم تحدث إلا لفترة عقدين من الزمان، بعدما استعمر البريطانيون الجزيرة، التي كانت خاوية تقريبا من السكان، وبعد ذلك توقفت هذه التجارة ولم تستمر. وبدلا من ذلك أصبحت ترينيداد، ومكثت، مجتمعا من المغامرين الحالمين بواقع مادي جيد، القادمين من كل حدب وصوب، خاصة من منطقة الكاريبي، ولكن قدموا أيضا من كل أركان العالم. إنها ترينيداد الحديثة المتمدينة.

٣

الأوروبي الذي تعود أن يعيش في مجتمع له تاريخ، وله فعالية دائمة، باتباع عادات وتقاليد يصاب بالدهشة، ويقع في ورطة عند محاولته مقاربة ثقافته بثقافة مجتمع، كل شيء فيه قابل للتفاوض وديناميكي. فيمكن للهنود أن يصبحوا "كريول" لو أرادو، فلا أحد يفرض عليهم ممارسة عاداته وتقاليده، على الأقل نظريا.

عندما جاء الأنثروبولوجي الفرنسي المعروف "كلود ليفي – شتروس" (**Claude Levi - Straus**) إلى البرازيل في الثلاثينيات، مدرسا في الجامعة – كان حينها صغير السن– وصف المجتمع بأنه "مجتمع انتقل مباشرة من "البربرية" إلى "الانحلال الأخلاقي" (**decadence**)؛ دون أن يسلك طريق الحضارة (**Civilization**). وهذا الكلام يشابه تماما ما قاله "جين بودريللارد" (**Jean Baudrillard**) عن الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن دعنا نتجنب إعطاء حكم مماثل جامد يقاس بالمعيار الأوروبي عن ترينيداد. وذلك لأنه توجد قوى خلاقة، في كل عناصر هذه المجتمعات الحديثة. مما يجعل مجتمعا من هذا النوع، ليس أقل حيوية وإبداعا من مجتمع آخر عريق الحضارة، مندمج بها.

كتب "في. إس. نايبول" (V.S Naipaul) في مذكرات إحدى رحلاته في الكاريبي – التي أسماها "الممر المتوسط" (The Middle Passage) – عن ترينيداد ما يلي: "هذا البلد لم يخترع قط أي شيء – ولكن كانت له القدرة على محاكاة المدنيات الأخرى فقط". وكمثال، ذكر "نايبول" أنه عندما عُرض فيلم "كازابلانكا" (Casablanca) في ترينيداد، ذهب رجال المدينة لمشاهدة الفيلم، وعندما انتهى العرض، خرج كل الرجال يقلدون البطل "همفري بوجارت" (Humphrey Begart) في أسلوب تعامله ومشيته، مجرد قرود، أليس كذلك؟ تساءل "نايبول" بتهكم واحتقار.

إلى أي درجة من قصر النظر، يُسمح للمرء أن يصل؟

صحيح أن الترينيداديين يقتبسون الأفكار الجديدة والعادات، والتقاليد المختلفة بمنتهى السرعة. ولكن، من الصحيح أيضا أنهم يعيدون تشكيلها بسرعة البرق، فتصبح وكأنها صنعت بأيديهم. في نهاية القرن التاسع عشر، كان معظم الترينيدايين يتحدثون لغة كريولية لها أصول فرنسية. وذلك يرجع إلى تعدد المستعمرين على مر تاريخ الجزيرة. وفي بداية القرن أصبح واضحا لهم، شيئا فشيئا، أن جزيرتهم أصبحت جزءا من إمبراطورية عظمى. وأن تاج العرس جوهرة تتلألأ في سماء العالم السياسية. وكما ذكر فإن الملكة البريطانية "فيكتوريا" (Victoria) نالت "شرف" – إن جاز التعبير– جلب العبيد، واجتاحت الجزيرة موجة من "حب الإنجليزية" (Anglophile) مباشرة بعد موت الملكة. ولذلك غيّر الترينيداديون لغتهم إلى الإنجليزية، وفي غضون بضع سنوات، في نهاية الحرب العالمية الثانية، كان من الصعب على المرء أن يجد أحدا منهم يتكلم الكريولية. وخلال القرن العشرين تطورت اللغة "الإنجليزية الترينيدادية"(Trinidadian English)؛ ليصبح لها شكل محلي خاص، وبه بالطبع تعبيرات وأمثال شعبية، ولها طريقة خاصة في الأداء والقواعد. البعض يعتقد أنها مختلفة كثيرا عن "الإنجليزية الفصحى" (Standard English) لدرجة وجوب وصفها بأنها "لغة كريولية". علاوة على ذلك فإن الإنجليزية الترينيدادية قد حافظت على بقايا من الفرنسية في ترتيب الكلام، مثل:

"It have rain" (لقد أمطرت بالعربية)، بينما هي بالإنجليزية الفصحى " there is rain"، أو "It is raining" (إنها تمطر بالعربية)، والتي تعتبر ترجمة لفظية من الفرنسية "Il y a de pluie". ولا أحد يستطيع القول بثقة، إن اللغة الترينيدادية ليست إنجليزية، وأن يتعامل معها وكأنها لغة مبتدعة ولا يجب احترامها، رغما أن هناك بعض التعبيرات، التي تثير مثل هذا الاعتقاد.

مثل آخر على أساليب إعادة "التشكيل الثقافي"، هو تطور موسيقى "الكاليبسو". بدأت عملية تشكيل وبناء هذا النوع من الموسيقى، بعملية خلط وذوبان لـ"الشانسون" (Chansou) الفرنسي، والموسيقى الغرب إفريقية. وفي طريق البناء، تم تطعيمه بنبضات جاءت من هنا وهناك. وفي الثلاثينيات من القرن الماضي، أدخلت أقسام "الأبواق النحاسية"، و"الجاز الراقص"(Swing Jazz). وفي السبعينيات كان تأثير "الريجا" (Reggae) قويا. وفي التسعينيات انتشر نوع "الكاليبسو" المسمى "سوكا" (Soca)، وهو عبارة عن موسيقى راقصة من النوع الذي تلعبه الفرق في المرقص (Discoihequie).

من المستحيل إمكانية عزل أو فصل أي عنصر من عناصر"الكاليبسو"، ليقال عنه إنه ابن الأرض الترينيدادية. ولكن، وفي الوقت نفسه من المستحيل القول إن هذا العنصر أو ذاك؛ قد جاء من مكان مختلف. وربما يكون "الكاليبسو"، أفضل من أي مثال آخر يصلح للتعبير عن الإنسان في ترينيداد، فالكاليبسو موسيقى شديدة الإيقاع وقوية ومثيرة للجدل، تعتمد على التو واللحظة. والكاليبسو القديم لا يريد أحد سماعه الآن، فالجديد هو المطلوب دائما. وفي ترينيداد يؤثر مغنو الكاليبسو الجيدون على القيم السياسية، ويعبرون عن الرأي العام في فترة ما. دعني أذكر مثالا واضحا على ذلك.

في أثناء الحرب العالمية الثانية؛ لاقى الوجود الأمريكي في ترينيداد شعورا مختلطا. من ناحية، فقد جلب الأمريكيون فرص عمل للترينيداديين. ولكنهم من

ناحية أخرى خطفوا نساءهم. في الأربعينيات كتب مغنى الكاليبسو "لورد إنفادر" (Lord Invader)- كل مغني الكاليبسو يتخذون ألقابا فنية – أغنية انتشرت على مدى طويل، سماها "روم وكوكاكولا" (Rum and coca-cola)، وهي تعبر عن الحسرة واليأس لرجال ترينيداد، الذين شعروا أن نساءهم باعوا أجسادهن للجنود الأمريكيين. يقول مقطع من الأغنية:

They buy rum and Coca-cola

يشترون الروم والكوكاكولا

Go down Point Cumana

يتمركزون في شارع "كومانا"

Both mother and daughter

الأم والبنت كلتاهما

Working for the Yankee doller

تعملان من أجل دولار اليانكي

أغنية "إنفادر" هذه سُرقت من قبل مغني أمريكي وفرقته بأسلوب وقح. حيث أعاد غناءها في موسيقى هادئة تناسب العائلات، وحققت الأغنية نجاحا باهرا في الولايات المتحدة الأمريكية. ولجأ "إنفادر" إلى القضاء مطالبا بحقوق الملكية والتأليف، وبعد سنوات طويلة من المثابرة، في أروقة أجهزة العدالة، تمكن من الحصول على تعويض مالي.

وفي عام 1965 واجهت "ذا ميتي سباروز" (The Mighty Sparrows) مثل هذه المشكلة، في أغنية الكاليبسو الناجحة "جين أند دينا" (Jean and Dinah)، ولكن

في هذه الأثناء، كان الأمريكان قد رحلوا من الجزيرة، وأراد المغني الترينيدادي "سويت مان" أن يثأر منهم، يقول في أغنيته لحبيبته السابقة:

تستطيعين الرجوع إليّ لكن هذه المرة بشروطي

لقد ذهـــب اليـــانكي وعــــــاد "ســـــــبارو"

وأصبحت هذه الأغنية "جين آند دينا"، رمزا لاستقلال ترينيداد من كل التسلط والهيمنة الأجنبية. فلقد عادت كرامة الرجال في ترينيداد إليهم. وجاءت ثاني واقعة مهمة في السنة نفسها. فقد سعى "أريك وليام" (**Eric William**) لتكوين "الحركة الشعبية القومية" (**PNM**) (**People National Movement**)، التي كان هدفها الأساس، قيادة المستعمرة إلى الاستقلال التام والحقيقي. فهل هذا شعب من "القرود" وأشباه الرجال؟ مثل هذا الوصف لا يمكن، ولا يجوز قوله.

إحدى العلامات المميزة، التي تبين قدرة الترينيداديين على الإبداع والبناء الثقافي، لابد وأن تكون الفرق المعدنية الموسيقية. وهي التي يعتبرونها – عن غير حق– أكبر اختراع في تاريخ الموسيقى، في القرن العشرين، حيث يزعم بعض الترينيداديين ذلك.

المنحدرون من العبيد، الذين أحضروا للعمل في "بورت أوف سبان"، أو "ميناء إسبانيا"، كانوا هم من أوائل من اكتشفوا موسيقى الفرق المعدنية (**Steel band music**). والباحثون مختلفون في شخصية أول من "قرع براميل البترول الفارغة. لكن، كلهم متفقون على الأقل أن هذه الحادثة، وقعت في "تلال لافن تيلا" (**Laventille Hills**). وهو قطاع من المدينة، يوصف اليوم بأنه حي الفقراء، حيث تنتشر الجريمة، ويتزايد عدد الأمهات غير المتزوجات. وحيث ينتشر بيع "بلورات الكوكايين" (**Cocaine Crystalls**). ويعتبر "لافين تيلا"، "هارلم" (**Harlem**) ترينيداد. وهارلم هو حي الفقراء في "منهاتن" بمدينة نيويورك الأمريكية، كما هو

معروف. ولو كان كذلك فليس من الغريب أن ينتشر فيه الفقر والجريمة، وأن تسود فيه ثقافة الخروج على القانون، بدلا من ثقافة الطبقة المتوسطة التي تحترم القانون، التي نجدها ونلاحظها في منطقة "سانت كلير" (St. Clair). و"سانت كلير" هو الذي يرجع إليه اختراع الطبول المعدنية الموسيقية، دون أدنى شك.

بدأ استعمال براميل البترول المعدنية – المنشور جزء منها – كآلات موسيقية؛ عندما بدأت ثقافة الكرنفال الترينيدادي في الانتشار. وكانت موسيقى "التامبو – بامبو" (tamboo bamboo) تمثل أحد أهم عناصره الموسيقية. وعندما منعت الجهات الحكومية المسئولة، استعمال الطبول الإفريقية في عام 1884 ميلادية، أصبحت ما سمي بفرقة "تامبو – بامبو" أحد العناصر المكونة للكرنفال. ومثلت آلات الإيقاع هذه بديلا شعبيا لفرق الكاليبسو المطورة. وكانت آلات "التامبو– بامبو"، عبارة عن إسطوانات من البوص الاستوائي مختلفة الأطوال، وكان المؤدي يضرب الأرض بإيقاعات معينة. واكتسب مؤدو هذا النوع من الموسيقى صفة "جامت" (Jamettes)، والتي تعني "عامل نصف مجرم"، من الحي الشرقي في المدينة. وفي الحقيقة؛ فإن السلطات البريطانية المستعمرة، حرمت موسيقى "التامبو– بامبو" في العديد من المناسبات، وذلك لكونها غير محترمة، وبسبب استعمال أدواتها سلاحا في معارك نشبت في نهاية الكرنفال، عندما يفقد الناس توازنهم بسبب الخمر. وحول الحرب العالمية الأولى تقريبا؛ طُعِّمت فرق "التامبو– بامبو" بآلات إيقاع أخرى من "الملاعق"، وزجاجات "الجين"(*) الهولندي الفارغة. وفي أثناء الحرب أثريت آلات الإيقاع والدق، بصورة متلاحقة سنويا تقريبا؛ بأجهزة إيقاع جديدة. إنها صناديق البسكويت المعدنية، التي انتشرت بين الفرق الموسيقية، لدرجة أنها كانت تسمى "فرق طبول البسكويت" (Biscuit Drum Bands)، وذلك في الثلاثينيات من القرن

(*) جين"، هو اسم لمشروب كحولي، به نسبة عالية من الكحول مثل الويسكي، ويشرب غالبا مضافا إليه تونيك. (المترجم)

الماضي. هذه الفرق أصبحت تعرف فيما بعد، بـ"فرق الإيقاع المعدنية". كتبت صحيفة الطبقة المتوسطة "جارديان ترينيداد" (Trinidad Guardian) في تقريرها، عن أخبار الكرنفال تصف الموسيقى بأنها صاخبة: "درجة ضوضاء غير معقولة شديدة الإزعاج، تلك التي تنطلق من الرقائق المعدنية".

كل هذه الاكتشافات الموسيقية - التي كانت سلطات المستعمرة شديدة الحرص على تشجيعها، حتى تستمر في تحريم موسيقى الإيقاع المستعملة في إفريقيا السوداء - لم تكن تكفي لإقناع سكان الحي الشرقي، لدرجة مشاركته الموسيقية في الكرنفال. وبدأ فنانو موسيقى "الكاليبسو"، في تخصيص جزء خاص لآلات النفخ في فرقهم، وجزء آخر للقرع على الطبول البرميلية، وبذلك استطاعوا تقديم موسيقى متناسقة ومتناغمة، لا تستطيع فرق البسكويت تقديمها. وفي أثناء الحرب؛ طُوّر أسلوب القرع على الطبول، وبدأ استعمال ما سمي "الشاكوش"، أو "المقرعة"، وهي عبارة عن عصا بأخرها رأس تقرع بها الطبلة بدلا من الأصابع. وهناك من علق عُصيا خشبية في صندوق البسكويت الفارغ، وغنى أغنية للأطفال، سميت "عند ماري حمل صغير" (Mary Had a Little Lamb)، وكان الصندوق يقرع بعصا معدنية. هذا الاكتشاف البسيط، انتشر بسرعة البرق، وأصبحت الأغنية قطعة موسيقية في "ثمانية" (Octave)، أو أكثر. بعد ذلك، نسقت العلب، والجرادل المعدنية ذات الأحجام المختلفة في توافق وتآلف، من أفراد لهم ملكة موسيقية مرهفة. ومن البداية أتقنت الفرق الموسيقية مساحة كبيرة من الأصوات. وأصبح العمق الموسيقي متآلفا ومنسجما، واستطاع جذب المستمعين إليه؛ عندما بدأت أول "فرقة معدنية" عزفها في أثناء الاحتفال بالسلام، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عام **1945**. وحتى الآن نسمع هذه الموسيقى، وكأنها قرع على المعدن. وما زالت الفرق الموسيقية تطورها من الناحية الموسيقية. عندما زار كاتب الرحلات الإنجليزي "باتريك لي فيرمور" (Patrick Leigh Fermor) ترينيداد في نهاية الأربعينيات، ذكر هذه الفرق الموسيقية، وكتب في ذكريات زيارته لـ"هضبة لافن

تيلا" (Laventille Hills)، "الآلات الموسيقية هناك تبدو لأول وهلة وكأنها قطع غيار سيارة صدئة، وعند التمعن فيها فإن بعضها بالفعل هو ذلك". لقد استعمل المغني "فيش أيز أوليفر" (Fish-Eyes Olivier) أكثر الآلات تعقيدا وهي "التوك – توكن" (Tock-Tocken)، التي تغطي مساحة أربع عشرة نوتة موسيقية...، والصوت الذي انبعث تجاه طبلة الأذن يسبب الصمم. ربما لو بعدنا عنه كيلومترين يمكننا سماعه دون إزعاج، ولكن الموسيقى كانت، دون شك، قطعة موسيقية من الموسيقي الألماني "باخ" (Johann Sebastian Bach) المعروف، وكانت دون أي تغيير ولو صغير. ومنذ أن عزفت القطعة الموسيقية لـ"بـاخ"، حفظها صبيان الشوارع في الحي الشرقي وكانوا يعزفونها، فيما يحفظون من موسيقى.

ومنذ ذلك الحين، انتشرت فرق الموسيقى المعدنية. وتكاد اليوم أن تكون هي الرمز الوحيد، الذي يوحد الدولة (الجزيرة)، ويتفق عليه الجميع. والكثير من متعهدي الحفلات، من ذوي الأصول الهندية يحبونها، وامتد حبها إلى أوساط الطبقة المتوسطة. ويمثل تقبل هذه الموسيقى، في أنحاء العالم المختلفة، سعادة كبيرة للترينيداديين. "أنتوني بروسبكت" (Antony Prospect)، رجل متقدم في السن، وعلى المعاش، يقضي وقتا كبيرا، في عمل غير مدفوع الأجر، يُجَمِع ويصنف قصاصات من الجرائد القديمة، والمقالات المكتوبة عن موسيقى الكاليبسو. ويروي عن تجاربه الموسيقية، عندما عمل مع فرقة "كازابلانكا" في إنجلترا، يقول: "لم يكن الجمهور مصدقا لنا، عندما كنا نقول إننا يمكننا عزف 1812 قطعة موسيقية على برميل بترول فارغ. ولقد عزفناها بالفعل ثماني مرات، ولاقينا ترحيبا كبيرا من الجمهور وتصفيقا حادا، وفي النهاية حملوني على الأكتاف تعبيرا عن إعجابهم".

الكثير من قائدي الفرق الموسيقية الأخرى يروون مثل هذه الرويات، ويقولون إنهم جميعا قوبلوا بترحيب بالغ، في أي مكان عزفوا موسيقاهم فيه. وربما يكون في ذلك بعض الحقيقة، على الرغم من أن الترينيداديين مشهورون بحب التفاخر والتباهي. إن التأليف والتنسيق بين خمسين برميلا إلى ستين، يُقرع في

الوقت نفسه، يعطي صوتا مدهشا. ويعزف الموسيقيون مقطوعات موسيقية، تحتاج إلى جهد كبير دون استعمال صفحة واحدة من النوتة الموسيقية.

التاريخ عن موسيقى الفرق المعدنية، يعطي فكرة عن المجتمع الترينيدادي، ويبين بعضا من هويته. على مدى بضعة عقود، أصبحت الموسيقى "تقليدا قوميا اجتماعيا" (national tradition)؛ ولا يوجد قالب موسيقي محلي قديم، ما زال يعزف حتى اليوم. من الطبيعي أن الترينيداديين يعلمون عن الكاليبسو الكلاسيكي منذ بداية القرن، إلا أن هذه الأغاني تعتبر غير مناسبة للوقت الحالي. الكاليبسو الحالي له كلماته، والموسيقى التي تتناسب مع العصر. والقاعدة الأساسية في ترينيداد هي: "كل شيء يمر عليه عشر سنوات يقابل بحذر". ولكن، ربما يكون الاستثناء الوحيد- هو موسيقى الفرق المعدنية. وهي أيضا ينالها التجديد الدائم. وهناك اتفاق غير مكتوب: إن أي فرقة معدنية، لا يجب أن تشمل آلات أخرى غير البراميل، وآلات الإيقاع. هذا الاتفاق بالذات؛ يحافظ الترينيداديون عليه، على غير العادة من حب التجديد.

المثير للانتباه هو أن الموسيقى المعدنية، وهي التي تعتبر اختراعا ترينيداديا أصيلا- أو على الأقل هكذا ينظرون إليها؛ كانت نتيجة واضحة للدلالة، على تواصل الترينيداديين مع الأجانب. ويمكن وصف الكاليبسو في بدايته، أنه ناتج صهر "تقليد الشانسون" (Chanson Tradition) الفرنسي، والموسيقى الإفريقية. وعلى المنوال نفسه، فإنه يمكن اعتبار الموسيقى المعدنية، أنها ناتج كل من: الإبداع الترينيدادي، والموسيقى الكلاسيكية الأوروبية، والكاليبسو، والحرب العالمية الثانية. ودور الحرب في هذا المجال أنه عندما عبأ الأمريكيون متاعهم ورحلوا أخيرا من القاعدة الأمريكية المتنازع عليها في "شاجوارلاماس" (Chaguaramas) تركوا عددا كبيرا من براميل الزيت الفارغة. ودون هذا الحدث المفاجئ، فإن تطوير الآلات الموسيقية منها، ربما يكون من الصعب التفكير فيه.

٤

المظهر الخارجي وأسلوب التعامل مع الآخرين يعدا ذا أهمية كبرى مثل الإبداع في مجتمع زرعت فيه الفردية والتجديد. مجتمع ليس عنده حد أدنى من احترام "الموروث الأصيل"، مثل النسب، أو الألقاب الرسمية. إن الترينيدادي يبذل من العطاء الكثير؛ لو تعامل الآخرون معه باحترام، ولو استطاع الفرد التعبير بأسلوب مهذب، وكلمات رقيقة مشجعة. من أحد أهم "الشخصيات" التقليدية المشهورة في الكرنفال الترينيدادي هي شخصية **"The Midnight Robber"**، أو "لص منتصف الليل"*، الذي يرتدي زيا خاصا في أثناء الاحتفالات في الكرنفال. وهو رجل يمتاز بسرعة البديهة، و"خفة الدم"، و"طلاوة اللسان". كان هذا قبل أن يقضي الإتجار والتربح بالكرنفال؛ على المواهب الفردية. يقوم "اللص" في منتصف الليل، بتعيين ضحيته، ثم يشرح له وللحضور، بأسلوب مهذب طريف، لماذا اختاره هو بالذات ليسرقه. بعد ذلك يضحك الناس بسعادة، ويجودون بسخاء، بما في جيوبهم من نقود صغيرة يقوم هو بجمعها.

يمكننا القول، إنه قد أصبح – تقريبا من الواجب القومي، أن يحافظ الترينيدادي على مظهره الخارجي الأنيق. وعلى الرغم من أن الجزيرة، لها طقس استوائي حار ورطب؛ فإنه من النادر ما تشم رائحة العرق من أحدهم. وفي المدارس يتعلمون: أن يكون الإنسان غبيا، أقل سوءا من أن يكون غير مهذب. وبالطبع من الأفضل أن يكون الإنسان ذا مظهر حسن وذكيا في الوقت ذاته.

(*) يقابلها أو يماثلها في العربية، شخصية "الحاوي" في الفلكور الشعبي. (المترجم)

كثير من النساء السود يصففن شعورهن، ويدهنون البشرة بالكريمات المبيضة. أخبرتني "جولي" (Julie) جارتي السوداء، أنه حوالي عام 1970، عندما شُكّلت حركة "بلاك بور" (Black Power mov.)، انتشر أفرادها في أنحاء المدينة ينشرون الوعي بين البنات، يرددون: "لو أنك استعملتِ مواد تكوين البشرة، فإنك تصبحين عدوة لجنسك. ويؤكد ذلك أنك غير فخورة ببشرتك السوداء". وفي منعطفات الطرق - خاصة في العاصمة "بورت أوف سبان"، كان بعض الشباب يحملون جرادل مياه، يسكبونها على البنات اللاتي لوّن شعورهن، حتى يفسدوا عمل الصبغات الملونة للشعر. وفي العقود الأخيرة لم يصبح من الغريب، أن تلفلف بعض الإناث شعورهن، يتشبهن بـ"المرأة الحمراء" (Red Women)، وهي البنت الناتجة من زواج مختلط، أبيض وأسود (mulatte)، وقد أصبحت رمزا للأنوثة والجاذبية، في ترينيداد.

أحد نقاط النقد، من وجهة نظر الكريوليين هي: أن الترينيداديين من الأصول الهندية، يفتقدون الذوق الرفيع. مثلا، فاللون المحبب إليهم في دهان منازلهم، سواء في الداخل أو الخارج، هو اللون الوردي الفاقع، المعروف بين الكريولين باسم "كولي بينك" (Coolie Pink) أو الوردي البارد.

حسُ الدعابة والفكاهة عنصر رئيس لفهم ترينيداد. الدعابة تسرى خلال الأدب الترينيدادي، المسموع منه أو المكتوب، وربما على وجه الخصوص "الكاليبسو". من الممكن أن يكون البعض منه نقدا سياسيا، أو فكاهة نابية مستهزئة، أو حوارا ساخرا خفيف الظل، وغالبا ما يجد المرء عنصرا دعابيا في أغنيات "الكاليبسو". وفي حالة النكت الساخرة - مثلما يحدث بين الدنماركيين والسويديين والنرويجيين - التي يطلقها الترينيداديون على البلاد الأخرى، يصفون "الجويين" (أهل جويانا.Guyana) بعدم الأمانة، و"البربادسيين" (أهل بربادوس. Barbados) بالغباء، و"الجاماكيين" بالعنف والوحشية. ومن الناحية الأخرى، فهناك من يصف

الترينيداديين بأنهم يستغلون المناسبات الصغيرة قبل الكبيرة للضحك والتفكه. واحد من أحد كُتّاب الأعمدة، في الجريدة الجاميكية "دالي جلينر" (Daily Gleaner)، كتب في هذا الموضوع: "لو أن اثنين أو أكثر من الجاميكيين اجتمعوا؛ فسوف يُقتل واحد منهم". والترينيداديون مشهورون بالتفاؤل، وعندما كانت "ترينيداد وتوباجو" تستعد للتأهل لدخول مباريات كأس العالم لكرة القدم عام 1995، اشترى كثيرون منهم تذاكر سفر إلى إيطاليا قبل الزمان بزمان. وقد كانت إيطاليا هي الدولة التي أقيمت بها مباريات الكأس في ذلك العام. وللأسف، فإن الفريق الترينيدادي انهزم أمام الولايات المتحدة، وخرج من الدورة ولم يذهبوا نهائيا إلى إيطاليا.

والقدرة على الدعابة والتفكُه، والميل إلى عدم التفكير فيما سيأتي به الغد، يعترف الترينيداديون بأن ذلك لازمة من صفاتهم. المثال الأشهر على ذلك هو الكرنفال السنوي الذي يقيمونه. وهو عبارة عن حفل شعبي غنائي، راقص، غني بالألوان. ويشترك فيه مئات الآلاف بملابس خفيفة، وهم نصف مخمورين. وعنصر الإثارة الجنسية في الكرنفال؛ حاضر كما هو موجود على مدار السنة. والرقصة المحلية المسماة "وينينج" (Winning)، تعبير واضح للرغبة الجنسية. إنها عبارة عن حركات عنيفة مبالغ فيها، تمثل الرقود معا. وهي رقصة منتشرة ومحببة للجنسين، في موسم الكرنفال وفي غيره من الأوقات.

قال "برتراند رسل" (Bertrand Russell)، الفليسوف البريطاني المعروف، "إن المثقف هو ذلك الشخص، الذي يمكنه التفكير في شيء آخر غير الجنس، لمدة نصف ساعة في اليوم الواحد". "وتبعا لهذا، يمكن القول إنه لا يوجد الكثير من المثقفين في الهند الغربية"(West Indies). كان ذلك استنتاج أستاذ جامعي في الأدب الإنجليزي، بناء على قول "رسل".

الترينيداديون يمارسون نشاطا طوال العام، يسمونه "ليمينج" (Liming). وهو نشاط مميز، يمكن وصفه بأنه "فن قتل الوقت". أوقات الفراغ يقضونها في

محلات الروم (Rum Shops)، وفي الوقوف على أرصفة الشوارع، وفي أماكن أخرى مثل بيت أحدهم. هناك يتقابل الفتيان، وفي بعض الأحيان بعض الفتيات، يحاولون قضاء وقتهم في فعل غير نافع، حيث يشربون ويطلقون النكات، يلعبون البلياردو، يدخنون الماريجوانا، أو ببساطة لا يفعلون شيئا على الإطلاق. وعندهم قدرة كبيرة في التفنن في ذلك. وهكذا تصهر الدعابة، والأناقة، والإبداع معا.

معظم المجتمعات البشرية بها ما يذكر ب"الليمينج". مثلا، في مجتمع مدينة "تروندهيم" (Trondheim) النرويجية، يقضي البعض وقت الفراغ في شرب الكحوليات المصنعة في المنزل (Home made)، ويتسامرون بكلام فارغ(*)، وهذه مجرد أمثلة قليلة. لكن في مجتمع المدينة في ترينيداد فإن "الليمنج"، له مذاق خاص. فهم يضعون شروطا صارمة دقيقة وجمالية، حتى توصف جلسة "الليمينج" بالناجحة. لذا فإن الترينيداديين دائما ما يقولون إن الليمينج يمثل جزءا مهما من هويتهم القومية. وجلسات الليمينج الجيدة تتميز بكثرة النقود، التي تصرف على المشروبات. وتتميز بنوعية المعلومات، التي يتبادلها المشتركون، من حيث لطفها، وقدرتها على الإضحاك، وفائدة المعلومات التي بها، وأن الجلسة تنتهي دون إهانة أحدهم أو إغضابه، أو توجيه كلمة مؤلمة له. وجولات مثيرة من لعبة الورق "البوكر" (Poker)، أو "حلقة مراهنة" (Pool)، أو "لعبة الدومينو" (Domino)، أو "أول فورز" (all fours)، أي من ذلك يمكن أن يجعل جلسة الليمينج ناجحة. وتزداد الجلسة نجاحا، لو حدث في أثناء الليمينج شيء غير متوقع، مثل أن يأتي أحد الأصدقاء ويدعو المجموعة للذهاب معه إلى "كاريندج" (Carenage)، أو "ماراكاس باي" (Maracas Bay)، ليتموا "الليمينج" على شاطئ البحر، أو أن أحدهم يقترح مشاهدة فيلم في السينما، أو أن أحدهم يعرف امرأة يمكن زيارتها في بيتها، أو أن

(*) تقال بالنرويجية "هيم كوك" و "شيت برات" (Himkok and Skitprat) وتعني" خمر صناعة منزلية ليس على درجة عالية من الجودة، وكلام فارغ". (المترجم)

يخبرهم أحد عن مكان تقام فيه "معركة الديوك" (Cockfight) غير القانونية، أو أن هناك بالقرب من الجماعة مشاجرة عنيفة. وفي المقابل، تكون جلسة "الليمينج" فاشلة، ويقيّمونها بأقل الدرجات؛ عندما تتسم بالسلبية، وعدم النشاط والملل، كذلك لو انتهت بإيلام وإهانة أحدهم أو مشاجرة بينهم . عند حدوث مثل ذلك يقولون The lime has no juce ، أو "هذه ليمونة ليس بها عصير". والليمونة التي ليس بها عصير أمر يسبب الكآبة والحزن.

عندما يشارك الترينيدادي في "الليمينج"؛ فمن الواجب عليه أن يكون منفتحا لكل الاقتراحات. إن أعظم انتهاك يمكن أن يأتي به الفرد في "الليمنيج"؛ أن يبدأ في الشكوى من واجباته المفروضة عليه عملها. مثل الشكوى من التزاماته ناحية وظيفته أو أسرته، أو شيء من هذا القبيل. وعندما تكون "الليمة" ناجحة، فإنه لا يجوز لأحد أن يستأذن ويغادر الجلسة، بغض النظر عن التزاماته. في أسوأ الأحوال، ولو انتسب المرء منهم إلى طبقة اجتماعية محترمة، فكل ما يستطيع فعله هو أن يطلب المنزل بالتليفون، ويستأذن للتأخير. ولا يجب أن يفارق أحدهم الجماعة، فمفارقة الجماعة مكروهة؛ قبل أن يستمتع الجميع، وتهبط درجة حرارة الإحساس بالاحتفال.

في الحياة العامة الترينيدادية، لا يوجد أمر "شديد الجدية"، ويستعصى على السخرية والضحك. في أغسطس عام 1995، شاهد أهل الجزيرة (الدولة) لأول مرة "انقلابا". وذلك عندما قامت جماعة "المسلمون السود" (Black Muslims)، بمحاولة عزل أول رئيس للوزراء، ونصف أعضاء الحكومة. وتسببوا في خلق فوضى أكبر كثيرا مما تعود عليها الترينيداديون. في هذه العملية؛ قتل بعض الأفراد، وأصيبت رجل رئيس الوزراء برصاصة، ونهبت بعض المحال، ومرت أيام شديدة الإثارة، لم يكن فيها معروف من الذي يدير "ترينيداد وتوباجو". بعد ذلك، تم القبض على زعيم الانقلاب "أبي بكر" (Abo Bakr) وشركائه، وعادت الأمور إلى مجرياتها

المعتادة. وبعد يومين اثنين من الانقلاب؛ بدأت أولى النكات عن "أبي بكر" للظهور والتداول. كان مضمونها السخرية، على رئيس الوزراء غير المحبوب. مثل هذه الواقعة يمكن أن توصف في بعض البلاد الأخرى، بأنها لا طعم لها ولا مغزى؟ وبالتأكيد، يمكن وصف الحالة؛ بحالة مماثلة لها في النرويج، فيها نتصور أن بعض الثوريين اليائسين هددوا حياة "أم النرويج"، "جرو هارلم برونتلاند" (**Gro Harlem Bruntland**) رئيسة الوزراء (السابقة)(*) بعد أن اختطفوها.....

الرغبة الجامحة في حب التفكُه وإطلاق النكات؛ تجعل بعض الزائرين يعتقدون أن الترينيداديين مجتمع مادي، يجري وراء اللذة المؤقتة، ولا يتحملون أية مسئولية في الحياة، ولا يساورهم أيّ منغصات. والحقيقة إن الواقع أكثر تعقيدا مما يبدو للوهلة الأولى وللنظرة السطحية. صحيح أن "الليمينج"، والكرنفال، وحب السخرية والفكاهة، والعبث، يمثلون جزءا مهما، من الواقع الحياتي الترينيدادي، إلا أن هناك واقعا آخر من الفردية (**indnvidualism**)، التي ولّدت "عقلية تنافسية" (**Competitive mentality**)، منتشرة في جسد المجتمع. وعندما يمارس الترينيداديون "الليمنج"، فكأنهم يقولون لبعضهم بعضا أو لكل من يراقبهم: إننا أحرار، لا تستطيع مسئوليات الأسرة، أو العمل، أو الدراسة أن تتحكم فينا، أو تقهرنا. "الليمنج" في جزء منه تعبير عن الهروب من واقع مجتمعي، وهو صمام أمان لضمان الاستمرار، وفي جزء منه، عبارة عن علاج نفسي من الشعور بوخذ الضمير، عندما يضطر الإنسان الحياة في واقع يفرض عليه التنافس في كل شيء. والليمينج يعبر عن التضامن، والحرية في الوقت ذاته، ويساعدهم في مواجهة الجهد اللا إنساني المتوقع بذله في اليوم الآتي. حيث ينتظر من الفرد القيام بدور "لص منتصف الليل" (**The Midnight Robber**)، يفعل المعجزات في واقعه الحياتي

(*) جرو هارلم بورنتلاند، هي نفسها التي عينتها الأمم المتحدة رئيسة لمنظمة الصحة العالمية، بعد اعتزالها السياسة في النرويج، وهي طبيبة أصلا، لكنها انخرطت في العمل السياسي وتفرغت له. (المترجم)

الصعب. فعلى الرجل- وهو الجنس المسيطر في ترينيداد، أن يكون مبدعا، وشجاعا ذا عزيمة لا يفلها الحديد؛ حتى يتغلب على واقع تنوء بحمله الجبال. وينتظر منه المجتمع أن يكون هو، النبيل الشريف الناجح، أو ال"سوبرمان".

كتب "درك بيكرتون"، باحث اللغويات؛ يصف " بورت أوف سبان": "إنها مدينة أمريكية سقطت من السماء فجأة، على خط العرض التاسع في البحر الكاريبي. إنها "ديترويت" (Detroit) المصغرة، التي تجاهد درجة حرارة قرابة الخامسة والثلاثين، ودرجة رطوبة تبلغ التسعين، حتى تحقق الحلم الأمريكي". إن التركيبة الطبقية الاجتماعية غير المحددة، وتلك القدرة على التطور السريع، والمزيج المتراكب من الأعراق المختلفة؛ أعطى الترينيداديين نموذجهم الخاص من "الحلم الأمريكي" (American Dream). الجميع يعرف أفرادا سافروا إلى العالم الخارجي، ونجحوا وتفوقوا هناك. كتب الكاتب النرويجي "كيم يونسون" (Kim Johnson) عن هذا الطموح المتزايد عند الترينيداديين: "سألت زميلتي في الدراسة في الجامعة الإنجليزية- وهي التي حصلت على أفضل الدرجات في علم الاجتماع، وتفوقت على جميع طلبة الفصل الدراسي- عما تنوي فعله بعد الحصول على الدرجة العلمية الجامعية. أجابت أنها ليست متأكدة بالضبط، "لكنها تتوقع أن تصبح متخصصة اجتماعية، أو شيئا مثل هذا. متخصصة اجتماعية فحسب؛ لو كانت هذه الفتاة من ترينيداد، لأجابت عن السؤال نفسه بالقول إنها تريد أن تصبح "كارل ماركس" (Karl Marx) جديدا أو شيئا كهذا".

العقلية التنافسية منتشرة في كل مناحي الحياة في ترينيداد، وصفة الإبداع ولدت في المكان المناسب. إنهم يحاولون دون توقف إيجاد مجالات جديدة للتنافس، وبالإضافة إلى التنافس في الحصول على درجات عليا في المدارس، والحصول على تخصص مميز في الحياة العملية، والحصول على جوائز قيّمة في مجال الرياضة، والفرق المعدنية الموسيقية، أو غناء "الكاليبسو"؛ فهناك كمية كبير من

مسابقات الأسئلة التي تقدم في الراديو والتليفزيون. وعلاوة على ذلك فهناك مسابقة جمال واحدة أو أكثر في الجزيرة، تقام أسبوعيا في عطلة نهاية الأسبوع. حتى في اجتماعات "الليمنج" والكرنفال – اللذين لهما طبيعة تعمل ضد المنافسة القوية – تجدهم يتنافسون. فمن العادي في اجتماع الليمينج، وجود مسابقة لاختيار من الأقدر على الاستمرار في شرب أكبر كمية من "الروم" (Rum)، دون السقوط مخمورا.

الترينيدادي المتفوق هو الذي يستطيع التنافس في كثير من المجالات، في آن واحد. وهو الذي يجب أن يكون ناجحا في اغتنام كل ما تشتهيه النفس، وذلك إلى جانب نجاحه وتفوقه في عمله التخصصي.

المؤرخ الترينيدادي، المعروف عالميا؛ "أريك ويليامز" (Eric Williams)، بدأ نشاطه السياسي في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، بإلقاء سلسلة من المحاضرات، في "ميدان وودفورد" (Woodford square)، وهو الميدان الذي يمكن اعتباره "سبيكرز كورنر" (Speakers Corner)، أو "ركن المتحدثين"، لمدينة "بورت أوف سبان" [يوجد "ركن المتحدثين" في حديقة "هايد بارك" اللندنية المشهورة، ويعتبر هذا الأخير هو الأول من نوعه، ويفتخر به البريطانيون، ويعتبرونه دليلا على ريادتهم في مجال حرية التعبير، والديمقراطية – المترجم]. هذا الركن عبارة عن حديقة صغيرة، تقع مواجهة للبرلمان الترينيدادي، وظلت لأكثر من مائة عام المكان الذي يتم الحوار فيه ويتم تبادل الأفكار بين أفراد الشعب. كان "ويليامز" يتحدث في كثير من المواضيع، فمرة يتحدث في الفلسفة السياسية لـ"لوك" (Locke)، أو "أفلاطون" (Platon)، أو حتى كتابات "كارليل" (Thomas Carlyle،1795- 1881). وكان هدف "ويليامز" الوصول إلى زيادة الوعي السياسي وفهم الذات عند المواطن العادي. وكانت أهم مواضيع محاضراته، عن الإمبريالية، والعبودية، والاستغلال. وكانت أحاديثه تقابل بترحاب شديد، وتصفيق حار، وكأنه أحد فناني "الكاليبسو" القدماء، الذين ينتمون إلى طبقة العمال

(البروليتاريا) في مدينة "بورت أوف سبان". "ويليامز" نفسه لم يكن فارع الطول، وكان خجولا ذا صوت خفيض، يستعمل أجهزة لزيادة القدرة على السمع، ودائما ما يرتدي حُلّةً رمادية بسيطة، لكن شخصيته تستدعي الاحترام. ودائما ما فتئ يبرز رغبة الترينيداديين في نيل الاحترام بين الأمم، وأن توضع ترينيداد في مكانة عالمية لائقة، تتساوى مع الآخرين في المنزلة الثقافية. لذا فقد كان دائم الانتقاد للترينيداديين، الذين يفكرون بعقلية أسطورية بسيطة (Happy- go- lucky). ودائما ما طالب، وأمَل في تنظيم سياسي وثقافي جدي للبلاد. وبسرعة حصل الدكتور "ويليامز" على لقب " ثالث أذكى رجل في العالم". ولم تمض إلا برهة قصيرة، بعدها تم إطلاق النكات الفكاهية الدعابية على ذلك.

طوال فترة وجوده في ترينيداد، كان "ويليامز" – الذي مات 1981– كثيرا ما يتهم ناخبيه بعدم الجدية، والنظام، والانضباط. وعندما بدأ سعر البترول في الانخفاض، وبدأ الهبوط في الدخل القومي لترينيداد؛ كان يقول لناخبيه، محرضا على العمل والجد: "عودوا إلى أعمالكم، الحفل قد انتهى". بينما دعا زملاءه الأوروبيين لزيارة ترينيداد، ليتعلموا من الترينيداديين كيفية الاستفادة من الحياة، وذلك عندما شارك في مؤتمر سياسي أقيم في أوروبا. على كل حال، فقد كان هو نفسه قادرا على الحياة بالازدواجية الترينيدادية. فهو ترينيدادي قح، رغما عن كونه يبدو، في بعض الأحيان؛ كما لو كان ناظر مدرسة، حازما وعجوزا.

الإنسان ذو التجربة الواسعة، الحكيم المتفائل، الذي يعرف فن الاستمتاع بالحياة؛ هو النموذج المفضل والمحبب عند الترينيداديين، أيا كانت طبقته الاجتماعية. من هؤلاء من له جذور من عصر العبودية، التي ولدت "فكر المقاومة"، الذي ترجم في الغضب والتشكك في "الرؤساء"، من أي نوع. وترجمها بعض آخر، في التأكيد على الهوية القومية. وفي ترينيداد – كأي مجتمع حديث؛ فإن أداب السلوك والتخطيط، أساسيان في بناء المجتمع . والشعار القومي المرفوع هو: "النظام، والإنتاج، والتسامح". وبالطبع ليس غريبا أن نسمع شكاوي تقول، "من

الصعب إكمال أي عمل هنا في ترينيداد، وذلك لأنه لا يوجد من يفكر ببعد نظر".
هذا الشعار، "النظام، الإنتاج، التسامح"؛ تجده في كثير من مناحي الحياة - حتى في أثناء الكرنفال والليمنج؛ سواء حرفيا أو مجازيا. وفي كل المحلات تقريبا، التي تقدم المشروبات، المسماة بمحلات الروم (**Rum Shop**)؛ يجد المرء معلقات حائطية ظاهرة للعيان مكتوبا عليها: "ممنوع الفاحش من القول!". وفي ترنيداد يعامل "الشذوذ الجنسي"، على أنه "انحراف سيئ، وبغيض"، وكذلك تتحاشى المطبوعات الأسبوعية الكتابة عن المواضيع الجنسية، رغما عن امتلائها حتى الهامش بصور بنات ترتدي "البكيني". وفرق العزف المعدنية، المكونة من الشباب المشاغب، يعزفون مقطوعات موسيقية كلاسيكية، رغبة منهم في نيل الاحترام والقبول، من الهيئات الثقافية.

في المجتمع الترينيدادي؛ فإنه من المهم أن يستطيع المرء "السباق على كلا الحصانين" أو "ضرب عصفورين أو أكثر، بحجر واحد"، بغض النظر عمن يكون. عندما مات المؤرخ الترنيدادي الماركسي المحترم، المدافع عن حقوق الأفارقة "س.ل.ر جامز" (**C.L.R.James**) في لندن ربيع **1989**، استغل الحادثة الحزينة مغني الكاليبسو المشهور "ذا ميتي سبارو" (**The Mighty Sparrow**) فعلق قائلا: "جامز وأنا، كلانا معا، نمثل كل ألوان الطيف، في الثقافة الترينيدادية".

٥

ذات يوم أحد قائظ الحرارة؛ أخذت تاكسيا قاصدا استادا رياضيا في "كاروني" (**Caroni**)، يختفي بين حقول قصب السكر. كانت الرحلة من "بورت أوف سبان"، حتى "كاروني"، تستغرق فقط نصف ساعة، إلا أن المرء يشعر أنه قد انتقل من قارة إلى أخرى مغايرة تماما. نصحني أحد ضيوف "مقهى كينشاسا"

(Kinshasa Pub)، الواقع في أحد أركان حيّ "كوربة"، قائلا: "إنه "بروكلين"(Brooklyn) أقرب من "كاروني"، رغما عن أن "كاروني" تقع على بعد خمس دقائق من "كوربة"، فالحي على الجانب الآخر من طريق السيارات، على بعد خمس دقائق فحسب. وفهمت مغزى قول الرجل، حيث كان يريد القول: لا داعي لزيارة "كاروني"، فهو مكان لا يعجب أحدا. وأضاف قائلا: "يقابل المرء أفرادا كثيرين، نشأوا وترعرعوا في "بورت أوف سبان"، أو"أريما"، قد زاروا عددا كبيرا من الجزر المجاورة لترينيداد، أو زاروا "نيويورك"، أو"تورنتو" (Toronto)، وأيضا نقابل من قضى إجازة نهاية الأسبوع في رحلة إلى "كاراكاس" (Caracas) العاصمة الفنزويلية، إلا أنهم فخورون بأن أقدامهم لم تطأ "كاروني". ذلك لأن "كاروني"، وهي التي تقع في الجانب الآخر من النهر، تمثل لهم البربرية. يصفونها بأنها قرية مترِبة غبرة وكئيبة. إنها مليئة ببشر أسنانهم سيئة، وذوقهم رديء في اختيار الملابس. أناس لم يسمعوا أحدث أغاني "الكاليبسو"، ولم يشاهدوا أحدث الأفلام من "هوليود"، متسخون وجهلة، ومن الأفضل للمرئ أن يتركهم وشأنهم. إن سكان "كاروني" ليسوا قرويين فحسب، إنهم أيضا ينتمون إلى مجموعة عرقية أخرى. إنهم هنود، وفوق ذلك؛ فإن معظمهم هنود "وثنيون" ويجب علينا إعادتهم مرة أخرى إلى القبور!". نطق بذلك أحد المعارف، يوم أن حقق المرشح لرئاسة الوزراء الهندي الترينيدادي، نسبة لا بأس بها من الأصوات. إن احتقار الترينيداديين السود؛ للهنود ولأسلوب تفكيرهم؛ ليس له حدود.

لمدة طويلة كان من الممكن عمليا، للكريوليين الترينيداديين تجاهل الهنود. فقد استمسك الهنود بالأرض والزراعة، وفضلوا الإقامة في القرى التي بنوها على الأسلوب المتبع في شمال الهند، على أفضل تقدير. كانوا فقراء أميين، ونادرا أو أبدا؛ لم يتجرءوا على زيارة المدينة، ومن الطبيعي ألا يستطيعوا الحديث بالإنجليزية، ولو بكلمة واحدة، ولم يشاركوا في الحياة العامة. والذين كتبوا مذكرات

رحلاتهم عن ترينيداد من الأجانب، في النصف الأول من القرن العشرين، لم يذكروا الهنود، ولو بكلمة واحدة، مما يدلل على عزلتهم التامة.

الآن؛ الوضع مختلف تماما. فمنذ الخمسينيات من القرن العشرين، حسّن الهنود وضعهم في المجتمع الترينيدادي. صحيح أن عملية التصحيح جرت ببطء، إلا أن خطواتها واثقة وثابتة وأكيدة. الآن أصبحت الإنجليزية، أو اللغة الكريولية الترينيدادية، هي لسان جميع الهنود تقريبا. وهم يتعلمون العلوم نفسها، التي يتعلمها الترينيداديون الآخرون، والكثير منهم يعملون في مؤسسات الدولة، ومن وقت لآخر نجد عددا لا بأس به من الوزراء من أصول هندية، وكثير من العاملين في الجيش الحاصلين على درجات علمية عالية منهم، يكتبون عن تجاهل المجتمع لهم، وتجاهل ثقافتهم. ويصفون كيف احتقرهم السود، واستهزأوا بهم واستبعدوهم من المشاركة في الوطن. وكيف أن السود كانوا يسيطرون على كل شيء، وأن لهم "الخليج والشاطئين".

منذ صدور قرار بتحريم العبودية ومنعها، وحتى الحرب العالمية الأولى؛ أحضر إلى ترينيداد مائتا ألف هندي في محاولة يائسة لإثبات صحة اعتقاد "كولومبس" (Columbus)، التي زعم فيها أنه قد اكتشف الطريق إلى الهند، والتي جاءت متأخرة أربعة قرون كاملة. هؤلاء الهنود تم إغراؤهم- أو اختطافهم بواسطة البحارة الأوروبيين، كما يقول بعض الباحثين – بعقود عمل، للعمل في مزراع القصب، لتعويض العبيد. جلبوهم من مناطق مختلفة في الهند، مثل: "بيهار" (Bihar)، و"أوتار براديش" (Uttar Pradsh). و"مهرشترا" (Maharashtra)، و"تاميل نادو" (Tamil Nadu)، وغيرهم. على الرغم من أن العبيد – بعد تحريرهم – قد أتيح لهم العمل بأجر في الزراعة، فإن أحدا منهم لم يرغب في العمل في الزراعة. وإلى يومنا هذا؛ فإن العمل في الزراعة مرتبط في وعيهم بالعبودية،

والترينيدادي الإفريقي يفضل البطالة والبقاء دون عمل؛ على الذهاب إلى الحقل، لقطع وجمع عيدان قصب السكر.

يصل عدد الترينيداديين من ذوي الأصول الهندية اليوم، حوالي نصف مليون. ولو افترضنا أن الهند هي بالفعل موطنهم، وفيها تمتد جذورهم؛ فإننا نستطيع القول إنهم شديدو البعد عن موطنهم. ليس جغرافيا فحسب؛ لكن ثقافيا أيضا. ذكر الكاتب الترينيدادي " في.إس.نايبول" (V.S.Naipaul) في أحد كتبه: "إن أشد المواقف صعوبة، التي يتعرض لها في رحلاته، هي عندما يُسأل السؤال المعتاد: ?Where you come from، أو من أي بلد جئت؟ الإجابة عن هذا السؤال السهل، في منتهى التعقيد بالنسبة لي. إن قلت إني "هندي غربي" (West Indian)، ظن الناس أني ربما جئت من "غرب الهند" (West of India)، وذلك لأني أشبه الهنود، وليس هنود أمريكا الغربية (الهنود الحمر). ولو أجبت بأني "هندي من الكاريبي"، فسوف يتساءل كثيرون عما لو أن الهنود في الكاريبي يشبهونني. وأخيرا، لو قلت إني "هندي شرقي" من "الهند الغربية"، فسوف تبدو القصة وكأنها لعبة معقدة، للكلمات المتقاطعة". وعندما كتب كاتب ترينيدادي آخر - وهو "سام سيلفون" (Sam Selvon)- جملة "ثلاثة، لا يمكن أن تصبح واحدا"، لم يكن يقصد عقيدة التثليث في المسيحية، لكنه كان يقصد: هندي ترينيدادي، وترينيدادي، وهندي غربي من الكاريبي(*)، وليس هناك أي شك في أن تعريف أو تحديد هذه الهوية، يكون صعبا فهذه الهوية أصعب الهويات تعريفا في عالمنا الحالي.

الأفراد في ترينيداد الكريولية، مستقلون وفرديون، وأذكياء سريعو الفهم، وعصريون حداثيون، ومهذبون، ومصقولون، وهم سود مسيحيون. أما الناس في الهند، فهم ليسوا سودا، وهم متعاونون، ويتمسكون بالعادات والتقاليد، وليسوا مسيحيين، وهم ريفيون تكونت المجتمعات الكاريبية دائما، من ثلاثة أقسام: الأسود،

(*) الهندي من الكاريبيين شاع تسميته بالعربية ب "هندي أحمر". (المترجم)

والبُنِيّ، والأبيض. أما الهنود، ولو أنهم من ناحية اللون لهم بشرة بنية إلا أنه ليس من المناسب وضعهم في هذه القائمة.

لكن ما الذي يجب فعله من ناحية الهنود حتى يشعروا بالمواطنة في ترينيداد؟ المجتمع الترينيدادي مجتمع رائد مبدع، ويوجد به الكثير من إمكانيات تشكيل الإبداع. أحد هذه الإمكانات، أن يحاول المرء الذوبان في المجتمع. وكان هذا اختيار "سيبرساد نايبول" (**Seepersad Naipoul**)، وهو والد الكاتب "فيدیادهار نايبول" (**Vidiadhar Naipul**)، والكاتب "شيفا" (**Shiva Naipoul**). وبالمناسبة فإنه كان بطل القصة التي كتبها ابنه "ف.إس.نايبول"، وسماها "منزل للأستاذ بيسواز" (**A House for Mr. Biswas**). لقد جاهد الأب حتى خرج من "الجيتو" التقليدي، وأحسن تعلم الإنجليزية والكتابة بها، كما يفعل الإفريقيون. وبعدها حصل على عمل في صحيفة "جارديان ترينيداد" (**Trinidad Guardian**) بوصفه صحفيا. وبالقرب من نهاية حياته، اشترى منزلا في حي "سانت جامز" (**St. James**)، الذي يقع في غرب مدينة "بورت أوف سبان". وهو أول هندي ترينيدادي، كتب قصصا أدبية بالإنجليزية، وهو أيضا يمثل أحد أفراد الجيل الأول من الهنود، الذين تمت كرولتهم. فقد كان يشرب الكحوليات، ولا يمنعه دينه من أكل "السجق" المحتوى على لحم البقر، خاصة عندما يكون بالقرب منه أحد البراهمة(*) حتى يغيظه، ويسخر منه. ولقد غرز في عقيدة أبنائه أن الثقافة الإنجليزية والتعليم الإنجليزي؛ هو الأفضل.

لقد تحول غضب الهنود وإحساسهم بالتفرقة والقهر في ترينيداد إلى عقيدة مسيطرة ونمط حياة. ومثل هذه العقيدة، يقابلها المرء كثيرا في ترينيداد. مثلا أحد أساتذة الجامعة في علم الاقتصاد وإدراة الأعمال، من الذين أعرفهم، رسخت عنده هذه العقيدة وسيطرت عليه؛ لدرجة أن جعل من وظيفته: أن يكون غاضبا ناقما من

(*) البراهمة اسم الكاست الهندية من رجال الدين، وهم يمثلون أعلى طبقة في قائمة الطبقات الاجتماعية. (المترجم)

هذا الظلم الواقع على الهنود، والذي اعتبر نفسه أحد ضحاياه. في إحدى الليالي جلست معه وصديق آخر في "تراس" الشرفة، نحتسي كئوسا من البيرة. قال لي: لقد تحطمت أعصابي، هل تتفهمني؟ بعدها بدأ في سرد ما ذكره "ف. إس. نايبول" في كتاباته، التي عبر فيها عن سخطه على المجتمع، في لحظات غضبه. ثم أردف الأستاذ الجامعي يقول: "نحن الهنود لا توجد أمامنا أية فرصة، ولا أحد يحاول مساعدتنا، الجميع يحتقروننا .. أتعرف؟ وصوب بصره إلى "كيم" (Kim) وإليّ، ثم قال قبل أن نبدي أي تجاوب، أنتما لا تعرفا حقيقة الوضع، وليس لكما خبرة وتجربة، بالنسبة لي فأنا زائر غريب عن ترينيداد، أما "كيم" فهو "ملون" (Coloured) نشأ في أحضان عائلة متوسطة. وبعد فترة من حديثه وتصنيفه لي، و"كيم"، أخذ سيارته، وذهب ليشتري "كراك" (Crack)، وهي حبوب تسبب الإدمان، وفي السنوات الأخيرة كان تدميرها على ترينيداد أكبر بكثير، مما سببه انخفاض سعر البترول. هنالك نظر "كيم" إليّ مداعبا، وقال: "الآن تعرف لماذا تحطمت أعصابه".

الطريق الآخر الذي يجب أن يسلكه الهنود حتى يشعروا بالمواطنة، هو أن نلح - على حق؛ أن يكون المرء هنديا، ويأخذ في الاعتبار التقاليد الهندية، في الحياة العامة في ترينيداد، تماما مثل التقاليد الأفرو- كاريبية. وأن نحدد نسبة للهنود في الوظائف الحكومية، وهكذا. هذه الاستراتيجية نالت أعدادا كبيرة من المؤيدين في السنوات الأخيرة. ولكنها في الحقيقة يمكن أن تقود ترينيداد، ذات يوم إلى نزاعات إثنية قاسية. إن الاعتقاد بالسيطرة من فئة معينة في المجتمع، يزيد من حدة الأزمة. وبوجه عام يزيد من نزعة الأفراد أو الجماعات، إلى الشك والارتياب في الآخرين، أو حتى إلى حالة "البارانويا" (Paranoia) المرضية.

محاولات السنوات الأخيرة، التي هدفت إلى خلق وصناعة هوية "هندو- ترينيدادية"، ذات طابع هندي، ولكنها عصرية حديثة في آن واحد، تبدو وكأنها حل

عملي جيد، إلا أن المشككين المتشائمين سوف يصفوا هذه الصحوة الهندية بأنها – دون شك– مجرد حيل سياسية ليس لها علاقة، من قريب أو بعيد، بالهند والهندوسية، والتقاليد الهندية. ذلك لأن "مهندسي الثقافات"؛ الذين يقومون بمحاولة إحياء العادات والتقاليد الهندية، سوف يقومون باختيار العناصر، التي تتوافق وتتناغم مع أسلوب الحياة الغربية العصرية. ولن يحدث أن يقترح أحد إعادة الحياة ل"الجاتينية"، وهي فئة عمالية ترتبط بنظام "الكاست" (Cast) الطبقي الهندي. ولن يطلب أحد أن يعيد الحياة لنظام "البانشي" (Panchayat) – وهو قائد الطبقة الاجتماعية، أو الكاست – الذي مات ودفن وانتهى تماما منذ الحرب العالمية الثانية. كذلك لن يوجد من يحاول أن يقنع صغار الفتية والفتيات الهنود، الذين يتحدثون الإنجليزية، بأن يلتحقوا بفصول دارسية، لتعلم اللهجة المحلية الهندية المسماة بـ"البوجبوري" (Bhojpury). وهي اللهجة الهندية المحتقرة، حتى في الهند نفسها.

إن التقاليد الهندية الترينيدادية، كانت دائما محلية الصنع والنشأة. و"الهوندة" في الهند الغربية، تتميز بالكريولية بدرجة أكبر مما يريد المتشددون الاعتراف به في كثير من الأحيان، وبها الكثير من الصفات الكريولية. مثلا الزواج "المرتب له"، يتم بسلاسة، ويتم بنسبة قليلة في الجزيرة. ولا أحد يفكر في الإعداد والتخطيط له، على عكس الحال في الهند، حيث يمثل العمود الفقري للحياة الاجتماعية في الهند. أيضا محليا أنتجوا موسيقى "البوب" الهندية، المسماة "شتنيز"(Chutneys)، وهي تذكر المستمع بإيقاع (rhythm) موسيقى "الكاليبسو" الترينيدادية، وتشبهها في كل من الشكل والموضوع، لدرجة أن البعض يخلط بينهما. ومعظم الهنود الترنيداديين اقتبسوا أسماء مسيحية إنجليزية. أما "الصليب المعقوف"(Swastika) – وهو الرمز الأهم في العقيدة الهندوسية؛ فقد أهمل استعماله تماما في المعابد الترينيدادية، وهذا بالطبع من نتائج الحرب العالمية الثانية. ومؤخرا أصبح من غير المهم على الإطلاق للهنود الترينيداديين، التساؤل عن أصولهم وجذورهم الهندية، ولا أحد يستطيع تمييز "البهاري" (biharian) من "التاميلي" (Tamilian) منهم. والشيء

الوحيد المتبقي من نظام "الكاست"، هو درجة معتدلة من الاحترام، يكنها البعض لعائلات "البراهيمينية"، والتي لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة.

الحقيقة هي أن الهنود الترينيداديين، قد بدءوا الدخول في عملية "الكرولة"، منذ اللحظة الأولى التي وضعوا فيها أقدامهم في السفينة، التي نقلتهم عبر البحار. على السفينة كان من المستحيل عليهم، أن يتمسكوا بالمقدسات، من حيث الأكل والنظافة، والتي كانت تنظم العلاقة بين الطبقات المختلفة من الكاست. فمنذ اللحظة الأولى على السفينة، أصبح جميع الأفراد والفئات، متساوين في القيمة. ولقد علمهم أسلوب العد والتسجيل المتبع على الشاطئ؛ من قبل ركوب السفينة؛ نوعا من القدرة على الإبداع المفيد لهم، في ترينيداد العصرية، البلد ذى الحداثة الكبيرة. عند التسجيل استطاع الآلاف منهم تغيير أسماء العائلة، وبالتالي الطبقة الاجتماعية، التي كانوا ينتمون إليها في الواقع.

كلا الأخوين "نايبول"، اكتشفا إلى أي درجة وصلا إليها في مجال البعد عن الثقافة الهندية، وذلك عندما زارا الهند لاحقا، وأصبحا على أرضها. فعندما زار الهند "فيديا نايبول"، بحثا عن جذوره في الستينيات؛ وجد مجتمعا، يبدو في الظاهر أنه مشترك في بعض صفات مجتمع قرية "شاجوناز" (Chaguanas) الترينيدادية التي نشأ بها، مثل الملابس، والطعام، وحب الحلويات التي بها كثير من السكر، وبعض الزينة، والتذوق. لكن خلف هذا التشابه الظاهري، ستترت عنه "هند" مختلفة، بدت له "منطقة تغشاها الظلمات"، وذلك عندما كر عائدا إلى "موطنه" في إنجلترا ومحل إقامته. لقد كانت "هند"، حيث البقر المقدس، عادات وتقاليد الكاستا، و"الكارما"(*) (Karma)، و"الدارما"(**) (dharma). وهاتان العقيدتان بالنسبة له، قضايا غير

(*) الكارما" هي عقيدة هندوسية، تذهب إلى أن عمر الإنسان في مرحلة معينة من خلقته يترتب عليها صورته في المرحلة التالية المستقبلية، وهناك كارما جيدة، وأخرى سيئة. (المترجم)

(**) الدارما" في العقيدة الهندوسية، تذهب إلى أن نظام الكون السرمدي، تقوم عليه وتحفظه الآلهة. (المترجم)

مفهومة، ولا مقبولة. إن جنسيته في حالة ما إذا كانت له جنسية، فهو "كريولي من الهند الغربية"، أو هو رجل إنجليزي ببشرة بنية، وفي كل الأحوال فهو ليس هنديا.

أخوه الأصغر "شيفا نايبول" (**Shiva Naipaul**)، كان أكثر استعدادا لمواجهة الحقيقة، عندما سافر إلى الهند بعده بعدة سنوات. مع هذا لم يستطع أن يخفي شعوره بالعجب، إنه لم يقابل أحدا في الهند يعامله على أنه هندي. وذلك رغما عن أنه، لم يمض أكثر من ثلاثة أجيال أو أربعة منذ أن هاجر آباؤه من قريتهم "بيهار" (**Bihar**)، الهندية. وعندما قدم نفسه لأحد البراهمة الأعلى في "بَتْنا" (**Patna**)، سمع منه القول: إن اسمه مضلل. وشرح البراهيمي مغزى ذلك قائلا: الاسم الهندي الأصيل، يدلل بدقة عن "الكاست"، التي ينتمي إليها الفرد، وكذلك يدل على مكان مولده، ومن أي قرية جاء، وهكذا. وأضاف الرجل بدقة: أما اسمك فلا يدل على شيء من هذا.

يتبقى للهندي الذي يستوطن "الهند الغربية"؛ بعض الخيارات المختلفة غير الذوبان، واقتباس ثقافة الأغلبية، والانغلاق والتقوقع داخل كل ما هو هندي من عادات وتقاليد هندية قديمة. خلال رحلتنا إلى "كاروني" (**Caroni**)؛ لاحظنا بضعة أمثلة على ذلك. اختير الأستاذ الرياضي ليكوّن مكانا تقام فيه حفلات "الروك" (**Rock**) الكبيرة. وكان هذا الاحتفال هو الأول من نوعه، وبه فرق محلية مشهورة ومحبوبة. وفي بطاقة الدعوة كان ميعاد البدء محددا بالساعة الثانية بالضبط. وبالطبع حضرنا نحن الشمال أوروبيون، الساعة الثانية تماما. فوجئنا بأننا الضيوف الوحيدون، الذين حضروا في الميعاد المحدد لبدأ العزف الموسيقي **Dis is Trinidad time, yuh know.**، كان هذا ما قاله لنا منظم الحفلة، محاولا شرح سبب عدم وجود ضيوف آخرين. وطبعا كان يقصد قول " **This is Trinidad time, You know**"، والتي تعني بالعربية: "هذه هي المواعيد الترينيدادية، ألا تعلم ياصديقي. ولم ينس أن يرفع ساعده برهة، ليرينا الساعة الجميلة، غالية الثمن، التي تلف

معصمه. وبدأت الحفلة، وعزفت على التوالي حوالي خمس فرق أدوا فيها موسيقى "روك" قوي الإيقاع، مقتبس من فرقة "جنز أند روزز" (Guns ,N, Roses)، وفرقة "لد سبلين" (Led Zeppelin)، وفرق أوروبية، وشمال أمريكية أخرى. وكان الذي أدهشنا هو أن كل الموسيقيين تقريبا كانوا هنودا بشعرهم الطويل. وكان ذلك ينطبق أيضا على المتفرجين المعجبين. ورغما عن أن ترينيداد بلد يمتاز بحرارة الجو؛ فإنهم تركوا شعرهم يطال الكتف، شعرهم الكثيف الأسواد الكاحل، والبناطيل "الجينز" النظيفة، ومعاطف الجينز المنقوش عليها رسوم للنسور والجماجم، التي تتماثل مع فرق "الإيقاع الشديد" (Hard Rock) من "الهيبز"، التي شاعت في ذلك الوقت، وكان الجميع تقريبا من الهنود الترينيداديين.

جماعة "هيبز" هندية! في أي مكان غير ترينيداد يمكن للمرء أن يتوقع وجودهم؟ التفسير المنطقي لتلك الظاهرة سهل. الهنود الذين نشأوا في ترينيداد اليوم، هم نسخة مختلفة تماما عن آبائهم، لقد اختلطوا بالأغلبية، واقتبسوا ثقافتهم. فمنذ الطفرة البترولية في سبعينيات القرن الماضي؛ امتلك الجميع تليفزيونات، والكثير منهم يقتنون "طبق ومُستقبل" للبث الفضائي. وأصبحت إمكانياتهم المادية، تسمح بالذهاب إلى السينما، التي تعرض أفلاما أمريكية، والكثير منهم يسكن المدن الكبيرة، وفي الأحياء ذات المستوى الاجتماعي العالي. وإلى جانب ذلك، فهم يعيشون في وسط ثقافي تهيمن عليه ثقافة السود؛ السود الترينيداديين، أو الكاريبيين، أو الأمريكيين الشماليين. وفي المراقص الليلية، تلعب الفرق الموسيقية "دوب و راب" (dup and rap) من "جاميكا"، أو من الولايات المتحدة الأمريكية. وفي الراديو تعزف موسيقى "الكاليبسو" الحديثة دون توقف، كذلك فرق الموسيقى المدرسية هي فرق موسيقى معدنية. صحيح أن أعداد الهنود المشاركة، في الفرق المعدنية تتزايد بشكل ملحوظ؛ إلا أن الجميع متفق على أن هذا النوع من الموسيقى، يرجع في أصله إلى ثقافة السود في "بورت أوف سبان". حتى لغة مجلات أخبار السيارات، ولغة الإعلانات العالمية بوجه عام في ترينيداد، هي أفرو – أمريكية.

ليس من الممكن، أو من المرغوب فيه، لمعظم الهنود الترينيداديين؛ أن يصبحوا نسخة متميزة من الإفريقيين؛ إلا أنهم- من الناحية الأخرى، يريدون العصرية، ويرغبون في الحداثة. والعصرية والمدنية الهندية، لا تتواكب، ولا تتناغم مع إيقاعات "الهند الغربية" (West Indies). الأفلام والموسيقى الهندية مرفوضة بإطلاق، وتصفها الطائفة السوداء المسيطرة على مقدرات المجتمع؛ بأنها موسيقى وثقافة غبية متخلفة. ولذا فإن الشباب الهندي يتماهى مع "الروك الشديد" (Hard rock) وكل ما يمثله من شعارات. والمعروف أن موسيقى الإيقاع القوي هي اليوم أكثر الموسيقى انتشارا على مستوى العالم، ولا يمكن وصفها بأي حال من الأحوال أنها موسيقى خاصة بالسود، فمن المعروف أن جذورها اشتقت من موسيقى "الجاز". وعازفو هذه الفرق كلهم تقريبا من البيض، ويظهرون العنصرية للسود، لذا فإنه لا ضير إذا أن يعتبر الهنود أنفسهم شيئا مختلفا عن السود. وهذا السلوك في الحقيقة، لا يتوافق مع العصرية والحداثة، التي يسعون إليها. وعلى كل حال فيمكننا استنتاج أن الهنود يعتبرون هذه الموسيقى، تمثل عنصرا ورمزا للمدنية والتحضر الهندي، وهذا بالنسبة لهنود الهند الغربية.

المجتمع الترينيدادي مجتمع متماسك، ولا خوف عليه من التمزق، نتيجة للنزاعات العرقية – وهم في هذه الناحية، يرددون الكثير من الفكاهة، والتندر على البعض- لكن سوف يكون من الخطأ لو أننا اعتبرنا، أن العلاقة بين الترينيداديين الأفارقة، والترينيداديين الهنود ليست شديدة البرودة بوجه عام. ورغما عن أن الكثير من الإفريقيين مصممون على قول إن الكثير من أصدقائهم الأقربين هم من الهنود، فإني لا أعرف ترينيداديا واحدا من أصول إفريقية ينظر باحترام وإعجاب إلى الثقافة والعادات والتقاليد الهندية، أو على الأقل ينظر إليها بطريقة إيجابية وحب. أحد نشاطات الليمنج العادية، التي يقيمها الكريوليون، تتكون من الذهاب أولا لدورة تدخين "الماريجوانا" حتى ينعدل "مزاجهم"، ثم يذهبون إلى سينما هندية بعد ذلك، ليضحكوا حتى "يستلقوا على ظهورهم" من الضحك على الأداء الهندي.

الهنود هم الجانب الأضعف في المعادلة، إلا أنهم يرفضون النظر إلى أنفسهم نظرة دونية. يطلقون اسم "نيجرو" (**Negro**)، في أحيان متفاوتة؛ على الترينيداديين الأفارقة، ويعتبرون أنهم غير طاهرين، ووثنيين، وغير جادين لا يتحملون المسئولية. والخوف الجنسي من الرجال السود قوي. حيث يشاع في ترينيداد – كما في بقية أرجاء العالم – أن السود أكثر فحولة، وذوو قدرة عالية في الأداء الجنسي، تزيد عن الآخرين. تقع "جامعة الهند الغربية" على مرمى حجر من "كاروني" (**Caroni**). وهي القرية التي يكوّن معظم شبابها الهنود. وفي العديد من المرات، سمعنا رجالا هنودا يشتكون من دراسة البنات الهنديات في الجامعة. ويتساءلون " في ماذا ستفيدهم الدراسة الجامعية؟ سؤال شائع يسوغون به حجتّهم، ثم يتبعونه بإشارة واضحة، لما يعتقدون أنه الإجابة الصحيحة: البنات تريد الدراسة في الجامعة حتى يتاح لهن الاختلاط مع الفتيان السود، ودون شعور الأسرة.

كل طائفة منهم، لها وجهة نظر في الطائفة الأخرى. ومن ناحية الترينيداديين الأفارقة فكثيرا ما يسمع المرء: إن الهنود ليس لديهم أي سبب للشكوى. إنهم يملكون أربعين في المائة من مساحة الجزيرة (وهي معلومة غير صحيحة). وأن لديهم تلك العقلية الهندية التجارية، والبخل، مما جعلهم يسيطرون على التجارة في البلاد. ومن ناحيتهم، فإن الهنود يزعمون أنه من المستحيل الحصول على وظيفة في مؤسسات الدولة (وهذه أيضا معلومة خاطئة). وأن سياسة الدولة الاقتصادية دائما ما تميز الأفارقة الترينيداديين.

أما الواقع فيقول، إن كلا من المساواة الاقتصادية من حيث الدخل، والتقارب الثقافي، والفروق بين الطائفتين، يتناقص تدريجيا، وكل عام تقريبا. وتبعا لأحدث إحصائية عن مستوى المعيشة، فإن متوسط دخل الفرد الهندي، يتساوى الآن مع دخل الإفريقي. وفي غضون سنوات، ربما يزيد متوسط دخل الفرد الهندي، في حال ما فتئ التطور بالدرجة نفسها. لكن هذا التغيير لا ينعكس بالضرورة على العلاقات الإثنية بين الطائفتين. وطالما بقي شعور الهنود، بأنهم "أقلية"؛ فسوف

يستمرون في الشكوى من أي ظلم وقع عليهم، أو لم يقع. وطالما أن الهنود لا يسمحون لبناتهم في الزواج من الأفارقة السود، فسوف يستمر الأفارقة في وصف الهنود، بأنهم أعداء الحرية، وأنهم طائفة من المافيا.

يمكن وصف الطائفتين بأنهما منفتحتان ومنغلقتان في الوقت نفسه، ولكن بأساليب معاكسة تماما. الإفريقيون منفتحون اجتماعيا، ومنغلقون ثقافيا. يقبلون أعضاء جددا في الطائفة. ونادرا ما يعترضون على زواج أبنائهم من الطوائف الأخرى، سواء هنود أو صينيون، أو من ذوي اللون الفاتح. كل شروطهم هي حسن السير والسلوك فحسب. وفي المقابل، لا يحبون اعتراض الهنود على ثقافتهم. والبعض منهم لا يعترف بأن الثقافة الهندية الترينيدادية ثقافة أصيلة. مثلا يقولون إن خبز "الروتي" (roti) الذي يخبزه الهنود، ما هو إلا نوع من خبز "الشاباتي" (Chapati) ["شاباتي" هو نوع من الخبز يستخدم فيه مطحون القمح الكامل، ويفرطح حتى يصبح رقيقا جدا، ثم يخبز ويسوى في فرن خاص- المترجم]، وهو أحد المعجنات "الأفرو- ترينيدادي"، التي يسمونها "باكا" (bake).

مثل هذه المناظرات والادعاءات، ليست عادلة في المطلق، ولكن بها شيء من الحقيقة. أما بالنسبة للهنود، فهم يتقبلون بالترحيب النبضات الثقافية الجديدة على الرغم من عدم اعترافهم بذلك. لقد تم "كرولتهم" (been creolised)، بألف طريقة وطريقة. الكثير منهم اقتبس لغة الجسم، الأفرو- ترينيدادية. أما من الناحية الثقافية فهم أقرب لثقافة الهند الغربية، منها للهندية. إلا أنه لا يجب القول إن عملية "الكرولة" كانت شاملة كاملة، فما زال الكثير من الفروق. على سبيل المثال، هناك من يقول إن كل مرضى الإيدز- تقريبا، في الجزيرة هم من ذوي الأصول الإفريقية. لذا عندما يزعم أحد الإفريقيين، أن الهنود مثلهم تماما من حيث إتيان المواقعة الجنسية غير الشرعية، التي تتم بمن يلقونهن مصادفة من النساء، وأن

الهنود مدعو طهر وتقوى؛ هم منافقون. يكون هذا ادعاء مشكوكا في صحته وفي صدقه، إن لم نقل إنه كذب صريح.

انفتاح الهنود الثقافي يضعفه ويقلل من تأثيره؛ انغلاقهم الاجتماعي، والذي هو بالدرجة نفسها من القوة. الوالد في العائلة الهندية، لا يرغب في زواج إحدى بناته من "زنجي" (neger). وحيث إن مؤسسة "الأسرة"، لها اعتبار ووزن عند الهنود، أكبر مما هو عند الأفارقة؛ فإن القليل جدا من بنات الهنود، من يدفعهن شعورهن بالاستقلالية، ويمتلكن العزيمة الكافية للإقدام على مثل هذا الزواج. رغما عن غياب نظام "الكاست" الطبقي، في ترينيداد. ورغما عن أن كل الزواج، بين هنود ترينيداد، هو زواج حب، وليس زواج إجبار؛ فإن البنات الهنديات، يلتزمن بالزواج من الفتيان الهنود، ومن يجرؤ على الرفض؛ فعليه دفع الثمن. والكثير من المشاكل العاطفية الدرامية الحديثة، في ترينيداد، تعالج هذه القضية، "الحب الممنوع – المحرم". والثمن المشار إليه، هو "شقة الزواج". فعندما يسير المرء بسيارته خلال قرية "هندو – ترينيدادية"؛ فسوف يلاحظ أن الكثير من البيوت قد بنيت وبها أعمدة خرسانية، في الطابق العلوي. السبب في ذلك هو أن رب الأسرة الهندية، يهدف إلى بناء شقة في الطابق العلوي، عندما يتزوج أحد أبنائه. وهكذا يتمكن الابن المتزوج حديثا، أو الابنة، من السكن فيه خلال سنوات الزواج الأولى، وحتى يتمكن من شراء بيت مستقل له. وكما قيل فإن الزواج رغما عن رغبة الأسرة، يكون ثمنه عدم الحصول على شقة الزواج. أما بالنسبة للطائفة "الأفرو- ترينيدادية"، فهم لا يفكرون بهذه الطريقة، فبالنسبة لهم فإن الحرية أفضل وأهم من "الأمان".

أعداد غفيرة من الهنود الترينيداديين، واقعون بين رحى المتناقضات، بين التقاليد والحداثة العصرية، بين "الهوندة" و"الكرولة"، وبين "الأمان" و"الحرية". في المدينة نجد الكثير من الهنود قد تم كرولتهم إلى حد بعيد. ولكن القرى ما فتئ الكثير منها يعيش في عاداتهم وتقاليدهم، من حيث العيش في أسر كبيرة العدد،

تكون فيها السيطرة، والقيادة المطلقة للأب. ولو أردنا المناظرة: إنْ كان كل المصابين بالإيدز تقريبا، هم من الأفارقة الترينيداديين؛ فإن معظم محاولي الانتحار هم من الهنود. بالطبع من الفتيات الهنديات. وطريقة الانتحار الشائعة، هي عن طريق ابتلاع كمية من سم الحشرات. هناك نوع معين يسمى محليا "جراموكسون" (Gramoxone)، وهو في الحقيقة منتشر بدرجة كبيرة، إلى حد أن بعض الخبثاء من أهل المدينة، يتفكهون ويسمونه "أنديان تونك" (Indian Tonic)، المشروب المفضل الهندي. وتبعا لأحد المتخصصين النفسيين، في مستشفى "سان فيرناندو" (San Fernando)، فإن تفسير محاولات الانتحار، يجب اعتبارها صرخة استغاثة، طلبا للمساعدة والنجدة. محاولو الانتحار من الفتيات يبتلعن السم، وهن يتوقعن أنهن سوف يحملن إلى المستشفى بسرعة، حيث تغسل أمعاؤهن وتتم نجدتهن ويستمر بقاؤهن على قيد الحياة. سألته، وكأنني ساذج لا أفهم: ما الدافع لهذه المحاولة إذا؟ وجاءت الإجابة: إنها تعبير عن عدم القدرة على التحمل، لقد أسيئت معاملتهن من الأسرة، وضُغط عليهن لعدة سنوات، والآن لا يريدون المزيد، "إن ذلك كفاية". في الواقع إنه من شديد الصعوبة والإيلام للفتيات المراهقات الهنديات، رؤية جيرانهن من البنات "الأفرو- ترينيداديين"، يمارسن منتهى الحرية، ويفعلن بالضبط ما يرغبن فعله أيضا. بنات الأفارقة أمامهن الاختيارات: يتزوجن ممن يرغبن في الزواج بهن، أو يستمتعن بالحياة من غير زواج، ولهن اختيار العمل لو أحببن ذلك، ولهن الانتقال من كنف الأسرة، والعيش في أحياء أخرى في ترينيداد، أو حتى العيش في "ميامي" (Miami) في الولايات المتحدة الأمريكية، أما هن – البنات الهنديات – فيبقين تحت سيطرة رب الأسرة.

من الممكن القول، إن محاولات الانتحار قد ساهمت في دفع الأسرة الهندية، على معاملة بناتهم بأسلوب أحسن نسبيا بالتدريج، لكن الوصول إلى الحرية الكاملة، والاعتماد الحقيقي على النفس، يحتاج إلى ثورة ثقافية. أحد المآسي هي أن مادة "جراموكسون"، قد طورت من تركيبتها الكيميائية، فأصبحت أكثر قوة في السنين

الأخيرة، والآن يموت البعض منها، وإن لم يقصد الموت بابتلاعها عند الرغبة بالاحتجاج، وتكون المراهقة قد خططت فقط لغسيل الأمعاء الذى تنجو بعده.

على الرغم من حصول الهنود في ترينيداد على تعليم عال ومستوى معيشة أفضل، ومن الممكن في نهاية المطاف أن يأتي رئيس وزراء منهم؛ فإن الحقيقة الواقعة هي: "ترينيداد وتوباجو" كانت، وستظل جزيرة " أفرو – كاريبية". كتب أحد مغني الكاليبسو، هو "دافيد رودر" (David Ruddir) أغنية يحاول فيها توفير قاعدة لبدء الحوار المجتمعي رسميا، يصف فيها ترينيداد بأنها "مفترق طرق"، "نقطة تلاقي" بين الأمريكتين من ناحية، وبين آسيا وإفريقيا من الناحية الأخرى. وفي نهاية السبعينيات من القرن الماضي غنى أحد المغنين الآخرين إحدى أغاني الكاليبسو، ولقد حدثت ضجة كبيرة عندما حاز على الجائزة السنوية، في مسابقة الكاليبسو الغنائية. المغني كان له اسم مثير للانتباه، "بلاك ستالين" (Black Stalin)، والأغنية اسمها "وحدة الكاريبي" (Caribbean unity) ، وتقول كلماتها بالإنجليزية الترينيدادية:

D(th)em in one race - D(th)e Caribbean man

From d(th)e same place - D(th)e Caribbean man

D(th)ey mad d(th)e same trip – D(th)e Caribbean man

On d(th)e same ship – D(th)e Caribbean man

وتعني بالعربية :

إنهم جنس واحد – الرجل الكاريبي

من مكان واحد – الرجل الكاريبي

كانوا في رحلة واحدة – الرجل الكاريبي

"ستالين الأسود" هذا، أو "ستالين" فقط كما يناديه أصحابه؛ رغب في إعادة الحياة، لأحد الأفكار القديمة التي نادت بوحدة الكاريبي. وحملت رسالة مضمونها أن الناس في كل من "جاميكا" (**Jamaica**)، و"باربادوس" (**Barbados**)، و"جويانا" (**Guyana**)، و"ترينيداد" (**Trinidad**)، والجزر الصغيرة بينهما، هم إخوة ولهم التاريخ نفسه. لكن الهنود شعروا أنهم مستبعدون من هذه القائمة، ولم يتفهموا مقصده. لقد اعتبروا أن الأغنية التي غناها "ستالين"؛ تعطي الانطباع أن كل منطقة الكاريبي سُكنت من أحفاد العبيد، وذلك ما لا يقبلونه. وفي كل مناسبة يوضحون ويؤكدون أن الهنود لم يشاركوا الأفارقة السفينة نفسها. وأنهم لا ينتمون إلى العرق نفسه مثلهم، بل إن كثيرا منهم كانوا يعتبرون ذلك إهانة شديدة موجهة إليهم. وسواء كان قصد "ستالين الأسود" استبعاد الهنود، أو إدماجهم في "العرق الواحد" نفسه الذي ذكره، فذلك إهانة في الحالتين. ولقد سُئل "ستالين" في أحد برامج الراديو التي استضافته؛ عن مقصده، فقال "لم يخطر على ذهني الهنود عندما كنت أكتب الأغنية". وهكذا تأكد للهنود، أن إحساسهم بالاستبعاد والاحتقار من جانب السود؛ كان صحيحا. وفي هذه الحالة فإنه من الأفضل أن يستبعدوا من شرف الحصول على لقب "أحفاد العبيد".

في أوقات مختلفة يسجل تاريخ ترينيداد محاولات تكوين جبهة سياسية مشتركة، بين الهنود و السود. وفي بعض الأحيان يكتب لها النجاح، ولكن لفترة قصيرة. أما الغالب فمصيره الفشل. "بلاك بور" (**Black Power**)، أو حركة "الوعي الأسود"، التي شكلت عام **1970**؛ حاولت ضم واجتذاب عناصر هندية إليها، إلا أن الحماس كان ضعيفا. حاولت القيادات السياسية، اعتبار كل من لهم بشرة غير بيضاء، سودا، حتى هؤلاء الذين لهم بشرة "حمراء" (**reds**)، أو ال"مولات" (**mulatt**) – أي الهجين بالتعبير الترينيدادي– وعليهم الانضمام إلى الحركة، تماما

كما حدث في الولايات الأمريكية المتحدة. ولكن الحال في ترينيداد كان مختلفا، فترينيداد بها أجناس وأعراق، أقل تنوعا منها في الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت النتيجة أن القليل من "الحمر" انضم إليهم وشارك معهم في تظاهرات حركة "البلاك بور". أما الهنود الذين تعاطوا مع الحركة، كانوا أقل بكثير، لقد اعتبروا أن وصفهم بأنهم سود كان سخيفا. إنهم يفضلون الموت على أن يقال عنهم إنهم سود.

٦

كلما مر الزمن، وبدأت الأجيال الهندية الناشئة في إدخال "البيض المقلي" و"الهامبرجر"، إلى أجسادهم، دون أي شعور من وخذ الضمير؛ كلما زاد نسيانهم لكتاب الـ"بهاجافادجيتا" (**Bahagavadgita**)، ونسيانهم أنه إحدى قصيدتين من الشعر الديني، يسميها الهنود "أغنية الرب" (**Song of the Lord**). وكلما مر الزمن، وزاد تفضيل الأجيال القادمة، قضاء العطلة في "عالم ديزني" (**Disney world**) على سفرهم إلى "فاراناس" (**Varanas**)، حيث المدينة المقدسة التي يحج الهندوس إليها؛ ليتطهروا في مياه نهر "الجانج". ومن الناحية الأخرى، فكلما زادت رغبة الجيل الجديد في البعد عن الطقوس؛ كلما زادت صيحات المتشددين في القوة والشدة، عند الحديث عن حدود الابتعاد عن التقاليد والطهارة. ولكن وعلى ما يبدو – على أية حال– فإنهم يجاهدون للانتصار في معركة حكم عليها بالخسارة. إن هناك القليل، أو قل لا شيء من التجارب الحياتية الواقعية، ما يشير إلى أن الهنود الترينيدادين في عصرنا الحديث، يريدون إحياء الثقافة الهندية، أو استيرادها تماما كما تمارس في الهند. لم تعد الهند موطنهم ، وهم يعلمون يقينا أن مستوى معيشتهم أفضل من مستوى معيشة أقربائهم الأبعدين في "بيهار" (**Bihar**). لكن وبالرغم من

ذلك، فإن الجدار القائم بين الهنود والسود في ترينيداد، ربما يظل قائما ولا يهدم. على كل حال؛ فإن الاختلافات الثقافية بين الطائفتين، آخذه في التناقص.

بعض القطاعات من المجتمع، ومن الحكومة، تنبهت إلى أن أسلوبهم الحالي في محاولة بناء أمة موحدة ذات هوية واحدة، ليس إلا وصفة للنزاع العرقي. ذلك لأنه بوجه عام فإن كل الشعارات القومية الحالية في "ترينيداد وتوباجو"، هي شعارات وضعها السود. وكخطوة أولى للتوحيد؛ أعلن المسئولون عن أوركسترا موسيقي، أسموه "الأوركسترا القومي"، يعزف موسيقى هندية، وذلك من خلال شركة الطيران القومية "بي دبليو أي أيه" (BWIA). وبالطبع، فإن هذا الحدث لو كان قد حدث منذ عشر سنوات فقط؛ لاعتبر عملا شديد الغرابة. أيضا، يمكن الإشارة إلى إن الكثير من لاعبي فريق "الكريكيت" (Cricket) القومي في "الهند الغربية"، هم من الهنود. وأنه عندما حاول مصنع قومي للبيرة الإعلان عن منتوجه في إعلان تلفزيوني، استعمل الأغاني الهندية فقط. هذه الخطوات البسيطة لا تستطيع منع نزاع عرقي، لكنها على أية حال، يمكنها التقليل من حدته.

لقد عايشت ترينيداد، منذ الحرب العالمية الثانية، وعلى وجه الخصوص في الأربعة عقود الأخيرة، "عملية ثقافية" (Cultural Process)، يمكن اعتبارها أكبر غرائب المدنية والمعاصرة. فكلما أصبح الإنسان أكثر "فردية"، وكلما ضعفت الروابط التي تربطه بالعائلة والجذور المحلية؛ كلما زاد الحديث حرارة، عن المجتمع الواحد الأصيل النقي. وكلما تشابهت البشر على المستوى الثقافي؛ كلما زاد اهتمامهم بالتمايز، والتفاخر، والتباهي، فيما بينهم. دعنا نأخذ على سبيل المثال مسابقة الجمال الهندية، ومسابقة إعداد أصناف جديدة من وجبات "الشوتني" (Chutney) الغنية بالتوابل الهندية، اللذين يقامان في مدينة "شاجواناس" (Chaguanas). إنهما متطابقتان تقريبا، مع مسابقة الجمال الكريولية، واستعراض الكاليبسو الموسيقي. الفارق بينهما بسيط ضئيل. لكن، كلاهما يحاول إظهار جنسه

وتأكيده. وكذلك نستطيع ذكر المسلمين الترنيداديين، فهم يحتفلون كل عام بموكب "الحسين" (Hosay)، وذلك في ذكرى تأبين شهيدا الإسلام الحسن والحسين (رضي الله عنهما)، بأسلوب يبدو مخجلا، ومهينا للمسلمين، في أي مكان آخر في العالم القديم. يتكون الموكب من شباب راقص، وموسيقى شديدة الوقع على الأذن، تشبه كثيرا موسيقى الكرنفالات الأخرى. أسلوب الأداء في الاحتفالات واحد لكل الطوائف، الفارق أنهم كلهم يحاولون التأكيد على أعراقهم وانتماءاتهم.

نتيجة لذلك تولد "حالة"، يزداد فيها كل من الهنود الترينيداديين، والأفارقة الترينيداديين؛ تشابها وتقاربا في الناحية الثقافية، لكن الفوارق العرقية بين الطائفتين تزداد وتقوى.

هل ما زال هناك من أحد يعتقد أن "الحس العرقي" (ethnicity) يعود إلى الفروقات الثقافية؟!

"للويد بست" (Lloyd Best) رجل بشوش الوجه، رمادي الشعر، متخصص في علوم الاقتصاد، وسياسي سابق، يسكن أحد البيوت المتناثرة عشوائيا، والمبنية على الأسلوب المعماري "الفيكتوري المتأخر" (Late Victorian)، بالقرب من الجامعة في "سانت أوجستين" (St. Augustine). كان هذا الرجل هو مؤسس حزب "تابيا" (Tapia)، وهو حزب يرفض أن يعترف بأهمية "العرقية " في السياسة. وكانت العقيدة السياسية للحزب "تابيا"؛ ليبرالية، ديموقراطية، اجتماعية. ولكنه، لم ينأى بنفسه بعيدا عن الحزبين الكبيرين PNM و ULF، وهما يمثلان على التوالي: السود، والهنود. وعلى الرغم من أن الجميع في ترينيداد، يتحدث بلطف ومودة عن الحزب؛ فإنهم في الوقت نفسه، يعتبرونه مثاليا بعيدا عن الواقع، ولا أمل في تحقيق مبادئه. والآن، فالحزب موجود على الورق فحسب. وعند تفكري في الحالة الترينيدادية برز السؤال: أليس من الغريب أن مجتمعا اختار التغيير والتطوير، والحداثة، خلال كل تاريخه، مثل المجتمع في ترينيداد؛ لا يستطيع تجاوز الخلافات

الهادمة بين الهنود والأفارقة؟ أجاب "للويد بست" على هذا السؤال بقوله: إن الاختلاف بين هاتين الطائفتين الكبيرتين، أصبح وكأنه "عقيدة وعادة ثقافية" في ترينيداد. وأضاف، "اقرأ مثلا ما كتبه "فيدا نايبول"، في قصته "منزل للسيد بيسواس"(*) (A House For Mr. Biswas)، وذلك عند مقابلة تمت، بين "بيسواس" والسود الأفارقة في مدينة "سانت جامز"، في مشهد حيث ينتقل "السيد بيسواس" (وهو الشخصية التي تجسد "سيبرساد نايبول" إلى المدينة: "القاطنون الآخرون هناك، هم من الزنوج (Negre)، وكانت هذه هي المرة الأولى للسيد "بيسواس" التي يجاور فيها السود، فهو لم يعش من قبل مطلقا مجاورا لهذا الجنس، وقربهم منه قوى هذه الأحاسيس الغريبة الأسطورية التي تولدت عنده عندما كان بالمدينة . لقد كان أكلهم له رائحة اللحم، وطريقة معيشتهم تبدو أقل نظاما وترتيبا، والنساء تحكم الرجال".

على الرغم من كل ذلك؛ فإن الأمل كبير في أن العلاقة بين الهنود والسود، تزداد تحسنا بوجه عام. يقول "للويد بست": "إن الذي نشاهده اليوم، ليس إلا "عملية دجولة" (douglaisation Process)، و "الدوجلا" (The Dougla) ليست كلمة شاذة، في قائمة الهوية العرقية الترينيدادية. إنها تعني الفرد ال "لا منتمي"، أو "ليس هذا، ولا ذاك"، بمعنى ليس إفريقيًا أو هنديا. أو يمكن القول إنه الفرد المكون من "هذا، وذاك"، أي نصف هندي كاريبي، أو نصف إفريقي كاريبي. وأصل كلمة "دوجلا" (Dougla) مقتبسة من اللهجة الهندية، المسماة اللهجة "البهجبورية" (Bhojpuri)، وتعني "المولود غير الشرعي"، أو "ابن الحرام"، ومقصود منها الازدراء والاحتقار، بالتأكيد. ولكنها ترددت كثيرا، في الأدب الترينيدادي. وأجد – يستطرد "بست"– أن أفضل وصف ل"الدوجلا" في الأدب والفنون، هو الذي ورد في أغنية من أغنيات ال"كاليبسو"، التي غُنت في عام 1961 بعنوان "split me in two"، أو "اشطرني إلى

(*) هذه القصة ترجمت إلى العربية، ونشرتها الهيئة العامة للكتاب في القاهرة. (المترجم)

شطرين". مغنى الكاليبسو نفسه كان من الدوجلا، أراد تحذير المسؤلين في ترينيداد، لو قرروا إرسال ابناء الجزيرة إلى البلاد الأصلية، التي جاء منها آباؤهم. البعض سوف يعيدونهم إلى الهند، والبعض الآخر إلى إفريقيا، ولكن إلى أين سوف يعيدونني؟ "حسنا، سوف يضطرون إلى شطري نصفين" (**Well, they will be obliged to split me in two**). وفي المقطع التالي من الأغنية، يصل المغنى الجريء إلى وصف حالة من حالات النزاع العرقي. لقد كانت النتيجة بالطبع، كما هو متوقع: "عندما أبحث عن ملجأ عند الإفريقيين، أو عند الهنود، يطردوني قائلين: اذهب إلى من هم من جنسك".

يعتقد "للويد بست" (**Lloyd Best**) أن ليس من الضروري أن تجرى عملية "دجولة" (**Douglarising**)، لسكان ترينيداد، بالمعنى الحرفي للكلمة. وذلك لأن عملية الدجولة الثقافية، تتم فعلا بسرعة. مثل هذه العملية الثقافية، ربما يمكننا تسميتها "كرولة" (**Creolisation**). لكن هذه اللفظة تعني شيئا آخر في ترينيداد. فهي تعني "التكيف" (**to fit**)، أو التكامل مع أسلوب حياة الأفرو- ترينيداديين، وهم الفئة الغالبة. ويعتقد "بست" أن التأثير ذاهب في كلا الطريقين".

ويضيف "بست": أما بالنسبة لي فيساورني بعض الشك، إنه من الواضح أن الإفريقيين - مع مراعاة بعض الاستثناءات - لا رغبة لديهم في الاقتباس من الهنود. لنأخذ الطعام، على سبيل المثال، ما الوجبات المعتادة في ترينيداد؟ إنها "الكالالو" (**Callaloo**)، و"الروتيس" (**rotis**)، و"الدبلز" (**Doubles**)، والدجاج مع الأرز. "الروتيس" و"الدبلز" أكلات هندية؛ ولا أحد ينكر ذلك. أما "الكالالو"، فهو خليط من هنا وهناك، تماما مثل ترينيداد نفسها". عند ذلك تولدت عندي رغبة في قول : إن الوجبة الشائعة في ترينيداد هي "كنتوكي فريد تشيكن" (**Kentaky Fried Chicken**) ولكني تماسكت، وأقفلت فمي ولو لمرة واحدة. كانت لـ"بست" ملاحظة مهمة فعلا، فبدلا من مجتمع ألوان طيفه متفرقة، يرى هو "كومبوت فاكهة"، أو

"سلطة فاكهة"، حيث لا توجد حدود واضحة، وتكون المناطق كلها رمادية. والسبب في أن "الدوجلا" يمثل بالنسبة لهم شخصية محتقرة، ذلك أنه بالضبط يحطم الصورة الواقعية الواضحة، حيث الجميع إما "كريول"، أو "هنود".

حتى الآن لم يصادق التاريخ على تحليلات "للويد بست"، فعلى الرغم من أن عملية الدمج، والتوحيد الثقافي تتم بسرعات متزايدة؛ فإنه ليس بالضرورة أن يكون الناتج "كلا مذابا"، عند الحديث عن مستوى "الهوية". على العكس :إنه من الطبيعي، في مثل هذه الحالات أن تكون "الهوية العرقية" و"التقاليد"، لهما أهمية إيديولوجية. إن السمك لا يحس بحاجته إلى الماء، قبل أن تخرجه منها. ومن ناحية أخرى، فإننا لا نستطيع استبعاد إمكانية وجود نوع معين من السمك، يتعلم بالتدريج التنفس في الهواء، وبعد فترة ينسى البيئة المائية، التي كانت تمثل بالنسبة له حاضنته. وفي حياتنا العملية، كانت كل أشكال الحياة مرتبطة بالماء، منذ مئات الملايين من السنين، حتى جاء أول كائن "برمائي" (**amphibian**) متريب إلى الشاطئ الطيني الضحل، حيث يقبع أمل "للويد بست" لترينيداد.

ترينيداد بها كل "العناصر التاريخية"، لكي تصبح مجتمعا يزرع وينشئ "المختلف"، أو "الكريولي"، من المناطق الرمادية. إنها عناصر مختلطة، والتناقض فيما بينهما هو الذي يعطي الجزيرة حيويتها الرائعة. فلماذا إذا لا نتوقع أن يتمكن الهنود والأفارقة، من الذوبان معا؟

هناك العديد من الإجابات على هذا السؤال، وإلى الآن استطاعت ترينيداد الاستفادة كثيرا من قدراتها الإبداعية. في ترينيداد كل شيء ممكن، لكن يجب فعله بمظهر فخم. وعندما كتب "ف.إس. نايبول"، في قصته "**The Middle Passage**"، أو "الممر المتوسط"، أن السود في الجزيرة سوف يستمرون في اعتمادهم على أفلام الآخرين، وكتبهم، وبضائعهم"؛ فإنه نسى أن هذه المنتجات الأجنبية، هي في الحقيقة، كانت عناصر ابتدائية صهرت معا، وأعطت سبيكة جديدة تماما في الجزيرة. لنأخذ على سبيل المثال السلسلة الطويلة من القصور المتراصة في

"طريق مارافال" (Maraval Road)، في مدينة "بورت أوف سبان"، المعروفة باسم "السبعة العظمى"، يحتل قمة هؤلاء السبعة، "قلعة – ستولميير" (Stollmeyer Castle)، وهي عبارة عن قصر خرافي جميل مستوحى من "الفن القوطي" (Gothic Inspiration)، بناه مهاجر أيرلندي، في مطلع القرن العشرين. المنزل التالي المسمى "هويت هول" (White Hall)، أو "القصر الأبيض"، وهو قصر خصص لسكن رئيس الوزراء، وهو عبارة عن مبنى رصين كلاسيكي حديث، يبدو وكأنه مبنى "فينيسي"، نسبة إلى مدينة البندقية (Venezia). بينما منزل "المطران" (Archbishop)، يذكر بالدير(monastery). أما "منزل أمبارد" (Ambard House)، الذي ينسب إلى الإقطاعي"لوسيون أمبارد" (Lucian Ambard)؛ فقد بني على الطراز والهندسة الفرنسية الأوروبية. والبيت التالي هو "ميلا فليورز" (Mille Fleurs)، هو عبارة عن بيت من الخشب، كريولي كلاسيكي، وبه زينة ورسوم، وهندسة فيكتورية، إلى جانب فتحات التهوية الكبيرة. أما منزل المطران الإنجيلي المسمى "هايس كورت" (Hayes Court)، أو"باحة هايس"؛ فهو منزل يخلط بين الهندسة المعمارية الإنجليزية والفرنسية في فترة الاحتلال. بينما "كوينز رويال كولدج" (Queen's Royal College) أو"الكلية الملكية"، التي تعتبر أفضل مدرسة ثانوية، يمكن وصفها بأنها بناء ألماني بني في عصر النهضة. ويظهر فيه تأثير العمارة الفيكتورية بشكل واضح. ومن الواضح أننا لو قارنا هذه القصور بالأصل الأوروبي، فسوف توصف بأنها نسخ مقلدة. لكن لو تأملنا بتمعن، في هذه السلسلة من القصور، لوجدنا أنها "أصل" وليست تقليدا. وسوف تبين لنا قدرة الترينيداديين المدهشة المتفردة، في المزج بين المتشابه، وغير المتشابه. إن هذه القدرة، هي بالضبط التي تميز الترينيداديين، وهي التي تؤكد أن أي حكم مسبق على الجزيرة يقول: إنها قفزت مباشرة من البربرية إلى الرفاهية دون المرور بطريق الحضارة الشاق العسير؛ سيكون حكما خاطئا. ولو فعل المرء ذلك فإنه سيكون كالقارئ لتضاريس في خريطة غير صحيحة.

***

هل من الممكن أن يجد المرء "حنينا إلى الماضي" في بلد يتوجه إلى المستقبل مثل ترينيداد؟ الإجابة هي: نعم، بالتأكيد. الحنين إلى المستقبل هو السائد المنتشر في الحقيقة. وذلك في صورة اجترار أحلام يقظة عن ماضي أسطوري، ومستقبل مثمر يزداد إشراقا. ماضٍ مازال يؤمن بسحر المعاصرة والحداثة. لكن البعض من الترينيداديين، يصيبه شعور بالقلق، وتتقاطر حبات العرق من جبينه عندما يذكّره أحد بطفولته. بينما بعضٌ آخر يتملكه شعور حار من "الميلانوكوليا" (melancholy)، أو الحزن العميق.

والحنين إلى المجتمع التقليدي الماضي موجود أيضا، خاصة بين الهندو-ترينيداديين، أما الآخرون من السود فلم يألفوا قط مجتمعا تقليديا. ذات يوم أخذت تاكسيا مشاطرة مع إحدى الصحفيات الترينيداديات، التي تقيم جزئيا في ميامي. اتجهنا إلى الجنوب، قاصدين مدينة "شاجوناز" (Chaguanas). كانت الصحافية من أصول هندية، وأخذت تمعن البصر في حقول قصب السكر، التي كانت تمر بجانبنا مر السحاب، وكذلك تلك البيوت الصغيرة المتقاربة من بعضها بعضا، حيث جلس الفلاحون تحت ظلال الشجر، يتبادلون الحديث وهم يلعبون بأوراق اللعب، "الكوتشينة". صاحت الصحافية: "من الممكن أن أتمنى مثل هذه الحياة". سألتها متعجبا: أعتقد أنك لا تعنين ما تقولين. لكنها نفت، مصممة على تأكيد رغبتها. وشرحت أسباب ذلك قائلة: "لقد نشأت وترعرعت في مثل هذا المكان، حيث الأمان، والجذور العائلية المترابطة، والتي فقدتها منذ زمن، لقد رأيتها في تلك البيوت المنتشرة هنا وهناك، حيث يعرف الجميع مكان سكنه، وحيث لا توجد أسرار، وحيث يقبلني الجميع على الصورة التي أنا عليها". كل شيء له ثمن يجب أن يُدفع، بما في ذلك الحرية. ولكن السؤال هو: هل بالفعل سوف تقبل الصحافية هذه الحياة، عندما يبدأ المسرح في رفع الستار؟.

وقبل أن يغير التاكسي اتجاهه إلى "شاجوناز"، تدخل السائق في الحديث يذكرنا بأن البلاد تمر الآن بمشكلة اقتصادية، قائلا: "يجب أن نتذكر أننا نمر بمرحلة ركود اقتصادي الآن". وبادرته بالسؤال عن مشكلة البطالة، ومشاكل

الكوكايين، وتزايد العنف والجريمة، وكيف تواجه الحكومة متطلبات الحل. أجاب: "لقد وصلنا قاع البئر تقريبا". نعم، بالتأكيد فإن وضع ترينيداد اليوم، يبدو لا أمل في إصلاحه. ولكن من ناحية أخرى، فإن المشاكل ليست بهذا العمق، ومن الممكن إصلاح ما فسد.

المقال الرابع

بروكسل: من يرغب في الموت من أجل أوروبا؟

١

بروكسل مدينة ليس لها هوية واضحة؛ لو نظرنا إليها بعين استكشافية. فنحن النرويجيين لا نعرف كيف نتهجى اسمها. اسمها بالفرنسية "**Bruxelles**"، وبالإنجليزية "**Brussels**"، وبالألمانية "**Brussel**". أما طريقة التهجي النرويجية للاسم "**Brussel**" فهو مطابق لما في الهولندية، ولكن النطق النرويجي للكلمة فمثله في الألمانية "**Brussel**"، التي تنطق "بروسل". على كل حال، بروكسل هي تلك المدينة التي نعرفها بأنها المدينة التي يمر بها المرء حين يركب القطار الدولي الليلي – وربما يكون نائما– لو أراد السفر من العاصمة الهولندية "أمستردام" قاصدا العاصمة الفرنسية "باريس". وهكذا نراها، مدينة غير مميزة الهوية، بلا حدود واضحة، لم يكن المرء ليقصدها لذاتها.

سبب مثل هذا الحكم القاسي، يقع وزره؛ ليس على المدينة نفسها بل على الدولة ككل. فكيف تكون عاصمة لدولة لا تريد أن تصبح دولة، ولا تعطي المرء الانطباع بمظاهر الفخر، ولا الثقافة؛ التي ينتظرها الزائر، من عاصمة أوروبية؟ يمكن للمرء وصف "أوسلو"، العاصمة النرويجية، بأنها مدينة ليست كبيرة أو مهمة. وأنها ليست محببة إلى كثير من النرويجيين. ولكنها، على الأقل؛ فهي تحوي: سفينة من سفن "الفيكينج" (**Viking**)، والمتحف الشعبي المفتوح، ومدرج القفز والتزلج على الجليد، وطبيعتها الساحرة، وكذلك فهي بالتالي؛ تعطي صورة عن النرويج، وتعبر عنها رمزيا.

"بروكسل" على العكس من ذلك، فهي مدينة ليس لها دولة، ولا تجمع قومي يلمسه المرء. ويقال، إن هناك بلجيكيًا واحدا فقط في العالم، وهو الملك "بودوين الأول" (Boudouin 1)، الذي كان يقدم نفسه في اللقاءات الدبلوماسية بلغتين. ولو كان هذا القول صحيحا؛ لما أصابني بالدهشة، وذلك لأنه لا يوجد من يمكن أن يكون مثالا بلجيكيًا. من المثال البلجيكي؟ هل هو "هيركول بويروت" (Hercule Poirot) ممثل الحلقات البوليسية،المأخوذة من قصص "أجاثا كريستي"؟ أو هو "سيمنون" (Simenon)، و"ماي جرت" (Maigret)؟ أو "جين – كلاود فان داما" (Jean- Cloude Van Damme)؟ هل يوجد بلجيكيون مشهورون آخرون، يمكن أن يمثلون البلجيك؟ لا تسألني، فأنا لا أتذكر ما اسم رؤساء وزارات البلجيك. وذلك لأنه عند الحديث عن رئاسة الوزراء في البلجيك؛ فيجب استعمال ألفاظ الجمع. إنهم ثلاثة رؤساء وزارة. واحد "فلمنكي" (Fleming)، والثاني "والوني" (Walloon)، أما الثالث فهو "فيدرالي"، حيث إن البلجيك أصبحت دولة فيدرالية منذ عام ١٩٩٣. ويحكى في التاريخ الحديث جدا أن الثلاثة زاروا "طوكيو"، واستقبلوا في الوقت نفسه، بينما لا يعرف أي منهم ميعاد وصول الآخرين، ولا يعرف سبب الزيارة. هذه الحادثة أكدت انطباع اليابانيين أن الأوروبيين مفككون تماما ومتفرقون.

ومن خصوصية البلجيك وبروكسل؛ أنهما يقعان على الحدود الفاصلة، بين أوروبا اللاتينية، وأوروبا الجرمانية. على المنوال نفسه الذي يميز مدن أوروبا المتوسطة: "براغ" (Praha)، و"براتيسلافا" (Bratislava)، و"فيينا" (Wien)، و "كراكوف" (Krakow)، وكلها تقع في مفترق الطرق بين الجانب "السلافي" والأخر"الجرماني". وكذلك "إسطنبول" (Istanbul)، و"سرايفو" (Sarajevo)، المدينتان اللتان تفصلان بين الجزء المسيحي، والآخر الإسلامي. وكذلك مدينتا "ليوبليانا" (Ljubljana)، و "تريستا" (Trieste)، اللتان تفصلان أوروبا اللاتينية عن أوروبا السلافية والجرمانية. والمدن التي تقع خارج ما يسمى الآن "ألمانيا" على حدودها الغربية: "ماسترخت" (Maastricht)، و"بروكسل"، و"لوكسمبرج" (Luxembourg)،

و"ستراسبورج" (Strasbourg). كل هؤلاء لهم سمات مشتركة، في أن كلا منهم له طبيعة مركبة، من حيث اللغة والدين والهوية. وأنهم هكذا منذ أن أنشأ ووحد "كارل العظيم" (The Great Karl) "الإمبراطورية الرومانية المقدسة"، المكونة من البلدان المختلفة، والتي سميت لاحقا بالأمة الألمانية. وهي التي وصفها "فولتير" (Voltaire) بأنها ليست مقدسة، وليست رومانية، ولا إمبراطورية. وفي بعض الأقوال يذكر: أن الحدود ذات الأهمية السياسية والعسكرية، بين ألمانيا وفرنسا، قد نشأت في ذلك الحين. وأن أحفاد "كارل العظيم"، "لوثار" (Lothar) و"لويس" (Louis)، كان أحدهما يتكلم الألمانية، والآخر يتكلم الفرنسية. على هذه الخلفية فإن من عجائب التاريخ هي أن الشارع الذي به الفندق، الذي يحمل اسم "القرية الأوروبية" (Euro Village)– وهو الفندق الذي تعودت النزول فيه عند زيارتي لبروكسل– له اسمان مختلفان: الأول شارع "بولفارد شار ماجنا" (Boulevard Charlemagne)، والثاني "كارل دي جروتيلان" (Karel de Grootelaan).

عبر التاريخ فإن هذه المدن؛ التي تقع في المفترقات هوجمت، وحوصرت، وغزيت، ووقعت رهينة، وقسمت كغنائم حرب، وسويت مرارا بالأرض. وهكذا عند إعادة رسم الحدود الجديدة؛ نشأت حدود غير مرضي عنها، ومتنازع عليها، وذلك عند المكان نفسه الذي رسمت فيه الحدود الفرنسية – الألمانية تقريبا، وبعبارة أخرى بين التابعين لـــ"البابا" (Pava) الكاثوليكي والبروتستانت. وبالتالي ولهذا السبب كان من الطبيعي، أن تولدت من حين لآخر بواعث ومحفزات لحروب تحرير وتسيير غزوات، تكاثر فيها القتل، والاغتصاب. وفي نهاية عام ١٦٩٥ تم تدمير "جراند بلاس" (Grand Place) في بروكسل، نتيجة للقذف المكثف والمركز لمدة يومين كاملين، من جيش "لودفيج – الرابع عشر" (Ludvig - XIV) من المرتزقة. هذا الميدان كان مركزا للمدينة، طوال سنين القرن الثاني عشر. ولهذا فقد اختير هذا المكان لإقامة الاتحاد الأوروبي. فلا توجد أماكن في مناطق أخرى

في أوروبا؛ تنال التأييد والتوافق التام عليها بين الأعضاء؛ مثل هذا المكان. في "ستراس بورج" (Strasbourg)، و"لوكسمبورج" (Luxembourg)، ما يذكر المرء بتاريخ المدينة. كل الاتصالات المكتوبة تقريبا تتم بالفرنسية، بينما لغة الحوار تتم بمختلف اللهجات الألمانية. وفي بروكسل على وجه التحديد، يصبح الوضع أكثر تعقيدا وتشابكا. أغلب القاطنين بالمدينة هم من المتحدثين بالفرنسية، بينما تقع المدينة في الجزء الذي يتحدث الهولندية، (وهناك بعض الفلمنكيين الذين يزعمون أنهم يتحدثون "الفلمنكية"، ولكنهم لا يستطيعون البرهنة على أن لهجتهم تختلف عن الهولندية). واللغة الفرنسية والهولندية لغتان متوازيتان من حيث الاستخدام. حيث لوحات الطريق، والإعلانات، تكتبان باللغتين. وفي بعض الحالات نجد بعض العنصريين القوميين، يقومون برش اللوحات، في محاولة لطمس اللغة الأخرى. مثلا: لوحة طريق تبين الاتجاه "أنت فيربن – أنفرس" (Antwerpen- Anvers) طمست فيها الكتابة الفرنسية، بحيث لا يستدل على الاتجاه إلا السائقون، الذين يقرءون الهولندية.

بروكسل مدينة تتميز بالعظمة المتكلفة والمتغطرسة. فعندما دمرت معظم المباني الكبيرة في "جراند بلاس" (Grand Place)؛ بدأ سكانها في بنائها مرة أخرى، وتم ذلك في وقت قصير جدا. وفي عام 1699، كان الميدان يعج بالزينة والزخارف، وأصبح مركزا تجاريا مليئا بأغنياء اليهود، والفرنسيين، والألمان، والإسبان. واليوم؛ فإن الميدان "جراند بلاس" يعطيك الانطباع نفسه، الذي تعطيه الشيكولاته البلجيكية. ينتاب المرء انطباع الغنى والقوة والعظمة، وبعد تذوق القليل، يصاب بسرعة بإحساس الشبع، وثقل في البطن، والرغبة في الغثيان. وبوجه عام فإن الميدان مليء بالمباني المبنية على الطراز "القوطي" (Gothic)، التي تتميز بالأبراج الهرمية، ذات القمة العالية الرفيعة، ومقابض الأبواب المطلية بالذهب، والزجاج الملون المزخرف، والأعمدة المرمرية المزخرفة، والأسقف منحدرة الجانبين.

رحلة قصيرة مشيا على الأقدام خلال قلب العاصمة بروكسل؛ سوف تثبت للمرء أن ميدان "جراند بلاس" ليس متفرد الخواص والسمات: فالمدينة كلها مليئة بالناس، والأبنية الضخمة الفخمة. وقد كانت المدينة في فترات متوالية مركزا لإقامة الأغنياء "البرابانتيين" (Brabanter) - وهم الإسبان الذين استوطنوا هولندا، وكذلك الإمبرياليون البلجيك. والمدينة تعج بتماثيل الفرسان، والحدائق المعتنى بها، وبها الكثير من النصب التذكارية ل"فاليك" (Phallic)- وهو رمز الخصوبة- الموضوعة في أماكن إستراتيجية من الحديقة، والقصور والأبراج المبنية على الطراز "القوطي المتأخر". ومشكلة البلجيكيين- لو وجد من ينطبق عليه هذا الانتساب - هي في الواقع؛ الشعور العميق بالعظمة والفخر، الذي لا يجد المرء له إشارة، أو تصديق على أرض الواقع. فهذه التماثيل والنصب التذكارية، تحتاج إلى واقع وتاريخ يذكر بها بشكل مستمر. والبلجيكيون ليس عندهم أعياد يحتفلون بها، لكنهم على أقل تقدير راغبون في إقامة الاحتفالات لأنفسهم. عندما تظهر إحدى الشخصيات البلجيكية في نشرات الأخبار العالمية، فذلك لا يرجع إلى أن البلجيكيين أنفسهم هم الذين فعلوا شيئا يستحق الذكر، أو يثير الاهتمام، فالأخبار التي نسمعها الآتية من البلجيك هي أخبار الاتحاد الأوروبي، أو أخبار حلف الناتو. في عام ١٩٨٥ جاءت أخبار مثيرة حقا؛ من أكبر استاد للكرة في بروكسل، استاد "هيسل- هيزل" (Heysel- Heisel)، أصبحت بعد ذلك مثالا مهما للعنف الكروي الأعمى، الذي لا طائل منه. ففي مناسبة نهائي "كأس أوروبا"؛ اشتبك مشجعو فريق النادي الإنجليزي "أرسنال" مع مشجعي نادي "يوفنتوس" الإيطالي، في معركة حامية الوطيس. والنتيجة أكثر من "دستة" من الإيطاليين أصبحوا في عداد الموتى. مثل ذلك وغيره أصبح مألوفا لدى البلجيكيين، فلو حدث شيء تهتم به نشرة الأخبار عنهم؛ فإن الأجانب هم المتسببون فيه والصانعون له.

من ناحية أخرى فإن بروكسل مدينة جميلة وجذابة معروفة باحتوائها أفضل المطاعم الأوروبية. وبها أنواع البيرة ذات الطعم الرائع المميز الأصيل، التي لها

نكهة "الكرز" (Cherries) و"التوت" (Raspberries). وفي الحقيقة فإن لهما طعما ألذ مما تعبر عنه الكلمات. ومركز المدينة لطيف وجميل، ويغص بالسائحين. أزقته صغيرة، مليئة بمحلات تبيع أنواعا كثيرة مختلفة من البضائع، ويغلب عليها الطابع الأوروبي القديم، الذي يتجلى في كل تفاصيله.

عندما ينتقل المرء إلى بعض الأحياء الواقعة في الشمال الغربي من المدينة؛ فسوف يقابل "بروكسل" أخرى مغايرة. وهذا في الحقيقة ما يعطي جوابا عن مشكلة الهوية عند البلجيكيين، وكذلك عند المدينة. هذه الأحياء تمثل بروكسل الاتحاد الأوروبي، وليست بروكسل البلجيكية. المنطقة المحيطة بـــ "روند- بوينت روبرت شومان" (Round- Point Robert Shuman) يسبح فيها العلم الأزرق الغامق المرصع بالنجوم الذهبية، وذلك هو علم الاتحاد الأوروبي. أما "روبرت شومان" فهو وزير الخارجية الفرنسية الإستراتيجي، والذي يعتبر العقل المدبر، وراء إنشاء اتحاد "الفحم والحديد"، "الألماني – الفرنسي". الاتحاد الذي كان نواة "الرابطة الأوروبية للتجارة الحرة"، المسماة بالافتا (EFTA−European Free Trade Ass) هذا الحي يتميز بعلم الاتحاد الأوروبي والبيروقراطيين الذين يرتدون بذات رمادية مزينة برباط العنق الأنيقة. هذا إلى جانب أن الحي يمتلئ بمطاعم صغيرة لتقديم السندويتشات. ويتميز الحي أيضا بالوجوه الجادة في مشيتها النشيطة. هناك يوجد معظم مكاتب مفوضية الاتحاد الأوروبي. وفي مختلف المباني ذات المستوى المتميز؛ يوجد قرابة عشرين ألفا من الموظفين، الذين يحاولون جاهدين توحيد القوانين والنظم لأوروبا الغربية. وللعلم إن محافظة أوسلو وحدها توظف عددا من الموظفين يزيد كثيرا على عدد موظفي مفوضية الاتحاد الأوروبي.

هؤلاء البيروقراطيون، هم الذين سماهم واعتبرهم قادة الجماعات الشعبية في النرويج الرافضون للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي؛ العدو الأهم. هؤلاء البيروقراطيون أغلبهم من ذوي الاتجاه السياسي "الديمقراطي- الاجتماعي" (Social

Democrat)، وعليهم تتراكم واجبات عمل المفوضية الأوروبية. وعندما يتنقل المرء بين تلك الأروقة والدهاليز الرمادية في بروكسل؛ يقابل الكثير منهم يشربون "القهوة الفورية" (Instant Coffee) ذات المذاق السيئ، ويحترمون قرار منع التدخين. ويكون حينها من الصعب إذًا، بل من الجنون؛ أن نضع هذه المؤسسة في لائحة الكراهية. صحيح إنها تبدو مملة، وربما رمادية غير محددة الملامح الوظيفية، ولكن هل هذه المفوضية مؤذية وشريرة؟ ربما قد يكون من المقبول كراهية أن يكون المرء ناقدا لمعدل النمو الاقتصادي، والتبادل التجاري المكثف، وثقافة الاستهلاك، والميل إلى الاحتكار، واستغلال الدول الفقيرة. لكن "منظمة التجارة والاقتصاد الأوروبية"(EEA) – وهي عبارة عن اتحاد تجاري بين الاتحاد الأوروبي (EU) والمنظمة الأوروبية للتجارة الحرة(EFTA)- لم يوكل إليها مثل هذا النشاط. لكن هل هذه الوحدة السياسية، هي هيئة إدارية وقورة تبذل أقصى ما في وسعها؛ لتقليل التأثيرات السلبية لقوى السوق العارضة؟ فلسفة الوحدة الأوروبية تتشابه مع "فلسفة هابرماس" (Habermas Philosophy) في أنها صعبة الفهم، ويمكن وصفها بأنها مملة إلى أقصى درجة. لكنها ودون أي شك؛ نافعة لأصحابها(*).

المشروع المسمى "التكامل والوحدة الأوروبية" مليء بالتناقضات العميقة يقينا، ولا يوجد من الأوروبيين من يتوافق معه، أو يعارضه بالكامل. صحيح أن هناك اتفاقا على إعطاء الجنوب الأوروبي الفقير، الفرص المتاحة نفسها للشمال الأوروبي الغني. ولكن يوجد عدم توافق على إرادة البعض في استبعاد البلاد الفقيرة حقا في العالم، وهي التي تبدأ من المغرب مرورا إلى الجنوب. إنه مشروع للتجارة الحرة يعتمد آليات إزالة عوائق الجمارك، وتسهيل المنافسة، ولكنه في

(*) تذهب نظرية "هبرماس"، أو فلسفة "هابر ماس"، الفليسوف الاشتراكي الألماني (ولد1929)؛ إلى أنه من الضروري أن يقدم السياسيون تعهدا بالاشتراكية الاجتماعية، وذلك في المجتمعات التي يغلب فيها سيطرة العلم والتكنولوجيا. (المترجم)

الوقت نفسه يحاول ضمان الاحتفاظ واستمرارية النظم المحلية. إنه محاولة لخلق هوية أوروبية مشتركة، بينما الأطراف المتفاوضة على ذلك عبارة عن دول قومية. أوروبا بوجه عام مكونة من دول، وهي كما سماها الرئيس الفرنسي "ديجول" (**de Gaulle**) "الدول الفيدرالية الأوروبية" (**Europe des Parties**)، وهي ليست فيدرالية واحدة. هذا وفي الوقت نفسه أوضحت الجهود المبذولة في محاولات التوحيد، أنها تقوي النزعة القومية المحلية. وأن هذه الحركات القومية المحلية، لا تنشأ كرد فعل مباشر لمحاولات توحيد المسار البيروقراطية فحسب؛ بل تنشأ أيضا جزئيا، نتيجة مباشرة من محاولات التوحيد على أساس قومي متعصب. وفي كثير من الأحيان، نجد أقليات تلجأ إلى بروكسل لتطالب بالاعتراف بحقوقهم بوصفهم أقليات. وتطالب بمعاملتهم بالأسلوب نفسه، الذي تعامل به القوميات الأخرى، التي تمثل الأغلبية.

عندما يجري الحديث عن بروكسل وعلاقتها بالاتحاد الأوروبي، فإن من السهولة بمكان اعتبارها مدينة مناسبة لأن تكون عاصمة أوروبا. المدينة في الحقيقة، لا تملك رمزا لحدود قومية تفقده. إلى جانب ذلك، فهي تمتلك بنية تحتية مثالية، من الحدائق والقصور، وتماثيل الفرسان، والأبنية التذكارية. وكل هذا يجعلها مدينة مناسبة لأن تكون مركزا ممتازا لتجمع سياسي؛ سيصبح عدد سكانه في المستقبل القريب بين أربعمائة وخمسمائة مليون إنسان.

٢

منذ عدة سنوات اجتمعت مجموعة من رؤساء الطهاة، من عدد من البلاد الأوروبية الكبيرة، في "اجتماع طارئ" عقد في بروكسل. مناسبة هذا الاجتماع هي مناقشة التهديد المتزايد؛ الذي يواجه "عادات الطهي القومية"، الناتج من محاولات دمج مزيد من البلاد الأوروبية إلى الاتحاد، والتي يعتقدون أنها تحمله. لقد ارتأى

هؤلاء الطهاة، أن قائمة الطعام الأوروبية المستقبلية؛ سوف يختلط فيها المفضل وغير المفضل من الطعام، دونما سابق إنذار. وأنه من الممكن؛ أن يتوقع المرء مخاطرة أن يأتي اليوم الذي تقدم له وجبات من مثل الفطائر المحشوة بشرائح اللحم والكلاوي (Steak-and-Kidney)، ويقدم بجانبها "التاجلياتلا" (tagliatelle)، وهي نوع من "الباستا" الإيطالية، وإلى جانبهما السلطة اليونانية. وهذا من طبيعته، ودون شك؛ سوف يزيح من قائمة الطعام المعتادة، وجبات من مثل الـ"ساور كروت" (Sauer Kraut)، وهو الطبق الألماني من الكرنب المخلل المعروف، وكذلك الوجبة الفرنسية المعروفة "كوك أو فين" (Coq-au-Vin)، الذي يحوي قطعا من الدجاج المطبوخة بالنبيذ. نعم، لقد توقع المشاركون في اجتماع قمة الطهاة؛ أن هناك علامات واضحة تؤكد: أن "فن الطهي القومي" مهدد بالتحلل والاندثار. لقد ارتأى الطهاة أن أكبر خطر يواجه قائمة الطعام الأوروبية، هو أن تصبح وجبات فاقدة المعالم، ذات مقاييس موحدة فاقدة الأصالة، ودون جذور ممتدة لثقافة الطهي المعتادة، والخالية من التميز والمذاق الخاص. "أسلوب الطهي الأوروبي" (Eruo-Cuisine)! هل يمكن أن يخطر ببال أحد شيء أبغض من ذلك؟

هل هذا هو الطريق، الذي ستسلكه مختلف الهويات الأوروبية الكثيرة، في محاولة توحيد أوروبا؟ الإجابة عن هذا السؤال، هي: "نعم"، و "نعم – لا"، و "لا"، كلها إجابات واقعية. ودعني أوضح بما يلي.

في أحد المؤتمرات، التي عقدت في لندن منذ عدة سنوات، تحدث الفيلسوف الأنثربولوجي "إرنست جلنر" (Ernest Gellner)، وقال بالتحديد: "الناس في مختلف بقاع الأرض سيواصلون التعبير بألسنة وأصوات مختلفة، ولكنهم – بوجه عام– يقولون الشيء نفسه". وفي اتجاه أسلوب الفكر هذا، زعم مؤرخ الفكر (Historians of Ideas) الأمريكي "فرانسيس فوكاياما" (Francis Fukuyama) – الذي كان في أثناء ذلك يعمل في إدارة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش

الابن– أن التاريخ قد وصل إلى نهايته عند "الفلسفة الهجيلية"(*)، وأنه لم يعد بالعالم الآن إيديولوجية معمقة تقابلها. إذا، تبعا لـــ"جلنر" و"فوكوياما"؛ فإن العالم يقترب من تكوين مجتمع واحد. حيث تتم "عملية مجانسة" **(Homogenizing Process)** للثقافة العالمية، وأن المدنية والحداثة قد انتصرت كما يزعمون، إننا أصبحنا نتشابه أكثر فأكثر، في كل أركان المعمورة. المعارف التي نتلقاها في المدارس أصبحت متشابهة ومن الصنف نفسه، من "نارساسوق"(**) **(Narsassuaq)**، وحتى "ناورو"(***) **(Nauru)**. البضائع الاستهلاكية التي نستهلكها يوميا، جاءت من الأسواق العالمية نفسها. ونحن نرتبط بأسواق العمل، ذات الطابع المشترك والمتشابه. إن هذه الاختلافات الثقافية الأساسية، التي أشارت إليها "بحوث في الثقافات" في القرن العشرين، التي اهتم الباحثون ببيانها وتحليلها قد اختفت. هذا ما يشير إليه "جلنر" و"فوكوياما"، وغيرهم ممن يفكرون مثلهم. هذه العملية تتسارع في أوروبا الغربية، من خلال توحيد المقاييس والمعايير الناتجة من وضع الخطط السياسية والاقتصادية المشتركة.

في الوقت نفسه الذي تجري فيه عملية التوحيد؛ يظهر باستمرار التمايز، وتبدو الفروق الثقافية داخل المجتمعات الحديثة. هذا يخلق توترا، نتيجة لمحاولات التوحيد الثقافي المتزايدة من ناحية، وظهور اختلافات ثقافية جديدة من الناحية الأخرى. التوتر الذي يصاحب نمو الهوية الأوروبية الموحدة الجديدة.

الوضع في أوروبا مشوش وغير واضح. في أوروبا الشرقية استحوذ على مواطنيها الحديث عن "الهوية الإثنية"، وذلك بعد سقوط النظام القديم، بينما تجري في أوروبا الغربية محاولات، ورسم خطط دقيقة لخلق وتطوير هوية قومية موحدة.

(*) نسبة إلى الفيلسوف والمفكر الألماني "هيجل" **(Hegel)**. (المترجم)

(**) مدينة في الشمال الغربي لـــ "جرين لاند". (المترجم)

(***)مدينة في الجنوب الشرقي من شمال أستراليا. (المترجم)

وفي الغرب نرى ردود أفعال رافضة للمحاولات التي تسعى لخلق وإيجاد هوية أوروبية موحدة مشتركة مشابهة للرفض الحادث في شرق أوروبا تماما. ومثلما هو في شرق أوروبا؛ تقابل هذه المحاولات باعتراض ونداءات، ورفع شعارات "التميز الثقافي"، و"التاريخ الحضاري"، و"المبادئ السيادية"، وغيرها من شعارات مشابهة في الغرب الأوروبي.

وكما هو في أوروبا الشرقية، فقد اكتشف العديد من مواطني أوروبا الغربية، أن الشعور القومي المتزايد لا يتوافق بالضرورة مع التضاريس المجتمعية في وقتنا الحاضر. ولهذا بدأ أصحاب الميول الإقليمية والإثنية، في محاولة استكشاف، تصورا جديدا لاتحاد أوروبي متعدد القوميات، غالبا ما يكون مغايرا لمفهوم الدولة، ونادرا ما يكون معارضا لبروكسل. أحد الأمثلة، هم المزارعون الفرنسيون. والمثال الثاني الحركات الانفصالية الإقليمية في القطاع المسمى "كاتالونيا" (Catalonia) الإسباني- الفرنسي، الذي يقع في الشمال الشرقي من إسبانيا. والمثال الثالث الذي يمكن أن يذكر، أن البعض في الحزب اليميني الإيطالي المتطرف، المسمى بـ "لجا نورد" (Lega Nord)، الذين يطالبون بعدم تقديم أية معونة للجنوب الفقير، الذي يمثل عالة على الشمال الإيطالي، ويمكن فصله واقتطاعه من إيطاليا. ويصفونه بأنه عبارة عن "لحم موتى" مليء بالجراثيم، موجود في جنوب البلاد.

هاتان العمليتان المشار إليهما، من سقوط النظام الشرق أوروبي، ومحاولات التوحيد في الاتحاد الأوروبي قد خلقا وضعا شديد الانفتاح باعتبار انتساب الفرد. وخلقا أسئلة عند الحديث عن الانتماء. هل يعتبر الفرد في إقليم "الباسك" "أوروبيًا"؛ أم "باسكيًا"؛ أم "إسبانيًا"؟ وهل من الممكن أن يكون الثلاثة جميعهم؟ وهل ينتسب اليهودي لبلدته الصغيرة، أم للقومية البولندية، أم لليهود المنتشرين في المهجر؟ أم

أن المرء بعد كل ذلك؛ يعتبر أولا وأخيرا، "مواطنا عالميا"؟. مثل هذه الأسئلة ليس لها إجابات عملية واقعية.

التأرجح بين "محو الحدود"، ورسم "حدود جديدة"؛ غالبا ما يأخذ مسار الحركة الموجية، بين صعود وهبوط. وكل الجماعات – عرقية كانت أم غيرها، تبحث عما يمكن تسميته "نقاط اتزان طبيعية"، بين العزلة والتواصل مع الآخرين. ولكنها، وفي الوقت نفسه تطالب بحقوقها في الثروة، وترغب في التفرد بها، وعدم مشاطرة الآخرين. وفي الحالات الضبابية غير الواضحة لا يمكن أن تُقبل "الدولة القومية" بهذه المفارقات. ويبدأ الفرقاء بالمناداة برسم الخريطة من جديد، وتخط الحدود من جديد. ولو أن مدلول "الدولة"، سيكون له قيمة أقل داخل "الوحدة الأوروبية" (EU)؛ فهل ستصبح حدود "الباسكيون" تحد "دولة الباسك" غير المقسمة في كل من الجانب الإسباني، والجانب الفرنسي دون إعلان هذه الدولة الجديدة؟ وربما يميل قاطنو المدينة في الدانمارك إلى مشاركة أعمق مع أبناء المدن في ألمانيا عنها مع الفلاحين الدانماركيين، ودون أن يسبب ذلك مشاكل سياسية. وعلى هذا المنوال؛ فإن الوضع السياسي في كل من أوروبا الشرقية والغربية، على التوالي؛ سوف يتشابه في جانب مهم. وسوف تصبح صورة هذه المتوازيات مشابهة للمأساة التي حدثت في يوغسلافيا: "الدولة التي بين الشرق والغرب"، والتي تمزقت، وتحولت إلى شظايا نتيجة للتناقضات بين: "القومية العرقية" من ناحية، و"الفيدرالية القومية المتطرفة" (Supranational) من الناحية الأخرى. وبين: "ليبرالية السوق"، و"مركزية التخطيط واتخاذ القرار"، وبين : "المدينة" و" القرية". وبين "النظام البرلماني" و"نظام الحزب الواحد". مثل هذه المتناقضات كائنة في كل القارة الأوروبية، رغما عن ظهورها الحالي في يوغسلافيا فقط، والتي صاحبها ذلك العنف الشديد. الاختلاف الآخر المهم له علاقة بـ"القومية الإثنية"، لو أخذ في الاعتبار النظرة إلى الوحدة الأوروبية بوصفها مشروعا للهوية؛ فمعظم "حركات" (movements) الشرق أوروبية، التي ترفع شعارات "الهوية"؛ هي "حركات إثنية

قومية". إنهم يرفعون شعارات "روابط الدم"، و"روابط الأصول العرقية" (بالألمانية **Blut und Boden**)، ويتعاملون مع الأجانب بخسة ونذالة، ويثيرون الشك تجاه الأقليات، ويطالبون بدولة مؤسسة على "الأصول العرقية"، أو دولة إثنية. ويتشابه مع هؤلاء حركات أوروبا الغربية مع فارق واحد: إن هؤلاء لا يطالبون بدولة إثنية نقية. و"الوحدة الأوروبية" تقدم الوعود لبدائل مختلفة من المؤسسات السياسية، التي بالتأكيد لا يمكن تحقيقها. إن السؤال عن "قومية" ما، "تكون أو لا تكون"؛ لا يجب فهمه على أنه يتطابق مع السؤال عن "حصول المرء على وطن من عدمه". وهل من الممكن أن تتوافق وتتصالح "الثقافة القومية"، مع "العالمية السياسية" (**Political Cosmopolitism**)، في داخل الاتحاد؟ لو حدث هذا؛ حينئذ تصبح هذه الوحدة عظيمة ورائعة. و لكن هل هذا قابل للتحقيق؟ ذلك موضوع آخر. وحتى الآن فإن محاولات خلق هوية أوروبية مشتركة؛ تصادمت مع الشعور القومي المحلي القوي، عند مجموعات لا يستهان بحجمها. ومع ذلك لا يجب أن ننسى أن في المقابل توجد مجموعات كبيرة أخرى تشجع المشروع.

تقريبا وبغض النظر عن شكل الوحدة الذي يتخذونه؛ فإن محاولة تكوين الهوية الأوروبية الجديدة يجب أن يأخذ في الاعتبار وجود القوميات المحلية، سواء كان ذلك بالتوافق والتصالح معها، أو مواجهتها ومقاومتها. وحتى الآن؛ فإن الانتساب القومي، مازال يمثل مكونا أساسيا في عقيدة ووجدان الكثير من الأوروبيين الغربيين. ويتوقع – ربما– أن تقل أهميته في المستقبل. الكثير منهم هم أولا وقبل كل شيء، دانماركيون، أو إيطاليون، أو إسبان، وهكذا. وبعد ذلك، يمكن لهم قبول كونهم "جوتيون"(*) (**Jutes**)، أو "أندلسيين" (**Andalusian**)، وكل هؤلاء أوروبيون. المستشار الألماني السابق "هيلموت كول" (**Helmeut Kohl**) بالنسبة

(*) الجوت" قبائل جرمانية استوطنت الدانمارك الحالية، ومنهم انحدر الدانماركيون الحاليون الذين يعيشون في أرض الدنمارك الرئيسية الواقعة في الشمال الغربي من أوروبا ولها حدود مع ألمانيا. (المترجم)

للألمان أهم من "جاك ديلور" (Jacques Delor)، رئيس المفوضية الأوروبية(*) (ودعني أذكر هنا أن "القومية العالمية الإنسانية" قد أصبحت "موضة قديمة"، قد يخجل البعض، ويتشكك في الانتساب إليها باعتبارها بديلا لـــ"الهوية القومية"، على الأقل حتى الآن. ولكن على المرء أن يكون دائما حاملا لأمل عودة حب الانتساب إلى "الهوية الإنسانية" مرة أخرى.. لكن في الوقت الحالي فالصورة تبدو كئيبة).

كإيديولوجية نشأت "القومية" في أوروبا نهاية القرن الثامن عشر، ففي تلك الفترة بدأت الأمم في التكون على أرض الواقع. وكانت القاعدة الأساسية الفكرية في هذا "التقليد" (tradition) – كما وصفه، وكتب عنه "هردر" (Herder)، وغيره من الأوروبيين– إن "القومية" تعني تجمعا بشريا له مستقبل محدد سلفا، يوصلهم إلى مصير مشترك. هذه المجموعة البشرية لا يتحقق وجودها الفعلي بوصفها قومية قبل أن يصل وعيهم إلى مضمون رسالتهم التاريخية. وجه من هذه الرسالة التاريخية قد تبلور في سنوات القرن التاسع عشر في صورة "الدولة القومية" (National State)، بمعنى "نظام" (System)، فيه يكون "التجمع البشري" وحدة ثقافية. وتمثل "الدولة" وحدة سياسية، وكلاهما في توافق مع الآخر. وخلال القرن العشرين سادت وانتشرت هذه الأفكار بكثافة، كانتشار طفيل الملاريا في دورة دم المريض، أو كانتشار النار في الهشيم. وخلال سنوات ذلك القرن؛ أصبح العالم كله تقريبا، مكونا من تلك الوحدات السياسية القومية، أو "الدول القومية"، نتاجا لهذه الأفكار والنظريات. (مع ملاحظة أنه ما زالت إلى الآن توجد تجمعات بشرية صغيرة موزعة هنا وهناك في أرجاء العالم). ومعظم سكان المعمورة مرغمون على العيش في "الدولة القومية". وبذلك فإننا مضطرون لأن نصبح "مواطنين" في تلك الدولة. ولكن هذا لا يعني بالضرورة، أن "الدولة القومية" ستظل قائمة على

(*) جاك ديلور" يعتبر الأب الروحي للوحدة الأوروبية. وهو مهندس توسيع الوحدة الأوروبية مع الشرق الأوروبي. وهو مقترح عملة الاتحاد، "اليورو". وهو الذي أقنع المستشار الألماني "كول"؛ بتخلي ألمانيا عن المارك الألماني، واستعمال اليورو عوضا عنه. (المترجم)

امتداد المستقبل. يصف "أنتوني جيدنز" (Anothony Giddens)، عالم الاجتماع السياسي البريطاني المعاصر؛ الدولة القومية أنها: (the pre-eminent power container, of our era)، أو "محتوى القوة الفائقة في عصرنا الحالي". إن "القومية" عنوان مهم، لكن هناك عنوان آخر مهم هو الآخر:"العولمة" (Globalization). وتحت هذا العنوان محتوى يقول: إن الفكر الثقافي، والقوة السياسية الاقتصادية، المرتبطة بالحدود الإقليمية؛ تتناقص وتضمر شيئا فشيئا.

٣

في وقتنا المعاصر يوجد الكثيرون ممن يتبنى فكر الباحث الاجتماعي"دانيال بلز" (Danial Bells). وهو يعتبر أن "الدولة القومية" صغيرة؛ بالنسبة للقيام بواجبات معينة، وكبيرة بالنسبة للقيام بواجبات أخرى. وأن جمعيات ومنظمات "المجتمع المدني"؛ التي تأسست في فترة ما بين الحربين العالميتين، تعتبر رائدة، باعتبار القدرة على القيام بالواجبات الصغيرة على الدولة المذكورة أولا. وفي عصرنا الحالي يتزايد عدد المؤسسات والمنظمات؛ التي تختلف أهدافها، وتقدم الحلول نيابة عن الكثير من الدول القومية. أما بالنسبة للواجبات التي تعتبر "الدولة القومية" أكبر من أن تتولى القيام بها، في جميع أنحاء العالم تقريبا، فقد ألقيت على كاهل "الدولة القومية"، واجبات كثيرة وبدرجة متزايدة، منذ الحرب العالمية الثانية. وبخطوات متسارعة ومتنامية، سلبت "الدولة القومية" واجبات من الأسرة، والكنيسة، والمحيط المجتمعي القريب. وبذلك فإن تطور المجتمع في الوقت الراهن؛ قد توجه إلى اتجاه معاكس. وفي "اتفاقية ما سترخت" (Maastricht Treaty)؛ تقرر فيما سمي بـ"الإيديولوجية الإدارية" (Management Ideology) محاولة معالجة هذا التطور. حيث تحاول الاتفاقية الجمع بين "المركزية" القوية،

و"اللامركزية" المرنة؛ التي ربما تماثلها في القوة. وبالتالي، وبهذه الطريقة؛ يمكن للأقاليم المفردة، ونظام أوروبا الموحدة؛ أن يقويان على حساب "الدولة القومية". وفي هذه الحالة، يمكن أن يضعف الانتساب القومي لسكان القارة الأوروبية، على المدى الطويل نسبيا. وبعد مرور فترة من الزمن، تقل العائدات، التي يمكن للمواطن الحصول عليها من الدول القومية. وبذلك تفقد الدولة القومية قوتها، بالنسبة لمواطنيها.

من ناحية أخرى، يوجد بعض الشك؛ في أن تتم مصالحة وتوفيق بين: "الهوية الأوروبية" الجديدة، وبين "القومية". ومن الجائز جدا أيضا، أن يبقى بعض الشك في أن تصبح أوروبا – أو الاتحاد الأوروبي لو أردنا الدقة – قومية واحدة. ولكن حتى الآن؛ فإن بناء القومية، لم يعلُ كثيرا. وهذا يشير إلى أن الكثير من مواطني الاتحاد الأوروبي، قد قل شعورهم بالانتماء لأوروبا، عما كان عليه قبل توقيع اتفاقية ماسترخت. لقد حاولت هذه الاتفاقية أن تخلق "مشاركة مكثفة متزايدة" عند مواطني الدول الأعضاء، وكان رد الفعل الأساس على هذا البرنامج هو: "يجب علينا التمسك بهويتنا القومية، مهما كان الثمن"!.

ما الذي يتبقى فعله حتى يشعر المواطنون أنهم أوروبيون؟ العمل الأكاديمي الجيد لوصف تاريخ أوروبا، الذي قام به المؤرخ الفرنسي "جين- بابتيست دوروسلز" **(Jean- Baptiste Duroselles)** (توفى1994) وحمل اسم "أوروبا من الانفصال، في الماضي إلى الوحدة في المستقبل"، وقد طبع هذا العمل بإحدى عشرة لغة، وقدم له "جاك ديلور" **(Jacque Delor)** رئيس المفوضية الأوروبية في ذلك الحين. هذا العمل يوضح، على أية حال، الروايات النافعة والمفيدة، التي يمكن استخدامها والاستفادة منها. وكما كتب "جاك ليه جوف" **(Jacques Le Goff)**، في مقدمة سلسلة كتب جديدة، صدرت بست لغات، وعنوانها **"Fare L Europe"**، أو

"حتى نصنع أوروبا"، كتب يقول: "أوروبا دون تاريخ، سوف تكون يتيمة وحزينة. لأن يومنا هو مولود الأمس، ومستقبلنا هو ثمار الماضي".

هذا الكلام رائع الجمال، لكن علينا تذكر: أن هذا التاريخ ليس بريئا سياسيا. كلٌ من سلسلة كتب "لي جوف" وكتاب "ديروسس"؛ يبينان مدى أهمية إيجاد تاريخ موحد للقارة الأوروبية، حيث يكون المشترك الأوروبي غالبا على القومي، وحيث يكتسب التمايز المحلي والإقليمي قيمة كبيرة، ولكن "الدولة القومية" تقدم نفسها هي أيضا على أنها "إرث تاريخي" (**historical Parenthesis**). هذا التطور مستمر في الحدوث على الرغم من اتخاذ تدابير قومية مناهضة له، وهذا يتطلب من صانعي الوحدة الأوروبية أن يخلقوا "مشتركا أوروبيا"؛ مناقضا لأي آخر. هذا الآخر سوف يسمى بالتأكيد؛ "اللا أوروبي". وبناء على ذلك فإن الحدود الأوروبية المشتركة مع تركيا، والمغرب، وإيران سوف تعتبر حدود "العالم المتحضر". وإن مواطني العالم خارج هذه الحدود، سوف يمثلون "الآخر"، الذي عليهم منافسته، والاتحاد في الحرب ضده. وأخيرا فسوف تعزز السلام بين الألمان والفرنسيين بعد جهد مؤسسي طويل، وبعد شعور قومي زائد دام طويلا. وبعد ذلك يبقى "الآخر"؛ هم "غير الأوروبيين"، وهم "العدو المشترك" المحتمل مواجهته، في أي وقت، ولأية ساعة.

في الوقت نفسه فلن تستطيع أيةُ دولة أوروبية منفردة؛ أن تملأ الفراغ الرمزي، بعد تآكل "الدول القومية". وذلك لأن التمايز الثقافي الأوروبي الحالي ما زال كبيرا. وسيكون من الصعب ومن غير المرغوب فيه، محاولة إيجاد "رموز قومية" فاعلة ومحببة إلى كل أعضاء الأمة الأوروبية الجديدة. وأن ذلك سيكون مثل من يريد أن يصنع وجبة طعام "إيطالية – بريطانية"، تكون مقبولة ومُرضية لكل من البريطانيين والإيطاليين. والحقيقة هي أنه لن تكون هناك أية فائدة من جعل الدانماركيين واليونانيين لهما نمط المعيشة نفسه وأن مثل هذا الاقتراح؛ سوف يثير حفيظة كلٍّ من الدانماركيين واليونانيين، وسوف يدفعهم بالتعامل معه بعدوانية

مباشرة. لمثل هذه الأسباب والمماثلة لها؛ فسوف تضطر الوحدة الأوروبية، في بداية الأمر، أن تبقى كنفدرالية من دول ذات سيادة، وذلك سوف يضعف الشعور بالانتساب القومي، وفي الوقت نفسه يفهم على أنه وفاء للدولة القومية. وسوف يرتبط المواطنون في أوروبا، مع بعضهم بعضا، عن طريق الروابط الاقتصادية، والسياسية، وسوف يعتمدون في المجالين على بعضهم، وستبقى الفروق الثقافية واللغوية، تميزهم. وهكذا سيصبح كل المواطنين "أقليات"، هذا لو أردنا استعمال التعابير اللغوية القديمة، التي يستعملها القوميون. ولذا فإن فكرة الدولة الأوروبية القومية الكلاسيكية الواحدة – بتعبير آخر فكرة محو الحدود الثقافية والسياسية؛ تصبح مستحيلة عمليا. وسوف يصاب المرء بضغوط نفسية عنيفة، في معارضة زملائه في البرلمان الأوروبي، أو عند الموردين لاحتياجاته اليومية المعيشية الأساسية، من أجهزة المنزل، وحتى الأطعمة المختلفة. إن هؤلاء الفيدراليين في الاتحاد الأوروبي يجاهدون في السباحة ضد التيار، فجميع استطلاعات الرأي تبين بجلاء أن مواطني الاتحاد الأوروبي قليلو الرضا عن الوحدة، وفي الوقت نفسه غير راغبين في الدعوة إلى "الدولة القومية". ورغما عن ذلك فإننا لا نستطيع تجنب أن الدولة القومية، تتناقص أهميتها في كلٍ من الواقع العملي، أو في تشكيل هوية الفرد. إنها تصبح في المستوى المتوسط بين المحلية والإقليمية، وكما عودتنا في القرن الماضي؛ تطالب المواطن دائما، بكامل الوفاء في انتمائه، أصبحت الآن "واحدة" فقط من الفاعلين. صحيح أنها ما زالت فاعلا مؤثرا، إلا أنها لم تصبح وحيدة. وبطبيعة الحال؛ أصبح الناس في أوروبا منشغلين بـــ"أوروبا الموحدة"، كظاهرة ومشروع، طالما أن القرارات التي تمس حياتهم، تتخذ في بروكسل. وبعد أن صوت الدانماركيون للالتحاق بالسوق الأوروبية؛ ازدادت توجهاتهم نحو الشئون الأوروبية في الحوارات الدائرة في المجتمع الدانماركي بالتأكيد. وهكذا ازداد توجه الدانماركيين إلى الجنوب وليس الشمال، وعندما يتحدث المرء عن "إسكندنافيا" في الدنمارك لا يقابله إلا هز الكتف، وعدم الاكتراث فحسب. ذلك لأن الشمال

وإسكندنافيا اضمحل وجودهما- إلا على الخارطة- من الواقع الدانماركي، بينما يمثل الاتحاد الأوروبي الواقع الذي يعايشونه يوميا.

رغما عن اعتقادنا أن الوحدة الأوروبية لن تصبح "دولة قومية" كلاسيكية موحدة، وسوف تتحول بسرعة إلى تجمع أقل ترابطا تحترم فيه الفروق بين أعضائه؛ فإنه سوف يتزايد فيها تبرير الحروب ضد المجتمعات والدول غير الأوروبية، التي يظن أنها تشكل خطرا على المصالح الأوروبية. وسوف تتلاشى الصورة القديمة لأوروبا بوصفها قوة غير عسكرية بين قوتين عسكريتين هما الأكبر، وذلك لسببين مهمين: أولهما أنه يوجد الآن على الساحة العالمية قوة عسكرية واحدة بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، وثانيهما أن محاولات بناء قوة عسكرية أوروبية موحدة قد بدأت منذ زمن طويل(*)، كخطوة في طريق تطوير السياسة الخارجية المشتركة.

من ناحية أخرى، إنه من الخطأ وصف الاتحاد الأوروبي بأنه إمبراطورية - في أي مرحلة من المراحل. وتشبيه الاتحاد الأوروبي بالإمبراطورية الرومانية، أو الإمبراطورية "الألمانية – الرومانية"، أو حتى بـــ "الرايخ الثالث الهتلري"؛ هو تشبيه يحمل في طياته محاولة التشهير والإساءة. وذلك لأسباب عدة؛ من بينها أن القوة الأوروبية الحالية ناتجة عن انضمام الدول عن رغبة وإرادة، وليست عن طريق القصر، ونحن نرى السلافيين يقفون في طابور طويل في انتظار الانضمام. وإن هذا يمثل فارقا واضحا ومهما. كذلك فإن الثمن الذي يجب دفعه عند قبول الوحدة في أوروبا، هو الحدود الخارجية للدول. وهذه معادلة صفرية بمعنى أننا كلما استطعنا الحصول على توافق وانسجام داخل أوروبا؛ كلما لاحظنا تغيرا واضحا في الحدود الخارجية. وهكذا تصبح من أهم الواجبات الأخلاقية لأي مؤمن بالإنسانية؛ ليست

(*) يشير الكاتب إلى أن الكثير من الدول الأوروبية، حتى من خارج الاتحاد الأوروبي، هم أعضاء في حلف الناتو بما فيهم النرويج وتركيا. (المترجم)

محاولة المحافظة على الوحدة في مستوى أقل ارتفاعا- شعوبية، أو أقليمية، أو محلية- فحسب، ولكن عليه أيضا تشجيع روابط الولاء للتوسع وتخطي الحدود إلى الخارج. وذلك لأن الوحدة التي تعد بها أوروبا الجديدة، هي وحدة بين جماعات بعينها، وليست وحدة شاملة، فما زالت المغرب وموريتانيا وموريشيوس موجودين خارج هذا النطاق. والمواقف السياسية التي يراد اتخاذها، يجب أن تتبع من قاعدة أخلاقية، وليس على أساس قومي، أو عنصري، أو مصالح خاصة أخرى. ويجب أن نتعاطف مع الأحداث السيئة التي تقع في بومباي الهندية، تماما مثلما نتعاطف مع الأحداث السيئة التي تقع في برمنجهام المدينة البريطانية. مثل هذه المواقف الأخلاقية، والتي أصبحت تظلل حدودا جغرافية عشوائية على الخريطة؛ ربما تكون قد أصبحت أقل واقعية وتطبيقا مما كانت عليه لفترات طويلة.

إن القومية تذهب إلى أن الحدود الثقافية، يجب أن تتوافق مع حدود الدولة. ولو أراد المرء الربط بين مثل هذه العقيدة، والواقع الاجتماعي المعقد؛ فسوف تتوالي المشاكل بسرعة. وذلك ليس لوجود أقليات- الموجودة تقريبا في كل دول الاتحاد الأوروبي- لا يستطيعون البقاء أعضاء في الأمة الواحدة، لهم القيمة الإنسانية نفسها، وليس أيضا بسبب نشأة مجموعات قومية متطرفة في أوروبا فحسب؛ ولكن أيضا بسبب أن المزيد والمزيد من الظواهر الثقافية آخذة في التلاشي، وأنها لم تصبح مرتبطة بحدود الإقليم.

الدول والكونفدراليات عبارة عن كيانات إقليمية سياسية، لها حدود فيزيقية، يعبر عنها على الخريطة بخطوط متقطعة حمراء، وعلى الأرض تمثل بمحطات للجمارك، ويفضل تزويدها بحراسة مسلحة، وكذلك بمعابر حدودية تحت إدارة عسكرية. ومن جانب آخر، فإننا نألف كثيرا من المعارف، التي تساهم في نمو الهوية الشخصية، والتي لا تحدها أكشاك الجمارك والثكنات العسكرية. هذه الثقافات التي يتزايد فقدانها للانتماء إلى المكان؛ صبت في صالح مواطن أوروبا الشرقية السابقة.

وذلك عندما أتيح لهم الاستماع إلى الحملات الدعائية (Propaganda) الشمال أمريكية، من خلال محطة "راديو أوروبا الحرة" (Radio Free Europe)، رغما عن إرادة قياداتهم القوميين، الذين تمنوا لو أن ذلك غير ممكن.

إنه ليس من الدقة في "أوروبا اليوم" - ولأسباب عديدة، أن نتحدث عن القارة الأوروبية على أنها "مجموع من الثقافات". الأوروبيون وفي كل أنحاء القارة؛ يتزايد بينهم "المشترك". الحدود الداخلية تتمحي، والثقافة الأوروبية يتم كرولتها أكثر فأكثر. وهذه العمليات تتم بسبب التفاعل المتزايد، والتأثير في بعضهم بعضًا. هذا بالضبط هو الذي أخاف رؤساء الطهاة في بروكسل، وخشوا نتيجته. كذلك وبتأثير عمليات العولمة العامة، يمكن لسكان مدينة أثينا اليونانية مشاهدة الأفلام نفسها، والقراءة عن الأحداث العالمية نفسها، وسماع أغاني "البوب" نفسها، التي يسمعها سكان مدينة "آرنهِم" (Arnhem) الهولندية، مثلا. أيضا وأخيرا بسبب محاولات معايرة القوانين القومية، وتطوير السوق المشتركة للبضائع، وسوق العمل، ورأس المال الموجود في الوقت الحالي.

إن محاولة إقصاء مفهوم "الثقافة القومية" (National Culture)، المتعلق بكل من "الإقليمية" و"العولمة" - هذه الأخيرة لها عدة مظاهر ووجوه - قد نالت القليل من الاهتمام في الحوار الدائر عن القوميات الأوروبية. وقبل كل شيء، فهناك حقائق أعطيت القليل من الانتباه والملاحظة. إن "التمايز الثقافي الداخلي" في حدود دولة ما، قد يكون أكبر من "التمايز الثقافي الخارجي"، أي بين دولة وأخرى. في مثل هذه الحالات يصبح من المناسب- دون شك؛ الحديث عن "ثقافة المدينة" الأوروبية المشتركة، التي تبدو بكل وضوح مخالفة لـــ "ثقافة الريف". وإلى جانب ذلك، فإن تزايد التمايز الثقافي، في كل مكان على حدة؛ يولد ويكبر. ويوجد التمايز بين "الثقافات الفرعية" (Subcultures) [في كل دولة توجد "ثقافة عامة" مسيطرة، يوجد داخلها "ثقافات فرعية". كمثال: الثقافة النوبية، والثقافة البدوية الموجودتان

داخل الدولة المصرية العامة المسيطرة - المترجم] من كل نوع. وكذلك التخصص والشبكات (network) المتخطية للحدود القومية (Transnational) تصبح مجرد عناوين فحسب. مثلا امرأة دانماركية يمكنها- إلى جانب كونها دنماركية- أن تكون باحثة في علوم البيولوجيا، وسحاقية، ومحبة لموسيقى "الجاز". وفي مثل هذه الحالة، فإن هذه المرأة؛ تشارك الباحثين في علوم البيولوجيا، والسحاقيات، ومحبي موسيقى الجاز، في كل أنحاء العالم. بينما لا تشارك الدانماركيين الآخرين في تلك الصفات بالضرورة، وبغض النظر عن "المكان" الذي تقيم فيه. إلى جانب ذلك يأتي "رأس المال المعولم"- الذي انتشر، ليس في أوروبا وحدها فحسب؛ لكن في كل أنحاء العالم. ورأس المال هذا، يساهم في إضعاف "الدولة" أيضا، أمام مواطنيها.

البعض من الباحثين يعتقد أن هذا الاتجاه في التطور؛ سيكون هو الغالب والمسيطر، ويتوقعون أن الأفراد في المجتمعات الإنسانية، سيصبحون بالتدريج أقل ارتباطا بالمكان. وأن مجموع أفكارهم المكونة لهويتهم، يمكن أن يجدونها في أي مكان تقريبا. وعندما يتسارع تأثير "الأنتروبيا الثقافية"(*) (Cultural Entropy) بين الأفراد والمجتمعات؛ فسوف يسهل عليهم تحقيق أحلامهم وطموحاتهم، أو نيل متطلباتهم بأساليب مختلفة متزايدة. وذلك بغض النظر عن مكان وجودهم على الكرة الأرضية. وتخصص "الثقافات الفرعية" وتمايزها هذا؛ سوف يبقى ويزداد تطورا، وفقا لهذا الأسلوب من التفكير. وفي الوقت نفسه سوف يتناقص ارتباط هذه "الثقافات الفرعية" بمحل الإقامة على وجه مستمر.

على الرغم من أن "العولمة"؛ يصاحبها ضعف ارتباط "الثقافة" بـــ "المكان"؛ فإن هذا لا يعني بالضرورة أن البشر سوف يغيرون كثيرا مما بأنفسهم. الحقيقة الناصعة هي: "إن التغيير يحدث رغما عنهم". وذلك لأن "سوق العمل" تتناقص

(*) "الأنتروبي الثقافية" مصطلح يطلق على معدل انتشار المعرفة بين الأفراد والمجتمعات البشرية. (المترجم)

خواصه المحلية بطريقة مستمرة. ويجد المرء نفسه مضطرا للانتقال لسوق العمل، الذي يحتاج مؤهلاته الوظيفية، والتي – على العكس- لا يحتاجها سوق العمل في محل ميلاده، ومكان نشأته.

نعم كلما زادت واتسعت "اللامحلية"، في الشبكة المعلوماتية، والتجارة البينية، والمؤسسات الاجتماعية؛ كلما قل وتناقص مقدار الشعور بالانتماء القومي، أو الإقليمي أو الفيدرالي، في تكوين هوية الفرد. والاتحاد الأوروبي على ما هو عليه الآن، لا يملك القدرة على فعل الكثير، في مثل هذا الصنف من العمليات. مواطنو النرويج مثلا مندمجون في الشبكة المتخطية للحدود القومية، تماما مثل مواطني دول أوروبا الغربية الآخرين. هذا رغما عن الاستفتاء الشعبي الخاص بانضمام النرويج للسوق الأوروبية، والذي تم عام 1972، وكانت نتيجته سلبية. وتبعا لهذه النتيجة لم تنضم النرويج للسوق الأوروبية حتى الآن. ولأن العولمة يمكن أن تحمل تأثيرا أقل، مهما فعلت- وفي أي مكان كنت في العالم؛ فمن الممكن أيضا الاعتقاد أن الاتحاد الأوروبي له قدرة ضئيلة على تطوير "الهويات القومية" ثقافيا. فما الذي يستطيعه الاتحاد الأوروبي من تقديمه وفعله؟ اللهم خطط ليست عملية، لصناعة هوية، لا تحمل إلا شعارات فارغة المضمون. إن هذه الأعلام الزرقاء ذات النجوم الذهبية، المتناثرة عليها، والتي ترفرف في كل أركان شوارع "الحي الأوروبي" في بروكسل، ما هي إلا شعارات فارغة المضمون تحاول الوصول إلى شيء ذي دلالة. ما هو المشترك بين مواطني الاتحاد الأوروبي؟ أولا وأخيرا، هو: قانون تنظيمي، وسوق عمل، وسوق بضائع،... مشتركة. عندما يتكون فريق كرة قدم واحد أوروبي، وعندما يموت أول جندي لهم، من أجل أوروبا؛ حينئذ فقط، يولد الأساس لثقافة أوروبية مشتركة، تكون منغرسة في عمق وجدان المواطن الأوروبي. إن هذه المنتجات من "التشابهات الثقافية"، و"المشاركات الاجتماعية"، التي تحدث الآن، عبر حدود الدول القومية، لها تأثير ضعيف، أو ليس لها تأثير يذكر على عملية تطوير الاندماج الأوروبي. إن كلا من مهندس الكهرباء

الألماني "سيمنز" (Siemens)، والأديب الإنجليزي "شكسبير"(Shakespeare)، والفليسوف الألماني "شوبنهاور" (Schopenhaur)؛ أصبحوا رموزا في الثقافة العالمية. أو بمعنى آخر؛ أصبحوا "عالما رمزيا"، لا ينتمي إلى أي مكان، ولا حتى أوروبا. وبالمناسبة، فإنه من السخف أن يقال إن الأيرلنديين الذين تقع بلادهم في أوروبا، لهم ثقافة وتاريخ مشترك مع اليونانيين الذين تقع بلادهم أيضا في أوروبا.

٤

إلى حد الآن فالبراهين والحجج تشير إلى أن العولمة أو النشاطات العابرة للحدود؛ لها تأثير حاسم في تكوين "الهوية الفردية" أكثر حسما مما لـــ "الاندماج الأوروبي". ولكن هل هذا صحيح؟

دعنا نفحص عن قرب الأسباب التي تبين أن هذه البراهين غير مقنعة. أولا، لأن عملية التكامل الأوروبي؛ قد خلقت حسا قويا بالهوية. وذلك بأنها ولدت نظيرها المقابل، في ومع ترعرع الإقليميات الأوروبية. في التسعينيات من القرن الماضي كتبت مجلة "نيوزيك" (Newsweek) الأمريكية تقريرا مطولا عن الاندماج الأوروبي. في مقدمته قالت: إن عملية الاندماج في الاتحاد الأوروبي، والخطط المرسومة المتعلقة بالهوية قد أنتجت تزايدا في الإقليمية الأوروبية. والإقليمية يمكن أن تكون "قومية" في مظهرها – تماما كما هي الحال مع الحركات الإثنية، كما حدث في "سلوفينيا" (Slovenia) و"جورجيا" (Georgia). لكن داخل الاتحاد الأوروبي فإنها ليست كذلك. ففي الاتحاد الأوروبي يفضلون التوجه نحو اتخاذ عناوين الفيدرالية عن اللامركزية السياسية واللاهوية الحرفية، عن التوجه إلى إقامة دول ذات سيادة لها وزارة خارجيتها، وفرقتها الخاصة بها لكرة القدم. والمؤمنون بالوحدة الأوروبية في بروكسل بدعوا في الأخذ في الحسبان "التشابه في

التنوع"، بدلا من "التجانس الثقافي". وكان ذلك نتيجة تزايد عدم الرضا، من اتفاقية "ماستريخت"، التي بالتأكيد تحوي الأساس للتوجه إلى كلا البعدين.

الأمر الثاني أن التجربة العملية في مجال الهجرة العالمية، قد أوضحت أن المشكلة ليست متعلقة تماما بالمكان – أو الدولة، الذي يقيم فيه الإنسان الأوروبي فالجميع يفضلون عدم الهجرة، والبقاء في أوطانهم.

الأمر الثالث والأخير أن عمليات التكامل والتوحيد الاقتصادية؛ سوف تولد "نماذج ثقافية" لا يمكننا التنبؤ بأنماطها، لكن ذلك سوف يؤدي إلى تقارب الأوروبيين مع بعضهم بعضا في مختلف الدول.

هل أنا الآن أناقض نفسي؟ دعنا إذاً نرى.

بالنسبة لــ"هردر" (Herder)، و"فيكو" (Vico)، والرياديين الآخرين في علوم تطوير "الإيديولوجية القومية الحديثة"، فقد كانت واجباتهم، مختلفة عن التحدي الحالي. في حالتهم كانت "الدولة القومية" غير موجودة، وبالتالي صح أن نبرهن بطريقة مقنعة أن معظم الشعوب الأوروبية كانت مختلفة، ولهم كل الحق في الاحتفاظ بصفاتهم المتميزة. كانت هذه "القومية" المبكرة تحوي في طياتها عنصرا ديمقراطيا قويا، حيث إنها شملت الفلاحين في الصورة المرسومة في مخيلتهم للقومية الموحدة. أفكار وحجج "هردر" عن حق تقرير المصير، يمكن أن تأخذ اليوم كوجهة نظر؛ تقول بأن الأقليات الثقافية (في الدولة القومية) لها الحق في ألا "تذوب، وتُمتص" في الأغلبية. وهو لم يقل إن "الدولة القومية"، يكون من شروط تكوينها؛ الثقافة الموحدة والوحيدة. وقد كانت ألمانيا في فترة حياة "هردر"، لها لغة وثقافة مشتركة، لكنها لم تكن دولة. وبالتالي ووفقا لهذا الفكر، فإنه لم يكن من الضروري بناء "دولة قومية"، للحفاظ على الثقافة. والمطالبون باحترام هوياتهم من

"الهيبريديين"[*] (Hebrides)، والأندلسيين[**] وغيرهم، يمكن اعتبارها مطلبا لإبقاء حياتهم الثقافية، والاحتفاظ بهويتهم الثقافية، ولا تعني بالضرورة أن تكون مطالب للانفصال، وإقامة دولة خاصة بهم.

بأسلوب آخر يمكننا القول: إن هذا يعني أن الانتماء إلى المكان والارتباط به، سوف يبقى مطلبا مهما لمعظم سكان أوروبا، لا شك. وذلك رغما عن ضعف ووهن "الدولة القومية". وهذا الانتماء من الممكن أن يكون "واقعا ماديا"، مدركا بالحواس، كأوسلو مثلا. أو يكون مكانا "مجردا"، مرتبطا بصورة ذهنية، كأوروبا الموحدة، مثلا. أو مرتبطا بفكرة لحقوق الإنسان، أو غيرها. هاتان الصورتان من الانتماء، لا تلغي كل منهما الأخرى. وكما هو في كثير من المجالات الأخرى، يوجد مبدأ "هذا، وذاك"، أفضل من مبدأ "هذا أو ذاك" خاصة عند التعريف بالهوية.

عندما قررت الدانمارك الدخول في ما سمي حينها "السوق الأوروبية المشتركة"؛ خشي الكثيرون من الدانماركيين، من هجوم مكثف من الباحثين عن العمل من أهل جزيرة صقلية (Sicily or Sicilia) في الجنوب الإيطالي. ولكن مثل هذا الهجوم لم يتحقق إطلاقا. إنني مازلت أذكر هؤلاء البريطانيين، الذين قابلتهم في أحد النوادي الليلية في العاصمة الهولندية "أمستردام"، منذ عدة سنوات، وكانوا يعبرون عن حظهم العاثر لأنهم اضطروا إلى مفارقة "أحبائهم" في "مرسى صيد" (Merseyside)، وهي ميناء في مدينة ليفربول الإنجليزية. حيث إن اليأس من حصولهم على عمل هناك؛ قد اضطرهم للرحيل. من المعتقد أن معظم البشر مرتبطون بقوة بـــ"مكان" نشأتهم، أو "الوطن" الذي ولدوا فيه، أو **Heimat** حسب

(*) "الهيبريديون" هم سكان جزيرة في شمال الأطلنطي غرب أسكتلندا، ويسميها الأسكتلنديون "الجزر الغربية"، ولها تاريخ طويل من الاستعمار من الإسكندنافيين والإنجليز وغيرهم. وهي تابعة الآن للتاج البريطاني. (المترجم)

(**) الأندلسيون هم سكان مقاطعة "الأندلس"، أو أندوليسيا كما يسميها الإسبان، وهي المقاطعة التي احتلها العرب لبضع مئات من السنين. (المترجم)

التعبير الألماني. إن شدة الحاجة هي فقط، التي تدفعهم إلى فراقه، والرحيل عنه. ذلك رغما من أن الواقع يقول إنهم يستطيعون التنقل حيث يرغبون في أي مكان في أوروبا الغربية الغنية. ونحن هنا في النرويج نرى "الميل نفسه عند أهالي الغرب والشمال النرويجيين، حيث يفضل السكان في تلك المناطق التشبث بالعيش على المنحدرات الجبلية والجزر النائية، عن حياتهم في المدن، حيث الراحة المادية أكثر توفرا نسبيا. وهل من أحد يتذكر وزير العمل النرويجي "فِنْ لِيد" (Finn Lied)؟ ذلك عندما كتب مساعدوه تقريرا عن" سوق العمل النرويجي"، في الثمانينيات من القرن الماضي، حيث ذكروا فيما قالوا: إن النرويجيين عليهم أن يُبدوا استعدادا لتغيير محل الإقامة بوتيرة أكبر من ذي قبل. وذلك لأن فرص العمل سوف توجد في أماكن أخرى. حينها قوبل الوزير ومساعدوه بموجة عنيفة من الاعتراض والإضرابات. وكانت إجابة "الإقليم" النرويجية صاخبة، تقول بلسان واحد: "هذا المكان هو الذي انتمي إليه"!. هذا الانتماء المحبب إلى نفوسهم، والقريب من قلوبهم، لم يكن عالميا، أو قوميا، لقد كان "محليا". والصقليون، أبناء الجنوب الإيطالي الفقير، هم أيضا متخوفون، أو كارهون، لمغادرة محل ميلادهم. وربما يفضلون الانتقال إلى عاصمة "صقلية" "بالرمو" (Palermo)، عن رحيلهم إلى "أورهوس" (Århus) المدينة الدانماركية، والأفضل لهم بالطبع ألا يغادروا قريتهم.

هكذا، إن "الإقليمية" لا تحمل في طياتها "تغييرا كيفيا" في هوية الفرد، ولكنها تحمل بعدا سياسيا وتنظيميا. "الإقليم" يعتبر "قيمة مجردة"، مثله مثل "الأمة"، و"القومية". لكنه تجريد، فيه يحس المرء أنه أقرب إليه من "الأمة"، في بعض الحالات. ففي "الصندوق الصيني"(*) ذى التركيبة المعقدة من الهويات الاجتماعية، والتجارب المشتركة، التي تعتبر نقاط تلاقي الأفراد، ويمكننا هنالك الحديث عن

(*) "الصندوق الصيني" تعبير نرويجي يطلق على كل شيء به كثير من المكونات بداخله، معقدة التركيب، وفيه كثير من الاختلاط، ويقابله في اللهجة المصرية "جراب الحاوي". (المترجم)

المستويات: أوروبا، الدولة، المنطقة والأقليم، القرية، أو الحي ومحل الإقامة. فعلى أي مستوى من هذه المستويات؛ سوف يشعر المرء بشعور من التناقض، تماما مثلما يشعر في الوقت نفسه بشعور الانتماء. ففي أول بادرة لغزو الكرة الأرضية من الفضاء الخارجي، فسوف يقوم "تيلوص" (Tellus) بالتأكيد على شعار الهوية. الجديد هنا هو الحقيقة القائلة: إن أوروبا قد مهدت طرقا جديدة كانت من قبل محفوظة للدولة، وإن مكانة الدولة الآن، قد اهتزت وضعفت وأفسحت المجال للإقليم. التجارب والذكريات التي كانت من قبل تفسر على أنها قومية؛ يمكن تفسيرها الآن بأنها أوروبية، أو إقليمية. وسوف يصبح تعليم الفرنسي- مثلا، ليس فرنسيا بل أوروبيا. وبيت الطفل الفرنسي، الواقع في إقليم "الأوكستان"[*] (Occitan) لن يقال عنه إنه فرنسي، بل "أوكستاني" رغما عن أن الذكريات والتجارب لم تتغير، فإنها سوف تسمى، وترتبط باسم "أمة رمزية" جديدة، وهكذا تفسر.

أعلم أن الكثيرين من القراء النرويجيين؛ سيعتبرون هذا النوع من التفكير والمنطق عبارة عن محاولة فكرية هوائية مفرغة لا سمين فيها. والسبب في الرفض لمثل هذا الأسلوب في التفكير عن "الهوية"، ربما يرجع إلى أنهم يعتقدون أن "الأمة" لها مدلول "واقعي" أولا وأخيرا، وأنه لا توجد إلا هذه الطريقة لكتابة "التاريخ الشخصي". هؤلاء سوف يفاجئهم الزمان بواقع جديد يلمسونه خلال سنوات ليست كثيرة العدد، حينها سوف يضطرون إلى استعمال القوة في محاولة رسم التضاريس المجتمعية الجديدة في خريطة قديمة.

مثل هذا التطور سوف يسعد الكثير من أعضاء الأقليات الثقافية، ذلك لأن تطوير أوروبا الغربية في اتجاه التعدد الثقافي في وحدة سياسية، يمكن أن يحررهم من الحالة التي يكونون فيها أقلية. ويكون الهدف هو أن تصبح مناطق مثل "ويلز"

(*) "أوكستانيا" هي منطقة تمتد على أماكن في الجنوب الفرنسي وشرق إسبانيا وشمال غرب إيطاليا، ويتحدث أهلها اللغة الأوكستانية. (المترجم)

(Wales) في بريطانيا، و"كاتالونيا" (Catalonia) في إسبانيا؛ مناطق مستقلة تماما، مثل "تورفولك" (Norfolk) [نورفولك، مقاطعة في شرق إنجلترا، وهو أيضا اسم مقاطعة مستقلة في ولاية "فريجنيا" بالولايات المتحدة الأمريكية – المترجم]، ومقاطعة "لامنشا" (La Mancha) الإسبانية، على حساب الوحدة البريطانية، والوحدة الإسبانية على التوالي، هذه الوحدة تم إضعافها بدخول بريطانيا وإسبانيا الاتحاد الأوروبي. وهذه المناطق التي يعتبرونها أقليات مستضعفة ومستخفا بها، سوف تصبح لها "القيمة" نفسها، وتقع في مستوى المناطق الأخرى نفسها.

رغما عن المحاولات الجارية لمساواة الأقليات الأوروبية بالآخرين، فسوف يبقى جزء من الأوروبيين يشعرون أنهم أقلية مطرودة، ومعزولة دائما. أكثر من خمسة عشر مليونا من مواطني الاتحاد الأوروبي أجانب، يضاف إلى ذلك سبعة ملايين من أبنائهم، وهؤلاء ليس لهم "مكان" كبير أو صغير، يمكن انتماؤهم إليه؛ غير أوروبا. هل هذا يعني أن هويتهم الثقافية محكوم عليها بعدم "الانتماء المكاني"، وأنهم لن يجدوا مطلقا "مكانا" تمتد فيه جذور انتمائهم؟ سؤال صعب، فلقد رأى اليهود، على الرغم من مرور العديد من مئات السنين من الهجرة؛ أن فلسطين هي بيتهم المناسب. وعلى المنوال نفسه سوف ينظر مسلمو بريطانيا إلى الهند وباكستان، وينظر مغاربة فرنسا إلى المغرب والجزائر، على أن هذه البلاد تمثل بالنسبة لهم "مكانا"، أو "منظمة حدودية"، ينتمون إليها بوصفهم مواطنين. مثل هذا التوجه يمكن أن يصبح واقعا وممكنا، على الرغم من فراغ ذلك "الموطن" الغريب من أي أحد يتشابهون معه ثقافيا، مثلما كانت "إسرائيل الأسطورية" مفرغة تقريبا من اليهود، على مدى فترات طويلة ممتدة.

على الرغم من أن عمليات العولمة، والثقافات العابرة للحدود، ليسا شرطا ضروريا للحفاظ على "الانتماء المكاني الإقليمي"، أو "الانتماء المكاني – الزماني" في المنفى؛ فإنهما يهيئان الظروف لذلك. إنهما يجعلان الانتقال من "سانت فينسنت"

(St.Vincent) في الولايات المتحدة الأمريكية، إلى "ولفرهامبتون" (Wolverhampton) في برمنجهام الإنجليزية، مريحا وسهلا مما كان عليه سابقا، ويخلق شعورا بانعدام الحدود المشتركة في واقع معترف به.

تعتبر "العولمة" عملية من "الرتبة الثانية"، لو قارناها بالعملية التي تجري حاليا المتعلقة بالاندماج، ولذا فإنها- أي العولمة – لا تخلق "مشتركا اجتماعيا" (Social Community)، إنها فقط تنشئ "تشابها ثقافيا" (Cultural Similarity)، و"بدائل نظرية" (abstract alternatives). وفي حالات خاصة، تقوم العولمة بعملية "تحلل اجتماعي" (Social desintegration). والفرق بين "العولمة"، وتوسيع الحدود السياسية- الاقتصادية، يتمحور في أن "التشابه الثقافي"، لا يصلح أن يكون أساسا كافيا لتجارة مشتركة موجهة. ومن ناحية أخرى، فإن العولمة لا تنزع الفرد من موطنه ومحل ميلاده، وتتيح للأفراد الحفاظ على تعلقهم الوجداني بأماكن تمتد فيها جذورهم، رغما عن وجودهم بعيدا عنها. يرجع ذلك جزئيا إلى أن وسائل الإعلام الحديثة تتيح لهم التواصل مع أخبار الوطن، وجزئيا إلى أن الأوطان الأصلية للمهاجر تتغير تدريجيا، في اتجاه التشابه مع البلد المضيف، حيث إن الفجوة الثقافية بين "بومباي" المدينة الهندية – مثلا، والحي الشرقي في لندن تضيق، ولا تبدو وكأنها مستعصية على الحل. إذا فالعولمة تخلق قواسم ثقافية مشتركة، وتبني الجسور. إنها تجعل التواصل ممكنا ويسيرا، خلافا لما كان عليه سابقا. وبهذه الطريقة تصبح العولمة "مادة لصق" تيسر تداخل عمليات التكامل الاقتصادي، الآخذة في التزايد في العالم.

الشعور القومي والإثني، من الممكن أن يصبحا "عامل إعاقة"، لبعض وجوه العولمة المرغوب فيها، مثل "الأنتروبيا الثقافية العامة"، وهي التي خشيها رؤساء الطهاة، الذين اجتمعوا في بروكسل. وفي كل أركان أوروبا؛ نجد "مثقفي و موظفي الدولة" يقضون الساعات الطويلة من يوم عملهم في محاولات المحافظة على اللغة

المحلية من "الأنتروبي"، خوفا من التهديد المستقبلي الممكن، من نشوء "لغة أوروبا" (Euro Speak)، التي ستكون- إن وجدت – لغة قياسية، فاقدة الجنس، تعمل في أضيق الحدود الثقافية، وبالتحديد تلك "الثقافة الأوروبية" (Eruo Culture) البيروقراطية، ذات الطابع التجاري. نشوء ونمو هذه اللغة، التي يمكن النطق بها بألسنة مختلفة – على حد تعبير "جلنر" (Gellner) ومفرداته؛ يمثل تهديدا حقيقيا للتعدد الثقافي الأوروبي في مجالات مختلفة. وبذلك تختفي معظم "المتشابهات" لصالح "القواسم المشتركة"، التي تضيع خصوصيتها ومعالمها. وبما أن العمليات الثقافية المتخطية للحدود، تأخذ على عاتقها أن تجعل التواصل ممكنا، متخطية حواجز الحدود المنشأة، فإن لغة التواصل هذه تواجه المخاطر أن تصبح "لغة بدائية"(*) (Pidgin)، جزء منها مصطنع مثل "الإسبارنتو"(**) (Esperanto)، وآخر سطحي ضحل، ومُعوق، وبلا ضمان، وهي مؤقتة تستخدم لتخدم غرضا مؤقتا فحسب. في كتابه الرائع "محاولة إيجاد لغة مشتركة للثقافة الأوروبية" (della Lingua Perffeta nella Cultura europa) استنتج الكاتب والفيلسوف الإيطالي (ولد في1932)"أومبرتو إكو" (Umberto Eco) الاستنتاج التالي:

"أوروبا متعددة اللغات"، لا تعني أوروبا التي يتحدث فيها الأفراد عدة لغات بطلاقة، لكنها تعني- في أحسن الأحوال؛ أوروبا مكونة من أفراد، يتحدث كل منهم لغته الخاصة عندما يتقابلون، ومع ذلك يفهمون لغة المتحدثين في الجانب المقابل، والذين يتحدثون لغة جيدة، ومع ذلك يفهمون – ولو بقليل من المجهود- "المضمون"

(*) اللغة البدائية أو ال"بيدجن" هي لغة تواصل بين أفراد ليست لهم لغة مشتركة، ومن صفاتها أن بها مفردات من لغتين أو أكثر. ومثال على ذلك Pidgin English: وهي رطانة إنجليزية، ينطق بها التجار في الموانئ الصينية، وتستخدم في الأغراض التجارية بين الصينيين والأوروبيين، وغيرهم ممن لا يجيدون الإنجليزية الراقية. (المترجم)

(**) الإسبارنتو: هي لغة مصطنعة، المراد منها أن تكون وسيلة تواصل بين البشر من مختلف الثقافات ومختلف البلاد، وضعها الطبيب د. إسبارنتو الإيطالي للتواصل مع مرضى ليس لهم اللسان نفسه، أو القدرة على التخاطب. (المترجم)

و"الموروث الثقافي"، الذي يعبر عنه الأفراد بلسانهم، وكأنما كل فرد يتحدث إلى والديه، وأفراد مجتمعه الذي نشأ فيه".

على هذا الأساس فإن "إكو" (Eco) ينتقد فكرة محاولة إنشاء لغة أوروبية مشتركة مصطنعة، مثل "الإسبرانتو" أو الإنجليزية "البدائية"(بيدجن)، وذلك لأن مثل هذه اللغات تكون فاقدة السياق، وبالتالي فهي فقيرة المضمون. ويتابع "إكو" القول: "إن لغة الشاعر "دانتي" (Dante) جذورها الثقافية إيطالية، لكنها كانت أكثر غنى وكمالا من تلك اللغة اللاتينية العالمية، التي اتخذوها بديلا لها". ولذا فهو يقترح للأوروبيين محاولة التعود على اللغات الحية، التي يجرى الحديث بها بطريقة طبيعية، حيث يستخدم معظم الأفراد لسانهم الخاص، بدلا من محاولة إيجاد لغة أوروبية مشتركة ينطق بها الجميع.

التليفزيون الشمال أمريكي، وموسيقى "البوب" الحديثة، يكونان أمثلة جيدة على اللغة المشتركة المؤسسة على القواسم المشتركة، بدلا من التجارب المشتركة. تذكرة الدخول رخيصة، فهي تستدعي أقل ما يمكن من المقدرة الثقافية، للمشاركة والتوافق معها، والتعبير عنها بالغ السهولة لدرجة أن مجال تأثيرها كبير جدا. وهذا يبدو بوضوح مختلفا عن التعبيرات الثقافية، التي توحي بها السمفونية الرومانسية السابعة، للمؤلف الموسيقي النمساوي "ماهلر"(*) (Mahler) التي يحتاج المرء دراسة معمقة لأسلوب أداء الموسيقى الكلاسكية الرومانسية الأوروبية، لفهمها والاستمتاع بها. ولذلك فإنه من الصحيح القول؛ إن أشكال التعبيرات الثقافية الشعبية المتخطية للحدود، يمكن أن تهدد العادات والتقاليد المحلية ذات الجذور العميقة، وذات التفرد في الخواص، وذات التعقيد الكبير. وفي الوقت الحاضر لا يوجد في الاتحاد الأوروبي إنتاج يمكن اعتباره تهديدا، وله تأثير ثقافي كبير، فذلك ينتج في

(*) "جوستاف ماهلر" مؤلف موسيقي، عاش في ألمانيا، وكانت أشهر أعماله تسع سيمفونيات من طراز الموسيقى الرومانسية المتأخرة، التي سادت في القرن التاسع عشر. (المترجم)

الولايات المتحدة الأمريكية. وعندما أصدرت فرنسا قانونا يحرم استخدام الكلمات غير الفرنسية، في الاتصالات الرسمية ربيع عام **1994**؛ لم تكن اللغة الهولندية، أو الألمانية، أو الإسبانية، أو الإيطالية هي المقصودة بالمنع، باعتبارها عدوا رئيسيا؛ بل كان المقصود الثقافة الشعبية الشمال أمريكية، التي اعتبروها المهدد الرئيس للفرنسية. وأيضا داخل الاتحاد الأوروبي، فإن الثقافة الشعبية القادمة من الولايات المتحدة الأمريكية، هي التي تكون المشكلة الكبرى، في مواجهة التعدد الثقافي، والتقاليد الأوروبية، وذلك عند محاولة الحفاظ عليها.

وكما هو معروف؛ فإن "أوروبا" شيء "مغاير" و"مختلف" عن الولايات المتحدة الأمريكية. ولو اعتبرنا أن "الولايات المتحدة الأمريكية، هي ابنة أوروبا المتمردة غير الناضجة؛ فسوف يعتبر - بالمثل- العالم الإسلامي، الأخ غير الشقيق، وغير الموثوق به لأوروبا المسيحية. إن النظر إلى العالم الإسلامي على أنه "التهديد الأكبر" لأوروبا، يبدو مضحكا، و"بارانويد" **(Paranoid)**. فالاعتقاد الذي يمكن قبوله، هو العكس تماما، أي أن أوروبا تمثل أكبر تهديد للعالم الإسلامي. إن أوروبا غنية بلا حدود، وأقوى عسكريا، ومتحالفة مع القوة العسكرية والاقتصادية الأولى في العالم، تحالفا أقوى بكثير من أي دولة إسلامية تحلم بالحصول على مثله. هذا رغما عن أن الإسلام في صعود رمزي، منذ أواخر القرن العشرين، وهذا مما لا شك فيه. ففي بروكسل، كما في كثير من المدن الأوروبية الكبرى، ينمو الوجود الإسلامي بسرعة تتجاوز الأضعاف من أي أقليات دينية أخرى. وربما نستطيع القول إنه مقابل كل أوروبي يصبح ملحدا، يأتي إلى أوروبا مسلم. أيضا يمكننا القول إن العالم الإسلامي يبدو مليئا بالثقة بالنفس، وعالي القامة عن أوروبا، القارة المجروحة المتهالكة **(Skade Skutte = Wounded)** والمتناقضة، على الأقل عندما نتحدث عن العقيدة الدينية. إن تزايد الأصولية الإسلامية، وتقدمها في كثير من الأراضي الأوروبية، يمكن النظر إليه واعتباره رد فعل على أصولية أخرى، هي أصولية "الليبرالية واقتصاد السوق". وبدلا من بذل محاولات تقارب بين أوروبا، والبلاد الإسلامية، تكون مبنية على الانفتاح

والاحترام، نرى تزايد الاستقطاب، والمخاطر، حيث يحاول كلا الطرفين "شيطنة" (demonizing) الآخر، في محاولة لتقوية تماسك وحدته المجتمعية الداخلية.

إن الأصولية الإسلامية في البلاد الإسلامية تعتبر بالنسبة لهؤلاء الذين يجاهدون من أجل بناء هوية أوروبية "هدية السماء" (بالألمانية Gefundenes Fressen). لقد وجدوا ضالتهم التي يمكن استعمالها لتقوية شعور الأوروبيين بـ"المشترك الأوروبي"، إنها بشعة بالدرجة المناسبة، ومرعبة بالدرجة المناسبة، وتمثل صورة كريهة لعدو لا خطر منه، ويوجد بها البعد التاريخي.

مثل هذا الاستقطاب الذي ينمو خلال عملية بناء الهوية الأوروبية، لن يخدم عدة ملايين من الأوروبيين الذين يوجدون في أوروبا الآن. عشرة مليون من مواطني الاتحاد الأوروبي، هم من المسلمين، وليس لهم أي مكان داخل أراضي الاتحاد الأوروبي يمكن إطلاق اسم "إسلامي" عليه. وربما يمثل ذلك عاملا مهما موجودا في الفكر الأوروبي، عندما تختلق العوائق في طريق عضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي. ذلك لأنه، لو حصلت تركيا على العضوية الأوروبية؛ فستفقد أوروبا بذلك "التناقض الرئيس"، أو "الآخر"، الذي يمثله ذلك المسلم البربري؟! ففي حال انضمام "رجل أوروبا المريض" إلى الاتحاد الأوروبي، فسوف يجعل ذلك حدود أوروبا غير واضحة، ولا متميزة. لذا فإن السؤال عن عضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي أهم بكثير من السؤال عن عضوية النرويج في الاتحاد، [النرويج إلى حد الآن ليست عضوا في الاتحاد الأوروبي (Eu) وذلك احتراما لنتيجة استفتاء شعبي أجري في عامي 1972، 1995، ففيهما رجحت كفة الرافضين للانضمام – المترجم] فعضوية النرويج لن تغير كثيرا في هوية الاتحاد، وذلك لأن ملامح النرويج الأساسية هي: شعب أبيض، نقي أصيل، ومسيحي. وهذه الأوصاف سوف تقوي الهوية الأوروبية؛ فحسب. إن أوروبا توصف بأنها قارة بيضاء، طاهرة نقية، ومسيحية.

٥

لقد آن الأوان للتحول من ترديد قول "إنّا"؛ إلى قول "واجبنا". وبأسلوب آخر، ما هو الذي يتوجب على أوروبا، وبالتحديد الاتحاد الأوروبي، من دور تلعبه، بالنسبة لـ"صورة الذات" في "الوعي الجمعي" (Collective self -image)، وإلى إعادة بناء الهوية الاجتماعية والثقافية، بحيث تتناسب مع احتياجات العصر؟ بوجه عام فإن أوروبا اليوم، لا تستطيع الإشارة إلى هوية جديدة. بعض الوجوه الخاصة المهمة في تحديد الهوية، أصبحت الآن غير مرتبطة إطلاقا بالحدود الجغرافية، ولا إلى الحدود الأوروبية؛ بينما ستكون أنماط أخرى مرتبطة بمحل الإقامة والحدود القومية والإقليمية. هل حدث تغير نوعي موضوعي في الشعور بالأنا، عندما تفتح أوروبا لتصبح سوق عمل مشتركا للجميع؟ أعتقد شخصيا أنه لم يحدث. بينما حدث- من ناحية أخرى- تغير في هوية الفرد، وذلك عندما دخلت هذه الفترة الجديدة التي وُجد فيها سوق عمل متطور، فيه يستطيع البشر اختيار عملهم ومحل إقامتهم بأنفسهم. لكن هذا التطور لم يجد تطورا مقابلا في الاتحاد الأوروبي.

ومن ناحية أخرى، هل استطاع اتحاد أوروبي كنفدرالي حقا أن يضع شروطا ملائمة لإزالة القومية التي تركز على الانتماء، بحيث يجعل جزئيا الانتماء الإقليمي والمؤسسات الإقليمية الاجتماعية واقعا ممكنا؟ وهل سيصبح انتماء المواطنين في الاتجاه غير المحدد جغرافيا؟ لكن، وهي لكن كبيرة، فإن الاتحاد الأوروبي كما هو الآن، وكما سوف يكون، وحدة سياسية محددة، ووحدة اقتصادية ستكوّن منطقة تكون في حالة تنافس مع باقي العالم، ومن ناحية الأمن السياسي سوف يتحدثون بدرجة متزايدة عن الحلول العسكرية المشتركة. إلى الآن لم يحدث

ذلك، لكن من الممكن أن يتطور الاتحاد الأوروبي في الاتجاه الذي أخاف الكاتب والمفكر النرويجي "يوهان جالتنج"(*) (Johan Galtung) بالضبط في السبعينيات، وهي أن يتحول الاتحاد الأوروبي إلى "قوة عظمى" أوروبية(**). لو تم مثل هذا المشروع؛ فيجب علينا الحكم عليه بالفشل، وذلك في حالة ما إذا استبدل الهدف الإنساني من إنشائه بآخر، يتمثل في "قوميات شوفونية"، تصاحبها "إيديولوجية عالمية". ولو أردنا أن تكون "الثقافة الأوروبية" وثيقة الارتباط بالإيديولوجية الإنسانية، وحقوق الإنسان، فمن الواجب والصحيح أن يوجد كثير من القيادات الأوروبية المرموقة في "نيروبي" (Nairobi) الكينية، و"بيونج يانج" (Pyongyang) الكورية الشمالية؛ هناك يزورون السجون، ويدافعون عن حرية التعبير، والعدالة الاجتماعية – وهي القيم العليا للثورة الفرنسية. وفي ضوء ما قيل عن عولمة الثقافة، فإن من الواضح أيضا أن "العادات والتقاليد الأوروبية الثقافية" لا يحدها حدود سياسية أوروبية.

ما المضمون الذي يمكن أن تحتويه هوية أوروبية مشتركة؟ الإجابة يمكن أن تحمل جميع الأقوال. بالمقارنة مع النرويج، أو إحدى القوميات الأخرى؛ فإن "أوروبا الموحدة" عبارة عن "بناء ثقافي"، والفكرة عن "هوية أوروبية مشتركة"، هي فكرة إيديولوجية في المقام الأول. ولذا علينا الاتفاق على أن "أوروبا الموحدة"، هي عبارة عن "نظرية" أو "بناء نظري". وبالتالي فإن كثيرا من الغموض يحيط بهذا التعبير، فالتعريف الأوروبي لأوروبا، يتراوح بين تعريف من يسمون بالتيار اليساري العالمي، الذي له نظرة نقدية أخلاقية طاهرة نقية (Puritanical)، حيث يعرفون أوروبا بأنها ذلك المكان من العالم، الذي حدثت فيه: المجازر، والعنصرية،

(*) يوهان جالتنج" مفكر سياسي واجتماعي نرويجي، أستاذ في الجامعة ومؤسس معهد بحوث السلام، ولد في 1930.(المترجم)

(**) في رأي بعض الباحثين، فإن تعبير قوة عظمى يحمل في طياته بعض السلبيات، حيث تمارس القوى العظمى السيطرة على الآخرين، ويفتقد العدل. (المترجم)

والدمار البيئي. أما الجانب الأخر، فهم يعرفون أوروبا بأنها القارة التي تحترم القانون، وتحافظ على الفن والتراث، والفلسفة والإنسانية، وحقوق الأفراد، والتقدم والتطور العلمي والتكنولوجي.

إننا نرى أنه لمنتهى السخف، ذلك الزعم الذي يزعمه بعض مؤرخي الاتحاد الأوروبي، بأن "أيرلندا" و"اليونان"، مشتركتان في التاريخ والثقافة، بينما "تركيا" و"اليونان" لا يوجد بينهما مشترك. الحقيقة الناصعة هي: أن الحدود الجغرافية، لم تكن يوما ما متوافقة مع الحدود الثقافية. ولو أردنا الحفاظ على أقل ما يكون من النزاهة، والأمانة الفكرية، فإنه من الضروري الأخذ في الاعتبار هذه الحقيقة، عند بناء وصناعة "مشترك أوروبي".

لا اللغة، ولا الدين؛ يصلحان أن يكونا أساسا لرسم حدود أوروبا، فهناك أوروبيون لا يتحدثون لغة أصلها "هندو- أوروبية" والعكس بالعكس. وكذلك يوجد مسيحيون، وغير مسيحيين في داخل أوروبا وخارجها.

صحيح إن شعارات "الإنسانية"، و"النقد الذاتي"، و"حقوق الإنسان"، هي اختراع أوروبي. لكننا يجب أن نتساءل: هل هذه القيم تطبق في أوروبا بأسلوب أفضل، منها في أماكن أخرى من العالم؟ ألا يكون من وجه عدم التضامن والتكافل؛ الزعم بأن هذه القيم أوروبية، ولا يتقاسمها معها بعض الأماكن الأخرى في العالم؟ خاصة إذا ما اعتبرنا أن هذه القيم والمبادئ عالمية، وليست أوروبية فحسب.

هل الماركسية هي "خاصة" أوروبية؟ إنها كذلك بالتأكيد، فهي مسئولة عن كل ما هو رائع، وهي أعلى درجات الإنسانية، لكنها وفي الوقت نفسه مسئولة عن كل ما هو فظيع ولا إنساني في تاريخنا القريب، ولقد استعملت وسيلة من وسائل القمع والتعذيب السياسي.

هل الديمقراطية، والإدارة (**Bureaucratic**) العقلانية الراشدة هي خاصة أوروبية؟ ربما تكون كذلك، لكن في هذه الحالة؛ فسوف نضطر – بعد فترة قصيرة من الوقت– أن نقبل الشمال الإفريقي، بقبوله في العائلة الأوروبية أيضا، وأن "نيوزيلندا" (**New Zealand**) يجب أن تحتل الصدارة في القائمة الأوروبية؛ الآن، وحالا.

للأسف لدينا في الوقت الحاضر وقائع في التاريخ، تثبت أن أوروبا تُعرِف كل ما هو أوروبي، على خلفية لون البشرة أو المظهر الخارجي، وعلى هذا الأساس يستبعد فيما يستبعد؛ الشمال الإفريقي والأقليات الأخرى.

صحيح إن جميع "المجتمعات الاشتراكية" (**Communities**) تؤسس على استبعاد "الأخرين"، بدرجات متفاوتة من الانغلاق والانفتاح. ومن ناحية، نجد أمثلة في التاريخ الأوروبي، لكل من الانفتاح المتسامح، والمحاولات الجادة لإيقاف نمو الفاشية الإثنية ومنعها، ومن ناحية أخرى نجد أيضا توثيقا تاريخيا لتعريف يصف أوروبا بـــ"الحصن" و"النافذة". والمذابح الوحشية، وغسيل الأدمغة، واستبعاد الأقليات والمهاجرين، كل ذلك أيضا "خاصة أوروبية" (**Typical Europian**)، ولكن نجد أيضا أمثلة على حماية الأقليات والمهاجرين ومحاولات لربطهم بالمجتمع، والتواصل الملزم معهم.

كل هذه التعريفات والصفات الأوروبية، يجد الباحث من الوقائع التاريخية ما يدعمها، على الرغم من التناقض الكبير فيما بينهما. وربما في هذا الغموض، وهذه التناقضات يكمن "المشترك الأوروبي" ؟

قال الفيلسوف والمفكر الفرنسي "إدجار مورين"[*] (**Edgar Morin**) عام **1987**، وقبل انهيار حائط برلين: إن أوروبـــا يجب أن تُبنى على أنقاض

(*) إدجار مورين" فيلسوف ومفكر فرنسي معاصر ولد في باريس1921 وتخصص في علم الاجتماع. (المترجم)

"الكولوسيم"(*) (Colosseum) وحائط برلين. ومن الطبيعي أن يكون تاريخ أوروبا هو تاريخ "أفران الغاز"، و"الإمبريالية"، و"محاكم التفتيش"، لكنه أيضا تاريخ "فلسفة الشك" و"العقلانية الواقعية"، و"النقد الذاتي"، والجهاد في سبيل تحقيق العدالة. وعندما كتب العالم الفرنسي المشهور "بليز باسكال"(**) (Blaise Pascal): إن الحقيقة هي شيء آخر، يقع في الناحية الأخرى من "جبال البرينيز"(***) (Pyrenees)، أعطى مفهوما مغايرا للمألوف في ذلك الوقت، وأيقظ الذي يمكن أن تكون لها "القيمة الإنسانية" و"الثقافة المتحضرة" نفسهما مثل قيمنا وثقافتنا، رغما عن كونهم يبدون مختلفين عنا. هذه الرؤية الإنسانية المتحضرة يجب أن تكون هي نقطة البداية، ومكان الانطلاق الطبيعي لبناء أوروبا مشتركة. حيث إن مفهوم "أوروبا مشتركة" سوف يأتي متلازما مع أن تبنى مثل هذه الهوية الثقافية – لو أردنا لها النجاح، على قبول "الاختلافات" بدلا من اعتبار "التماثل والتشابه" وحينئذ علينا اختيار "التعدد الثقافي" و"التسامح" قيما جوهرية عند محاولة خلق هوية أوروبية مشتركة جديدة. وسوف يترتب على هذا – بالضرورة – متطلبات تغيير في السياسة الخاصة بالمهاجرين والمهجرين اللاجئين، والتي يجرى تطبيقها في الدول الأوروبية في الوقت الراهن.

تاريخ أوروبا حافل بالأحداث المختلفة، ويمكن للمرء توضيح أن كلا من "التسامح" و"المشاركة" (dualism)، و"التضامن"، لهم جذور عميقة في التاريخ الأوروبي، ومن المهم استخدامها قاعدة لبناء "أوروبا اليوم". إن هذه الفرصة لا

(*) "الكولوسيم" مبنى مدرج عملاق بنى بين عامي ٧٠و٧٢ بعد الميلاد في روما، وكانت ساحته تستخدم في إقامة حلقات المصارعة بين الإنسان والوحوش، وهنا يرمز للوحشية والهمجية.(المترجم)

(**) "باسكال" عالم فيزيائي فرنسي (ولد في 1632، ومات1662) درس الرياضيات والفيزياء، وكتب في الفلسفة والدين، واشتهر بتجاربه على السوائل، ووضع نظرية الاحتمالات .(المترجم)

(***) "البرينيز" سلسلة جبال تمتد على الحدود الفرنسية الإسبانية من المحيط الأطلنطي وحتى البحر الأبيض المتوسط وهي بذلك تحد أوروبا عن شبه الجزيرة الإيبيرية والشمال الإفريقي. (المترجم)

يجب أن ندعها تفوتنا، سواء كان على مستوى الإيديولوجيا أو على مستوى الواقع العملي. قال "أكسل يانسن" (Axel Jansen)، الكاتب والروائي النرويجي، في إحدى مقابلاته الإذاعية: "إن اختيار سوق أوروبية مشتركة أفضل بكثير من اختيار ميدان حرب أوروبي"، وكان ذلك إشارة إلى الحربين العالميتين الأولى والثانية. وهنا يكون من الضروري أن نهمس في الآذان: "يجب ألا نشجع مهندسي بناء السوق الأوروبية المشتركة؛ ألا يقدموا على هدم "برج بابل المعلق"، الذي يمكن أن يبدو لهم وكأنه إحدى استعارات العهد القديم الرائعة، من الكتاب المقدس، في المشترك الأوروبي. لا يجب إطلاقا وأبدا أن تبنى الوحدة الأوروبية، على حساب التعدد اللغوي والثقافي، ويجب أن يجمع أساس مشروع البناء، بين "المساواة السياسية" و"التنوع الثقافي".

إن أفضل "أسطورة خلق" يمكن تقديمها لأوروبا اليوم، ربما تكون هي نفسها الأسطورة اليونانية القديمة عن "ديدالوس" (Daidalos) وابنه "إكاروس" (Icarus). وتذهب الأسطورة إلى أن "إكاروس" وأبيه "ديدالوس" قد تم أسرهما ووضعهما في شبكة ومتاهة الآلة "مينوتايروس" (Minotaur's Labyrinth) التي بناها في جزيرة "كريتا" (Kreta) اليونانية. واستطاع الأب "ديدالوس" صناعة أجنحة لهما، حتى يطيرا ويهربا من تلك المتاهة، ولزقا الأجنحة في ظهورهم بالشمع، وطار الأب على ارتفاع منخفض في السماء، وبذلك استطاع النجاة والخروج من محبسه، والوصول إلى موطنه بسلام. أما الابن "إكاروس" الممتلئ بالرغبة والنشوة بسبب قدرته على الطيران، فقد اتجه في وجهة السماوات العلى. بعد فترة من الطيران قرب من الشمس، وساح الشمع الذي كان يلصق الأجنحة، وبالتالي سقط في البحر ومات. هذه "الغطرسة" (باليونانية hybris) التي اتصف بها "إكاروس" هي رمز لخاصة وصفة ربما يكمن فيها أكبر مواطن القوة والضعف، في الثقافة الأوروبية. نحن لا نسمع كثيرا عن حكمة وعقلانية وواقعية الأب "ديدالوس"، التي أوصلته إلى النجاة واستمرار الحياة، بينما – وعلى العكس- أصبح "إكاروس" رمزا دينيا يعبد،

يرمز إلى حب الانتصار على العجز، والقصور، والإغراء، والشهوة لاقتحام المجهول. دون أفراد مثل "إكاروس" ستكون الحياة أقل خطورة؛ لكنها ستظل قابعة في مكانها لا تتقدم أيضا، ولو استطعنا أن نجيد النقد الذاتي، ونفهم التناقض الذي تحتويه الأسطورة عن "إكاروس"، من البطولة والمأساة في الوقت ذاته؛ فسوف نتقن صناعة "المشترك الأوروبي".

•••

عودة إلى بروكسل، إلى ميدان "روند بوينت روبرت شومان"، أو ما يسمونه بالحي الأوروبي، حيث تقع "برلاي مونت" (Berlaymont)، الذي كان مبنى مليئا بمكاتب المفوضية الأوروبية إلى عهد قريب، ثم أعيد إلى السلطات البلجيكية، التي لم تستطع إتقان كيفية استغلاله. وحتى يحين ذلك، فإنه سيبقى هناك مثل الجمجمة الفارغة. هذا المبنى يبدو متهالكا لو شاهدناه عن قرب، لقد واصل الحياة منذ أن كانت "برلاي مونت" تمثل قلب أوروبا الغربية، ولأن الكثير من مكاتب المفوضية الأوروبية تقع في هذه الجهة، فإن الميدان دائما مليء بالمكتبات، ومحلات الهدايا التي تبيع مختلف البضائع التي تحمل شعار الاتحاد الأوروبي، من أكواب لشرب القهوة، والفانلات من طراز "تي شيرت" (T- Shirt)، والمطاعم التي تحمل مختلف الأسماء من إيطالية، ويونانية، وفرنسية، وكذلك الفنادق التي يتحلى مقطع اسمها الأول بالمقدمة "يورو" (Euro).

وفي حانة "كيتي أو شي" (Kitty O'Shea)، التي تقع بالقرب من "برلاي مونت" لا تجد من يتحدث الفرنسية ولو بكلمة واحدة، من العاملين. هناك يقدمون البيرة الأيرلندية ذات المذاق القوي، الذي به بعض المرارة، والمسماة بـ"بيرة ستوت" (Irish Stout and Bitter)، وفي أحد أركان المحل تليفزيون يعرض برامج لاعبي "البلياردو" وهم يلعبون "سنوكر"، على شاشة المحطة التليفزيونية البريطانية المشهورة "بي بي سي". في مساء ذلك الأربعاء، يمكن للمرء سماع ثلاث لغات في

المجال السمعي، ويتعرف عليها، إلا أن الهولندية ليست إحداهن. وفي المقابل لي رأيت أحد البلجيكيين من الأصول الفلمنكية، وهو يرشف كوب البيرة "ستوت" الأيرلندية، ومثل هذا المشهد نادر الحدوث في مثل هذا الحي، إلا أن الرجل كان من موظفي المفوضية الأوروبية. كان يقول: لقد مللت الحوار الدائم عن أشكال التعريف بالهوية؛ سواء المحلية أو الإقليمية، أو القومية، ولذلك فهو يشارك في الحوار عن العلاقة بين المتحدثين باللغتين الفلمنكية والهولندية، من الهولنديين. إنهم يتحدثون اللغة نفسها، ويأكلون أنواع الأطعمة نفسها، وغالبا ما يشتركون في العقيدة والدين نفسيهما، لأن الكثير من سكان هولندا من "الكاثوليك". وعندما سألته عما إذا كانت خطة الاندماج، التي يرسمها الاتحاد الأوروبي سوف تصلح لإزالة الحدود بين اللسانين الهولنديين، أجاب بأسلوب حاسم: لا مجال لذلك. واستطرد: "الفلمنكيون الهولنديون لا يحبون أحدا غير أنفسهم، ولو رغبوا في تعلم لغة أجنبية، فسيفضلون تعلم الإنجليزية، أو دعنا نقول: سوف يختارون لغة أخرى غير الفرنسية، وعندما يتحدثون عن هولندا، لا تلمس أي إشارة لحب ولا ود ولا تعاطف".

وسألت: "هل هناك من يرغب في الموت دفاعا عن أوروبا؟ كانت إجابة "الفلمنكي" الهولندي: لا، إنه إنسان مسالم، ويحترم النفس الإنسانية، سواء كانت نفسه هو، أو أنفس الأخرين. ومواطنو الاتحاد الأوروبي الآخرون، حتى هؤلاء الذين يتعطشون للدم أكثر من صديقي هذا، فإنهم غير متحمسين، ولا سعداء بمثل هذه الفكرة. أما بالنسبة لي، فإني أقول: أنا لا أستطيع إطلاق رصاصة واحدة؛ على أي إنسان من جحافل الأفارقة الجائعين، الذين يصارعون الموت في أثناء عبور "مضيق جبلارتار" (Gibraltar) – أو "مضيق جبل طارق" كما يسميه العرب، الآن، أو في أي لحظة في المستقبل. وأهمس أيضا: أنا لست راغبا في الموت من أجل إسكندنافيا، أو النرويج، أو حتى أوسلو، فهناك الكثير من الأشياء المهمة التي يمكن أن يضحي الإنسان بنفسه من أجلها، أهم بكثير من الموت دفاعا عن المكان.

الجـزء الثالث

المقال الخامس

"عقدة جمعة": في الاقتصاد السياسي، عندما تلتقي الثقافات

١

"جمعة"(*) (Friday) هو خادم "روبنسون كروز" (Crusoe Robinson) النشيط، المتطلع لأن يتعلم منه. كانت واجباته تقتصر على جمع الحطب، وقلع النباتات المتسلقة، وعمل الشاي، تبعًا لأوامر سيده "روبنسون". وتبعًا للرواية فإن "جمعة"، يمثل الإنسان البسيط المتخلف. لكنه استطاع أن يطور، بالتدريج سلوكًا متحضرًا، تعلمه من سيده بالطبع. سيده، الذي بلغ درجة من العلم، والمهارة العملية، والحس المنطقي، مستوى عاليًا؛ لم، ولن يبلغه "جمعة". سلوك "جمعة" المتحضر هذا، مقبول عند سيده؛ لأنه يذكره بسلوكه هو. أما، أين ولد "جمعة"، ومن أي ثقافة جاء؟ سؤال لم يجب عنه الكاتب "دانيال دفوس" (Daniel Defoes) في روايته. إلا أن "جمعة" هذا، فتى نصف عار، أو نصف كاس، يقف مشدوهًا، عندما يرى العديد من المعجزات، التي يصنعها سيده المعلم. والرواية تعكس غرور الحضارة الإنجليزية.

بالنسبة لـــ"روبنسون"، فإن "جمعة" يمثل "مادة خامًا إنسانية"(**)، يمكن تشكيلها، ويمكن ضبطها، وترويضها؛ بحيث تتعلم الأطر والقواعد، في ثقافة "روبنسون" المتحضرة، والتي يمكن بالتدريج أن تكتسب بعض الصفات، والأساليب، التي يتصف بها السيد "روبنسون".

(*) جمعة، أو Friday: هي شخصية روائية أبدعها الكاتب الروائي الإنجليزي "دانيل دفوس" (Daniel Defoes) في روايته الشهيرة "روبنسون كروز". فيها سمى "كروز" خادمه المخلص الأمين المطيع "جمعة". واختار اسم جمعة لأنه قابله أول مرة يوم الجمعة– المترجم.

(**) "المادة الخام الإنسانية"، أو بالإنجليزية: Blank slate، تعني المخ الإنساني عند الولادة، وهو لا يحوي أي علم، أو فكر. وهي مقابلة للفظة "الأمي" في اللغة العربية. والأمي في اللغة العربية تعني، الذي يشبه الوليد، يخرج من بطن أمه، لا يعلم شيئا. وأصل الكلمة مأخوذ من اللاتينية Tabula Rasa – المترجم.

"روبنسون" هو الذي يعلم "جمعة" صناعة الأسلحة المتطورة المتفوقة. ومن هذا الطريق؛ فإن "روبنسون" يسيطر تمامًا على "جمعة"، وله السيادة الرمزية. وبعد وقت ليس بالطويل، فسوف يبدأ "جمعة" بالشعور بالخجل، من لغته، وأدواته في الزراعة، وعقيدته التي ورثها، وحتى ثيابه المعتادة. أما من ناحية "روبنسون"، فهو لا ينظر إلى "ثقافة جمعة" إلا بدونية، أو على الأقل بلامبالاة. وتدريجيًا؛ يبدأ "جمعة" في الإيمان بأنه لا يستطيع الحياة، إلا من خلال "روبنسون". بسرعة يكتشف أن كل شيء حوله تقريبًا، هو من صناعة "روبنسون"، البيت الذي يأويه، والأدوات التي يستعملها، والطعام الذي يأكله.

الخادم "جمعة" خفيض الجناح، مسلوب القدرة، أو ما يسمى بـ"العبد الهيجلي"(*) (Hegelian Salve)، الذي لا تساوره أحلام، بأن يرتقي بقدراته، لتصل إلى مستوى قدرات سيده، وعلى أفضل حال فإن له أن يأمن على حياته، في كونه قانعًا، بأن يكون عبدًا، يبدي إعجابه بتفوق سيده.

"عقدة جمعة"، أو "عقدة النقص"(**) (Inferiorty Complex) والنظرة الدونية إلى النفس، هي الحالة النفسية التي تكون عليها الأمم، التي رزخت تحت الاحتلال، وضغوط الرجل الأبيض ولحضارته التبشيرية (civilisatrices missions) لسنوات طويلة. إنها من أهم الآثار الثقافية، التي تصاب بها الأمة، التي رزخت تحت نير

(*) وضع الفيلسوف الألماني المعروف "هيجل" (Hegel) مواصفات للإنسان المسلوب الإرادة، الذليل الخاضع. و"هيجل" هو: Georg Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) الفيلسوف الألماني، له تأثير عميق على الفكر الأوروبي، وأهم ما عرف به العملية ذات الدرجات الثلاث في المنطق الجدلي، والتي قدمها في كتاب "علم المنطق" (١٨١٦). ومن أعماله الكبيرة أيضًا، "الدراسة الفلسفية لتطور العقل" (The Phenomenology of Mind -1807). وفيها يصف تطور فكر الإنسان، من الشعور والإدراك خلال الإدراك الذاتي، البرهان، والروح. أما الدين فهو الحقيقة المطلقة– المترجم.

(**) يعرف علماء النفس "عقدة النقص"– هناك فرق بينها، وبين الشعور بالنقص– على أنها استعداد لا شعوري مكبوت، ينشأ من تعرض الإنسان لمواقف كثيرة متكررة، تشعره بالعجز والفشل وقلة الحيلة. أما الشعور بالنقص، فيصيب المرء عندما يدرك أن به نقصا؛ جسميا، أو عقليا، أو اجتماعيا، أو اقتصاديا، سواء كان هذا النقص حقيقيا، أو متوهما. والشعور بالنقص حالة نفسية، يدركها المرء إدراكا مباشرًا، ويعترف بها– المترجم.

الاستعمار. وهي في نفس الوقت، أحد وجوه الهيمنة الأوروبية، التي نادرًا ما تناقش من الناحية النظرية. إن من آثارها خلق شعور باحتقار النفس، والإعجاب غير المنطقي بعالم المستعمر: لغته، وملابسه، وطعامه، وأسلوب حياته، وعقيدته الدينية، وكل الأساليب التكنولوجية التي يتبعها. هذه العقدة غالبًا ما تؤدي إلى الإذعان والاستسلام، بجانب الجمود وعدم المبالاة. بالنسبة لـــ"جمعة" يشعر أنه تائه بدون "روبنسون"، وفاقد الحيلة، لا يستطيع الفعل.

كثير من قيادات الحركات الشعبية التحررية، في البلاد الواقعة تحت الاستعمار، يعملون جاهدين على تحرير المواطنين من هذه النظرة الدونية إلى النفس، ويحاولون تشجيع الموروث، والمحلي، وما يفترض أنه أصيل، من خلال بيان فضله على المستورد.

وبين المثقفين أيضًا من يذهب إلى القول بتحرير العقل (Decolonising the mind)- على حسب تعبير البروفيسور "نجوجي واثيونجو" (Ngugi Wa Thiongo)- من الاستعمار الثقافي، وليس منهم من يرغب في قبول ما يمثله "روبنسون"، أو تبني أفكار "نجوجي"(*) الماركسية، ويبدي رغبة في اعتناقها، واتخاذها أيديولوجية لتطبيقها في أفريقيا. بينما نرى مثقفين آخرين يعتبرون الماركسية أحد أكبر أدوات "روبنسون" تأثيرًا؛ لإنتاج "الإدمان الثقافي" (Culture addiction)، والحفاظ عليه. كتب "كلود ليفي- ستراوس" (– Claude Le'vi Strauss): "إن النظرية الماركسية الشيوعية العقيمة، هي إحدى سخريات التاريخ، التي تولد التغريب(**)". هنا يجب أن نجري محاولة للتدقيق في المفاهيم؛ فلو استطاع الكينيون، على سبيل المثال، أن ينشروا الإيديولوجية الماركسية في إفريقيا،

(*) "نجوجي"، روائي من أصل كيني، وأستاذ في جامعة كاليفورنيا الأمريكية. تركزت أغلب أعماله على وصف فترة ما قبل الاستعمار في إفريقيا- المترجم.

(**) الميل لاتباع الأنظمة الغربية، في كل شيء، بما فيها الثقافة والعادات والتقاليد- المترجم.

فهم بذلك لا يقعون في إطار "عقدة جمعة"؛ لأنها تعتبر حالة نفسية مرضية، وليست واقعًا ماديًا ناتجًا من نقل الثقافة من الشمال إلى الجنوب. فالإنسان المصاب بـــ"عقدة جمعة"، هو الذي يصل إلى حالة "الاعتماد الكلي"– أو "الإدمان"، على طرق تفكير، ليست نابعة من ذاته، ومن داخله. إن أعراض هذه العقدة هي احتقار الذات، والخجل من النفس، وليس اقتباس فكر أو مهارة "روبنسون"، ورجال أمته.

"موروبشيوس" الجزيرة الصغيرة، الدولة، شديدة التعقيد إثنيا، وبها ديمقراطية متجذرة، لكنها مثال للمجتمع الذي حل به الاستعمار سابقًا. لقد حصلت "موريشيوس" على استقلالها الرسمي، منذ أكثر من ثلاثة عقود، لكنها بعيدة كل البعد من التحرر من الاستعمار. هناك يقابل المرء صباح مساء، كلاً من "عقدة جمعة"، وتعدد النبضات القادمة من الخارج.

مثال على انتشار "عقدة جمعة"، هو علاقة الموريشيوسيين باللغة. معظم السكان يتحدثون لغة كريولية ذات أساس فرنسي، وهو لسان الأم. ولكن، اللغة التي تحظى بالوجاهة الاجتماعية، هي الفرنسية والإنجليزية. ولقد حدث أن الكنيسة الكاثوليكية، والمثاليين من المثقفين الراديكاليين؛ حاولا تعليم الناس القراءة والكتابة بالكريولية في محاولة لمحو أميتهم، لكن الجمهور رفض ذلك، على الرغم من عدم وجود من يستطيع التعبير عن نفسه بأسلوب جيد بالفرنسية بينهم، وصمموا على أن يتعلموا القراءة بتلك اللغة. لقد اعتبروا أن اللسان الذي ورثوه من أمهاتهم لا يناسب مثل هذا الغرض. والكثير من الموريشيوسيين يترسب في أعماقهم أن "الكريولية" لغة ليست محترمة. إنها لهجة محلية فحسب، وليس لها قواعد للكتابة **(Patois)**، ويقولون إنه لا يمكن الكتابة بها. ومثال آخر على انتشار عقدة الدونية هو؛ لا أحد من الموريشيسيين يحمل لقبًا، أو "اسم عائلة" إفريقيًا، وتلك هي "علامة روبنسون". إنهم يعتقدون أن هذه الأسماء الأفريقية، تدل على أنهم أحفاد عبيد. وهذه الظاهرة موجودة، سواء كانت في البحر الهندي الكاريبي أو الولايات المتحدة الأمريكية.

وعندما كنت أقوم بالبحث الميداني في "ترينيداد"، قابلت باحث اللغة المعروف "جوردون روهلهر" (Gordon Rohlehr)، وهو ذو الأصول الغينية (Guyana)، سألته عما إذا كان لقب "روهلهر" شائعًا في غينيا؟ كانت الإجابة أن هز كتفيه تعبيرًا عن عدم الاكتراث قائلاً: لا يوجد عائلات في غينيا تحمل هذا اللقب، ثم أضاف: "ربما كان هناك أحد الألمان، الذي امتلك بعض العبيد، وكان يلقب "روهلهر"، ومن بعده حملت الأبناء والأحفاد اللقب.

في بداية الثمانينيات نجح الحزب (MMM) المتطرف، في الانتخابات الحكومية، في موريشوس. وبناء على ذلك شكّل حكومة، كانت قومية، أرادت أن تقضي على "عقدة جمعة" بقرار حكومي. قررت حينئذ، أن تذاع الأخبار في التليفزيون بالكريولية. وعندها ثار الناس، وطالبوا أن يراجع القرار، وتعاد إذاعة الأخبار بالفرنسية مرة أخرى، على الرغم من أن الكثيرين منهم لا يجيدونها، إلا أنها ما فتأت تسيطر عليهم. هل يعود ذلك إلى أن الفرنسية هي لغة روبنسون؟ وأن الموريشيوسيين واقعون في غرام "عالم روبنسون" بلا أمل؟ ليس بالضرورة. أحد التفاسير الحديثة التي توضح الإجابة، وهو تفسير يقول به الكثير من الموريشيوسيين أنفسهم، هو: إن اللغة الفرنسية ذات فائدة أكثر من الكريولية. وذلك لأنها عالمية، وإن كثيرًا من الكتب الأدبية، والعلمية، مكتوبة بها. وإنها إحدى اللغات الأساسية، في منظمة الوحدة الإفريقية (Organisation of African unity). وفي دفاعه عن الفرنسية، كتب الصحفي المحترم "سيدني سيلفون" (Sydney Selvon) يتساءل: أيجب علينا أن ننكر على الرئيس (السابق) "كاسترو"(Castro)، والزعيم "جيفارا" (Guevara) استخدام لغة المستعمر؟.

أما من ناحية انتشار موسيقى "البوب" الحديثة، وهي التي تعتبر "أجنبية"، و"غربية"، مثل اللغة الفرنسية، فقد كان له تأثير مغاير في الهوية المحلية. هذه الموسيقى- من "جاك برل" (Jacques Brel) إلى "مادونا" (Madonna)- قد استعملت وعزفت في مناسبات وطنية، ويعتبرها الموريشيسيون أحد مكونات عالمهم الثقافي.

ومن حين لأخر، يعيدون تصميم بعض موسيقى "البوب" العالمية، بحيث تتناسب مع بعض المحليات، التي يتميزون بها، وتثير عندهم الفخر والاعتزاز بهويتهم. مثال على هذا، هو ما صارت إليه صورة الموسيقى العالمية "ريجا" (Reggae)، التي اعتبروها "موريشيوسية". ففي أواخر الثمانينيات من القرن الماضي؛ بدأ بعض الفنانين المحليين في عزف موسيقى "السيجا" (Se'ga). هذه الموسيقى الأخيرة، يمكن أن تختلط على الأذن بموسيقى "الريجا" (Reggae) الجاميكية، لو استبعدنا الكلمات. وهي تعبر عن مشاكل الطبقة العاملة الموريشيوسية، وأحلامهم، وأشواقهم. وهي التي أدت إلى فخرهم، وشعورهم بالذات. والبعض منهم يسمي هذه الموسيقى "موسيقانا" (nu lamizik). إنهم في هذه الحالة، ليسوا في حاجة إلى "روبنسون"، لا يحتاجون إلا إلى إعجاب الجمهور بالموسيقى.

تحرير النفوس من "عقدة جمعة"؛ يتطلب من الشعوب، التي كانت مستعمرة؛ أن يؤمنوا بقدراتهم الذاتية. وعليهم خلق نقاط توازن، بين ثقافتهم المحلية، وثقافة المستعمر السابق، وكذلك بين ثقافتهم، والثقافة العالمية. وهذا التوجه اللازم بعد التحرر من الاستعمار؛ يعتبر أكثر أهمية، من تأميم مزارع السكر. وهو عمل يتطلب زمناً أطول لإنجازه.

٢

في صالة انتظار مكتب الرئيس الغيني الأسبق "كووم نكروما" (Kwame Nkrumah)، وهو الذي يعتبر الأب الروحي والمؤسس لإفريقيا المتحدة، يمكن للمرء مشاهدة لوحة زيتية، بألوانها الزاعقة، التي رسمها أحد الرسامين الغانيين. في اللوحة صور، لثلاث قوى قبيحة؛ على أفريقيا الجديدة، واجب مقاومتها، والقضاء عليها: القوة الأولى تمثل "الرأسمالية"، فيها رجل يحمل حافظة نقود، وتعبر عن

الاستغلال، والاستحواذ على الثروات. ثم يأتي "المبشر"، وهو يحمل الكتاب المقدس بين يديه، وهذا يمثل غسيل الأدمغة. وأخيرًا، يأتي دور "الأنثربولوجي"، الذي يحمل نسخة من كتاب "مير فورتس" (Meyer Fortes)، و"إيفان- بريتشارد" (Evans Pritchard)، وله العنوان: "النظام السياسي الأفريقي" (African Political Systems)، وهذا يمثل المنظر للنظام الرأسمالي، والمدافع عنه.

لقد تم وصف العالم وتشكيله، إلى درجة شاملة ومعمقة؛ على أيدي كتاب أروبيين، وأمريكيين شماليين. وكل ما كتبوه يمثل وجهة نظرهم، ولذا يجب فحصه، وتمحيصه، والسبر في أعماقه. وفي بعض الأحيان يجب استبدال بالكلمات، والجمل؛ أخرى جديدة. وفي أحيان أخرى يجب تغيير بعض التفسيرات، وأحيانًا يجب أن تلقى في مزابل التاريخ. وذلك حتى يمكن وصف العالم من كتاب من أماكن أخرى، ويسمع لوجهات النظر المختلفة. هذا العمل الذي يعتبر تحريرًا فكريًا وعقلانيًا، ومشروعًا اشترك فيه العديد من الكتاب، والمفكرين والمثقفين، على امتداد القرن العشرين. وأهم من عرفوا في هذا المجال، وأفضلهم، هو "فرانتس فانون" (Frantz Fanon). في كتابه "Peau Noire, masques blancs" وترجمته: "بشرة سوداء، وقناع أبيض"، الذي نشر عام ١٩٥٢م. كذلك كتابه "المدانون في العالم" (damne's de La terre Les)، الذي صدر عام ١٩٦١م. هذان الكتابان قدما تحليلاً نفسيًا لعقدة النقص، ونظرة السود الدونية للنفس، وهما كتابان ما زالا جديرين بالقراءة، على الرغم من مرور زمن ليس بالقليل على إصدارهما. وعلى ما يبدو فإن تحليل "فانون" (Fanon)، ما زال صالحًا، ولم يعف عليه الزمن. فما زال يوضح كم التناقضات الناشئة، في فترة ما بعد الاستعمار، وقدرة مشروع تحرير العقل منها.

في كتابه الأول- على وجه الخصوص - يقدم "فانون" تحليلاً لـ"عقدة جمعة"، وتميزت فكرته بالتطور والمرارة. كتب: "من حين لآخر، تصيبني الدهشة

من مديري المدارس، والعاملين في المؤسسات الحكومية في المستعمرات، مما إذا كانوا يفهمون وظيفتهم التي يقومون بها في المدارس، إنهم، وعلى مدى عقدين من الزمان؛ يجاهدون لوضع برامج تسعى لتحويل الرجل الأسود، إلى رجل أبيض ثقافيا، وفي النهاية ييأسون، ويقولون للرجل الأسود: إنك ببساطة لديك "عقدة التبعية" للرجل الأبيض.

ولد "فانون" وترعرع، في جزيرة "مارتينك" (Martinique)، وهي جزيرة تقع في البحر الكاريبي استعمرها الفرنسيون لأهميتها في زراعة وإنتاج السكر. ولكنه قضى حياته الناضجة في "الجزائر" (Algeria)، ولذا فقد كان يرى أن العلاقة بين السود والبيض، هي علاقة غير متوازنة في القوة، ويرى ذلك في جميع مناحي الحياة. هذا الاختلال، في موازين القوى، يشمل العلاقة بين المرأة السوداء، والرجل الأبيض، وبين المرأة البيضاء والرجل الأسود. المرأة السوداء، تظن أنها أصبحت ذات قيمة إنسانية؛ عندما يقبلها الرجل الأبيض لتشاركه الفراش. والرجل الأسود يثأر من الرجل الأبيض، عن طريق مشاركة المرأة البيضاء الفراش. كلاهما نشأ في، وتشبع بمحيط مجتمعي، كل ما فيه من صناعة الرجل الأبيض. يقول "فانون": "من الواضح أن العنصرية هي التي صنعت "الزنجي"، وأن عنصرية الرجل الأبيض هي التي ما زالت مسيطرة على السود في العالم. بالنسبة لي، فقد كنت أتمنى أن أرى "مجتمعًا مستقبليًا"، حيث لا يوجد يهودي، أو يوناني، يمارس الرجل الأبيض فيهم "التمييز العنصري".

وفي كتابه "المدانون في العالم" يتصور أن مثل هذا المجتمع يمكن إيجاده، عن طريق القوة والعنف. هذا الكتاب، هو الذي كتب مقدمته الفيلسوف الفرنسي المعروف "سارتر" (Jean – Paul Sartre)، واعترف فيه أن آثار الجروح، التي تخلفت بعد استعمال العنف، ربما لا يمكن إزالتها إلا باستخدام العلاج العنيف.

عندما كتب "فانون" كتابه "بشرة سوداء وقناع أبيض"، كان حينها شابًا ثائرًا، وكانت أماكن كثيرة من العالم ترزح تحت استعمار الدولة الأوروبية. وحينها لم تكن حركات التحرر، والمطالبة بالحقوق المدنية في الولايات المتحدة الأمريكية، قادرة على رفع رأسها، وإعلاء صوتها بعد. وكان الهنود، في كل من أمريكا الشمالية والجنوبية، صامتين خاضعين مستسلمين، ولم يتبق من احترامهم للذات إلا القليل، المبعثر هنا وهناك. وكانت أدبيات ما بعد الاستعمار، التي كتبت- من الشاعر الروائي والأستاذ الجامعي النيجري "شينو أشبيه" (Chinua Achebe)، إلى الروائية الأمريكية "توني موريسون" (Toni Morrison)- لم يكن لها تأثير في ذلك الحين، وهي التي بينت الشعور الداخلي لكثير من الجماعات الذين كممت أفواههم. وكل حياة "فانون" في الحقيقة مرت، ولم يتحقق نصر كبير لهؤلاء الذين أبوا تعريف ووصف الرجل الأبيض لهم، فقد مات "فانون" وعمره ست وثلاثون سنة من مرض "اللوكيميا"، وذلك قبل وقت قصير من انتصار الثائرين في حرب الجزائر.

أعمال "فانون" الأدبية قرئت من عديدين بعده، وخاصة من أدباء ينتمون إلى البلاد الحارة، ولكن لم يكن لهم تأثير سياسي كبير. لقد أعجب "سلمان رشدي"(*) (Salman Rushdie) بعزيمة "فانون"، والإيحاءات التي شملها تحليله للعنصرية غير المرئية في إنجلترا. وكذا، فعل "إدوارد سعيد"(**) (Edward Said). وظهر النقد لسلوك الرجل الأبيض جليًا، في كتابات الكاتبة الهندية "جياتري سبيفاك"(***) (Gayatri Spivak)، وكتابات ونقد الكثير من المثقفين والمفكرين، الذين أعجبوا بتحليلاته العميقة في الحديث عن: "جدلية العبد والسيد" – Master)

(*) سلمان رشدي: روائي إنجليزي، من أصل هندي. ولد في بومباي ١٩٤٧- المترجم.

(**) إدوارد سعيد: كاتب وأستاذ جامعي أمريكي من أصل فلسطيني. من أهم ما كتبه: "الاستشراق"، و"الثقافة الإمبريالية"، توفي عام ٢٠٠٣- المترجم.

(***) جياتري سبيفاك: أستاذة جامعية، وناقدة أدبية، ومنظرة ماركسية، ولدت في كالكتا الهندية عام ١٩٤٢. انتقدت الاستعمار بعنف في كل كتاباتها- المترجم.

(Slave Dialectics، وكيف يشكل الاستعمار المُستعَمرين، ويحولهم إلى خاسرين، يحملون "عقدة النقص"، أو النظرة الدونية لأنفسهم. ولو أن شيئًا قد غير أحاسيس "غير البيض"، ضد الرجل الأبيض؛ فإنه- بالتأكيد- ليست الكتابات، إنما هي الحروب. أقرب مثال واضح على ذلك هي حرب الخليج الثانية. وذلك عندما دمر الغرب، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية؛ أجزاء كبيرة من بغداد عقابًا لصدام حسين، الذي اعتبروه "غير مطيع"(*).

وخلافًا لما توقع الكثيرون، ومن بينهم "فانون" نفسه، فإن "الرأسمالية العالمية" قد ساهمت، في تقصير المسافة بين السود والبيض، بشكل عام. ذلك لأن الصفوة من رجال الأعمال رأوا أن أكبر إمكانيات فرص التربح هي في آسيا، وأن هناك أسبابًا شديدة الأهمية تفرض، رفض فكرة وجوب سيطرة الرجل الأبيض. وبذا، فإن العنصرية، والأحكام المقولبة المُسبقة، لم تعد ذا فائدة مادية (ودون أي مطالبة، فإن طبقة رجال الأعمال في جنوب إفريقيا- الأغلب منهم- عارضوا "نظام الفصل العنصري" (Apartheid System)، فقد تبين لهم أنه نظام لا يعود بالنفع المادي لهم.

أسلوب "فانون" في التفكير والتحليل، ربما يكون قد ساهم- على عكس ما أراد- في توسيع الفجوة، بين ذوي اللون الفاتح، والآخرين من ذوي اللون الغامق، من البشر. لقد كان تركيزه الشديد على "المتناقضات" بينهم، وإشارته إلى العملية الجراحية (درس "فانون" الطب)، التي تتم في التواصل بين البيض والسود؛ والتي صورت السود، وكأنهم مخلوقات ذات قيمة أقل، وبالتالي فإنه ساهم في إثبات أن هناك تمايزًا. وربما تكون كتبه نافعة من الناحية العلاجية، ويمكن استخدامها في

(*) وفي أبريل من عام ٢٠٠٦، اجتاحت الولايات المتحدة الأمريكية، بالتحالف مع بعض البلاد الأوروبية- خاصة بريطانيا- العراق. وما زالت العراق تعاني من الاحتلال، وذلك لنفس الغرض الذي لم يتحقق- على حد تصور حزب المحافظين الأمريكي، بقيادة الرئيس السابق جورج بوش الابن- المترجم.

تسمية المشاكل؛ إلا أنها تحتاج إلى التطوير والتقدم بها، لكن ذلك لم يحدث من الذين اعتنقوها، وبدلا من ذلك فقد قدست من مثقفي العالم الثالث، واعتبروها "كتبا مقدسة"، تقدم نبوءات مقنعة.

وبذلك يواجه سكان البلاد الحارة خطر الوقوع في الشعور بـ"الدونية"، والشعور بأنهم أقل قيمة إنسانية، مهما فعلوا. حتى إذا ما فعلوا شيئا، يحتمل أن يفهم على أنه من الثقافة الأوروبية؛ فسوف يحسون بالتبعية. وفي المقابل، لو أداروا ظهورهم لكل حديث وعصري، فقط لأنه أوروبي، وفي محاولة الظهور بمظهر الأصالة؛ فإن تأثيرهم السياسي سوف يكون ضعيفا، ويعجزون عن اتخاذ القرار في النهاية.

هذه المعضلة من النوع الكلاسيكي، حيث إنه "ليس هناك ربح" (Catch22-type or, No – Win Situation)، ومعظم الأقليات تواجه، وتعاني، من هذه المشكلة بشكل أو بآخر. والماهرون منهم من يستطيع الحصول على "الكعكة وطبقها"، بمعنى المزاوجة بين "الأصالة، والمعاصرة"، تماما كما حدث في حالة الأقلية النرويجية من "قبائل السامي"(*) (Sami)، الذين حصلوا في العقود الثلاثة الماضية، على صفوة ذات تعليم عالٍ جامعي، وبيوت جاهزة جيدة الطراز، ومزالق على الجليد، و"كابل تي. في" (T.V. Cable) به الكثير من المحطات الفضائية التليفزيونية، وفريق موسيقى خاص بهم. كل ذلك وغيره، علاوة على التمثيل السياسي، وفي نفس الوقت حافظوا على اعتدادهم بالذات، والفخر بالثقافة المحلية، وساهموا في بناء شبكة واسعة عالمية لترويج منتجاتهم المحلية.

هذه المعضلة اتخذت تعبيرات مثيرة للانتباه في حوار دار منذ عدة سنوات في إفريقيا. دار الحوار عن اللغة، التي يجب أن يكتب بها الأدباء والكتاب الإفريقيون. والمعروف، أن معظم الكتاب الإفريقيين يكتبون باللغة التي ورثوها من المستعمر:

(*) "السامي"، قبائل تمثل أقلية في كل من النرويج، والسويد، وفنلندا، وروسيا. يعيشون في شمال هذه البلاد، ونشاطهم الأساسي رعي الوعول، وصيد الأسماك، واستثمار الغابات الطبيعية– المترجم.

الفرنسية، أو الإنجليزية، أو البرتغالية، أو الأفريكانية. وفي بدايات الثمانينيات اقترح الكاتب الكيني "نجوجي وا ثيونجو" (Ngugi Wa Thiongo) على زملائه من الكتاب، الكتابة باللغة الإثنية، التي تنبع من الثقافة الأفريقية، والملاحظ أنه ظل يحمل اسمه المسيحي "جون نجوجي" (John Ngugi)، الذي كان يحمله أيام الاستعمار، وكتب أوائل كتبه بالإنجليزية. ولكنه، وبعد تيقظ، وعملية وعي سياسية، غير اسمه إلى "ابن ثيونجو" (Son of Thiongo)، وبدأ الكتابة بلسان أمه، وهي اللغة المسماة الـ"جيكويو" (Gikuyu) [الـ"جيكويو"، هي إحدى لغات قبائل البانتو (Bantu) في كونجو النيجر. وهي اللغة المستخدمة محليًا في كينيا- المترجم]، وأشار إلى "أكسندنافيا"، عندما أراد أن يضرب مثلاً على أنه ليس من الضروري أن يعزل المرء ثقافيًا، لو أنه كتب بلغة محلية صغيرة. وفي سبيل هذا الإيمان لم يعد يكتب بالإنجليزية، ولو سطرًا واحدًا، ومن هذه الناحية تشابه مع "كوما نيكروما" (Kwame Nkrumah) من قبله، الذي اقترح أن تكون اللغة "السواحيلي" (Swahili)، [السواحيلي، هي لغة من لغات قبائل "البنتولان" (Bantu lan)، ويتحدث بها كثير من البلاد الأفريقية الواقعة على الشريط الساحلي للمحيط الهندي، من كينيا وحتى شمال موزمبيق- المترجم] هي اللغة المشتركة لأفريقيا السوداء.

عدد من الكتاب الأفريقيين تفاعلوا سلبيًا مع اقتراح "نجوجي". مثلاً، الكاتبة "وولا سوينيكا" (Wole soyinka)، التي حصلت على جائزة نوبل في الأدب مؤخرًا، صممت على أن اللغة الإنجليزية تعتبر إحدى اللغات الإفريقية. وبالتالي، فإن هذا الموضوع منته بالنسبة لها. وفي حوار سابق عن سؤال: ما هو "الأفريقي الأصيل" (Authentic African)؟ امتدح ومجد الكثير من المثقفين، ما أسموه "نجري تيود" (negritude)، وهو تعبير اصطلح عليه، يطلق على كل ما هو زنجي. وعندهم يميز التجارب والأفكار، والثقافة الأفريقية السوداء. وكان من

المؤمنين بذلك "ليوبولد سيدار سنجور (Leopold Seder Senghor)"(*) الشاعر والمثقف السنغالي. وكذلك الكاتب والأديب "أيمة سيزار"(**) (Aime Cesaire). وحسب ما كتب "سنجور" (Senghor) ذات مرة: إذا كانت اليونان هي نبع المنطق والفلسفة؛ فإن أفريقيا هي منبع "الحس والمشاعر". وعلى العكس من هؤلاء؛ فإن الكاتب "وول سوينكا" النيجيري(***) لم يقابل هذا المصطلح بالترحاب، واعتبره تعبيرًا مجازيًا رومانسيًا، يشبه السترة التي يُلبِسُونها المرضى النفسيين، أو المساجين، فتقيدهم (Strait Jacket)، وتساءل بأسلوب بلاغي: وهل يحس النمر بالحاجة، إلى الحديث عن نمريته (Tiger tude)، أو خصائصه النمرية المتفوقة ذات التميز؟.

وتعالت بعض البراهين التي تضحد نظرية "نجوجي"، ووجه بعض النقد إليها؛ وقيل إن "نجوجي"، الكاتب والمفكر الجنوب أفريقي، نشأ وترعرع، في بيئة حيث كانت اللغة الإنجليزية، مفروضة على تلاميذ المدارس، لكن كثيرًا من الكتاب الآخرين، نشأوا في مجتمع الفصل العنصري، الذي شجع الإفريقيين على استخدام اللغة الأصلية. وكان من نتائج هذه السياسة أن أجيالاً كاملة، من الأفريقيين الجنوبيين، لم تكن معرفتهم بالإنجليزية كافية للعمل السياسي، سواء على المستوى القومي أو العالمي، الذي يحتاج مستوى متقدمًا من إجادة الإنجليزية. ولهذا قيل إن استخدام اللغات القومية في الآداب، أيضًا، سوف يعزلهم ويضعف من حجتهم في المناظرات والحوارات مع الآخرين عالميًا. وبالتالي اضطروا إلى: إما تقليد

(*) ليوبولد سيدار سنجور: شاعر، ومنظر ثقافي، وسياسي، سنغالي. مات ٢٠٠١، ويعتبره الكثيرون واحدا من أهم المثقفين الإفريقيين في القرن العشرين- المترجم.

(**) أيمة سيزار، كاتب وشاعر وأديب وسياسي، فرانكفوني. ولد عام ١٩١٣ في الجزيرة المستعمرة الفرنسية "مارتينك"، الواقعة في البحر الكاريبي مات ٢٠٠٨- المترجم.

(***) "وول سوينكا"، كاتب وشاعر نيجيري، ولد ١٩٣٤. حاز على جائزة نوبل للأداب عام ١٩٨٦، وسُمي سفير النوايا الحسنة، لتطوير الثقافة الإفريقية وحقوق الإنسان، وحرية التعبير، من اليونسكو عام ١٩٩٤- المترجم.

"روبنسون"- وهذا ما اتبعه نجوجي أيضًا، أو أنهم يجيبون كما أجاب "سونيكا"، إن الإنجليزية لغة إفريقية.

فكر "نجوجي"، يمثل اتجاه فكر الكثيرين من المثقفين الأفارقة. وهو نابع مباشرة من أفكار "فانون"، الذي كان ناقدًا لهيمنة الغرب، والاستعمار الحديث. وهنا في "أسكندنافيا" فإن "نجوجي" مشهور برواياته، التي ترجمت إلى اللغات الإسكندنافية، خاصة النرويجية، منذ عدة سنوات. وتحوي روايته "الشيطان على الصليب" هجومًا عنيفًا على الصفوة الكينية التي تفتقد حس الاهتمام بهموم الشعب الكيني، وعلى الروائيين الأفارقة، الذين حاولوا نسج فن روائي أفريقي، بأسلوب أدبي، طور أساسًا من الفن الروائي الأوروبي.

وتعتبر رواية "الشيطان على الصليب"، مكتوب قيم في قائمة كتابات "نجوجي"، وقد كانت أول رواية له يكتبها بلغة أمه "الجيكويو"[*] (Gikuyu)، وهي تحوي أيضًا الأساليب التي اتبعها في التعبير أثناء معاركه السياسية. وهي أيضًا تمثل أول كتاب له، يكتبه تحت اسمه الحالي "نجوجي واثينجو".

معظم البشر يزدادون اعتدالاً، ويطورون أنفسهم، ليونة وتسامحًا، بمرور سنوات عمرهم التي تنقضي. ولكن بالنسبة، لـ"نجوجي"، فالعكس هو الذي حدث. خلال السبعينيات من القرن الماضي، تطور من إنسان مؤمن بالقومية الإنسانية، إلى أن أصبح حصانًا غاضبًا مدججًا بالقلم، ينثر كلماته كالقذائف الصاروخية، التي تزداد قوتها وحدتها، عامًا بعد عام.

كروائي، وكاتب في الأدب، قارب "نجوجي" المُسَيَّس، حدود الانسلاخ التام، من البناء الأدبي الأوروبي. وكمنظر، ومحاور، وكاتب مقالات، فقد اكتسب "نجوجي" قيمة، تزايدت في كل من أوروبا، وشمال أفريقيا. كتبه الثلاثة التي كتبها

(*) "الجي كويو"، هي لغة قبائل "البانتو"، في كل من "كونجو النيجر"، و"كينيا"- المترجم.

في الثمانينيات من القرن الماضي، تعتبر من القراءات المهمة. وهي: "السجين" (Detained)، و(Barrel of a Pen) الذي صدر ١٩٨٣م، وكتاب "تحرير العقل من الاستعمار الثقافي" (Mind Decolonizing the). وشملت هذه الكتب، ما بين نقد تحليلي لصورة أفريقيا، التي رسمتها "كارن بليكسن"(*) (Karen Blixen) وهجوم شرس، على سياسة الرقابة على الفن والأدب في كينيا، وعلى ما أسماه العنصرية العلمية. بعد ذلك أصدر "نجوجي"، مجموعة كتابات قصيرة، أسماها "تحريك مركز الثقل" (the centre Moving) التي حوت المطالبة بالحرية الثقافية، وكانت درجة حرارة كلماتها وتعبيراتها- ربما - أعلى من كتبه التي سبقتها، وكانت اهتماماته الرئيسية فيها؛ فضح الأوجه الثقافية في الاستعمار الحديث، التي تشمل المؤسسات التعليمية، وقطاع الثقافة الجماهيرية، وقطاع الثقافة السياسية في البلاد الإفريقية. في إحدى كتاباته يقول: "إن الاستعمار الحديث، يسعى دائبا لخلق نظرة دونية للنفس، عند الشعوب المستعمرة، حتى تُقيدها وتُعجزها عن الفعل، وذلك في كل أنحاء القارة الإفريقية".

هذه النظرة الدونية إلى النفس، هي التي تجعل الحكومات الأفريقية، تتبع وتردد ما يمليه البنك الدولي، دون مراجعة، أو نقد، أو تغيير. وتجعلها تقلد أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، تقليدًا أعمى، في جميع المجالات. وبالطبع فإن ذلك يؤدي إلى عجز الطبقة المتوسطة، والحكومات، عن حل مشاكل أفريقيا المحلية. وتؤدي هذه النظرة الدونية إلى النفس، إلى احتقار الثقافة المحلية، ونسيانها، والاهتمام بالثقافة الأوروبية، والتحمس لها. وفي هذه الحالة الأخيرة، يسكن في عقول الأفريقيين المُستعمَرين، كراهية لونهم الأسود، ويجعلهم يؤمنون أنهم غير قادرين على الانتصار بداية. وهذا هو، ما كان "فانون" يتغنى به.

(*) كارن بليكسن، شاعرة، وكاتبة، وروائية، دانماركية، ١٨٨٥ - ١٩٦٢. بعض أعمالها، صورت في فيلمين حازا على جائزة الأوسكار (Oscar) العالمية- المترجم.

كانت رسالة "تجوجي"، إلى أصحاب "العقول المُستعمَرة" في القارة الأفريقية؛ لا تحوي المطالبة بعزلة ثقافية. ولا إعادة زرع أفكار وعقائد رومانسية، تتغنى بـــ"الأصالة الأفريقية"، أو أصالة الثقافة الأفريقية. بل اختار الحل الأكثر تعقيدًا وصعوبة، وهو محاولة القضاء على "عقدة جمعة" في هذه العقول. وقد كان حازمًا تجاه نفسه، وتجاه قرائه، بما فيه الكفاية.

ولأن المثقفين والمتعلمين الإفريقيين- مثل "تجوجي" - يدينون لأوروبا بطرق كثيرة، ومنها أن أفكاره الخاصة بإنسانية عالمية حقيقية، ترجع جذورها إلى عصر التنوير الأوروبي؛ إلا أنه لا يجب أن تُقدم التقاليد الإفريقية، قربانا في معبد المدنية المعاصرة. ومن الناحية النظرية البحتة، فإنه يقترح على الدول الإفريقية، محاولة إيجاد أساليب تطور خاصة بها، دون إطار وقيادة من أوروبا، أو الولايات المتحدة الأمريكية واليابان. وفي هذا المقام يذكر "إعلان أروشا" **(Arusha Accord)**، الذي كان عبارة عن برنامج سياسي لحزب **TANU** التنزاني، وأعلن في المدينة الجميلة "أروشا"، الذي هدف إلى تطوير إفريقيا عن طريق تبني الاشتراكية.

ليس إذًا من خلال "العزلة"، سوف تستعيد إفريقيا هويتها الثقافية؛ لكنه من خلال تواصل وتفاعل، يتم على شروط وقواعد إفريقية، وليس تبعًا للشروط والقواعد الأوروبية، كما هو حادث الآن. لم تكن في قائمة رغبات "تجوجي"، أن يحذف ويستبعد، مثلاً، قصائد شعر "ميلتون"(*) **(Poem Milton a)**، ولا روايات "شكسبير" **(Shakespeare)**، من مناهج الدراسة في المدارس، ولكنه قصد إضافة المساهمات الإفريقية في الفن الروائي والفلسفة، إليها. وبالطبع فإن الكُتَّاب الأفارقة

(*) **Milton a Poem**: قصيدة شعر للروائي الإسكتلندي "ويليام بلاك" **(William Black)**، تصور فيها الشاعر البريطاني اتحاد روح الكتاب الذين سبقوه، مع أرواح من بعدهم، ليستلهموا منهم الحق، وتصحيح الأخطاء. ولد الكاتب الشاعر في إسكتلندا عام ١٨٤١ في مدينة جلاسكو، ودرس في كلية الأداب، ثم انتقل إلى لندن، وعمل صحفيًا، واشتهر بكتاباته الأدبية والشعرية. مات ١٨٩٨- المترجم.

عليهم واجب مهم في هذه الناحية، حيث يجب عليهم صياغة "الثقافة الشعبية الشفهية"، وبلورة الخبرات الإفريقية المعاصرة في صياغة أدبية مقبولة ولازمة.

إن الإنتاج الثقافي في عالمنا المعاصر؛ يتبلور في وصف الواقع، ووضعه في إطار معرفي ذي عنوان محدد. وعندما يكتب عن تاريخ وثقافة أفريقيا، كُتّاب أوروبيون مثل "جوزيف كونراد" **(Joseph Conrad)**(*)، والشاعرة الدانماركية "كارن بليكسن"؛ فإن ذلك يفقد الأفارقة الحق في تقديم أنفسهم، وتقديم ثقافتهم، وتاريخهم، بالأسلوب الذي يرضونه. وعندما يحاول الكتاب الأفارقة الإشارة إلى المراجع الأجنبية، فإن ذلك لا يعني أنهم يشيرون إلى كتاب غرباء، فحسب؛ بل إن ذلك يعني أنهم يفضلون لغات أجنبية، ليست هي لغتهم الأصلية. ويمثل هذا التفكير آراء "نجوجي"، وطالب بأن يكتب الأفارقة، بلغتهم الأم، وتبعًا لرؤيتهم هم.

اكتسب الأدب الإفريقي، معظم جمهوره، في أوروبا وأمريكا الشمالية، بعد الحرب العالمية الثانية. بالنسبة لـ"نجوجي"، فقد وجه أواخر رواياته للجمهور الإفريقي. وذلك لخلق مناخ ثقة لبرنامجه السياسي الكلاسيكي، المنادي بالتحرر السياسي. وقد كتب لهذه الاستراتيجية النجاح والتأثير، ففي الثمانينيات من القرن الماضي، كان العديد من الكتل البشرية يجلس في القرى، ولأساتذة القرية يسمعون ما يقرءون بصوت عال، من الأصل المكتوب باللغة "الجيكويو" من روايته "الشيطان على الصليب" **(On The Cross The Devil)**. وفي كتابه، "ماتيجاري" **(Matigari)**، كانت الشخصية الرئيسية، هي قديس اشتراكي، دائمًا ما كان يذكر الناس، بكلٍ من "سقراط"، والمسيح" (عليه الصلاة والسلام). ولذا أصدرت السلطات في تلك الدولة البوليسية، أمرًا بالقبض على هذا القديس الاشتراكي. وبعد فترة

(*) يعتبر "جوزيف كونراد" من أفضل الروائيين البريطانيين. ولد في بولندا عام ١٨٥٧ من والدين بولنديين، ولاحقًا، حصل على الجنسية البريطانية عام ١٨٨٦. الكثير من رواياته مُثلت في أفلام، وتوفي في عام ١٩٢٤– المترجم.

تنبهت السلطات أن الرجل، هو عبارة عن شخصية خيالية، اختلقها الكاتب في الرواية، بعدها أصدروا أوامر بمصادرة الكتاب.

التذوق التقليدي للأدب، يشير إلى أن كلاً من روايتي "نجوجي"، "لا تبكي يا بني" (Weap Not Child) و"بتلات من الدم" (Petals of Blood) أفضل من روايته "الشيطان على الصليب"، و"ماتيجاري"، على اعتبار أن هاتين الأخيرتين، يتميزان ببساطة البناء القصصي، واستعمال أمثلة ورموز ليست دقيقة، إلا أنهما في السياق الكيني، اعتبرا أهم من الروايتين الأوليين ذكرًا. السبب في ذلك، يرجع إلى أنهما ولّدا رضا، وإشباعًا نفسيًا، يصحبهما بعد اجتماعي. لقد أحس الكينيون بالفخر، لوجود أدباء مرموقين، في بلادهم. وهؤلاء وصلوا إلى درجة متقدمة، تحلم الأجيال التالية بالوصول إليها.

وصف المشروع الأدبي لــ"نجوجي" بأنه جزء من مشروع أكبر، لتحرير البلاد من نخبة حاكمة فاسدة، أجبرت الناس على الركوع على ركبتيها. كان أمل التغيير عنده، في صغار الفلاحين والعمال، إلا أن كتاباته عن هذه المجموعة، وصفت بأنها تتميز بأسلوب الكليشيهات والطلاسم الغامضة. مما أظهره وكأنه مصمم على أمل من المستحيل الإيمان به. ورسم فقراء أفريقيا وكأنهم رمز لا وجه له، في مجتمع خيالي" (يوتوبي). وأنهم كانوا تعبيرًا للمرارة التي يحملها "نجوجي" نفسه، فكلما زاد اهتمامه بالفكر السياسي؛ زادت كراهيته للاستعمار، وللصفوة الحاكمة الإفريقية. وعندما ندرس ما كتبه "نجوجي" عن كيفية خيانة هذه الطبقة الحاكمة الفاسدة، للقيم التضامنية الإنسانية، نجده يذكرنا، في الحقيقة؛ بخطاب وأقوال، العاملين في مجال المساعدات الأوروبية للدول الأفريقية، والتي يعبرون فيها عن خيبة أملهم؛ لأن الأفارقة ليسوا كلهم طيبون، وشاكرون للمعروف. ويمكننا قول: إن "نجوجي"، حتى الآن، لم يتخذ الخطوة الكاملة للأمام، في اتجاه

إعلان أنه "كريول ثقافي"[*] (Cultural Creol)، وما زالت عقيدته أصولية، مبنية على "الدم واللحم" (Blut – und – Boden) الإفريقي.

حتى نفهم سبب مرارة "تجوجي" فمن الضروري أن نعرف بعض الشيء عن تاريخ كينيا، وعن سيرته الذاتية الخاصة. ولد "تجوجي" عام ١٩٣٨م، وخاض تجارب إفريقيا بعد الحرب، منذ حرب التحرير والاستقلال، وحتى الاستعمار الجديد (New Colonialism)، مرورا بفترة من الحرية، استمرت قليلاً. أبطال حرب التحرير، والذين ضحوا من أجله في الخمسينيات من القرن الماضي، تم إهمالهم، ولم يعترف بدورهم، وتمت التضحية بهم، واستبدلوا بفئة، وصفت بأنها "برجماتية"، كانوا أصدقاء للسياسة الأمريكية المهينة. وكانت النتيجة هي أن الفروق بين الأغنياء والفقراء تضخمت في كينيا، التي أصبحت تدار من المتعاونين مع أمريكا. ووضع "تجوجي" نفسه في السجن لمدة عام، في بداية الثمانينيات من القرن الماضي. وذلك عندما اكتشفت المؤسسة الحاكمة أنه قد أشرك فلاحين وعمالاً في إحدى مسرحياته التي عرضت في قريته "ليمورو" (Limur'u). وعلاوة على ذلك فقد ضبطوا في مكتبته المنزلية الخاصة أدبيات خطيرة، مثل كتب "ماركس"، و"لينين" (Lenin). وفي سياق هذه التجربة التي مر بها، يجب أن تُقرأ أسباب هجومه العنيف والمباشر، للاستغلال، وأساليب الاستعمار الجديد.

في اللقاءات الثقافية التي يشارك فيها "تجوجي"، يمكن للمرء أن يتعرف على أحاسيسه بالإهانة، وانعدام الحول والقوة. ويبين أن أفكاره غير داعية للتصالح بطريقة غير عادية، لكنها في نفس الوقت تحمل في باطنها ثقافة "فانون". إن انتقاد السلوك الأوروبي- أو لو أردت القول، الرجل الأبيض؛ قد نشأ أساسا في أوروبا، حتى لو قيل إن الناقدين الأوروبيين اقتبسوا كثيرا من عناصر نقدهم، من غير الأوروبيين. لقد كانت لغة "تجوجي"، والأسلوب الذي يفكر به، والمجلات العلمية،

(*) يقصد الكاتب بهذا التعبير أن "تجوجي" لم يعترف بأن ثقافته مزيج من ثقافات بينها الافريقية والأوروبية- المترجم.

والناشرون لكتاباته، كلها، يمكن للمرء استقصاء أصولها الأوروبية، لو أراد فعل ذلك. إن انتقاد "العبودية والاستعباد"، وانتقاد "الاستعمار" لم يكن قويًا جدًا داخل أفريقيا فحسب، بل كان قويًا أيضًا في البلاد الأوروبية "المُستَعمِرة".

وبإعادة النظر في المشكلة، فسوف نجد أن إلقاء اللوم الدائم على الاستعمار، وكل ما نتج عنه، سوف يؤدي إلى فقدان القدرة على الفعل، واتخاذ القرارات الصائبة، في البلاد الفقيرة. وإلقاء اللوم دومًا على الإمبريالية، في كل مرة يحدث خطأ، فإن ذلك سوف يؤدي إلى عدم تحمل المسؤولية، وعدم بذل جهد في محاولات المشاركة في الحل. "مورجان جوب" (Morgan Job)، أحد أساتذة الاقتصاد في الجامعة بترينداد، فجر حوارًا قوي النغمات، في الأوساط الثقافية والسياسية المختلفة في ترينيداد، وذلك عندما استعرض الحجج والبراهين، لدعم هذا الرأي. لقد تجاوز صوته حاجز الصوت عندما زعم أن كتاب "إريك ويليامز" (Eric Williams)، الذي يعتبر الأب الروحي لترينيداد، المسمى "الرأسمالية والعبودية" (and Slavery Capitalism)، الذي نشر عام ١٩٤٤، كان واحدًا من أحد الكتب الأكثر شرًا، في تاريخ البشرية. أطلق هذا الصوت في جزيرة مليئة بالنغمات المتفاوتة، والمختلفة، ذات الاختلاف المزمن. السبب الذي ساقه "مورجان جوب" هو أن هذا الكتاب قد ربط بين تجارة العبيد من جهة، وإدارة المزارع، وتطورها، وكذلك النمو الصناعي، الذي ترعرع في العالم الجديد المكتشف حديثًا(*) من جهة أخرى. وتبعًا لمثل هذا المنطق، فإن الأباء في ترينيداد هم في الأساس، الذين لهم فضل الثورة الصناعية، وبذلك تكون الدول الأوروبية مدينة لترينبداد، وتبعًا لذلك أيضًا فإن بريطانيا العظمى هي التي سرقت ثروة ترينيداد. منطق "مورجان جوب" يتبلور في أن مثل هذا التنكر وعدم الاعتراف بالمسئولية يؤديان بالضرورة إلى

(*) المقصود بالعالم الجديد هنا، هما قارتا أمريكا وأستراليا. وكما هو معلوم، فإن إفريقيا وأوروبا وآسيا يمثلون العالم القديم- المترجم.

ضعف الثقة بالنفس، إلى جانب انعدام القدرة على اتخاذ القرارات. صحيح أن "جوب" لم يكن موفقاً في وصفه لكتاب "ويليامز"، إلا أنه في الحقيقة وضع أصبعه على مشكلة فكرية، يمكن أن تكون موجودة في كل البلاد التي استعمرت. وهذه صورة أخرى، من الورطة التي تورط فيها "تجوجي"، وهي: على المرء الاختيار، إما أن يكون ذا "أصالة"، أو أن يكون "عبداً تابعاً"، أو "جمعة آخر".

"فيليس هويتلي"(*) (Phillis Wheatley)، وهي التي يعتقد أنها أول شاعرة، وكاتبة أمريكية، من أصول أفريقية، وكانت هي إحدى الجواري في مدينة "بوسطن" التي استطاعت كتابة "السوناتا"(**) (Sonata) الكلاسيكية الحديثة، وذلك في القرن الثامن عشر. وبعد كثير من المحاورة والمداورة، وبعد كثير من "لو"، و"لكن"، اتفق النقاد، على السماح بنشر هذه "السوناتات" التي كتبتها "فيليس". كانت المشكلة التي سببت هذا التردد، هو أن "فيليس هويتلي"، كانت أول زنجية تنجح في أداء شكل من أشكال الفنون، التي لا يقدر عليها إلا من هم من العنصر الأبيض، وبالتالي عليها دفع الثمن، وهي أمام اختيارين لا ثالث لهما: إما أن تفقد "روحها الأفريقية" (African Soul)، أو يقال- كما زُعم - إنها حاولت محاكاة واستنساخ الفن الأوروبي. ولو أنها فعلت مثلما اقترح عليها بعض الناقدين، وكتبت قصائد شعر أفريقية كلاسيكية، لاتهمت بأنها بدائية، وتملك موهبة أقل.

ورطة سكان البلاد المُستعمرة هي من النوع الكلاسيكي، فلو أنهم سلكوا سلوك أسيادهم، لقيل عنهم إنهم مجرد "قرود"، لا تجيد إلا المحاكاة، وبذلك يفقدون فخرهم بذاتهم، وروحهم. ومن الناحية الأخرى، لو أنهم لم يتحلوا بسلوك مستعمريهم، فهم إذاً يمتلكون ثقافة متخلفة، أو أنهم ينتمون إلى عنصر متخلف، ذي

(*) فيليس هويتلي"، ولدت في السنغال ١٧٥٣، وبيعت وهي طفلة عمرها سبع سنوات، للسيد "جون هويتلي". أحبتها العائلة لنجابتها ورقة مشاعرها، وقبلوها عضوة في العائلة، وتربت مع بنات العائلة كواحدة منهن- المترجم.

(**) السوناتا: هي قطعة موسيقية مركبة، تؤدى على آلة موسيقية واحدة، أو آلتين- المترجم.

قيمة أقل. وفي مثل هذا المحيط، عاش "تجوجي واثيونجو" كل حياته، ولكنه، وعلى الرغم من كل هذه التناقضات بداخله، وتكوينه؛ فإنه أصبح مفكرًا مهمًا.

هذا الخطاب الناقد الشديد السلبية، الذي يستخدمه "تجوجي" في وصف أوروبا، هو في الحقيقة غير مكتمل العدل. ذلك لأن كلاً من سكان البلاد الحارة والباردة، يمكنهم الاستفادة من إنقاص التناقضات فيما بينهم. وبدلاً من بناء جدار سميك يفرق بين "ما هو إفريقي"، و"ما هو أوروبي"- كما وقع نجوجي بسهولة في إغراء مثل هذه الأحكام- فقد كان من الأفضل، أن يكتفي بالعمل من أجل المبادئ والقيم التي يثمنها عاليًا. وفي مثل هذه الحالة، سوف يكتشف أن هناك الكثيرين ممن يشاركونه أفكاره، منتشرون في كل أنحاء العالم، وسوف يجد من الأوروبيين والأفارقة، من يتعاطف مع مبادئه السياسية وقيمه الأخلاقية، وعلى أتم استعداد للمشاركة في المعركة، ضد كل أشكال الاستعمار الجديد. وربما يكون من العوامل المساعدة- في هذه الحالة، أن نستبدل بمصطلح "التغريب" **(westernization)**، مصطلح "الحداثة"، أو التحديث والعصرية. وفي هذه الحالة أيضا؛ فسوف يفقد المرء إحساسه بالمحاكاة، واتباع خطوات العدو عندما يطبق مثلاً، نظام "الحد الأدنى للأجور" للعاملين، و"الحقوق الانتخابية" التي يجب أن تجرى بحرية كاملة. فلا يعني أن انتشار وسيادة كثير من الأشكال، والقوالب الثقافية، في أوروبا وأمريكا الشمالية؛ إنها خاصة بهم وحدهم، ولا يعني أيضا، أن هذه الأنماط من القوالب الثقافية، كانت سائدة بالقارتين طوال الوقت. ولنتذكر مثلاً، ليس عشوائيًا بصورة كاملة، في النرويج نشأت البرلمانية، وفلسفة التنوير **(Enlightenment philosophy)**، والفن الروائي الحديث، والرأسمالية، والتلغراف، واللاسلكي، بعد الاستعمار، لكنها لم تخلف انطباعًا عند النرويجيين، وشعورهم، أنهم حوصروا بقوى شريرة. إن الطريق إلى التحرير لا يمر بالضرورة، من خلال "الشعور بالدونية"، ولكن، من الناحية الأخرى فلا يوجد حل أيضا، في تضخيم كارثة، علاقة الأفارقة بالأوروبيين.

من وجهة نظر مختلفة كثيرًا، عن تلك التي يمثلها "تجوجي"، هو ما كتبه الفيلسوف البلغاري المولد، الفرنسي النشأة "تزفتان تودوروف"[*] (Tzvetan Todorov) دراسة إبداعية مليئة بالمشاعر والأحاسيس العميقة، عن النتائج الضخمة، والثرية، في "نقطة اللقاء الثقافي" (Point Cultural Meeting)، وبالتحديد التقاء "كريستوفر كولمبس" (Columbus Christopher)، ١٤٥١ – ١٥٠٦، وسكان أمريكا الأصليين، في القارة الجديدة. واسم الكتاب "غزو أمريكا" (La Conquete de Amerique). وخلافًا لـــ "تجوجي"، فإنه لم يحس أبدًا بالعنصرية تؤلم أعماقه، وهو صاحب البشرة الفاتحة، والذي عاش مهاجرًا من بلغاريا إلى باريس، وبالطبع واجه طيلة سنوات عمره الناضجة ممارسات المجتمع من ناحية "كراهية الأجنبي"، وعايش إحساس "افتقاد الجذور". وأستطيع القول بثقة بالغة: إن هذا النوع من البشر، هم القادرون على الكتابة عن "الهوية"، بدرجة أفضل من المصداقية من غيرهم. وذلك لأنهم يقفون في "منتصف الطريق"، وهم لا يستطيعون "التحكم في المرور"؛ ولكن الرؤيا الواضحة متاحة لهم بدرجة أكبر من غيرهم. فعلى العكس من أكثر كتب التاريخ، التي وصفت مقابلة الأوروبيين بالعالم الجديد، لم يحاول البرهنة على صحة "الوقائع" التي حدثت في هذا اللقاء. ولم يحاول إيجاد تفسير أخلاقي معين للأحداث. ولكنه، بدلاً من ذلك حاول "تودوروف"، أن يفهم ويشرح، كيف أثر اكتشاف القارة، ولقاء الإسبان لأول مرة، مع الهنود الحمر. وبدلاً من بذل الجهد للدفاع عن أخلاقيات "كولومبس" وفريقه، ومحاولة إيجاد المبررات، فإنه رغب في توضيح، ما رآه وعايشه، الفريق، وكيف ترجم الواقع وعبر عنه.

(*) "تزفتان تودوروف": فيلسوف فرنسي النشأة، ولد في العاصمة البلغارية "صوفيا"، عام ١٩٣٩. رحل أبوه إلى فرنسا منذ عام ١٩٦٣، وهناك أصبح من أهم الكُتاب. وضع نظريته الثقافية، وكتب عن الآداب خلال التاريخ– المترجم.

لقد أصبح من المعتاد أن يقال: إن "النهضة"، و"المعاصرة"، قد بدأ منذ رحلات "كولومبس" عام ١٤٩٥. وإنها هي التي نسفت خريطة العالم الثانية، التي رسمتها كنيسة العصور الوسطى، ورسختها في أذهان الناس. بعد ذلك، وبتوال سريع، قدم "فرانسيس بكون" (Francis Bacon)(*) إيديولوجيته، التكنوقراطية، و"رينه ديكارت"(**) (Rene Descartes) الذي قدم مبدأ الشك(***)، وجاء "ميجول سرفانتس"(****) (Miguel Cervants)، باكتشافه الرائع في فن السرد الروائي الحديث. أما "كولومبس" نفسه، فلم يكن رجلاً عصريًا، بل كان مثالاً لرجال العصور الوسطى، زلت قدمه على غير إرادته، في العصرية والحداثة دون أن يفهمها، أو يفهم شيئًا عنها.

كان "كولومبس" شديد التدين، والإيمان بالقدر والجبر. وقد ظل حتى مماته، يحاول إثبات أنه قد اكتشف الطريق البحري، الموصل إلى الهند الأسيوية. ولم يسمع كولومبس، عن النظريات الحديثة، في "النسبية الثقافية" (Cultural Relativity)، التي تقول بأن البشر مختلفون، لكنهم ذو قيمة إنسانية متساوية. وعندما اكتشفت الهنود، اعتقد في البداية أنه قد قرب من الجنة المسيحية، ولم يتولد في رأسه أي افتراض يقول: إن هنود لمريكا الجنوبية يمثلون "ثقافة أجنبية"، وأن

(*) "فرانسيس بكون": فيلسوف وكاتب، ورجل دولة بريطاني، عاش في الفترة من ١٥٦١ إلى ١٦٢٦ ميلادية. وكان رائدًا في وضع فلسفة جديدة للعلم، قائمة على "الملاحظة، والتجريب"، مما ساعد على تقدم العلوم الطبيعية، والثورة العلمية التي نعيش آثارها الحالية، وساهمت في تطوير المنهج العلمي البحثي– المترجم.

(**) "رينه ديكارت": عالم رياضي وفيزيائي، وفيلسوف فرنسي، عاش في الفترة ما بين ١٥٩٦ – ١٦٥٠، ولقب بـ"أبي الفلسفة الحديثة"، وما زالت كتبه تدرس حتى اليوم. وهو الشخصية الرئيسية في منهج العقلانية، الذي قال "أنا أفكر، فأنا موجود"– المترجم.

(***) مبدأ الشك يدعو الإنسان إلى التساؤل، لماذا؟ وإلى التفكر في تفسير الظواهر المحيطة به. وذلك من أهم ما يؤدي إلى تطور المنهج العلمي السليم– المترجم.

(****) ميجول سرفانتس: كاتب روائي إسباني، عاش في الفترة ١٥٤٧ – ١٦١٦، واشتهر بروايته المعروفة "دون كيشوت"– المترجم.

فهمهم فقط- فهمهم للأمور- ينطلق من داخل إطر ثقافية، تنسب إلى دينهم أساسًا. وبالتالي، فقد اختلط عليه الأمر في التعرف عليهم، وصنفهم إلى قسمين اثنين: إما جيدون جدًا، أو سيئون جدًا. ولتوضيح هذه النظرة "المعرفية"، بأسلوب أكثر عمقًا، أشار "تودوروف" (Todorov) إلى أن "كولومبس"، لم ير في ذلك الحين الفروق اللغوية، فقد افترض أن لكل كلمة أسبانية مقابلا في الكلمات الهندية. واعتبر ذلك قضية مسلم بها، ومفروغ من أمرها. وهو في هذه الحالة، يمثل أبناء عصره.

من الناحية الأخرى، لم يكن الهنود مهيئين، بدرجة أكبر من الأسبان، للحوار مع الأخرين، على قاعدة ثقافية. وبالتماثل مع "كولومبس"، حاول "الأزتيك"(*) (Aztecs) البحث في عقائدهم ودينهم، في محاولة لإيجاد تفسير، يمكن أن يشرح مجيء هؤلاء الأغراب. ومن المرجح، أنهم تصوروا أن الفاتح الأسباني "هيرناندو كورتس" (Hernando Cortes)(**) هو نفسه الإله "كيوتاسل كوأتل"(***) (Quetzalcoatl)، وكان هذا من أسباب سهولة الاحتلال، وعدم المقاومة من ناحية الهنود. كان هذا التفسير الثقافي الذي قدمه "تودوروف" لانتصار الإسبان، وقدرتهم على السيطرة. ذلك لأن التفوق العسكري الإسباني في ذلك الحين، لم يكن- وحده- كافيًا لتفسير الحالة، حيث بضع مئات من الجنود، يستطيعون اجتياح المسكيك، دون مشاكل تذكر. خاصة أن عملية التواصل بين الأزتيكيين، والأسبان، كانت قليلة بحق، إن لم تكن معدومة في تلك الفترة. كلا الجانبين تعامل مع الموقف

(*) الأزتيكيون: قبائل أمريكا الوسطى من الهنود الحمر. وهم الذين قابلهم الإسبان، عندما اكتشف كولومبس قارة أمريكا الجنوبية- المترجم.

(**) "هيرناندو كورتس": ١٤٨٥ - ١٥٤٧، هو القائد الإسباني الذي فتح المكسيك الحالية للمرة الأولى. وكان هو أول من قابل الحضارة الأزتيكية- حضارة الهنود، سكان أمريكا الأصليين- المترجم.

(***) "كيوتاسل كوأتل": هو أحد آلهة الهنود، سكان أمريكا الأصليين، في الثقافة الدينية الأزتيكية، ويرمز للموت والبعث. وكانت عبادته تشمل عقيدة الفداء والتضحية بإنسان. وتقول الأساطير الدينية عندهم إنه سوف يعود يوما ما. وعلى ما يبدو أن الهنود ظنوا أن "كورتس" القائد الأسباني هو ذلك الإله الذي عاد إلى الحياة، وبناء على هذه العقيدة لم يقاوموه- المترجم.

منطلقًا من عقيدته الدينية الخاصة به، وكل منهما وجد نفسه في "عالم ثقافي" مختلف، على الرغم من المواجهة والاحتكاك المباشرين.

راجع "تودوروف" كمًا كبيرًا من المراجع، التي وصفت مرحلة اكتشاف أمريكا، والمجموعة الأولى المكونة من بضع مئات من البحارة، وأوضح كيف أن الأوروبيين استخدموا مصطلحات نابعة من الثقافة الأوروبية، التي على أساسها قيّموا ثقافة الهنود، وكانت معيارهم في وصفها. وينطبق هذا الكلام أيضًا على دفاع "جوان سبيولفدا"[*] (**Juan Sepulveda**)، عن العبودية، ودفاع "لاس كاساس" (**Emmanuel Las Cases**) الفرنسي، والذي يعتبر أيضًا صديقًا للهنود. كل هؤلاء الذين كتبوا عن هنود أمريكا، أو سكان أمريكا الأصليين، قيّموا الثقافة الهندية، من منطلق "إثنية مركزية" (**Ethnocentric**)، ينبني على إيمانهم بأن عرقهم هو أفضل الأعراق، ومن خلال معيارهم الثقافي. بالنسبة لـ"سبيولفدا"، فكان منطلقه أن الهنود يحتلون الدرجة الأولى، في سلم الرقي الأوروبي، بينما وصفهم القس "لاس كاساس بأنهم "بسطاء"- ولكن بنغمة فيها شيء من الإيجابية- وكأنهم يشبهون المسيحيين. لقد وصف الفاتحون حضارة "الأزتيك"، و"المايا"، وإبداعاتهما، على المنوال المألوف لديهم، مثلما يقارنون، الأسواق، والمدن، والثروة، والحصون، تبعًا للحجم والاتساع، في أوروبا. وجدير بالملاحظة، أن البعض- كما فعل المبشر الإسباني "بناردينو دي ساهجون" (**de Sahangun, 1499-1590 Benardino**) أخذ في حسبانه بعض الأبعاد الثقافية، لكنهم نظروا إلى "الآخر" من خلال مرآتهم، فوجدوه "مخالفا" للأوروبيين. وكما قيل، وتكرر إلى درجة الملل؛ "إن المنتصر هو الذي يكتب التاريخ".

هل من الممكن أن يكون الواقع مغايرًا لما كتبه التاريخ؟ "إدوارد سعيد" (**Edward Said**) وكتابه "الاستشراق" (**Orientalism**) يذهبان في هذا الاتجاه. ولقد

(*) "جوان سبيولفدا" ١٤٨٩ – ١٥٧٣: فيلسوف ورجل دين إسباني، كانت له كتابات لها نزعة إنسانية، دافعت عن هنود أميركا– المترجم.

أطلق رصاصة البدء، لحوار استمر طويلاً عن: من الذي يملك حق "التعريف" بالآخر؟ كان "سعيد" مسيحيًا من أصل فلسطيني، وأستاذًا جامعيًا في علوم الأدب في جامعة "كولومبيا" (Columbia)، وهو بهذه الخلفية يعتبر أقلية (مسيحية) داخل أقلية (عربية) في أمريكا. وفي حوار له مع "سلمان رشدي" قال ذات مرة: "إن من أحد أهم اهتماماتي أن أوضح أن البشر ليسوا ملصقين في فكرهم، ومواقفهم إلى اختلافاتهم، وإلى الكراهية المتبادلة فيما بينهم". ومثله مثل "رشدي" كلاهما يصف نفسه بأنه "هجين ثقافي (Cultural ،Hybrid) أو "كريول" (Creol) أيهما نشاء، ولكن حواراته تثبت أنه أقل تسامحًا وتصالحًا. ويتشابه في ذلك بوضوح مع "تجوجي". في أحد حواراته مع "إرنست جلنر" (Ernest Gellner)- الذي كان من الذين يغضبون بسرعة- انتهى "سعيد" إلى أنه نزع الأمانة العلمية من كل البحوث والعلوم الأوروبية، خاصة الأنثربولوجية منها، ولمح إلى أن كل المعرفة المنتجة أوروبيا؛ شاركت في خلق إحساس عند الملونين بالضعف والتبعية. وكان "جلنر" هو الذي بدأ الحوار بنقد لاذع لكتاب "سعيد" "الثقافة والإمبريالية". وفي نهاية الحوار أعلن على الملأ، وبصوت مرتفع أن علاقته بـ"سعيد" قد انتهت إلى الأبد.

في كتابه "الاستشراق" (Orientalism)؛ أوضح "سعيد"، كيف رسم كتاب ومؤلفو أوروبا المنتصرون، الذين كتبوا التاريخ، صورة "الشرق"، وهي صورة يبدو فيها الشرق مغايرًا ومضادًا لما عليه الغرب. وتبعًا للتعريف الأوروبي، إن "الشرق" لاعقلاني، يؤمن بالأساطير، مستبد، وجامد لا يتطور، وعلى العكس فإن "الغرب"؛ يمثل العلم، والعقلانية، والفكر، والديمقراطية، والتطور. ويتساءل "سعيد" بأسلوب متشكك، في كتابه: ما هو "الشرق" المقصود؟ إنه يمتد من المغرب، وحتى اليابان. وبعض المستشرقين الفرنسيين والبريطانيين كانوا يحددونه بأنه منطقة "آسيا الصغرى"، ومنطقة الكتاب المقدس، والهند.

ومن الأمثلة الكلاسيكية، التي تماثل ما تحدث عنه "سعيد"، نجد مثلها في كتاب "في. إس. نايبول"، "منطقة من الظلام" (**An Area of Darkness**)، وفيه وصف رحلته إلى الهند، حيث سافر من إنجلترا في سفينة، وبدأ شعوره بأن الشرق قد بدأ، من اليونان غير المنظمة، وغير النظيفة نسبيًا، وأضاف: "عندما وصلنا الإسكندرية، أحسست أن الشرق الحقيقي قد بدأ". كتب "نايبول": "لقد كان هناك في الإسكندرية، وليس في اليونان، فقد أحسست أن حدود الشرق قد بدأت، الناس تتحرك في فوضى، ويسلكون أساليب غير اقتصادية. ويحس المرء بالإزعاج المتزايد شيئًا فشيئًا، ويتولد إحساس مفاجئ بعدم الأمان، وأنه ليس كل البشر إخواني، وأن حقائبي كانت في خطر".

يضيف "سعيد": "إن نظرياتهم عن الشرق المستبد، واللاعقلاني؛ قد خلقوها لأسباب، منها: محاولة رسم صورة مفزعة للشرق، وذلك دعمًا لنظامهم السياسي، واعتدادًا بالهوية الأوروبية، وخاصة في بريطانيا العظمى وفرنسا. ومنها أيضًا، محاولة تبرير استعمار المناطق "الأقل تطورًا"- بما عرف بالانتداب- وإضفاء غطاء أخلاقي عليه". ويحاول "سعيد" تأكيد وجهة نظره بالإشارة إلى العديد من المراجع التاريخية، بما فيها مراجع صدرت حديثًا.

من الطبيعي أن يوصف "سعيد"، في الغرب، بأنه متشدد (**polemical**) وغير دقيق. لكن في الحقيقة، فقد كان معه بعض الحق. إن من السخف، والمنافي للعقل أيضًا، أن يُزعم، أن المجتمع المصري والتركي، متماثلان مع المجتمع الهندي، أو الفيتنامي، أو أن يقال: إن الهند وحدة متجانسة. وذلك، في الحقيقة؛ ما انفك الكُتّاب الأوروبيون يفعلونه، حتى الآن. ومن جانب آخر، فإنه؛ لم يكن هناك حاجة، إلى تعريف الشرق وتوصيفه، بمثل هذه الصورة النمطية غير الدقيقة. ولم يكن هناك حاجة ماسة للغرب تدفعه لفقد الاحترام للأغراب. وفي الحقيقة، فقد وضح الآن أن كثيرًا جدًا من البشر، تتكون لديهم نظرية، وعقيدة نمطية، مقولبة عن الآخر

"المغاير" الأجنبي، ولأن درجة عدم الوضوح والنمطية، تزداد كلما زاد البعد بين البشر. في أنحاء العالم القديم، تعوّد الناس على اعتبار كل أفريقيا اللاتينية، من "المكسيك" وحتى "شيلي"؛ منطقة ووحدة ثقافية واحدة متجانسة. وكما نبهتنا الأنثروبولوجية السويدية "أنّا فالدس"(*) (Ana Valdes) أن ما بين "أورجواي" و"جواتيمالا"- وهما من أمريكا اللاتينية- القليل أو الكثير من المشترك، كما بين "نيوزيلندا" (New Zealand) و"زيمبابوي" (Zimbabwe) من المشترك. إن ما بينهما من مشترك في الحقيقة؛ هو اللغة الرسمية.

في كثير من البلاد الإفريقية يقابل المرء الكثيرين ممن لا يهتم أن يفرق، بين مختلف الأوروبيين، والشمال أمريكيين. في "جامايكا" فقد تعرضت أنا شخصيًا لهجوم، ومضايقات شديدة العنصرية، والغلظة، لم أشهدها طيلة حياتي، وذلك بسبب لوني الأبيض فحسب. لقد كنت في نظر الجامبيين مثالاً واضحًا يجسد الإمبريالية العالمية، مع العلم بأن النرويج لم يكن لها أية مستعمرات على فترات التاريخ، على خلاف واضح من بعض الدول الأوروبية الأخرى.

وفي خريف عام ١٩٩٣ أقام اتحاد الطلبة في جامعة أوسلو لقاء حوار، عنوانه "الغرب والإسلام"، ولم يأخذ المسئولون عن اللقاء الحسبان للاختلاف والتنوع بين الحضور، والمحاضرين. في اللقاء؛ تحدث أحد الباحثين، عن الحاجة الملحة للديمقراطية، في البلاد الإسلامية. وجاء رد الفعل سريعًا من أحد المشاركين المسلمين. لقد كانت المشاركة عبارة عن سؤال عن: كيف يرفع الباحث شعار "حقوق الإنسان" نيابة عن الغرب، بينما الرئيس الأمريكي "بوش الأب" يقود حربًا، فيها أسقطت القنابل على الأبرياء، في بغداد. إن فقدان رؤية، "التنوع"، و"المناطق

(*) "أنّا فالدس": أنثربولوجية اجتماعية، وصحفية، وكاتبة، معاصرة مستقرة في السويد، ولدت في أورجواي، ونتيجة لنشاطها السياسي سجنت وعذبت، من النظام الديكتاتوري العسكري، بعدها استطاعت الهجرة إلى السويد عام ١٩٧٨، وحصلت على الجنسية السويدية - المترجم.

الرمادية" عند "الأغيار"، لا ينحصر وجودها فقط في مجتمعات أوروبا، وشمال أمريكا؛ بل إنها موجودة أيضًا في المجتمعات الشرقية. وعندما نطلع على دراسات الشرقيين؛ فسوف نجد من يصفنا بأننا غربيون، ويرسم صورة مشوهة كاريكاتورية للغرب. ومن المعلوم أيضًا أين توجد القدرة على صناعة التعريفات، والتوصيفات. إنهم هؤلاء، أصحاب الصوت العالي من رجال الإعلام الأمريكيين، الذين يسمون رأيهم بـــ"الرأي العام العالمي". وهم الذين يقررون صورة العالم، التي يجب أن تسود. وعلى سبيل المثال؛ فالتقويم الذي يجب أن يستخدمه العالم، مفروض من الغرب. ويلحظ المرء أن الكثيرين في الصين ممن يعتقدون أنه من المهين استخدام توقيت جرينتش (**GREENWICH MEAN TIME**)، والتقويم المسيحي للشهور، وذلك دون الأخذ في الاعتبار رأي الآخرين. وأيضًا في عام ١٩٩٣ نشر أستاذ العلوم السياسية الأمريكي المعروف، "صمونيل هنتجتون" (**Samuel Huntington**) أفكاره السيئة عن "صدام الحضارة" (**The Clash of Civilizations**)، وفيها زعم أن هناك تناقضات عميقة بين الحضارات المختلفة، وبناء على ذلك، فإن على الولايات المتحدة الأمريكية أن تواصل الاستعدادات للمواجهة، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، ونشر ذلك في المجلة الدورية الأمريكية المسماة "الشؤون الأجنبية **Foreign (Affairs)**". والسؤال المشروع: لمن تُوجه كلمة الأجنبية في هذا المقام؟ هل هم من تتماثل هواياتهم مع هوية الولايات المتحدة الأمريكية؟.

في إحدى المقابلات الحوارية، جاء أحد أهم المداخلات، من أحد اللبنانيين الذين يقيمون في أوسلو، أشار إلى أنه من الصحيح القول: إن الأوروبيين هم الذين كتبوا الأدبيات عن الأسيويين، بينما كتب الأسيويون القليل عن الأوروبيين، وبذلك فإن الأوروبيين قد صنعوا لأنفسهم قدرة أكبر، عندما نتحدث عن "قوة التعريف (**Defintion Power**) للآخر". وأضاف في المداخلة: لكن الأوروبيين قد كتبوا الكثير، عن كل شيء آخر، وأضاف أيضًا: وليس هناك سبب لأن يصاب المرء بمرض الارتياب والتشكك (**Paranoid**)، عندما يصبح المرء لا حول له، ولا قوة،

فالوهن وغير الفاعلية والتأثير من الممكن أن يكون لهم أسباب أخرى ليست شريرة. يضاف إلى هذا القول الصحيح: إن الإمبراطوريات تحاول الدفاع عن نفسها، عندما تشعر بأن من استعمرتهم سابقًا، قد بدءوا في سحب البساط من تحت أقدامهم. البساط الذي فرشته هي لهم، وهذا الانطباع يرونه واضحًا: عندما يرون الآن أفضل الأعمال الأدبية المكتوبة بالإنجليزية في وقتنا الحالي قد قام بكتابتها أدباء من الهنود والأفارقة.

يوجد في الإمبراطوريات من يضخم الورطة- ورطة الإمبراطوريات- وهو شكل من أشكال ما يمكن تسميته "الثأر الفكري الإبداعي" (**Intellectual Retaliation**، ففي بدايات التسعينيات من القرن الماضي، نشر الفيلسوف والمفكر المصري "حسن حنفي"، دراسات أدبية تقع في ثمانمائة صفحة، كُتِبت بالعربية، تحت عنوان "مدخل الدراسات والعلوم الغربية" **Introduction to the Scientific (Occidentalism)**. وهي كتابات تهدي غير الأوروبيين لكيفية دراسة الثقافة الغربية، على نفس المنوال الذي اتبعه الباحثون الغربيون، في دراسة الثقافة الشرقية. وهو بذلك جعل الغربيين، والثقافة الغربية، مادة دراسة، وليس مصدرًا إشعاعيًا، يتلقى منه المعلومات، وكأنه يقول كما قال أحد الباحثين الأنثروبولوجيين في مناظرة: "خذ حذرك في الحديث، وإلا فسوف أعتبرك حالة، وموضوع دراسة".

٣

من الواضح أن الحوار الذي بدأه "إدوارد سعيد"، كان له تأثير في الأسلوب الذي يتعامل به الغربيون مع الأجانب. فعلى الرغم من إحساس المرء أنه تغيير طفيف، إلا أن الخطاب الغربي عن الشعوب التي تحررت، يتسم الآن بالحذر. الآن لا يستعملون في خطابهم تعبيرات مثل "البدائي المتخلف" **(Primitiv)** واستبدلت بـــ"المعتاد" **(Traditional)**، ولا يقولون "قبائل إثنية"، ولكن "مجموعات إثنية"، ولا

يستعملون "زنجي" (Negro) إنما "أسود" (Black). وفي بعض الحالات يقولون: "أمريكي من أصل أفريقي". ولكن، هل هذا تغير في الأسلوب والتفكير؟ أم أنه مستحضر تجميلي، ومناورة للتشتيت، وصرف الانتباه ليس إلا؟.

النظريات التي سادت في القرن الماضي عن المجتمعات الإنسانية، كانت كلها، وبدون استثناء؛ "تطورية"، وذهبت إلى أن المجتمعات تتطور في اتجاه معين. وتبعًا لـ"أوجست كُومت" (Auguste Comte) (١٧٩٨-١٨٥٧) الفرنسي، الذي يعتبر الأب الشرعي لعلم الاجتماع؛ فإن المجتمع، أي مجتمع إنساني، يمر بثلاث مراحل رئيسة: مرحلة الأسطورة، ومرحلة الدينية، ثم مرحلة الإيجابية. وهذه المرحلة الأخيرة هي العليا، وفيها يحل "علم الاجتماع" محل الدين، كمصدر رئيس لرؤية الواقع الحاضر. وعند "هربرت سبنسر" (Herbert Spencer) (١٨٢٠-١٩٠٣)، وهو أحد أكبر المفكرين البريطانيين تأثيرًا، في فترة نهاية القرن التاسع عشر، ويعتبر الأب الثاني بعد "أوجست كومت" لعلم الاجتماع، ومؤسس علم الاجتماع الداروني، أو التطوري، وعنده، فإن ثقافة المجتمع الإنساني تتطور بالتوازي، مع التطور البيولوجي (تطور الأنواع)، من خلال التنافس، وحق الأقوى. أما "لويس هنري مورجان"(*) (Lewis Henry Morgan) فقد عمل بأسلوب مماثل لأسلوب "كونت"، حيث اعتبر أن "التطورية الثقافية" (Evolution Cultural) تمر بثلاث مراحل رئيسية: المرحلة "البرية" (Wild)، والمرحلة "البربرية" (Barbaric)، وأخيرًا مرحلة "التحضر". وكانت لهذه الدراسات أهمية كبرى في دعم نظرية "فريدريك أنجلز" عن مجتمع ما قبل الرأسمالية. وكان "مورجان" ذا

(*) لويس هنري مورجان" (١٨١٨-١٨٨١): عالم اجتماع، وأنثربولوجي أمريكي، كان محاميًا، ثم اجتذبه علم الاجتماع، ودرس ثقافة المجتمعات القبلية الهندو أمريكية. ثم وضع مؤلفات في أصل وتطور المؤسسات الحكومية، والممتلكات، وهي مؤلفات امتدحها كل من "ماركس" و"إنجلز"، لأنها اعتبرت تصديقًا لنظريتهم، في التفسير المادي للتاريخ- المترجم.

أفكار مادية مثل "ماركس"، ويرى أن التكنولوجيا تمثل قوة دفع رئيسية في التطور الاجتماعي الثقافي.

اليوم ليس من المعيب السخرية من هذه النظريات المليئة بالمبالغة في تقييم النفس، وجنون العظمة، التي سادت في "الفترة الفيكتورية"(*)، وهي نظريات لا تتردد في تقديم نظرية متكاملة، عن تاريخ الثقافة الإنسانية، منذ أن نزل آباؤنا من على الأشجار، وحتى وصول كل فرد منا إلى السكن في بيت حديث عصري، وأثاث جميل. ومن الطبيعي أن نُحَمِّل كلاً من "هيجل" و"دارون"، نصيبهم من المسؤولية، لمثل هذا الفكر النظري السطحي، وأن نشير إلى أن وقت النظريات الشاملة قد انتهى الآن. عالم اليوم يبدو مقسمًا إلى أقسام وأجزاء غير منظمة، ولا يمكن التنبؤ بأوصافه. ولقد أصبح شديد الوضوح أن الحياة الاجتماعية، لا تدار بقوانين أساسية مشتركة. الموجود الآن، هو واقع محلي، مشوب بالمتناقضات في كل شيء. والأخلاق والقيم أصبحت نسبية، تعتمد على الثقافة المجتمعية، وشعارات مزركشة مثل "التطور"، و"التقدم"، لم تعد تنفع لبناء إيديولوجيات.

للأسف فإن هذه النظريات التطورية الخشنة، التي تصنف المجتمعات الإنسانية، وتضعها على درجات سلم، قد ألغيت ظاهريًا فقط. والتفرقة بين "البربرية" و"الحضارة" التي وضعها "مورجان" و"أنجلز"، ما زالت تستخدم يوميًا بوضوح، في الحوارات الأوروبية والأمريكية، عندما يتحدثون عن الشرق الأوسط أو روسيا، وأيضًا اليابان، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، فمن حين لآخر نسمع تعبيرات مثل "البرابرة" ما زالوا يمثلون صورة الحضارة المشوهة، مثلما قيل

(*) الفترة الفيكتورية: هي فترة زمنية نسبت إلى الملكة البريطانية "فيكتوريا" (١٨١٩ -١٩٠١)، وهي الملكة التي توسعت في عهدها الإمبراطورية البريطانية، وكانت فترة تتميز بالازدهار والنهضة الأوروبية- المترجم.

أثناء الحملات الصليبية، وأثناء فترات الاستعمار. إنهم يمثلون "الآخر" الفظيع، ويعتبرون تهديدًا للحضارة، وإنجازاتها العظيمة.

وأما بالنسبة لـــ"البربين المتوحشين" (the wild)، فهؤلاء بدائيون، وهم وصمة عار على الحضارة، ويمكن استبعادهم عن سلم التقييم نهائيًا. بهذا استطاع القائمون على تعليم وتنوير المواطن الأوروبي؛ أن يرسموا صورة "البدائيين" بحرية كبيرة، كانت أسوأ حتى من تلك التي رسموها لـــ"البرابرة"، كما في حالة الأتراك والمنغوليين.

لقد استعمل الأوروبيون، الذين اهتموا بدراسة المجتمعات، هذه المجتمعات البشرية لهدفين، يبدو ظاهريًا أنهما متناقضين، لكنهما في الحقيقة على صلة عميقة.

الهدف الأول، وهو الأكثر شيوعًا واعتيادًا، هو استعمال هؤلاء "البربين" كصورة مفزعة، أو "فزاعة". وعلى سبيل المثال، كتب الرحالة الإيطالي "أمريجو فسبوكي" (Amerigo Vespucci) (١٤٥٢ -١٥١٢)، وهو أحد جغرافي عصر النهضة، يصف أحد الأماكن في البحر الكاريبي، بأنه مكان، "يوجد فيه بشر أكثر تخلفًا من الحيوان"، حيث "يمارس فيه الأبناء الجنس مع الأمهات، والإخوة مع الأخوات، والرجال مع أولاد الأخ وأولاد الأخت، وكل فرد منهم (يجامع) أول من يقابلها". هؤلاء "البربون"– كما وصفهم "فيسبوكي" – لا يرتدون الملابس، وليس لهم ممتلكات شخصية، ولا نظام اجتماعي هرمي، ولا ممنوع أو محرم في الجنس أو الدين، "إنهم يعيشون تبعًا لقوانين الطبيعة". أما الرسالة التي يراد للناس تعلمها من مثل هذه الدروس، هي أن يكون المرء مخلصا لقياداته (مثل البابا أو الملك)، وإلا فالنتيجة ستكون كارثية.

الهدف الثاني مغاير، ومعاكس للأول. لقد استخدم بعض الأوروبيين هؤلاء البسطاء، في محاولة انتقاد ثقافة المجتمعات الأوروبية، ونظروا إليهم بنظرة "يوتوبية" (utopia)، مثلما فعل "جان جاك روسو" في كتابه "المتوحش الطيب" (Lebon Sauvage)، وهو مثال شهير، لكنه ليس الوحيد بأي حال من الأحوال. وهو يبرهن

على أن المتطرفين الأوروبيين استخدموا هؤلاء البدائيين (أو ناس الطبيعة) كعامل مساعد لهم، في مشروعاتهم الدراسية لنقد مجتمعاتهم. وكذلك فعلت الأنثربولوجية الأمريكية "مارجريت ميد" (Margaret Mead) في دراستها الشهيرة، حيث استعملت سكان جزيرة "ساموا"(*) (Samoa) كمثال، في محاولة البرهنة على صحة نظريتها هي، التي وضعتها لتصف بها العلاقة بين "الجنس والنشأة"، في الطبقة المتوسطة الأمريكية الشمالية. في كتبها تقدم "الطبيعيين"، أو ناس الطبيعة، على أنهم أنقياء أطهار، خالون مما يثير، ومما يضفي تغييرًا على الإنسان، وهي الصفات التي تتميز بها الحياة المتحضرة. وبالطبع فإن الدرس الأخلاقي، في مثل هذه الأوصاف، هو: إن المدنية تمثل خطيئة، وهذه المجتمعات البكر تملك المفتاح لخلاص البشرية.

حتى في الدراسات الأنثروبولوجية المعنية بدراسة "التنوع الثقافي"، نجد فيها تكرارًا ملحوظًا في وصف "الأغيار"، وبأسلوب يتحيز للأخلاق والمبادئ الأوروبية. وبالتالي فإننا عندما نتحدث عن المجتمعات "البرية"، فإن ذلك يكون في إطار تجميل أنفسنا، ومحاولة تقوية انتمائنا للوطن، وانتصارا لمعتقداتنا الأيديولوجية. وبذلك فإننا، في الحقيقة الواقعة؛ نتكلم عن أنفسنا ولأنفسنا.

٤

حاولت عرض بعض الأفكار عن جوانب مختلفة، عن توازنات القوى المختلفة، عندما تختلط الثقافات، أو عند لقائها. ولقد اهتممت بوجه خاص، بما يسمى "قدرة التعريف" (Definition power)، وكيف يعرف الأوروبيون الآخرين المختلفين عنهم من البشر، وكيف تؤثر مثل هذه التعاريف، على تعريف الآخرين لأنفسهم؟ وكيف يكون رد فعل بعضهم؟ وسوف أحاول الآن، التأمل قليلاً في إحدى

(*) جزر "ساموا": هي مجموعة من الجزر، تقع في المحيط الهادي جنوب خط الاستواء. نالت استقلالها من نيوزيلاند عام ١٩٦٢، وأعلنت جمهورية مستقلة منذ ذلك الحين– المترجم.

تلك الظواهر، التي يمكن اعتبارها مناسبة، وغربية أوروبية. وهدفي هو، فحص إمكانية إيجاد تفاهم، وتسوية، بين البلاد الغنية التي بيدها الهيمنة العالمية، وبين الرغبات المحلية للتنمية والتطوير.

مصطلح "التنمية المستدامة"(*) (Sustainable Development) يبين بوضوح، أين توجد "قدرة التعريف". خلال هذه العقود الأخيرة، أخذ هذا المصطلح بعدًا سياسيًا متزايدًا. وأصبح إحدى علامات الهوية، في بعض الأوساط في بلاد العالم الأكثر غنى، حيث وصلت الحال إلى حد تقديسه. الرافعون لهذا الشعار، أو المصطلح، والواصفون به لحل المشاكل السياسية والاقتصادية في العالم؛ يريدون تعميمه عالميًا. بمعنى أنهم يريدون فرضه على كل المجتمعات، دون الأخذ في الاعتبار ثقافة هذا المجتمع، وحالة أفراده المعيشية. الواضح أن هذا الأسلوب، سوف يزيد الاختلافات المعتادة، بين الأغنياء والآخرين، وسوف يزيدها عمقا، وقوة.

في وقتنا الحالي، نجد الكثير من المثقفين الناقدين والناشطين في مجال البيئة، من يوجهون اهتمامهم إلى "الشعوب البدائية" (Primitive People). يتحدثون عن زعماء قبائل الهنود، وعن حكمتهم العميقة في التعامل مع البيئة. ويرددون القول: إن القبائل الأصلية، أو البدائيين؛ يعيشون حياة صحية متوازنة مع النظام البيئي (Ecological System). وإن هذا الأسلوب هو الذي سوف يخلصنا من خطيئة المدنية. وبالطبع فإن هؤلاء الناشطين المثقفين، لم يسألهم أحد إن كانوا هم أنفسهم يرغبون في أسلوب حياة، مثلما يفعل الهنود الحمر مثلاً. والقليل من هؤلاء المثقفين يهتم بالتفرقة بين القبائل في "ملانزيا"(**) (Melanesia)، وقبائل

(*) التنمية المستدامة: هي عملية تنمية وتطوير للمجتمع، بحيث نستعمل أساليب حكيمة، في التعامل مع الموارد الطبيعية، ولا نستنزفها، بحيث تستمر القدرة على التنمية للأجيال المستقبلية- المترجم.

(**) "ملانزيا": مملكة دستورية، تتكون من عدة جزر صغيرة تقع في المحيط الهادي، في الشمال من أستراليا، وكانت تابعة لها قبل الاستقلال- المترجم.

"الأمازون"[*] (Amazon). بين الحركات المنادية بالمحافظة على البيئة، في أوروبا وأمريكا الشمالية؛ تولد ميل واضح لاستعمال مصلحيّ خبيث (Cynical use) لهؤلاء الناس البسطاء من القبائل البدائية. لقد استخدم الهنود في أمريكا الشمالية، والجنوبية على وجه الخصوص؛ كشهداء الحقيقة، في الفكر السياسي البيئي الحديث (Modern Ecopolitical ideology). حيث كانوا يقدمون على أنهم بدائيون ما فتئوا يحافظون على نقائهم، وعلى بيئتهم، أكثر مما نفعل نحن في المجتمعات العصرية. ولو أحببنا استخدام الفكر الأسطوري الديني "اليهودي- المسيحي"، يمكننا وصف هؤلاء البدائيين بأنهم بشر لم يطردوا من "جنة عدن" (Eden Garden). صحيح هو القول بأن كثيرًا من المجتمعات التي تعيش على الصيد، وكذلك ممن يعيشون على التقاط وجمع الغذاء من الغابات، هم أكثر منا احترامًا وتقديرًا للبيئة. ولكن هل يعني ذلك أن هناك درسًا يمكننا تعلمه منهم؟ الإجابة هي: نعم بالتأكيد، ولكنه ليس دائمًا من السهل أن نراه.

"أقزام المامبوتي" (Mambuti)، أو "المامبو"، الذين يعيشون في الغابات الاستوائية في زائير (Zair)، يمارسون عادات معيشية، تبدو في كثير منها غريبة لنا، ومختلفة عن عاداتنا. ارتباطهم الديني بالطبيعة متعلق بقوة بنظامهم الاقتصادي، حيث يحصدون الفاكهة من الطبيعة دون تغير، أو تدخل كبير، في النظام البيئي (الأيكولوجي) الطبيعي. في عقيدتهم تعتبر "الأرض" "شيئًا خلاقًا" (Subject)، داخل نظامهم الاقتصادي، ويعاملونها بكل حب وتقدير. أما عند جيرانهم، وهم من المزارعين، فينظرون إلى الأرض والطبيعة بأسلوب مختلف تمامًا. إنها بالنسبة لهم "عدو"، يهدد حقولهم المزروعة وقراهم. وبالتالي، بينما

(*) الأمازون: هي منطقة غابات نهر الأمازون، في أمريكا الجنوبية، في البرازيل، وهي منطقة استوائية كثيفة الغابات وغنية بالتنوع البيولوجي- المترجم.

يحصد "جامعو الثمار" و"الصيادون من الطبيعة، فإن المزارعين يستصلحونها، أي أنهم "يستنبتونها" (Cultivat it)، فهي إذًا بالنسبة لهم "وسيلة" (object).

فهل يعني ذلك أن هناك خطيئة قد حدثت عند التحول من "الصيد، والتقاط الثمار"، إلى "الزراعة"؟ وهل حدث "تغير نوعي" تسبب في "تحول الطبيعة"، من كونها "صديقة"، لتصبح "عدوة"؟ تتوقف الإجابة بالطبع، على وجهة نظر الرائي. الصيادون، وجامعو الثمار؛ حياتهم قصيرة، ومليئة بالمخاطر، وليس لديهم مكان ثابت، للمعيشة، ولا إمكانية لصنع القهوة، ولا كتب ومكتبة، ولا مؤتمرات علمية عما يسمى بـــ"التنمية المستديمة" (Sustainable Development).

والسؤال الآن: هل هناك من يرغب في أن تكون حياته كهذه؟ صعب أن نجد من يجيب بنعم. للوهلة الأولى سوف يبدو أن القبائل البدائية، لها نفس وجهة النظر التي يعتنقها الناشطون في المؤسسات والمنظمات، التي تنادي بالحفاظ على البيئة، وتحسين علاقة الإنسان بالطبيعة. ولكن، نظرة فاحصة باحثة؛ سوف تؤكد أنهم يعيشون في عالمين مختلفين تمامًا. إن عالمنا المعاصر مشوب بالتغيرات السريعة، والإيقاع المتسارع، والتكنولوجيا المعقدة، وضعف الثقة، والإيمان، بأن البشرية سوف تستطيع التحكم في مستقبلها ومصيرها، وفي كل هذا تغيير ضخم، وعميق عن عالم تعودنا عليه، سابقًا.

من جانب آخر، فسوف يكون من المفيد فحص سلوك "رجل الغابة الخام"، إزاء التصنيع ومنتجاته، والتقنيات الحديثة، ووسائلها لو أتحيت لهم. وسوف نرى أن الغالبية العظمى، يرغبون في استعمال المنتجات الاستهلاكية الكثيرة، التي أنتجتها المدنية والمعاصرة. والملاحظ أيضًا أنهم يحاولون مشاركة المجتمع العالمي بدرجات متزايدة، لكن على شروطهم الخاصة. ويصبح في الحقيقة تعريف، أو وصف، جماعة معينة، بأنهم "طبيعيون وخام" يرجع إليهم، وإلى درجة قبولهم هم. سكان إستراليا الأصليون، مثلاً، لا يأخذون المشاركة في مشاريع الدولة القومية

على محمل الجد. وبالتالي ينتظر أن يوصفوا بالبساطة، والحكمة، والطهارة. بدلاً من اتخاذهم كفزاعة تستخدم للتخويف والإنذار، كما أُستخدموا من قبل. والحقيقة أنهم أصبحوا أسرى لاحتقار الذات بالنسبة للأسياد.

تقريبا، كل المجتمعات الإنسانية في العالم، لديها أساطير عن "السقوط في الخطيئة" والنقاء المفقود. وفي أوروبا، حيث كان التناقض بين الثقافة والطبيعة- اللذان مثلا زوجا من التعريفات المهمة- قد بدا، وكأن البعد عن الطبيعة يمثل "خطيئة". على هذا الأساس، كبر سوق الأيديولوجيات، التي تعتقد في أن البشر الذين يعيشون بتقنيات أقل تعقيدا، ونظام اجتماعي أبسط، هم أقرب للطبيعة منا نحن، الذين نعيش في المجتمعات العصرية. وفي مثل هذه الحالة؛ يقوى الإيمان، بأن الإنسان يصبح أكثر سعادة، لو أنه توقف عن الحياة المصنعة. ولكنه؛ سوف يكتشف حينها أن الأشياء المصنعة، والأخرى الثقافية، هما اللذان يجعلان حياتنا، ووجودنا، أكثر إنسانية، وأكثر من أن يكون وجودنا مجرد عملية بيولوجية، يستوي فيها إنسان الغابة، مع الإنسان العصري. إننا لو استبعدنا الفنون والثقافة من حياتنا؛ فلن يبقى لنا إلا أقل القليل. ونحن نعلم أنه بدون ثقافة لا يتحصل الإنسان على لغة. وهذا ينطبق على "إنسان الطبيعة" (**Nature Man**)، تماما كما هو على الإنسان العصري.

إن مصطلحا مثل "التنمية المستدامة" لا مكان له في أي نظام ثقافي غير أوروبي، فالمصطلح ينحدر منشأه في خط مستقيم من فلسفة المعرفة الأوروبية. وقصد به أن يقوم بمصالحة نظرية التطوير والتقدم، والغطرسة الأوروبية من ناحية، مع المعارف البيئية الحديثة التي سادت في الآونة الأخيرة، والتي جعلتنا نعلم أنه توجد حدود بيئية (إيكولوجية) للتنمية، كما أعلن عن ذلك "نادي روما"، في منتصف السبعينيات من القرن الماضي. عقيدة "التنمية المستدامة" تفترض- كما هو الحال في الإيديولوجيات الأخرى عن التطور- إن البشر هم المسئولون عن مستقبلهم، وأنهم وحدهم، الذين يتحكمون في وجودهم الحالي والمستقبلي. وهي مرتبطة بنظرة إيجابية لكل ما هو جديد، وأن التطور الاجتماعي شيء حسن

ومرغوب فيه، وإيمان متفائل بأن التقنيات غير الملوثة للبيئة قادرة على قيادة المستقبل في طريق فائدة البشرية. على هذا الأساس؛ فإن نظرية "التنمية المستدامة" تمثل نظرية الرقي والتقدم، في أعلى درجاتها: إنها تأخذ بالتقنيات الحديثة، والنمو الاقتصادي، وفي نفس الوقت تصلح ما أفسدته التقنيات في الطبيعة، والتي تسببت في حدوثه. لقد أصبح جيلنا الحالي يؤمن بأن إنقاذ الطبيعة هو مشروع ثقافي. وطبقًا للتفكير السائد في أوروبا؛ فإن الطبيعة لا تستطيع تعويض ما فقدته، ولا إصلاح نفسها، بمعدل يتناسب مع أساليب الاستهلاك الحالية. وبناء على ذلك، فإنه من الأساسي، أن تلقى الطبيعة مساعدة عالية التحضر من البشر؛ تحميها من الخضوع ثم الموت. بتعبير آخر يمكن القول: إنه لا يوجد تعارض أساسي بين أفكار التنمية والتطور التقليدية، والأيديولوجية التي تتحدث عن "التنمية المستدامة"، كلاهما يؤمن بأن الإنسان وحده، هو الذي يتحمل مسئولية "مستقبله"، وإمكانية التخطيط لتنميته.

أسلوب التفكير السابق سوف يبدو غريبًا للمجتمعات "المعتادة"(*) **(Traditional)**، سواء كان مجتمعًا من الصيادين، أو من جامعي الثمار، أو من المزارعين. إن التفريق بين الثقافة والبيئة الطبيعية المحيطة، الذي ربما يكون مشتركًا إنسانيًا في حد ذاته؛ يمكن أن يعطي انطباعات متباينة شديدة الاختلاف، في المجتمعات المختلفة المتباينة. علاوة على ذلك، فإن الفكر الذي يزعم أن المجتمع الإنساني يحوي مليارات من البشر، لا نعرفهم، ولا يربطنا بهم رابط، هو فكر أوروبي بحت. لذا، لو زعمنا أن فكر "التنمية المستدامة" **(Sustainable Development)** صالح للتطبيق في كل المجتمعات؛ لكان ذلك قصر نظر، وتبجحًا وغطرسة، تماما مثل الزعم بأن عصر النهضة، وحقوق الإنسان يجب أن يطبق

(*) اختار الكاتب تعبير الإنسان المعتاد، أو المجتمع المعتاد، بدلاً من الإنسان، أو المجتمع، البدائي أو البري، الشائع الاستعمال عند كثير من الكُتاب الأوروبيين– المترجم.

عالميًا على الطريقة الأوروبية. وبالتالي فإن دعوتنا لمجتمعات "السكان الأصليين"، في القارات المختلفة؛ لمشاركة الأوروبيين، في إنقاذ الكرة الأرضية، ليس من قبيل "النسبية الثقافية"، ولن يكون مختلفًا عن وصفنا لهم، بأنهم من آكلي لحوم البشر. ففي كلا الحالتين يُستخدم "السكان الأصليون" كرمز، وتفرض عليهم مشاريع أيديولوجية، ليست خاصة بهم ولا مناسبة لهم.

بالنسبة للعديد من سكان العالم؛ فإن مشكلات الفقر، هي الأكثر إلحاحًا من مشكلات البيئة. ولو أن نشطاء المحافظة على البيئة، في البلاد الإسكندنافية مثلاً، انطلقوا إلى غابات غينيا الجديدة ليطالبوا السكان المحليين بالتوقف عن قطع الأشجار، حماية لـ"طبقة الأوزون" (**Ozon Layer**)؛ فسوف يعتبرون إما مثيرون للغيظ أو مجانين. منذ عدة سنوات ليست بالكثيرة، دعا خبراء أوروبا وشمال أمريكا حكومات العالم الثالث؛ لاتخاذ سياسات التنمية الصناعية، وتحديث المجتمع بأي ثمن. ثم، وبعد وقت قصير، تسمع هذه الحكومات نفسها النداء بالأخذ في الحسبان "التنمية المستدامة" للمحافظة على البيئة. وفي كلا الحالتين، هم- الأوروبيون- الذين يتحكمون، في كلٍ من رأس المال والتكنولوجيا. وهم الذين يضعون الشروط عند التفاوض، وتبادل الآراء. ويصبح الحديث، عن المشاكل والأزمات البيئية، مثله مثل الحديث عن الديمقراطية، والتنمية، والحضارة، والدين الصحيح، والتصنيع. وفي جميع الحوارات يحاول الأوروبيون، والشمال أمريكيين؛ إجبار الآخرين، على قبول شروطهم الثقافية. وبسبب اختلال التوازن في ميزان القوى، يعتقدون أنهم يستطيعون اجتياح بلادهم، ولا يلقون بالاً إلى معرفة شيء، عن احتياجات الأخرين، لمراعاة الأحوال الثقافية، والاجتماعية.

ليست الحقيقة هي: إن خمس سكان العالم الأغنى هم الذين ينتجون الأكثر، ويستهلكون الأكثر، ويملكون الأكثر، ويلوثون البيئة بالدرجة الأكبر فحسب؛ بل إنهم أيضًا، هم من يقرر، أي صورة للعالم ومشاكله، هي التي يجب أن تسيطر. إن

البناء الثقافي الأوروبي؛ هو الذي له قدرة التعميم الأكبر، من كل الآخرين، سواء كانت الثقافة صحيحة، أو غير ذلك. وذلك لأن الدول الغنية، هي التي تمتلك "قوة التعريف، والتوصيف"، أي القوة لتعيين ما الذي سوف يُعرَفْ، وكيف يُعرَفْ.

هل يمكننا، إذا، القول أن الحديث عن "التنمية المستدامة"، هو من "الإمبريالية الثقافية"، مثلما نفرض على الآخرين أن يتحولوا إلى المسيحية؟ وهل نكتفي بأن يوجه بعضنا الحديث إلى بعض، في هذا الجزء من العالم الغني؟ مثل هذا الاستنتاج سوف يتبادر سريعًا إلى الذهن.

على الرغم من أن "فكر الاقتصاد السياسي" **(Ecopolitical Thinking)** ، هو اكتشاف أوروبي ذو منشأين، الأول من فلسفة المعرفة **(Enlightenment Philosophy)**، والثاني من الأيديولوجية التكنوقراطية **(Technocratic Ideology)**، إلا أننا يمكننا قول، إنه صالح للتطبيق عالميًا. والسبب يكمن في أنه يعالج المشاكل، التي يعتقد أنها شديدة الأهمية، في أنحاء العالم، سواء رضينا أم أبينا. وليس هو مجرد فكر يصلح استخدامه في بعض المجالات الفلسفية.

لقد فرضت أوروبا وأمريكا الشمالية نفسيهما على الآخرين، في الواقع الملموس. وقد استمر ذلك خلال بضع مئات من السنين بدرجات متفاوتة، وذلك من خلال: الاستعباد والعبودية، والتبشير الديني، وإدارة المزارع والمناجم، وتطبيق نظام العمل في مقابل الأجر، والاستعمار، وإنشاء الدولة، والتبعية من خلال الإقراض والمنشآت الاقتصادية، في مختلف أنحاء العالم، والآن من خلال الكوارث البيئية العالمية. والأفكار الرومانسية التي نحلم بها، عن عدم التدخل ومحاولات السيطرة، والعيش في ظل تعددية ثقافية عالمية تنمو وتزدهر على حسب إرادتها وظروفها، ليست قابلة للتحقيق سياسيًا، الآن على الأقل. الجرح والأذى قد وقع وتم، ولا يوجد لدينا طريق للعودة إلى العفة والبراءة التي فقدت. والغالبية العظمى من سكان العالم مشاركون بدرجات متفاوتة في مشاريع المدنية والحداثة- إنهم

مشاركون في أعمال نظير أجر، يشترون احتياجاتهم عن طريق دفع نقود في مقابل لها، وعليهم واجبات ولهم حقوق داخل الدولة التي يعيشون فيها، وربما يحلمون بامتلاك المرسيدس. ولو اتخذنا المعيار الإسكندينافي لقياس الفقر، فإن معظم البشر يمكن تصنيفهم في فريق الفقراء، ولا حول لهم سياسيًا ولا قوة، إلا أن ذلك لا ينفي أنهم مشاركون في نظام عالمي قوي الأركان، شديد التماسك محكم، ولو كان ذلك بدرجات متفاوتة.

إن عالمنا المعاصر مائل للانكماش، وكما يقولون، أصبح العالم قرية صغيرة، ويبدو ذلك ظاهرًا بطرق وأساليب متعددة. هناك وفرة في: البضائع، والمعلومات، وأعداد البشر، والقوى السياسية وتنوعها، ورأس المال في كل أنحاء العالم. ارتفاع أسعار البترول تحدث تغييرًا أساسيًا في اقتصاد الدول، والسجائر النرويجية من ماركة الأمير، أصبحت معروفة، ومستخدمة في "برازفيلا" **(Brazzaville)** عاصمة "الكونغو"، كما هو الحال في "دالاس" **(Dallas)** المدينة الأمريكية. وأفضل المطاعم الصينية في العالم يجدها المرء في "فانكوفر" **(Vancouver)** الكندية، وعندما تنشب حرب في الخليج الفارسي (العربي)؛ تناقش تبعات الحرب، وآثارها في القرى الصينية الصغيرة. ومن الممكن للمرء متابعة بطولة العالم في القرى الصينية الصغيرة، ومن الممكن للمرء متابعة بطولة العالم في "الكريكت" **(Cricket)** مباشرة، سواء في التليفزيون الهندي، أو البريطاني، بينما الدورة مقامة في إستراليا. وفصائل المقاومة المسلحة في المقاطعة الهندية "أنديرا براديش" **(Andhra Pradesh)** وكذلك في غابات أمريكا الوسطى المطيرة، تصبح مثالاً يحتذى لكل من الماركسيين الألمان والماويين الصينيين في نشاطهم السياسي.

لو نظرنا إلى العالم بمثل هذه النظرة، فسوف يبدو لنا وكأنه دولة واحدة. وبالفعل فإن الكثير من الأسئلة السياسية تأخذ صفة العالمية في تأثيرها. ومن هذه الأسئلة المشكلة البيئية، التي استحوذت حيزًا كبيرًا من مائدة الحوار الإسكندنافية.

لقد أبانت هذه المشكلة، ضعف قدرة البيئة على التوازن، وحساسيتها للتغيرات، مما ولد شرخًا في إيماننا بالمستقبل(*)، وأوحى إلينا أحلامًا متوالية تراودنا عن "العودة إلى الطبيعة" كمجال للاستثمار الصناعي. من مثل هذا المنظور أصبحت مشاكل البيئة في أجزاء أخرى من العالم تمثل مشكلة محلية. ولكن يجب التفرقة بين مستويات القضية. فمن ناحية، فإن أيديولوجية المشكلة البيئية هي، دون جدال، أوروبية وشمال أمريكية، وبذلك تكون مشكلة محلية بالرغم من انتشارها في مناطق أخرى من العالم المتمدين. ومن ناحية أخرى فإن نفس المشكلة يمكن وصفها بأنها عالمية بامتياز. خبراء البيئة وأنبياء يوم الحساب(**) **(Prephets of doom's Day)** ما فتئوا يتحدثون عن تلوث البيئة، وأن التغيير السريع في البيئة الطبيعية؛ سوف تكون له آثار كارثية وعالمية، على المدى القصير. صحيح أنه، من المستحيل لإنسان غير متخصص، التأكد من صحة معلوماتهم، إلا أن الإيمان بما يقولون يزداد يومًا بعد يوم، خاصة في الجزء الذي نعيش فيه من العالم، وبنفس الطريقة التي آمن بها الناس بالأديان من قبل. ودعنا إذا نبني على أساس أنهم على صواب، وأن تغييرًا جذريًا في نظامنا الاقتصادي يحتاج إلى تغيير، حتى تستطيع الأجيال القادمة، من أبنائنا وأحفادنا؛ أن تعيش حياة طيبة مريحة. وبما أن "العالم كله" مرتبط ومشارك في نفس النظام الاقتصادي، فمن المعتقد أن "الآخرين" من غير الأوروبيين والشمال أمريكيين بالضرورة سوف يكونون تابعين. هؤلاء الذين

(*) في أثناء مراجعة هذا الفصل من الكتاب ضربت البيئة اليابان بإحدى قواها، في صورة زلزال مدمر، بقوة تقارب تسع درجات في مقياس ريختر، مما أتبع ذلك تسونامي أعطب نظم التبريد في المفاعلات النووية، مما تسبب في وصول درجة الحرارة إلى ما يقارب ثلاثة آلاف درجة مئوية، وأدى ذلك إلى انصهار قلب المفاعل وانطلاق الإشعاع. وسبب التسونامي حصد الآلاف من أرواح البشر، في كارثة مروعة، وهذا مما يؤكد أهمية الحوار في مناقشة المشاكل البيئية واتخاذ التدابير اللازمة للحماية، والمحافظة على البيئة وعدم تلويثها- المترجم.

(**) في الثقافة المسيحية الأوروبية، فإن كلمة النبي **(Prophet)** تعني كلا من: رسول من الله، والرجل الفاضل الذي يستطيع إخبارنا بالغيب والمستقبل- المترجم.

لم يكتشفوا مصطلح "التنمية المستدامة"، لكن عليهم، دعم نفس الإيديولوجية، حتى يمكنهم المشاركة في الحياة بفاعلية.

على ما يبدو فإن مثل هذا التحليل منطقي. ولو أن الصواب حالف أنبياء يوم الحساب هذه المرة، فقد جانبهم الصواب في حال التنبؤ بنهاية العالم مرات سابقًا، فسوف نجد أنفسنا، أمام حالة أيديولوجية استثنائية، فيها يتأكد وجوب تطبيق "الفكر الأيكولوجي" المناسب، والعملي، عبر أسلوب سلطوي حازم على كل أنحاء العالم، وبعض النظر عن الفروق في مستوى المعيشة ، والأحلام والأماني والرغبات التي يحلم بها ويرغبها الفقراء.

ربما يكون ذلك صحيحًا، لكن الموضوع له جانب آخر متعلق بالقوة. فيلم الخيال العلمي الأمريكي المشهور، المسمى "الأرض، سفينة الفضاء" **(Space Ship Earth)** يخبرنا أن البشرية كلها على الأرض في نفس السفينة (الكرة الأرضية). وبالطبع، اقتبست صور الفيلم ومشاهده، من تكنولوجيا الفضاء وصور للأقمار الصناعية للأرض. بأسلوب آخر، إن الفيلم يُعتبر "منتجًا ثقافيًا"، أو "بناء ثقافيًا"، صنع في أمريكا الشمالية، لا أكثر ولا أقل، ولكن المضمون الفكري الذي يحتويه- وهو أن البشرية أسرة واحدة مسئولة عن بعضها البعض- ليس فكرًا محليًا. ولكن، أغلب البشر يعيشون في مجتمعات قريبة، ومحددة، حيث يطغى عليهم شعور إنقاذ أفراد العائلة القريبة، على إنقاذ الكوكب. ولهذا فهم يقطعون الأشجار، ويحرثون أرضا معرضة لأن تصبح صحراء بعد عدد من السنين، ويلدون الكثير من الأطفال على قدر استطاعتهم، وهكذا. وهل هذا تقدير خاطئ منهم؟.

هذا السؤال ليس في محله. ليس في استهلاك الصينيين والهنود، الذين يمثلون ثلث البشرية؛ يكمن حل المشاكل البيئية، من تغييرات حرارية، وثقب أوزون. وأيضا، ليس في الإقلال من الاستهلاك للموارد في الدول الأفريقية ودول أمريكا الجنوبية؛ يكمن حل مشاكل التصحر، والتغييرات المناخية، فكلاهما معًا

يستهلكون من الطاقة أقل من دولة واحدة متوسطة الحجم، من الدول الغنية. مشاكل البيئة تكمن أسبابها في "ثقافة الاستهلاك" (Consumption Cultur) الشائعة في الدول الغنية، وليس في الفقراء من البشر الذين يجاهدون لنيل حياة لائقة. من ناحية أخرى، ليس من المؤكد أن البشر، في البلاد الفقيرة، يحيون حياة سيئة كما يعتقد. فالبلاد الغنية، هي التي وضعت حد الفقر، تبعًا لفهمهم وتصورهم عن الفقر والغنى. لذلك فعلى الرغم من أن الكوارث البيئية، لها آثار عالمية؛ إلا أنه ليس من الضروري أن نصفها بأنها مشكلة عالمية. فمن خلال قدرة الدول الغنية، على التحكم في رؤوس الأموال، والقوة العسكرية، يمكنهم فرض أسلوب الحياة للدول الفقيرة، رغمًا عن أن بعض هذه الأساليب سوف تؤدي إلى انحدار مستوى المعيشة. ومثل هذه الضغوط سوف يكون لها نتائج سيئة في الواقع العملي، عندما نأخذ في الاعتبار المبادئ الإنسانية الأساسية في الحياة اللائقة. وربما يكون الحل الأنسب، بادئ ذي بدء، أن يتخذ الملوثون الأكبر للبيئة قرارات محلية لتغيير أسلوب حياة سكانهم أولاً، إن أرادوا منع التغيُّر البيئي والمناخي للكرة الأرضية. وإلى جانب هذا، يجب ملاحظة أنه على الرغم من أن العالم يجب اعتباره مكانًا واحدًا، إلا أن أجزاءه مصنعة محليًا، في مجموعات بشرية تعيش في بيئات مختلفة. ولو أردنا النجاح في تغيير أسلوب حياة البشر، فعلينا بداية، الأخذ في الحسبان الموارد البشرية والثقافية، في كل مكان، على حده. هذه الموارد مختلفة، وبالتالي فإن صور "التنمية المستدامة"، سوف تأخذ أشكالاً مختلفة جدًا في النرويج عنها في الهند، على سبيل المثال.

إن الأسلوب الذي ما زلنا نستعمله في كتابة "الجغرافيا الثقافية"، ما زال أسلوبًا عامًا، وغير متخصص. فهو لا يقصد منه وصف موضوعي للمجتمعات المختلفة، إنما يقصد به الدلالة على أن "ثقافة الكاتب"، هي الأفضل. أو أن ذلك المجتمع يجب إعادة تشكيله بأسلوبنا. هنا يمكننا سرد بعض الروايات الساخرة الكثيرة التي يحكيها البحارة وأفراد المؤسسات والجمعيات، المنوط بها المساعدة

الاجتماعية، والآخرون الذين يتقابلون مع المجتمعات الأخرى. هذه الروايات والحكاوي، على الرغم من تنوعها؛ إلا أنها متماثلة، ولها مضمون واحد، هو: "هناك ... هناك، في الجنوب، يستحيل على المرء فعل شيء". وبعد ذلك نسمع عن مخازن السمك الجاف العفنة، على الميناء النيجيري "لاجوس" (Lagos)، وعن الناس الذين لا يحترمون المواعيد، وعن المطاعم المتسخة، وعن موظفي الهيئات الحكومية الفاسدين، الذين يمثلون عثرة كأداء في وجه كل محاولة حسنة النية للتطوير، وعن بائعات الجنس المصابات بمرض الإيدز، وعن أمثلة لا حصر لها، تحاول البرهنة على أن الثقافات الأخرى أسوأ، وأقل قدرًا من ثقافتنا نحن. "إنها ببساطة، مختلفة نوعيًا عن ثقافتنا، ومجتمعاتهم لم تصل بعد إلى ما وصلنا إليه". "وتترى على أسماعنا الحكايات الرومانسية، التي تتحدث عن "إنسان الغابة البكر"، وكيفية سلوكه، والمشاريع التكنولوجية التي أخذوها عنا.

درجة العجز التي نجد فيها أنفسنا، نشأت أساسًا من المدنية والمعاصرة. ولذا فالواجب حلها، بوسائل المدنية والمعاصرة. وبالتالي، فإن حل الكارثة البيئية، لا يكون في اللجوء إلى القبائل الأقل تمدينًا، وسؤالهم النصائح الحكيمة. ولا يجب توقع أن "الآخرين"، المختلفين عنا- سواء كانوا فقراء أم أغنياء - سوف يفكرون بنفس أسلوب تفكيرنا. عندما يتحدث الأوروبيون عن المشاكل البيئية، ويعتقدون أنهم يتحدثون نيابة عن الإنسانية؛ فهم بذلك، يسلكون عادة قديمة من حس "المركزية الإثنية" (ethnocentric)، (أو النرجسية). في الفكر، والأيديولوجية الأوروبية: لو استطاع المرء أن يلبس فكرته ثوبًا عالميًا؛ فسوف يحصد قبولاً وتصديقًا في داخل مجتمعه، هو. ولذا، فعندما تطالب البلاد الغنية بـ"تنمية مستدامة" في البلاد الفقيرة، فإنهم يفعلون، مثلما فعل آباؤهم الأوروبيون منذ "كولومبس": تفوق تكنولوجي، وقوة عسكرية، يضغطون بها على الآخرين لاتباع إرادتهم، سواء رغبوا أم كرهوا. هذا الأسلوب غير الديمقراطي، يجب نسيانه، والتخلي عنه، والبدء في البحث عن حلول؛ تستخدم الإمكانات الموجودة محليًا. بذلك ينال المجتمع المحلي حياة لائقة، دون تدمير الطبيعة، وتركها خاوية للأجيال

القادمة. ويجب أن يتم ذلك، بغض النظر عن اختلاف الآخرين عنا، وعما إذا كانوا برابرة، أو بدائيين في البرية.

***

بأي حق يمكننا القول عن أي ظاهرة ثقافية: إنها ليست غربية؟ ومن ثم نصفها أنها ليست أصيلة، وذلك عند ملاحظة وجودها في أحد البلاد الحارة في الجنوب. وفي محاولة للإجابة عن هذا السؤال، سوف أعود مرة أخرى إلى الحوار الذي دار بين الكُتّاب الأفارقة، والذي كان موضوعه: بأي لغة يجب على الكاتب الإفريقي أن يكتب بها؟ الكاتب الجنوب إفريقي "نجوجي" ومحاوروه؛ ليسوا في الحقيقة مختلفين؛ بل متفقون، بدرجة أكبر مما يريدون الاعتراف به. فالجميع يؤمن بأن تعلم لغتين أو أكثر، هو حل عملي لإثراء التقاليد. إنهم جميعًا، باختصار، يذهبون إلى ما أسميه أنا بـ"الكرولة الثقافية" (Cultural Creolization)، فعندما علم وتيقن "نجوجي" أنه يجيد الكتابة بالإنجليزية، كأي كاتب إنجليزي، عندها بدأ بالكتابة بلغة الأم المسماة "جي كويو". أما في حالة الكُتّاب الآخرين، من زملائه الذين لم يحصلوا على تعليم كافٍ للإنجليزية، أصبح هدفهم الأول هو إجادة الإنجليزية، إلى درجة تماثل اللغة "الأفريكانية" (Afrikaans)، واللغة "إكسوسا"(*) (Xhosa). ولا يوجد سبب مقنع للشك، أن يكون "وول سوينكا" (Wole Soyinka) قد حالفه الصواب، عندما أشار إلى أن رواياته تنتسب بخط مستقيم، إلى كلٍ من أساطير آبائه، من"اليوربا"(**) (Yoruba)، وإلى كتابات "شكسبير"، إن ما يهم هو ما يفعله الإنسان الفرد بهما، وليس من المهم من أين جاءوا.

(*) "الإكسوسا": اسم لقبائل جنوب إفريقية، وهم يتحدثون بلغة تسمى باسمهم، وهي إحدى لهجات اللغة "الأفريكانية"، وهذه الأخيرة لها أصول جرمانية غربية، وهي اللغة المستعملة في جنوب إفريقيا السوداء، وناميبيا. وهي مشتقة من اللغة الهولندية– المترجم.

(**) "اليوربا": أكبر المجموعات العرقية في إفريقيا الغربية، وهو أيضًا اسم اللغة التي يتحدثون بها– المترجم.

المقال السادس

بين الاحترام والإهانة: أوروبا والمسلمون

١

بداية دعنا نعترف: على مدى أكثر من ألف عام، وفي فترات متكررة، اعتبرت القيادات الإسلامية والمسيحية، كلاً منهما الأخر عدوها الرئيسي. وبناء على هذا قاموا بتشويه صورة دين الآخر، واعتبروه ذا قيمة أقل، وأسوأ من دينهم. الفروق الصغيرة بين الديانتين- والتي تبدو ضئيلة لفرد هندوسي، أو علماني لا يؤمن بدين- نُفخ فيها، وضُخمت، واستخدمت شرارة بدء لحروب استعمارية، وعنف، ومحاولة سيطرة من كلا الطرفين. وأصبح البحر المتوسط- أغلب الأوقات- يمثل أهم الحدود الجغرافية بين الديانتين. وكان من الطبيعي أن تكون مُدن مثل بيزنطة (سميت بعد ذلك القسطنطينية، والآن إستانبول التركية)، وجزر مثل مالطة وقبرص- التي تعتبر جغرافيا حدوذا بين أوروبا وآسيا- تمثل مناطق حدودية تختلط فيها معالم الديانتين. أما من الناحية الثقافية، فكثيرا ما توصف منطقة البحر المتوسط بسمات ثقافية مشتركة، مثل: الشرف والعار، وسلطة الوالد في الأسرة، وانتساب الأبناء إليه، والتحكم والسيطرة المرضية البارانودية **(paranoid)** في كبح الرغبة الجنسية عند الإناث، والرجولة والذكورة، وتقديس الأفراد، والإيمان بالمقدس، والاعتقاد بالحسد والعين. ومن الناحية السياسية فقديمًا أطلق الرومان على البحر المتوسط "مارا- نوسترم" **(Mare Nostrum)** والتي تعني "بحرنا" **(Our sea)**، وكان يمثل لهم حدوذا واضحة المعالم. أما على أرض الواقع، ففي الثقافات الفلكلورية للمنطقة الكثير من السمات المشتركة بين ضفتي البحر المتوسط. والكثير فيها مما يوحد، وليس مما يفرق.

المواقف الأوروبية - أو قل المسيحية - العدائية للإسلام بالتأكيد ليست جديدة، على الرغم من أنه في القرون الأخيرة أبدى كل من اليهود والشيوعيين سلوكًا أكثر عدائية لأوروبا من سلوك المسلمين. هذه الصور الخاطئة- الكاذبة في بعض الأحيان- التي يختلقها كل من الأوروبيين(١) والمسلمين عن الآخر؛ يمكن اعتبارها جديدة، فقط، لأنها تحدث في مناسبات حديثة ليس إلا. فهي- إذًا- أنماط قديمة ترتدي حللاً حديثة، خاصة بوقتنا الحاضر، لكنها في نفس الوقت تحمل صفات مشتركة مع الصورة العدائية القديمة، صور يتم استبدال بعضها ببعض بدرجات متفاوتة. هذا السبب وحده؛ يبرر استعراضنا تاريخيًا سريعًا للعلاقة بين أوروبا والإسلام. فنظرة فاحصة للتاريخ تبين أيضًا أن المسيحيين كانوا- على الأقل - متماثلين في العدائية، وعدم التسامح مع المسلمين في عصور سابقة.

أسس الإسلام في عام عشرة وستمائة (٦١٠) تبعًا للتقويم المسيحي الميلادي(٢)، وحقق بسرعة نجاحًا كبيرًا. فالدين الذي أسسه محمد (عليه الصلاة والسلام) انتشر في كل الجزيرة العربية في حياة النبي الذي توفى عام ٦٣٢ ميلادية. ولم يمض قرن من الزمان حتى انتشر في شرق آسيا، وشمال إفريقيا على يد من خلفوا النبي. وتبعًا لذلك فقد كانت للإسلام بداية مختلفة عنها للمسيحية، فاعتناق الأوروبيين الأوائل للمسيحية؛ أدى بهم إلى حياة مثيرة للشفقة في السراديب الرومانية، أو على مدرجات حلبات المصارعة "الكولوسيوم" (**Colosseum**) انتظارًا لدورهم في المصارعة التي تجرى لتسلية السادة. بينما بعد قرن واحد فقط من وفاة محمد (عليه الصلاة والسلام) انتشر المسلمون من جبال "الهيمالايا" في آسيا الوسطى، وحتى جبال "أطلس" في الشمال الغربي الإفريقي.

وخلال قرون قليلة أصبح الإسلام هو الدين الأهم والأكبر في جزيرة "جاوا" الأندونيسية، وفي شبه جزيرة أيبيريا، أو إسبانيا والبرتغال، الواقعة في الجنوب الغربي الأوروبي، وكذلك بين المتحدثين بالتركية، وفي كثير من الأماكن من الصين وحتى البلقان.

وأصبح الإسلام له وجود دائم، وبدرجة محسوسة في مناطق حزام السافانا في الغرب الأفريقي، وامتدادًا على الشاطئ الشرقي الإفريقي أيضًا. كذلك كان- وما زال- له وجود ملحوظ في شبه القارة الهندية، مع ملاحظة أن بعضًا من المناطق التي سيطر عليها المسلمون سقطت في أيدي المسيحيين، سواء أثناء الحملات الصليبية، أو بعدها، كما هو معروف. ويمكن ذكر، أن جزءًا آخر سيطر عليه اليهود بعد الحرب العالمية الثانية. لقد كان عام "كولومبس" (Columbus) ١٤٩٢ ميلادية، هو العام الذي ميّز بداية السيطرة الجيوسياسية الأوروبية الأكيدة (وبعض الكتاب والمؤرخين يعتبرون هذا العام هو عام بداية الحداثة والتطور). وكان ذلك العام هو نفسه العام الذي بدأ فيه الأسبان طرد "المور" (Moor)- كما أسموهم، والتي تعني البرابرة المسلمين- ومعهم اليهود نهائيًا من الأندلس في أسبانيا. هؤلاء الذين أخرجوا من المناطق المسيحية غير المتسامحة، رحلوا إلى مناطق أقل توترًا. والكثير منهم وجد الحماية في المناطق الواقعة تحت سيطرة المسلمين. ما عدا ذلك فإن المسيحيين والمسلمين قد عاشوا، أو تعايشوا، في مناطق تابعة لبعضهم البعض ولفترات طويلة. وكان التسامح هو السائد- بغض النظر عن أن الهدف الأساسي للمسيحيين من استضافة المسلمين كان الرغبة في تنصيرهم، والعكس صحيح أيضا من ناحية المسلمين.

وبهذه الطريقة تواجدت آخر البؤر الإسلامية في أوروبا، في الإمبراطورية العثمانية التي سيطر عليها وحكمها المسلمون. ولكن من المهم أن نلاحظ أن الجزء الذي حافظ على سمة التنوع والعالمية، والتعايش الديني في يوغسلافيا كانت البوسنة، وفيها عاش الكاثوليك، والأرثوذكس، والمسلمون، واليهود، معًا مع بعضهم البعض، على عكس المناطق "النظيفة عرقيًا" مثل صربيا (Serbia)، وكرواتيا (Croatia) وسلوفينيا (Slovenia)، وهي مناطق لم تكن تحت حكم وإدارة المسلمين. وأيضا ما زلنا نجد أقليات من المسيحيين الأوائل في بلاد غالبية سكانها تحولوا إلى الإسلام، مثل الأقباط في مصر، والأرمن في إيران، والمارون

في لبنان. ومن الجدير بالذكر أن بعض الاضطهاد الذي تتعرض له تلك الأقليات المسيحية- مثلهم مثل المسلمين في البلاد ذات الغالبية المسيحية - ناتج عن خلط الإسلام بالسياسة، وكذلك الاستقطاب بين أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية من جهة، والعالم العربي من جهة أخرى. وفي الحقيقة لا توجد أية وقائع تاريخية يمكن أن تذكر لتدعم وجهة النظر القائلة إن الإسلام أقل تسامحًا من المسيحية.

هذا التمدد والتوسع الإسلامي الأول- الذي توافق مع الانهيار والتفرق الذي ساد العالم المسيحي في قرون ما بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية الغربية- جعل الإسلام يصبح المنافس الأهم للمسيحية الغربية، الآن ومنذ القرون الوسطى. كذلك كانت المسيحية، تمثل المنافس والتهديد الأهم بالنسبة للمسلمين. وبالتالي نشأ على ضفتي البحر المتوسط، ومضيق الدردنيل حالة من العداء، فيها وصف كل من الطرفين الآخر بطريقة ساخرة، ومستهزئة، وكثيرًا ما استخدموا "الأحكام النمطية المسبقة" للحط من قدر الآخر والانتقاص منه، أو تجاهل الآخر تمامًا في وسائل المعرفة السائدة الرسمية. مثلاً: كم من كتب التاريخ النرويجية- التي تدرس في المدارس النرويجية- تتحدث عن الغباء والبلادة التي حلت بالمجتمعات الإسلامية؟.

في العصر الوسيط الأوروبي كانت المجتمعات الإسلامية تضرب مثلاً للمجتمعات المنظمة إداريًا والمنتجة. ومثلث فترة العباسيين عصر العرب الذهبي، بدون شك. الفترة التي بين منتصف القرن الثامن وحتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي (٧٥١-١٢٥٨ ميلادية). في هذه الحقبة تكونت الصورة الكلاسيكية للإسلام، وطورت وتوسعت دراسات القانون، وجمعت ودونت كتب الحديث، وتشكلت الفلسفة الإسلامية المتصوفة(٣). في هذه الفترة كان الزوار الأوروبيون يصفون بلاد المسلمين بأنها: جبال من الملح، ونافورات من الزيت، وهبة من السماء، وتلاميذ الجنة، والبهارات العطرية، والأحجار الكريمة، والعنبر ذو الرائحة الزكية، والفاكهة ذات المذاق الحلو(٤). وكما هو معروف فإن أهم مراكز الفلسفة،

والعلم، والثقافة وجدت في العالم الإسلامي. حتى الفن اليوناني الجميل أمضى فترة "سباته الشتوي" في حضن المثقفين المسلمين، وكان المسيحيون يمثلون "الآخر" بالنسبة لهم. وهكذا أصبح المسيحيون يقارنون أنفسهم دائما بالمسلمين. وأصبح المسلمون-بالنسبة للمسيحيين- هم الأقربون، وكانوا المنافسين الرئيسيين بالنسبة لهم. وهكذا أصبح المسيحيون يقارنون أنفسهم دائما بالمسلمين. ولو أردنا قول ذلك باستخدام المصطلحات العلمية لقلنا: إن المسيحيين مارسوا "التوفيق" (أو الموائمة Compliment)، أو "التشبه والمحاكاة" (matching). كل شيء عند المسلمين يريدون مثله، بل أفضل وخيرًا منه. هذا الأسلوب في السلوك والآلية (mechanism)- في الحقيقة- يؤدي إلى نتيجة لطيفة، فكلما حاولت مجموعتان عرقيتان أن يتمايزا، وأن يكونا مختلفين زاد التشابه بينهما. هذا ينطبق- على وجه الخصوص- على مبادئ وقيم الأديان الحية. علاوة على ذلك، فإن الحملات الصليبية يمكن أن تفهم على أنها محاكاة "للحرب المقدسة" (الجهاد) عند المسلمين. ذلك يمكن أن يقال على الرغم من أن بعض المسيحيين- ربما- يفضل أن ينظر إليها على أنها رحلات حج.

ولكن كيف نظرت المجتمعات الإسلامية في الشرق الأوسط إليها؟ لقد اعتبرت الحملات الصليبية غزوات بربرية بالطبع. وأطلق اسم "الفرنجة" على كل الأوروبيين(٥)، الذين استطاعوا أن يخربوا وينهبوا لنصف قرن قبل أن يستطيع قواد المسلمين تجميع أنفسهم لمواجهتهم. "انظر إلى الفرنجة"، صاح صلاح الدين وهو يحاول حشد المسلمين. وصلاح الدين هو القائد الذي أصبح- فيما بعد- في لائحة الأبطال. فهو الذي حرر القدس قرب نهاية القرن الثاني عشر. "انظر كيف أن الفرنجة يحاربون دون كلل أو ملل من أجل دينهم، بينما نحن المسلمين ليس لدينا أي حماس أو رغبة في الجهاد(٦). لقد اعتبر الفرنجة متعطشين للدماء، محاربين برابرة غير متحضرين، مسيحيين متطرفين قتلوا الآلاف من الأبرياء. وبالمناسبة يجب ذكر أن الصليبيين لم يقتلوا فقط المسلمين، بل قتلوا أيضا معهم

مسيحيين شرقيين من مختلف الطوائف، الذين كانوا أعضاء في مختلف الكنائس والمعابد الأثرية، الذين عاشوا جنبًا إلى جنب مع المسلمين قرونًا من الزمان.

على الرغم من تخلفهم العلمي، فقد استطاع الأوروبيون الغزاة أن يسجلوا تفوقًا عسكريًا على العرب، لسببين- هذا التفوق هو الذي يشرح لماذا لم تنقرض الدويلات الصغيرة التي أنشئت في غرب آسيا أثناء الغزو الصليبي، والتي حافظت على قوتها العسكرية لأجيال عديدة: السبب الأول هو أن عصر الازدهار العربي كان قد بدأ فعلاً في الأفول. كان ذلك تقريبا عام ألف ميلادية، فمن ذلك الوقت بقي كثير من النشاطات الفكرية والثقافية للذكرى فقط، والتفاخر بالماضي وعظمته، وأصبحت المناطق التي ورد ذكرها في "الكتاب المقدس" تدار من الأجانب من الأرمن والأكراد والأتراك. أما السبب الثاني لانتصار الأوروبيين هو أن العرب كانوا أضعف سياسيًا من الفرنجة. فالنظام السياسي العربي- في ذلك الحين- بني على استعمال الأقرباء وليس الأكفاء، مما جعل من الصعب بناء مؤسسات مستقرة، وخاصة المؤسسات العسكرية(٧). هذا التفوق العسكري حافظ عليه الأوروبيون، واستغلوه لتحقيق الكثير من المتغيرات، والتي ظهرت أيضًا لاحقا في صورة استعمار أمم أخرى أكثر تقدمًا في بعض المجالات الأخرى، مثل المجتمعات "الآزتيكية" (Aztec) و"الهنود الحمر" في القارة الأمريكية. هذا الضعف في البنية السياسية في النظام العربي ما زال حتى الآن، وكثير من المحاولات والجهود التي تبذل لتغيير السياسة المركزية في اتخاذ القرار واجهت صعوبات لتحقيقها. هذه المركزية هي التي أدت إلى ضعف في مؤسسات مثل منظمة التحرير الفلسطينية، كذلك فشل من حين لآخر في جامعة الدول العربية. وكذلك هي التي أدت إلى فشل النداءات المتكررة لإقامة جبهة موحدة تناهض السيطرة الأوروبية. هذه النداءات التي يرددها من حين لآخر بعض الميليشيات المسلحة لبعض الإسلاميين. هذه النداءات التي يخافها شديدو الارتياب والشك إلى الدرجة المرضية البارانودية من الأوروبيين، بالرغم من بعدها كل البعد من التحقيق على أرض الواقع.

لقد تركت وحشية الحملات الصليبية آثارها ونتائجها الدائمة على هوية العرب الثقافية والسياسية، فأصبحت الغزوات الأوروبية حكايات تحكى تتوارثها الأجيال، وتدوينها في التاريخ أصبح يذكر الأمة العربية بالإهانة التي نالوها، وظلت هذه الأحاسيس حية لقرون عديدة تثير الرغبة في الثأر. بهذا تشكلت الروح العدائية للناحية الأخرى من البحر المتوسط. ففي دراسة عن تصور المسلمين للحملات الصليبية، أشار الكاتب أمين معلوف إلى بقاء هذا التصور العدائي حتى يومنا هذا في بدايات الألفية الثالثة الميلادية. لقد استخدمت أسماء أشخاص مجهولين ووقائع حدثت أثناء الحملات؛ لفهم وشرح وقائع حالية حدثت في عصرنا الحالي. في الوعي الجماعي العربي ما زالت إسرائيل تعتبر حملة صليبية جديدة، ويبدو أيضًا ذلك في بعض التصريحات الرسمية لبعض المسئولين. وكثيرا ما قورن الرئيس عبد الناصر بصلاح الدين الذي وحد سوريا ومصر مثله. كذلك فإن كثيرًا من العرب يعتبرون العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ حملة صليبية، ويشبهون الهجوم الإنجليزي والفرنسي بالحملات التي حدثت في عام ١١٩١(٨).

وبطبيعة الحال فلا معنى لأن نعتبر إسرائيل أمة صليبية، فاليهود كانوا من أوائل ضحايا الحملات المسيحية. ولكن هذا لا ينفي بالطبع اعتبار اليهود- مثلهم مثل المسيحيين- مستعمرين إمبرياليين وغازين همجيين، والسبب واضح ومعروف. إن الغيبيات المليئة بحكايات من التاريخ عن العصر الذهبي ما زالت تسوق بسهولة، وما زال الناس يشترونها، وما زالت تستخدم في الخطاب السياسي في هذا الجزء من العالم. في هذا الإطار يتفهم "دافيد إس. بوج" **(David S. Pugh)** لماذا يرى أنصار صدام حسين شبهًا بينه وبين صلاح الدين، الذي حرر أجزاء من الشرق الأوسط من سيطرة المسيحيين عندما هزمهم في (موقعة حطين) عام ١١٨٧ ميلادية(٩)، وكل من الحملات الصليبية والحروب على العراق يتبادلان الصورة في وعي الفرد، ويعتمد ذلك على المكان الذي يقف فيه. وبالنسبة لأسامة بن لادن فعنده هدف محدد: علاوة على إخراج الولايات المتحدة الأمريكية من

المملكة العربية السعودية، ومواجهة النفوذ الإسرائيلي، والقضاء على المعاناة في أفغانستان، فإنه يريد إعادة بناء دولة الخلافة مرة أخرى. والخلافة لها خليفة، ويعتبر الخليفة "أميرًا للمؤمنين"، وأمير المؤمنين عليه واجب "ديني- سياسي". وعندما سقطت الإمبراطورية العثمانية، وتفككت بعد الحرب العالمية الأولى، واتجهت تركيا بنفسها تجاه الغرب، بقي عرش أمير المؤمنين ينتظر من يعتليه. وحلم ابن لادن أن يولي نفسه خليفةً لإحدى الدول العربية. بذلك يضع نهاية ليس لقرون من الإمبريالية الغربية فحسب، ولكن أيضا لقرون من السيطرة التركية.

٢

النهضة، والتطور التقني، والاكتشافات العلمية العظيمة هي التي ساهمت في تفوق أوروبا الاقتصادي والتقني. هذا التفرد والريادة التكنولوجية فقدتها القارة بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن هذه المرة ليس للمسلمين بل لأمريكا الشمالية والشرق الأسيوي. هذه النهضة الأوروبية ينظر إليها البعض بوصفها بنيت على إرث الحضارة العربية، ويعطون المعطيات الوجيهة لاعتبارهم هذا. هذا ما عبر عنه "بيتر نورمان فوجا" (Peter Norman Waage) كتب: "أثناء ومع بداية النهضة غزا العرب أوروبا على نطاق واسع، وإن ما نسميه "العصر الحديث" الذي قد تحقق في أوروبا يمكن اعتباره- ولو نظرنا نظرة محايدة- نتيجة إرث الحضارة العربية"(١٠). علوم الفلسفة، والعلوم الطبيعية كانت قد نقلت- يقينا- من البلاد العربية إلى أوروبا في عصورها الوسطى. ولقد ذكر "فوجا" بالتحديد الكثير من المكتشفات التكنولوجية التي جاءت من العالم العربي. هذه الحقيقة نادرًا ما تدرس في المدارس الأوروبية. ونختار بدلاً من ذلك؛ أن ندمج تاريخ تطورها مباشرة من العصور القديمة وخلال العصور الوسطى إلى عصر النهضة. في نفس الوقت نجد أنه من الصحيح أن نشير- مثلما أشار المستشرق الأمريكي المتحفظ والباحث في الدراسات الإسلامية برنارد لويس (Bernard Lewis)- إلى أن الاهتمام العربي

بأوروبا كان محدوذا لقرون عديدة، وظل ذلك حتى اضطروا إلى أن يبنوا علاقة نشطة من هذا الجزء من العالم الواقع في الشمال الغربي(١١). يتبين ذلك من مخطوطات أشهر الرحالة في العالم العربي "ابن بطوطة"، فقد كتب في منتصف القرن الرابع عشر وصفًا لمحل ميلاده "طنجة"، المدينة الواقعة في الشمال المغربي الإفريقي، وعلى ساحل الأطلسي وحتى الهند والصين، ولكنه لم يصف أبعد من الأندلس الإسلامية في أوروبا.

إن كلاً من المسيحية والإسلام ديانة عالمية، وبالتالي فإنهما- بالأساس- يريدان السيادة الدينية. في هذا المجال فقد تفوق المسيحيون في عصر النهضة- بعد تمدد إسلامي كبير أدى إلى أسلمة ماليزيا وإندونيسيا في نهاية العصر الوسيط الأوروبي. وبعد عام ١٤٩٢ ميلادية أصبحت الحالة مختلفة، فعمليًا أصبحت كل القارتين الأمريكيتين من "ألاسكا" في أقصى الشمال، وحتى "تيرا ديل فيجو" (**Tierra del Fuego**) في أقصى الجنوب، مسيحية. وكذلك الفلبين في غالبيتها، وبسبب النشاط التبشيري المحموم؛ أصبح كثير من الإفريقيين- جزئيًا أو كليًا- مسيحيا. فبعد عصر الازدهار الفكري والفني والاقتصادي العربي، والذي دام قرونًا كثيرة، أصاب العالم العربي ركود وجمود- وإن كان بعض المحللين والمراقبين يرون أن شمال أفريقيا وغرب آسيا سيكونون الأوائل في الطريق للخروج من حالة الركود الثقافي هذه- ويشبهون هذه الفترة بنفس فترة الركود الثقافي الذي ساد أوروبا في العصور الوسيطة. صحيح أن الجيش الإسلامي المغولي استطاع غزو الهند في القرن السادس عشر، وصحيح أيضًا أن العثمانيين المسلمين أرادوا السيطرة على المناطق التي كانت من قبل مسيحية في شرق جنوب أوروبا- حتى أوقف زحفهم على السهول خارج "فيينا" عاصمة النمسا الآن- إلا أن ديناميكية المجتمعات الإسلامية في تطوير نفسها كانت قد فقدت، وسقطت الثقافة والفكر تحت سنابك طغيان الطقوس الدينية. أما الآن فإن الأوروبيين المسيحيين هم الآن الذين يسيطرون على العالم بالتأكيد.

الصورة في العقود الأخيرة من القرن العشرين نراها قد تغيرت قليلاً، فوضع الإسلام في العالم قد وضح وقوي. والحديث هنا ليس عن إعادة تصدير رؤية وتحديث للرسالة- بالرغم من أن ذلك يحدث أيضًا بدرجة كبيرة - بل عن حملة إعلامية هجومية لمفهوم تقليدي للدين مغطى بثياب حديثة. لقد احتل الإسلام المكانة الثالثة بين الأديان العالمية، وبدأ العالم المسيحي ينظر إليه نظرة إيجابية بديلة لهذه النظرة المتعالية والراغبة في الهيمنة، ويقال إن لكل أفريقي يتنصر هناك عشرة يسلمون. وعلى الرغم من أن هذه النسبة لا تدعمها الإحصائيات- وهي زعم يفضل قوله المبشرون المسيحيون- إلا أنها توضح أن الإسلام ينظر إليه من الطرف الأوروبي المسيحي كخطر داهم ومنافس رئيسي. ولأن المسيحية مرتبطة بالاستعمار في الوعي الأفريقي- وذلك صحيح إلى حد كبير- فإن الدعاة إلى الإسلام تكون لهم مصداقية بين الناس، مصداقية يفتقدها المبشرون المسيحيون (على الرغم من عدم إنكار أن العرب قد مارسوا تجارة العبيد في أفريقيا). إلى جانب ذلك فإن الملايين من المسلمين يمثلون الآن جزءًا من النسيج الاجتماعي الأوروبي، وهم آخذون في تنظيم تواجدهم، وآخذون في التوالد والتزايد، يبنون المساجد في الأماكن التي يصرح لهم بها المسئولون المسيحيون أو العلمانيون، بينما لا توجد جيوب مسيحية تفعل الشيء نفسه في البلاد الإسلامية.

وبدرجة صغيرة فإن الإسلام ينتشر أيضًا في مناطق لم يكن فيها للدين تاريخ طويل، فالمراقب يمكن أن يرى الآن أمريكيين شماليين من السود لهم خلفيات من فرق الموسيقى الكنسية (**gospel kor**)، وأفرادًا مسيحيين مشهورين لهم كاريزما قد أطلقوا لحاهم الطويلة وغيروا أسماءهم إلى "محمد علي" و"علي أكبر" وارتدوا الملابس البيضاء يسيرون بها جهارًا نهارًا. والانقلاب الإسلامي الذي حدث في "ترينيداد وتوباجو" عام ١٩٩٠ لم يقم به أهل الجزيرة المسلمون الهنود الواصل عددهم ستين ألفًا، ولكن قام به عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة من حديثي التحول للإسلام ممن لهم أصول مسيحية. ومن ناحية أخرى فإن الهجرة إلى أوروبا

أعطت الكثير من المدن الأوروبية نكهة وشخصية إسلامية، ويمكن للمرء أن يلاحظ البعض من أهم مراكز الحوار الفكري الإسلامي توجد في الحقيقة في مدن مثل "برادفورد" (Bradford) و"باريس" (Paris). يحدث إلى جانب ذلك وبشكل متكرر أن أوروبيين غربيين يتحولون إلى الإسلام. هذه الظاهرة لم تحدث إلا نادرًا في أوقات ما قبل الحرب العالمية الثانية.

وهكذا يمكن أن يبدو الإسلام وكأنه قد بدأ في اتخاذ وضع الهجوم الأيديولوجي، ويقترب من الانتصار على المسيحية، بعد أن كان مهمشًا لقرون عديدة. وبعدما حدثت أزمة البترول في بداية السبعينيات من القرن العشرين؛ وضح للبلاد الإسلامية الغنية بالبترول أن بيدهم سلاحًا قويًا يمكن استعماله ضد البلاد المسيحية الغنية. وبالصدفة البحتة كانت البلاد الأكبر إنتاجا للبترول بلادًا إسلامية. وانتشرت صورة شيوخ وأمراء البترول الأغنياء، وتكررت دائمًا في الرسوم الساخرة (الكاريكاتورية) الأوروبية والأمريكية الشمالية (والتركية!). وأصبح شائعًا في بلاد الجنوب الفقير التوجه إلى الإسلام والبلاد العربية، والمسلمون في "موريشيوس" - الذين ينحدرون من مسلمي الهند - بدءوا في ارتداء الجلابيب القطنية البيضاء الطويلة، ويقولون إن لغة آبائهم هي العربية عندما يجرى إحصاء سكاني. لقد بدأ العالم الإسلامي يبدو وكأنه "قوة عظمى" ثالثة بجانب الرأسمالية والاشتراكية. وعلى الرغم من أن البلاد الإسلامية مستمرة في التفرق والانقسام؛ إلا أنهم يبدون في بعض الأحيان وكأنهم أمة واحدة تربطهم عناصر قوة. ولقد نالت مأساة الأسرى في طهران- بعدما استولى رجال الدين (آيات الله) على الحكم في عام ١٩٧٩- اهتمامًا وانتباهًا عالميًا عظيمًا (وطبعا فقد كانت الوجوه البيضاء من الشمال الأمريكي هي المعرضة للخطر). ويمكن أن يذكر أيضًا في هذا السياق السلوك العدائي الذي وجه إلى الغرب من قائد الدولة الليبية القذافي (بالرغم من أنه في الحقيقة رجل عسكري وليس إمامًا دينيًا)، وكذلك العنف السياسي الذي صاحب محاولات "منظمة التحرير الفلسطينية" العلمانية للتحرر، والذي وجه إلى المصالح

الغربية، وإحياء الشعارات الدينية المناهضة للغرب مع الهجوم الشديد على أساليب حياة المجتمعات الغربية الاستهلاكية المتفسخة. كل ذلك شارك في تكوين الصورة الحالية المشوشة- لكنها مؤثرة وفاعلة- عن الإسلام، والتي تظهره كمنافس ومتحد للغرب. ومن الآن فصاعدًا؛ فإن المسلمين لن يتركوا قوى الاستعمار السابقة، أو الإمبريالية العالمية المسيطرة الآن، أن تعتبرهم كمًا مهملاً لا يحترم، ولن يقبلوا أن يكونوا لقمة سائغة لهم. لقد أثبت الغاضبون الذين لا يهابون الموت من المسلمين في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ميلادية أنهم قادرون على إصابة الولايات المتحدة- المستعصية على النيل منها- في قلبها. لقد استخدموا إستراتيجية عسكرية غير معهودة، ولا تقليدية، طائرات مدنية، وبعض الأفراد المغسولة أدمغتهم من الاستشهاديين.

٣

لو ألقينا نظرة محايدة- مثلاً من القرى في إفريقيا الوسطى أو من مجتمع هندوسي- من الخارج، فسوف نجد أن هناك من العناصر المتوائمة التي توجد بين المسيحية والإسلام أكثر من تلك التي تفرق بينهما. فكل الأديان الكبيرة التي نبعت من غرب آسيا تعتبر إبراهيم (عليه السلام) أبًا لها، ويحترمون نفس الكثير من الأنبياء، ولكنهم يختلفون - كما هو معروف - في نظرتهم إلى الأنبياء الآخرين.

بالنسبة للمسلمين فإن المسيح عيسى (عليه السلام) ولد في متوالية من الأنبياء من سلالة إبراهيم وموسى، والباحثون الإسلاميون يذكرون أن المسيح قد بشر بمجيء نبي من بعده اسمه أحمد (أو محمد). هذه الرؤيا والاعتقاد ليس مقبولا بالطبع عند المسيحيين، فالمسيحيون يرون أن المسيح هو المخلص، وابن الله الوحيد. ومنذ العصور الوسطى الأوروبية- خاصة في القرن الثاني عشر- والمسيحيون يدحضون أن هناك نبيًا جاء بعد المسيح ويأتون بالبراهين والحجج

التي تدعم عقيدتهم، وأدانوا واستهزءوا بالقرآن وبالمسلمين. أما من ناحية اليهود فإنهم ما زالوا ينتظرون المسيح المخلص.

الكثير من المصادر والمراجع اللاتينية من العصور الوسطى الأوروبية المكتوبة عن الإسلام تحاول أن تؤكد وتثبت بأسلوب شديد التأثير أن الإسلام تجد فيه رغبة عارمة للجنس (هنا يجب تذكر أن كتاب هذه المراجع غالبًا ما كانوا من الرهبان الذين ليس لهم حق في ممارسة الجنس)(١٢)، وقبول القرآن المشروط للجمع بين أربع زوجات في نفس الوقت؛ شُوِّه ونُفِخ فيه لدرجة أنه لم يعد يمكن التعرف على حقيقته. وأصبح الشائع المفهوم أن كل الرجال يستطيعون اقتناء العدد الذي يرغبونه من النساء، ولا مانع من اللجوء إلى بائعات الهوى **(Prostitute)** عندما تقتضي الحاجة.

وهكذا اتهم المسيحيون الرجال المسلمين- على نحو تقليدي- بأنهم زناة لدرجة شنيعة ورديئة. واليوم فإن الصورة معكوسة تمامًا، فالمسلمون هم الذين يصفون الأوروبيين بالصورة النمطية نفسها بأنهم عبيد لرغباتهم الجنسية، وخاصة النساء يهبن الجنس لأي طالب. في العصور الوسطى اعتبر المسيحيون المسلمين ماديين، عبيدًا لشهواتهم المادية، بينما نظر المسلمون إلى "الفرنجة" على أنهم "أنجاس" (**impure ، rotten**) لا حس لهم ولا شعور، متخلفون. أما اليوم فالصورة معكوسة تمامًا.

وفي ناحية المجال العقدي الديني فقد ثار جدال آخر. هل القرآن وحي من عند الله؟ المسيحيون يعتقدون أن الأسلوب الرتيب الممل للقرآن سيئ لدرجة أنه لا يمكن أن يكون إلهي المصدر. هذا النقد كان- بالطبع- صادرًا من المدارس اللاهوتية (السكولاستية) المحبة للمقارنة بين الأديان والتصنيف والمنطق. هذا النقد- يمكن بدون الكثير من الجدال- أن يعتبر راجعًا إلى نقص وسوء فهم لأساليب التعبير في النص العربي. مثل هذا النقد في الحقيقة له مثيل في أيامنا الحالية، فالأوروبيون يبدون نظرة غير حكيمة بالمرة عندما يواجهون "بأسلوب

حياة" مخالف لما تعودوا على رؤيته في المجتمعات الأوروبية. وإن أردت وصف هذا السلوك بكلمة دالة ومعبرة، فهي "النرجسية" (ethnocentric). ويقينا فإن مترجمي النصوص الثقافية للمجتمعات الإسلامية في العصور الوسطى غالبًا ما شوهوا الثقافة والعادات والعقائد الإسلامية، تمامًا مثلما يفعل أوروبيو اليوم.

لقد اتخذت أيضا سيرة حياة محمد (عليه الصلاة والسلام)، ونشأته، ونسبه، دليلاً قاطعًا على عدم صحة ما جاء به من علم، فهو ينتسب إلى إسماعيل، وذلك الولد ابن الجارية التى كانت لإبراهيم(*)، والذي كان هو الآخر وثنيًا (idolatryy). إلى جانب ذلك فإن محمدًا (عليه الصلاة والسلام) قد أبدى شبقًا جنسيًا غير مقبول بالمرة(**)، إذا ما اعتبرنا العقيدة المسيحية هي المعيار. وربما كانت هذه النقطة بالذات هي ما يجعل الإسلام أكثر جاذبية من المسيحية بالنسبة للماديين العلمانيين الأوروبيين (ateister) الحاليين (دعنا نقول: على الأقل بالنسبة للرجال).

هناك شبهة أخرى تثار ضد الإسلام، وهي شبهة حديثة لم تكن ذات أهمية في العصور الوسطى، إلا أنها الآن أصبحت قضية مركزية وأساسية، مكانة المرأة في المجتمعات الإسلامية. وهذا الموضوع أصبح يتكرر ذكره بكثرة لدرجة السخافة، في الدراسات المتخصصة للمجتمعات الإسلامية.

فعلى الرغم من كون أنه صحيح أن كثيرًا من النساء المسلمات يعتبرن الحجاب محررًا لهن؛ لأنهن بذلك يتخلصن من نظرات الشهوة الصادرة من عيون رجال نهمة. وعلى الرغم من كون أنه أيضًا صحيح أن بعض النساء اللاتي يرتدين لباسًا يخفي الجسم كله، يعتبرنه لباسًا ديمقراطيًا؛ لأنه لا يفرق بين النساء الجذابة والأقل جاذبية (وعلى كل حال فإن ذلك اللباس لم يأمر به القرآن، فالمأمور به أن كلاً من الرجال والنساء يجب أن يرتدوا ملابس محتشمة ذات وقار)، على الرغم من كل ذلك، فإنه- دون شك- صحيح أن النساء عمومًا لا

(*) فى الاصل: الولد غير الشرعى لإبراهيم". (التحرير)

(**) يتضح فى هذه العبارة مدى مدى التجنى المعتاد على النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)، والذى يصل إلى من يتصل نسبه إليه نبى ابيه إسماعيل (عليه السلام). (التحرير)

يعاملن في المجتمعات الإسلامية على أن لهن نفس القدر والقيمة مثل الرجال (وهذا القول سيعارضه أيضًا كثير من الإسلاميين، لأنهم سوف يشيرون إلى أن "القدر والقيمة" لا تعني بالضرورة "التماثل والتساوي"). فالإناث من الأبناء يرثون أقل من إخوانهم الذكور. والمرأة لا تستطيع الزواج من أكثر من رجل واحد، بينما يستطيع الرجل الجمع بين أكثر من زوجة. والنساء عمومًا لا يسمح لهن- عمليًا- بناء "تخصص مهني" ذي طابع مستقل. هذا لا يعني بالضرورة أن المرأة المسلمة لا يمكن أن تتخذ لنفسها مهنة أو وظيفة، لكن المقصود أن هناك قيودًا اجتماعية قوية، وإطارًا من العرف يحد من قدرة النساء على أن تكون مستقلة اقتصاديًا واجتماعيًا عن زوجها (أو أبيها أو أخيها إن لم تكن متزوجة).

هذه الأطر والقيود في الحقيقة لها أصول ثقافية من العادات والتقاليد، وعلاقتها بالدين واهية إن لم تكن معدومة. فمن السهل أن نجد آيات في القرآن تعطي قيمة ومكانة أكبر للمرأة منها في الكتاب المقدس[*] (وهذا سوف يؤكد- إن كان ذلك ضروريًا- أن الممارسة الدينية ليست مطابقة تمامًا مع النصوص المقدسة). فتبعًا لما يقوله القرآن؛ فالرجل والمرأة خلقا في نفس الوقت. بينما في كتاب موسى الأول من التوراة- الجزء الذي يتحدث عن الخلق- فإن المرأة خلقت من أحد ضلوع آدم[**].

وفي القرآن- أيضًا- فالرجل هو الذي دعا المرأة لأكل التفاحة، وليس العكس[***]، كما هي الحال في التوراة. فضلاً عن ذلك فقد لوحظ أن المرأة

(*) ساوى القرآن بين المرأة والرجل في القيمة الإنسانية، وإن اختلفا في الوظيفة البيولوجية والاجتماعية، والاختلاف بينهما نتيجة للوظيفة الاجتماعية دون المساس بالقيمة الإنسانية، والحقوق والواجبات التي يوكلها المجتمع لكل منهما. أما المجتمعات الإسلامية فحقًا وصدقًا فقد ظلمت المرأة في كثير من المناحي- المترجم.

(**) وصف القرآن لعملية الخلق مقابل لوصف العهد القديم المذكور، هو "خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها"- المترجم.

(***) في القرآن، الشيطان هو الذي وسوس لكل من آدم وحواء، وكلاهما أكلا من الشجرة- وليست التفاحة- ولم يبين أيهما أكل أولا، أو أيهما دعا الآخر للأكل، وبالتالي فإن خطأ معصية الأمر الإلهي كان من الاثنين، أو من يمثلون الجنس البشري، إلا أن الله سبحانه، غفر لهما، لكن أمرا بالهبوط والخروج من الجنة- المترجم.

الإنجليزية قبل عام ١٨٦٠م لم يكن لها من الحقوق أكثر مما ستحصل عليه تبعًا لتعاليم القرآن. والمرأة الإنجليزية- كما هو معروف- " قتلوها صبرًا" في تشريعات بالية، ولفترات طويلة. وكانت هذه التفرقة، والإهمال، نتيجة لعقيدة راسخة عميقة، بنيت على ظواهر الفروق الجنسية بين الرجل والمرأة.

إلى جانب ذلك فإن بعض الأكاديميين في "مدارس اللاهوت" ينتقدون المسلمين لفلسفتهم، ومنطقهم المتناقض. فبينما هم على وجه العموم مسالمون؛ إلا أنهم يبررون العنف والقتال (الجهاد – **jihad**) على أسس دينية. وفي الحقيقة فإن الإسلاميين يستطيعون توجيه الانتقاد نفسه للمسيحيين وبدرجة أكبر ملحوظة من العبء الأخلاقي: فكيف أن الدين المسيحي- نظريًا- يدعو إلى المحبة، وعمل الخير، وحب الآخرين، حتى الأعداء، إلى درجة أنه يأمر بإدارة الخد الأيمن لمن يضرب على الخد الأيسر، ولكنهم عمليًا يشنون حروبًا دون انقطاع على الآخرين؟ هذه الملاحظة سجلها "نورمان دانيال" (**Norman Daniel**) الباحث في الإسلام، ويظهر هذا التناقض بدرجة شديدة الوضوح عندما ينظر إلى السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، حيث كوابح خلط الدين بالسياسة أقل منها في أوروبا.

٤

إن تصادم الحضارات القائم الآن بين العالم الإسلامي من ناحية، وأوروبا- أمريكا الشمالية (أو لنقل الغرب) من ناحية أخرى، له طبيعة أخرى، وشكل مختلف عما كان عليه في القرون الوسطى. لنعتبر وجهة النظر المسيطرة والسائدة الآن في أوروبا. النظرة الحالية تعتبر أن التصادم – الواقع الآن – ليس دينيًا، لكنه بين مبادئ الليبرالية الفردية، والدين المختلط بالسياسة (وسوف أصف ذلك لاحقا بتفصيل نسبي أكبر). وبالنسبة لكثير من الأوروبيين؛ فإن الفروق الدينية بين الإسلام والمسيحية ليست هي المهمة، بل إن ما يجب أن يحسب له حساب هو

"المعيار" (normative) الذي تقام عليه، أو "الإطار" الذي يحتوي السياسة. في هذه الناحية فإن أوروبيي اليوم- عمومًا- يحرزون تقدمًا على منتقدي الإسلام في العصور الوسطى، فالأوروبيون قد اتخذوا العلمانية منهجًا لحياتهم، وبالتالي لا يجب أن يشعروا بصدمة من العقائد الإسلامية. كذلك فهم ليسوا في حاجة إلى استنفاذ طاقتهم في محاولة إثبات أن الدين المسيحي دين أفضل، فبإمكاننا اليوم أن نناقش كل الخلافات العقائدية المعقدة بهدوء ودون حساسية. تبعًا لذلك فإن الأوروبيين مع "المثقفين المتحررين" في البلاد الإسلامية؛ يستطيعون أن يتوافقوا على "قاعدة ثقافية علمية" لتفهم الأسباب التي أدت إلى نشوء "الدين السياسي" في منطقة غرب آسيا، وتفهم أسباب نظرات الغرب العدائية للإسلام، ونحاول أن ننتقدهما في إطار من المرونة الفكرية، والأخذ في الاعتبار كل العوامل والأقطاب المؤثرة، ونتبادل وجهات النظر المختلفة. إن الحرب ليست قائمة بين الغرب والإسلام، ولكن بين وجهات النظر المنغلقة المتزمتة في كلا الجانبين. والواقع أن الغالبية من الطرفين مسالمون، ومرحبون للحوار، لكنهم – للأسف – يحشرون في وضع غير مريح للغاية؛ الغالبية العظمى تريد تجنبه.

دون تفهم ثقافة "الآخر"، وبدون إيجاد قاعدة من الحوار والاحترام المتبادل فإن العديد من الأوروبيين والأمريكيين الشماليين- للأسف العميق- يسكبون الزيت على النار، والأوروبيون يعلمون جيدًا مبادئ الحرية، والديمقراطية، والاحترام المتبادل الذي تبنى عليه مجتمعاتهم. وهذه القواعد هي نفسها الواجب استعمالها للتواصل مع "الآخر".

دعونا- بداية- نقولها بالطريقة الآتية: تبعًا لأقوال المتخصصين؛ فإن نباتات البيوت الزجاجية حساسة للموسيقى. لو عزفنا لها معزوفات من موسيقى "موزارت" (Mozart) الناعمة الهادئة- فرضا؛ فسوف تتفتح أوراقها وتتسع، وتسرع في النمو، وتخرج أزهارها، وتملأ المكان بعبقها المنعش. وعلى العكس لو عزفنا موسيقى "الجاز" (Jazz) الصاخبة- في بيتها الزجاجي الذي تنمو فيه بسكينة

وهدوء- لأبدت رد فعلها بأن تتكمش وتتكور مثل رأس نبات الكرنب، وتتكور، وتبدو وكأنها ندوب باقية على أنسجة النبات. بناء على هذه المعلومة ووجهة النظر الصحيحة؛ فإن المرء لا يستطيع إلا أن يسأل: "كم من المرات عزف المسيطرون على أقدار الناس، والذين هم بيدهم اتخاذ القرار، موسيقى "موزارت" الناعمة الهادئة، للتابعين الذين لا حول لهم ولا قوة، ولا يستطيعون اتخاذ قرار لشيء ذي بال؟ وعلينا أن نتفهم رد الفعل والمقاومة والرفض التي يبديها هؤلاء الذين تفرض عليهم الأشياء.

وبصفة عامة علينا توقع أن البعض ممن تفرض عليهم الأشياء؛ سوف يتحفزون ويتخذون مواقف رافضة، رغمًا عن أن "المفروض" من الخارج يمكن أن يكون- من حين لآخر- مفيدًا لهم، وهم يؤمنون بذلك في أعماقهم. فمثلاً كل الذين يرفضون الامتناع عن التدخين يفهمون الميكانيكية السيكولوجية **(psychological mechanism)** التي يبنى عليها الرفض.

لماذا يرفض البشر أن يتقبلوا النصائح الجيدة؟ لأن النصائح تسمع وكأنها موسيقى الإيقاع الصاخبة المزعجة، فرضت عليهم، وسقطت على رؤوسهم من الخارج. إن مدير العمل- أي مدير- الناجح هو الذي يستطيع أن يجعل نظام ومتطلبات العمل تعزف وكأنها موسيقى "موزارت" صادرة من آلة موسيقية واحدة، وهو الذي يستطيع جعل العاملين معه يعتنقون فكره، وهم يتصورون أنه فكرهم. في سبيل ذلك عليه أن يتعلم أن يستمع وليس أن يتكلم فقط. وبنفس الأسلوب من التفكير يقال: إن أفضل الكتب العلمية هي التي تجعل القارئ يحس أنه نابغة عبقري.

إن البشر كثيرًا ما يرفضون قبول "شيء" جديد، على الرغم من علمهم بأنه مفيد لهم. هذا الرفض يتعلق بخاصة في طبيعة الإنسان، غالبًا ما تسمى "الزهو" أو "الاعتداد بالذات" أو خاصة "الدفاع عن قضية أو عقيدة يؤمن بها" (**challenge to fight or maintain a cause**) و"تحدي" الجديد، هذه الخاصة يمكن تبسيط وصفها بأنها: "احترام الذات". ولشرح هذه الطبيعة الإنسانية، دائمًا ما يضرب مثال واقعي

بشكل منتظم، وهو الحملة القومية ضد التدخين. فعلى الرغم من أن الباحثين المتخصصيين في الطب يجزمون- ومنذ فترة طويلة - بأن عادة التدخين ليست صحية؛ إلا أن انطلاق الحملة رسميًا لم يبدأ إلا في أواسط السبعينيات. ففي كثير من البلاد البروتستانتينية- وفي النرويج أكثر من أي بلد آخر- اتخذت وسائل لمحاربة التدخين، كان منها منع الإعلان عن الدخان، وفرض ضرائب شديدة العلو، وحملات إعلامية متكررة وجهت للفئات العمرية المختلفة من مراهقين وناضجين على حد سواء. وفي بداية حمى هذه الحملة، وأثناء الحماس الشديد، قدمت اقتراحات جدية في أن يفرضوا رقابة على المطبوعات الأجنبية التي تحتوي على إعلانات للدخان والسجائر. وفي العقدين الفائتين- وما زالت- تضاعفت حملة الدولة على "الشيطان النيكوتيني"، كثير من الأماكن العامة في النرويج أصبحت "بلا دخان". ومن يونيو ٢٠٠٤ منع التدخين تمامًا في جميع المطاعم والبارات. ونتصور أنها مسألة وقت فقط قبل أن يصبح التدخين محرمًا أيضًا في الأماكن المفتوحة والبيوت الخاصة. وسيظل وضع يثير الفضول والتساؤل حقًا، فسيبقى مسموح بشراء وبيع "الدخان"، ولكن- ربما- ستتكلف علبة بها عشرون سيجارة عدة مئات من الكرونات. ويقترب سعر الكرونة من سدس دولار أمريكي. وعلى كل حال فسيظل موضوع التدخين حاضرًا في حياتنا، ومحرمًا علينا أن ننساه أو "ندخنه". وسيصبح مثل محاولات حل قضية البغاء، ففي النرويج مسموح بأن تبيع الجنس، ولكن ممنوع أن تشتريه.

كل المدخنين يعرفون أن التدخين مضر بالصحة، وعلى الرغم من ذلك يستمرون في التدخين. لقد مثل هذا لغزا للمسئولين في الدولة، فعلى الرغم من مرور ثلاثين عامًا تقريبًا من بدء الحملة الإعلامية ضد النيكوتين؛ فإن النتيجة كانت متواضعة، وعدد النرويجيين الذين يدخنون اليوم، فقط أقل قليلاً مما كانوا عام ١٩٧٥. صحيح أن بعض التغيرات الديموجرافية قد حدثت، لقد قل عدد الرجال، بينما زاد عدد النساء، وأصبحت العادة بدرجة متزايدة- مثلها مثل الكثير

من البلاد الأخرى- مرتبطة بشرائح اجتماعية من العاملين وقاطني القرى والنجوع. ورغمًا عن ذلك؛ فما زال المسئولون يبررون النتيجة بالقول: "من الصعب أن نرى نتائج ملموسة على المدى القصير من هذه الحملات الإعلامية، والقرارات العملاقة ضد التدخين" (بغض النظر عن أنه يمكن أن يكون صحيحًا- نظريًا- أن عدد المدخنين كان سيزداد دون تلك الحملات الإعلامية). والواقع الآن؛ أن النرويجيين أصبحوا مجتمعًا في الطريق لأن يصبح حليفًا للتدخين. ويوجد الآن من يمكن تسميتهم "مدخني حفلات الأنس"، هؤلاء يعملون ويعانون طوال الأسبوع؛ وفي إجازة نهاية الأسبوع يحتفلون بتدخين علبتين من السجائر، ولا مانع من بعض كؤوس البيرة. مع العلم أن الكحول لم يصبح بعد "الفاكهة المحرمة" بالدرجة نفسها التي وصل إليها التدخين، وبالتالي لا يجلب نفس أجواء البهجة والاحتفال. لقد طور المدخنون- ومنذ فترة طويلة- "هوية جماعية" قوية وعميقة تتوافق مع قاعدة "جورج سيمل" (**Georg Simmel**، عالم اجتماعي وفيلسوف ألماني، عاش في الفترة ما بين ١٨٥٨، ١٩١٨) والتي تتحدث عن: أن التوازم والتناغم الحادث بين أفراد الجماعة؛ يتوقف على الضغوط الخارجية. فنحن كبار اليوم، كنا الجيل الأول - وربما يكون الأخير- الذي اضطر اجتماعيًا أن يدخن بعيدًا عن الأنظار في السر، بداية بعيدًا عن أنظار آبائنا، ومؤخرًا بعيدًا عن أنظار أبنائنا.

مثال آخر يوضح الميل البشري إلى "الحنين إلى الماضي" (**ossi-nostalgia**). ففي بلد عُرف من قبل باسم ألمانيا الشرقية؛ فإن معظم الألمان فيها على يقين بأن النظام الحالي أفضل من النظام السابق. رغمًا عن ذلك؛ يمكن للمراقب أن يسمع تنهدًا عميقًا من القلب، وتعبيرات شوق وحنين من بعض هؤلاء الذين يعيشون شرق الحدود القديمة. رغمًا عن أنهم لا يقولون إن النظام السابق هو الأفضل، ويعترفون أن قيمة الفرد لها تقدير أفضل حاليًا؛ إلا أنهم يشعرون- في النظام الحالي- إنهم "فتية صغار" بدءوا في التعلم من جديد في وطنهم. مثلهم في

هذا مثل المدخنين. فمعظم المدخنين يؤمنون أن الحياة بلا تدخين هي الاختيار الصائب لو أن الإنسان مهتم بصحته البدنية.

اليوم، الكثير من المهاجرين القادمين من بلاد العالم الثالث إلى البلاد الغربية الغنية، يرددون من حين لآخر: "نعم كنا فقراء، ولكن لنا كرامة". اليوم البعض منهم لا ينقصهم الزاد، عنده الأمن المادي؛ لكن يعيش على الضمان الاجتماعي محبطًا لا يحس أن له قيمة. مثل هذه المشاكل الاجتماعية الموجودة- مثلاً في حي "جرون لاند" في القطاع الشرقي من مدينة أوسلو حيث تتركز نسبة الأجانب- يجب أن تقرأ وتفهم في هذا الإطار "الاجتماعي النفسي". هذا التحليل ينطبق أيضًا على سكان أستراليا الأصليين، وعلى الكثير من الهنود في أمريكا الشمالية. نسمع من حين لآخر من يقول: "إن الفروق الثقافية بين المجتمع الحديث والمجتمع التقليدي جد كبيرة، وبالتالي فسوف يظل المهاجرون عالقون في "جيب ثقافي" لا قاع له، في الوسط بين عالمين. مثل هذا الرأي ليس صحيحًا أو خاطئًا على وجه مطلق. فهو غير مطابق للواقع، علاوة على أنه قليل الفائدة لحل مشاكل الاندماج والتواصل. فالمشكلة لا تكمن في درجة الاختلافات الثقافية، ولكنها تكمن في عدد الفرص المتاحة لهم، وهذا هو ما يقرر مدى وكيفية مشاركتهم في المجتمع الحديث. فلو أحس المهاجرون أنهم منهزمون حضاريًا وثقافيًا؛ فسوف يتحولون في الواقع إلى عالة على مجتمعاتهم، ولن يشعروا بحس التملك الشخصي لحصاد المدنية، وبالتالي يفقدون الشعور بواجب الإدارة والتصرف بمسئولية تجاه الحداثة وحصادها.

لو أن ذلك الذي ذكرته حتى الآن صحيح؛ فإن آخر شيء يحتاجه العالم الغربي هو اتخاذ موقف ساخر مستهزئ من المجتمعات الإسلامية. فالمواجهة بين "الغرب" و"الإسلام" ليست حتمية، فالحتمية لا تأتي إلا بقدر ما يصنعها الإنسان. لقد ظهر في أجيال سابقة في البلاد الإسلامية قيادات إصلاحية، لا يتبعون الأسلوب

الكهنوتي في الحكم، ويتطلعون إلى الحداثة. والمثال القريب الواضح في العصر الحديث هو- دون شك- جمال عبد الناصر.

ومنذ رحيل عبد الناصر فإن العديد من البلاد الإسلامية تعرض لإحباط تلو إحباط، سواء كان محليًا، أو فرض عليهم من الخارج. وأقصى ما يقدمه الغرب للمسلمين فقط هو مطالبتهم بأن يكونوا نسخة مطابقة لهم. وأسوأ ما في سياسة الغرب، هو الدعم غير المحدود لسياسة إسرائيل تجاه الفلسطينيين، كذلك التعاون المزخرف مع الطبقات الطفيلية في المجتمعات الإسلامية.

ليس من الصعب إذا تفهم رد فعل المسلمين على هذه السياسة. وهو يشبه رد فعل الكاتب على الحملة التي أدارتها مؤسسات الدولة على التبغ والتدخين، فلو كنت أقبل أن أكون مثلما يريدونني أن أكون، فيجب أن أفعل ذلك بيدي لا بيد عمرو!. ومثلما يفكر الفرد في الشمال الأوروبي من حيث مقاطعة التدخين، يفكر- وبدرجة كبيرة- كمدخن أولاً، ثم بعدها يفكر كإنسان؛ كذلك فإن كثيرًا من المسلمين يفكرون كمسلمين أولاً. وهذا ينسحب أيضًا على الكثير من العلمانيين.

وحتى أبرهن على أن ذلك ليس "شطحة فكرية فارغة "، فسوف أعطي مثالين. بعد إسقاط حكم طالبان، والاستيلاء على الحكم في أفغانستان، تحدثت وزارة الخارجية الأمريكية عن "تعيين" حكومة في العاصمة كابل (**Kabul**)، وبغض النظر عن رأي الأفغاني العادي في إدارة طالبان للبلاد، فإن المرء- رجلاً كان أو امرأة- لم يكن متحمسًا لفكرة أن قوة عظمى خارجية غريبة عنهم سوف "تعين" حكومة لبلادهم. واليوم نرى الكثير من الأسباب التي تجعل الديمقراطية بثيابها الغربية؛ ليست هي الراجحة في أفغانستان، وسوف يكون من المستغرب أن حكومة أفغانية عينت بواسطة الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، وتحت حمايتهما العسكرية، لا تعامل ولا ينظر إليها من معظم الأفغان كحكومة دمية عميلة .(**quisling regime**)

"إن السبي منا أفضل من سبي أعدائنا"، هكذا يكون منطق الشعوب المستعمرة (بضم الميم الأولى وفتح الثانية)، باستثناء- طبعًا- المنتفعين من الأفراد المعينين في المواقع الحكومية والرسمية. لقد فسرت الحملة العسكرية المشتركة "الأمريكية- البريطانية"، وجوسهم خلال بغداد ربيع ٢٠٠٣ على أنها تكرار للحملة البريطانية التي تمت في عام ١٩١٧ ميلادية. وضح ذلك عندما خرج أصحاب اللحى من الرجال، والمنقبات من النساء الشيعة، في مسيرات وهم يحملون الأعلام المرسوم عليها صور القيادات الدينية التي تشبه أية الله الخميني. وكان ذلك بعد سقوط نظام صدام حسين. وسيكون الفرد منا شديد الجهل بالتاريخ العراقي، وبتأثير وقوة الإحساس بالامتهان؛ لو فوجئ بمثل هذه المسيرات.

لم يكن صدام حسين، يقينًا، يمثل ضمانًا لحقوق الإنسان- تمامًا مثلما أن يكون التدخين يمثل ضمانًا لطول العمر والصحة- ولكن ذلك لم يمنع الملايين من المطالبة بحقوقهم وحرياتهم. فلو أرادوا التوقف عن التدخين فيجب - على الأقل - أن يكون ذلك بأسلوبهم وشروطهم، وليس بأسلوب الدولة، ولا منظمة الصحة العالمية. وعلاوة على ذلك فإن عددًا غير معلوم من العراقيين فكر بأسلوب آخر. نعم، لقد كان صدام حسين سيئًا، لكنه كان قائدًا قويًا حكيمًا، بدليل أنه تصدى للقوى العظمى نفسها. نفس هذا القدر العالي من التقدير والاحترام، هو الذي يلقاه "فيدل كاسترو" في جزر الكاريبي، ويرجع لنفس الأسباب، وذلك رغمًا عن أن الكثير من الهنود الغربيين لا يستطيعون التفكير في العيش في كوبا الديكتاتورية.

إن الإحساس بالإهانة يولد قوة دفع سياسية. هذا الموضوع نادرًا ما عرض للنقاش والحوار، ونادرًا ما اعترف به. رغما عن ذلك فهو شديد الأهمية؛ لدرجة أنه يدفع مثقفات، ومفكرات من المنادين بالمساواة بين الجنسين يقبلون، بل يؤمنون بأسطورة "الرحم" اللاعقلانية. وهو الذي يجعل أمريكيين سود ذوي ثقافة ودرجات علمية عالية يختلقون قصصًا وروايات تميز وتُعلي من قدر الثقافة الأفريقية، رغمًا

عن عدم وجود وثائق تؤكد صحتها. وهو الذي يدفع العقلانيين من البشر إلى التمسك والاستمرار في التدخين المدمر للصحة، يحاورونك ويسلمون بضرره، وبعد لحظة يشعلون السيجارة. وفي وقتنا الحاضر عندما يريد الغرب الحديث عن الإسلام، فغالبًا ما يتحدثون "عن، وإلى "المسلمين وليس "معهم". وفي عالم كائن فيه صراع على ثروات من احترام الذات، والاعتراف بالآخر وقبوله، يستحيل على مثل هذه الممارسة أن تؤدي إلى نهاية طيبة سعيدة.

٥

الآن ومنذ ما يزيد على خمسمائة عام تقريبًا، فإن الأوروبيين والأمريكيين الشماليين يسيطرون على العالم سياسيًا، واقتصاديًا، وثقافيًا. وربما يكون قد آن الأوان لهذه السيطرة أن تنتهي. وربما يتم ذلك إما عن طريق الهجرة أو عن طريق انتقال مراكز الثقل الاقتصادية والجيو- سياسية(١٣). وما على المرء، إذًا، إلا أن يتمنى، ويأمل، ويرجو، أن تكون مراكز قوى السيطرة القادمة تتبنى، وتُطور، وتواصل، ما هو الأفضل في المجتمعات الأوروبية والأمريكية الشمالية، من حيث مبادئ احترام الحياة، والكرامة الإنسانية، والأنظمة النزيهة المتوازنة، ومبادئ حقوق الإنسان. وليس أدنى أن تتبنى أساليب الفكر العقلاني المبني على "الشك" (doubt)، و"ثنائية القطبية" (الإثينية- dualism) التي تؤمن بوجود الخير والشر، والتي وصفها سلمان رشدي في رواياته بأسلوب أكثر إقناعًا من كلٍ من أسوأ كارهيه، أو أقرب مهنئيه. ومن المأمول أيضًا أن تتعلم مناطق النفوذ، والهيمنة المتوقعة من أخطاء الأوروبيين، أخطاء مثل: النظرة التكنوقراطية العمياء المفرطة في التفاؤل، وفقدان الرغبة في التضامن مع الآخر، والشعور به، والطبقية، واللامبالاة، والسلبية، والتنظيم المؤسساتي الزائد عن الحد المولد للضغوط الحياتية، والمسبب للأمراض العصبية، وتزايد نسب معدلات الجريمة، والعنصرية المفرقة

بين البشر، والغرور الأصولي المتسبب في التعالي على كل فكر مختلف. في القرون الأخيرة- دعنا نقول الفترة التي بدأت برسو سفينة "كولومبس" (Columbus) على شواطئ العالم الجديد في الثاني عشر من أكتوبر عام ١٤٩٢ ميلادية، وما تبعها من طرد المسلمين واليهود من أسبانيا بعد أسابيع قليلة- لو ألقينا نظرة متأملة؛ لوجدنا احتمالية كبيرة لبزوغ أقطاب قوى منتشرة في أكثر من مكان، وعلينا أن نأمل أن تكون أكثر إنسانية منها عندما كانت السيطرة الأوروبية هي المنتشرة. لكن هذا لن يحدث بالتأكيد بأسلوب "طالبان" أو "ابن لادن". ويقينًا لن يتم عن طريق قاذفات القنابل الأمريكية. والمرء يجب أن يكون أعمى وأطرش، حتى يقتنع بأن هذه الأساليب سوف تؤدي إلى عالم يكون فيه الجميع متساوين في القيمة الإنسانية، وأن حقوق الإنسان قد روعيت ووزعت توزيعًا عادلاً على الجميع. وفي عالم يجب أن تكون عملته الدولار والقنبلة، ولسانه الإنجليزية بلهجة أمريكية- لن يكون هناك من يستغرب أن البعض من الذين يتعرضون لهذه القوة الغاشمة؛ سوف يكون رد فعلهم كرد فعل نباتات البيوت الزجاجية عندما نعزف لها موسيقى الجاز الصاخبة: تضمر، وتتكور، وتنغلق، وتتحول إلى كرات جامدة.

وبغض النظر عن مكان بروز مراكز القوة والسيطرة خلال العقود القليلة القادمة؛ فستكون هذه الفترة هي الوقت المناسب لتغيير وتجديد صورة العالم، وهي الفترة التي بدت فيها إعادة تشكيل العالم. الصورة القديمة السائدة يبدو فيها العالم وكأنه مكون من شعوب، وحضارات، وقوميات، علاقاتها بعضها ببعض محدودة جغرافيا وثقافيا، وكل منهم له تاريخه، وقيمه، وأسلوبه الخاص في الحياة. أوروبا والغرب يمثلان العقل والمنطق، والتقدم، مع قبول أن آخرين قد يساهمون بعض الشيء. هذه الصورة يجب الآن أن تختفي، ويحل محلها صورة عالم يتسم بالتواصل. عالم فيه يتداخل الأفراد والجماعات، ويكون فيه اتصال مكثف لكل الحدود المتصورة، وتلاقح وتهجين ثقافي، وكريولية فيها تمازج فلا نجد حدودا مطلقة، ولا غرابة في أن تبقى الشعوب - رغما عن ذلك - لهما

تجاربهما وفكرهما المختلف. وهذا طبيعي؛ لأنهم يعيشون تحت ظروف وتأثيرات مختلفة. إن القوى الإقليمية الظاهرة حاليا واقفة على رمال تمور، وتواجه تحديا كبيرًا في كثير من بقــاع العــالم من "شبكة من القوى" أكثر مرونة ونعومة. ولو أن مطالب الآخرين - بما فيهم المسلمون - من العدل، والاحترام، والاعتراف؛ لم تقابل إلا بغطرسة ملفوفة بالحرير (**condescending arrogance**)، فمن المؤكد أن العالم سيجد نفسه محشورًا في جحيم وسعير. وسيصبح عالمنا سينًا غير مريح، كئيب وموحش، ولا أمان فيه، وغامض غير واضح. عالم يستبدل فيه التقدم بالإيمان، والتناقض والازدواجية والاضطراب بالتطور، وحيث تستبدل الثقة بالنفس والأمل في المستقبل بالقلق وعدم وضوح الرؤيا، وحيث يهدد الشك والريبة الثقة المتبادلة بين البشر. إن القدرة على الاستماع للغير واحترامه أهم بكثير الآن، أكثر من أي وقت مضى.

المقال السابع

لا مكان، ولا جدران، ولا ضوضاء بيضاء

خطوات تجاه عالم معروف جزئيًّا

١

التنوع الثقافي في زماننا الحالي نجده في المكان الواحد والشخص الواحد، وليس فقط في المجتمعات والأماكن المختلفة. الفرد الواحد يمكن، أيضًا، أن تتعدد بداخله الثقافات. ولو أردنا الدقة نقول: "إن الشخص الواحد يمكن كرولته" (Creolisation)، بمعنى أن يكتسب أكثر من ثقافة واحدة.

في بعض الحالات تكون الهجرة هي السبب الرئيس لتزايد كراهية الأجانب القادمين إلى مجتمع ألِف نسيجًا واحدًا. وكما هو معروف لا يستطيع أحد الانعزال في المجتمع الواحد، ولا يمكن تجنب التواصل مع الأجنبي. في العقود الأخيرة، من زماننا المعاصر؛ تزايدت الهجرة، وتزايدت وسائل الاتصالات الحديثة. ولقد استطاع الاثنان معًا تمزيق النسيج الثقافي في كثير من المجتمعات العالمية. وخلقا عالمًا يمكن وصفه بأنه عالم يتألف من شظايا ثقافية. المعتقدات، والآراء، والأفكار؛ تنوعت، وأصبحت أكثر من أي وقت مضى. زد على ذلك أنها أصبحت لا تنتمي للمكان. ولم يعد من الممكن إنشاء حدود موضوعية بين الثقافات، أو حول مكان معين. البشر هم الذين يقيمون الحوائط العازلة حول بيوتهم، وحول أوطانهم ومجتمعاتهم، بل وحول أماكن سكنهم وجماعاتهم المصغرة. وبعد ذلك؛ يصرون على الزعم أن هذه الأماكن ذات مغزى، وذات قيمة، وأنها أصيلة، وأن لها جذورًا، وأنها نقية لا تشوبها شائبة، من أيّ ثقافة أخرى. ومن وقت لآخر يستخدمون الأديان، أو لون البشرة، أو اللغة، أو ببساطة الحدود الطبيعية الجغرافية؛ لتبرير بناء الأسوار التي تحيط بمجتمعهم؛ ولتبرير الصورة العدائية؛ ولخلق ولاء "للداخل" واستبعاد "الخارج".

بالتوازي مع هذا التطور فإننا جميعًا نحاول البحث عن "منطقة بينية" (interface)، تتعايش وتتداخل وتختلط فيها الثقافات، ويسهل التواصل فيها. ونحاول البحث عن لغة مشتركة؛ يمكن استخدامها للتعبير عن كل من "التشابه" و"الاختلاف"، في حقول التواصل العالمي.

في مجتمع نشأت بين أفراده علاقات اجتماعية عضوية، وروابط وجدانية متبادلة وقوية، وروابط نسب (Gemeinschaft) ويحاط بالحدود، ويلف بالأسوار؛ فسوف يصبح من الصعب إيجاد مواضيع يمكن الحوار، والحديث عنها بحرية، ودون قيود. وسوف يصبح من المستحيل على جميع المواطنين فيه المساهمة، والإضافات التي تثري الحوار، ويتم تبادل الخبرات؛ لذا يصبح من واجبنا إيجاد أرضية مشتركة للتواصل والحوار.

ولكن دعونا أولاً نتأمل في إحدى قواعد الانطلاق، وبعد ذلك نعود مرة أخرى لفحص "الأسوار العازلة".

٢

الأنماط الثقافية الحديثة؛ لها سمة مميزة مهمة، وهي عدم ارتباطها بالمكان. فما الذي سيتغير لو أننا عرفنا موقع "هوليود" (Hollywood) الجغرافي- مثلا - لو أن إنتاجها الضخم من الأفلام المليئة بالأحلام متاحة، سواء في "سنغافورة" (Singapore) أو "هانوفر" (Hannover)؟ آخذين في الاعتبار أن هناك فروقًا ثقافية من حيث البيروقراطية، واتخاذ بعض الرموز الوطنية. وأنه توجد متاجرة في شعارات قومية، منتشرة ومتشابهة، في كل مكان تقريبًا. في مثل هذا المثال، فإن الأفلام الهوليودية؛ سوف تنشر أحلامها بين المجتمعات والأفراد، وسوف يقبل الناس على الحديث في مجالات لا تنتمي إلى مكان معين. وفي زماننا المعاصر

الذي نعيشه، سوف نلاحظ؛ وجود أنماط ثقافية عالمية، تحوي قواسم مشتركة، وتكون جنبًا إلى جنب مع المشترك المحلي، وتمثل بالتالي تحديًا له. الأمثلة التي سوف أضربها هي؛ المطارات، والفنادق العالمية. إنهما موجودتان في جميع أنحاء العالم، وهي متشابهة أينما وجدت.

في فندق "هيلتون" في نيروبي؛ يستطيع المرء أن يطلب الاستماع إلى "توم كولينز" (Tom Collins)، وهو المغني نفسه الذي يمكن سماعه في فندق "تاج محل" (Tag Mahal) الموجود في المدينة الهندية "بومباي"، وفي فندق "رافلس" (Raffles) في "سنغافورة"، وفندق "شاطئ تسورو" (Tesoro Beach) في "السلفادور" (El Salvador)، أو فندق "إسكندنافيا هوتل" (Hotel Scandinavia) في العاصمة النرويجية "أوسلو" (Oslo). ونفس الموسيقى التي يسمعها المرء في صالات كل هذه الفنادق، هي لنفس المغني "فيل كولينز" (Phil Collins)، وهي الموسيقى التي تنبعث في "الخلفية"، وكل من يذهب إلى بارات هذه الفنادق يرتدي نفس الملابس تقريبًا، ويستعملون لغة الجسد بأسلوب متشابه، وربما يتحدثون عن نفس المواضيع. إنهم جميعًا وجدوا في "مكان ثقافي"، وله سمة ثقافية واحدة عالمية، لا يمكن نسبها إلى "بلد"، أو مكان معين. وغرف الضيوف أيضًا متشابهة، أو متطابقة. محابس صنابير المياه الساخنة، في دورات المياه، يجدونها على اليسار، والأخرى الباردة على اليمين. وفي غرفهم يوجد تلفزيون مقاس ١٤ بوصة، ويستمع الجميع تقريبًا، إلى محطة أخبار الـ"CNN" الإخبارية الأمريكية، أو الـ"B.B.C" البريطانية، أو "الجزيرة" القطرية. وفي كل الغرف يوجد "بار صغير" (Mini Bar) به نفس المشروبات، وتليفون بجانبه صندوق لعيدان الثقاب، الذي يحمل "شعار الفندق" (Hotel Logo).

بعد الإقامة في الفندق، والخروج إلى المدينة؛ يكتشفون فجأة أنهم في أماكن مختلفة تمامًا. إن كانوا في أوسلو؛ يحس المرء طقسًا باردًا معظم أيام السنة، وفي

بومباي يقابل المرء مشاهد الفقر، ويشم رائحة العفن، وفي "نيروبي" (Nairoby) يواجه المرء جو المدينة الكبيرة الصاخبة. ولو استمر المرء في السير بعيدًا عن الفندق؛ لاكتشف أن الفروق تزداد عمقًا واتساعًا، لكنه عندما يعود مرة أخرى إلى الفندق يشعر بالأمان، ويحس بأنه في مكان ذي تركيبة مشابهة، وثقافة لا تنتمي إلى "مكان" معين. هذا الوضع نفسه نجده في كل مكان في العالم تقريبًا، لو توفر المال اللازم للسفر والتنقل. "الفندق" يمثل الواجهة، والقاسم المشترك، أو "ثقافة ثالثة"، تصل بين الأفراد ذوي الثقافات المختلفة. شيخ من دبي، وسائحة من السويد، ومندوب مبيعات كمبيوتر من كاليفورنيا، الجميع بينهم "مشترك واحد"، الجميع يعرفون كيفية السلوك عندما يشاركون في حفل الاستقبال؛ الذي تعده إدارة فندق "هوليداي إن" (Holiday In) الواقع في "بنما".

منطقة أخرى ليست "منتمية للمكان"، ويمكن تسميتها "الثقافة الثالثة" (Third Culture). إنه المطار. لو شاهدت إحداها، أو عبرت خلالها كلها، فسوف ترى أنها- بالتأكيد- ليست جميعًا متطابقة؛ لكنها جمعاء تلتزم بالقوانين والقواعد الأساسية الواحدة نفسها. وبعبارة أخرى، من الممكن تعلم القواعد والنظام في إحداها، بعدها نستطيع استخدامها في الآخرين. وبهذا المعنى نستطيع القول إن نيويورك لها ثقافة مماثلة لـــ"هونج كونج" و"بومباي"، ذلك لأن مطاراتها تعمل وفقًا لنمط ثقافي موحد وعام.

وعلى النقيض من محطات السكك الحديدية؛ فإن المطارات، دائمًا ما تقع خارج المدينة. وبالتالي فإن موقعها المكاني يشير مباشرة إلى انفصالها عن المجتمع. إنها تمثل "نقاط اتصال" تربط بين مجتمعات مختلفة، أو ثقافات مختلفة. وذلك لأنها- أي المطارات- لا تنتمي إلى أحد من هذه الثقافات على وجه التحديد. وبهذه الطريقة يمكننا اعتبار "المطار"، ومثله "الفنادق العالمية"، لوحة مفاتيح (Swichboard) للاتصالات العالمية. بها قواسم مشتركة، تقوم بعملية تقليص

الفروق، في محاولة لمحوها. وذلك عن طريق توفير واجهة استخدام مشتركة، ومجموعة من القواسم المشتركة البسيطة.

في مقال في كتاب (Non - Lieux)؛ يصف الكاتب الفرنسي "مارك أوجيه" (Marc Auge) بعض الأماكن، بأنها "أماكن لا منتمية". ويولي أهمية كبيرة لكفاءتها السلسة، والراحة الجسدية التي تقدمها، وإحساس المرء فيها بعدم الانتماء الشخصي، وآلية السفر فيها، حيث يمتص المرء خلال المطار وإلى داخل الطائرة، دون أدنى احتكاك أو مقاومة. وتذكرة الدخول، أو العتبة الواجب تخطيها، للولوج إلى "الكفاءة الثقافية"(*) (Competence Cultural)، سعرها جد منخفض.

لقد اهتم المنظرون الذين كتبوا عن "القومية" (Nationalism) و"الحداثة" (Modernization)، في أحيان كثيرة عن أهمية "محو الأمية" و"التعليم" الجماهيري، واعتبروها شروطًا ضرورية لتوليد الشعور بالانتماء المجرد، إلى المجتمعات الأممية. وفي هذا السياق يبرز سؤال مهم؛ من الممكن صياغته كالتالي: أي نوع من الانتماء، إن وجد، ذلك الذي يتولد عند المرء، في أثناء سفره بالطائرة، وقضائه بعض الوقت في الفنادق؟ من الواضح أن "الإحساس الذهني" بالمسافات، والمناطق؛ يتغير ويتحول إلى "شعور بالزمن"، وحسابات الوقت اللازم للسفر. وذلك عندما يتكرر سفر المرء بالطائرة لعدة مرات. وفي الواقع العملي فليس هناك مكان بعيد في زمن الطائرات العملاقة، أو بالأحرى: لا يتم حساب بعد المكان أو قربه عن طريق قياس المسافة.

تواكبًا مع هذا الأسلوب من التفكير، كتب "أوجيه"(**) عن عصرنا الحالي، واصفًا إياه بأنه "قمة الحداثة" (La Sur modenite)، وأنه ينتج دائمًا عدم انتماء، وينتج "أمكنة" غير منتمية، مثل المطارات، والفنادق العالمية. ويضيف أننا نعيش

(*) يقصد بالكفاءة الثقافية قدرة المرء على استيعاب الثقافة، أو النمط الثقافي الجديد– المترجم.

(**) صفحة ١٠٠،١٠١ في المرجع "Nen-Lieux" المذكور آنفًا– المترجم.

في عالم فيه "يولد المرء في المستشفى، ويموت في المستشفى، وفيه وجدت نقاط عبور تتزايد يوما بعد يوم، سواء كانت مترفة، أو لا إنسانية، مثل الفنادق العالمية، أو أماكن الإقامة المؤقتة، والمتنزهات الطبيعية، ومخيمات اللاجئين، والأحياء القذرة؛ التي تنتظر الهدم والإزالة عن قريب، التي يتطور داخلها شبكة تواصل ترتبط بوسائل النقل العام، وأماكن للسكن، وحيث ينشأ فيها مراكز للتسوق، وأجهزة صرف للبنوك، وبطاقات ائتمان؛ يتم التبادل التجاري عن طريقها، ويتم التواصل دون النطق بكلمة واحدة. إنه عالم حيث يكون كل شيء فيه مهيأ للأفراد كل على حدة، وكل شيء فيه مؤقت ولحظي".

في السنوات الأخيرة أولت الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية الكثير من الاهتمام للعولمة الثقافية في العصر الحديث. وعلى سبيل المثال؛ ألقى الباحث النرويجي "أولف هانرس" (**Ulf Hannerz**) الضوء على الأسر "العابرة للحدود" (**Transnational Families**)، وهي العائلات التي يقيم أعضاؤها في قارات مختلفة، والتي تعتبر تحديًا للمفاهيم الأنثروبولوجية التقليدية من حيث ارتباط الحالة الاجتماعية للجماعة وهويتها بالمكان. أما "جوناثان فريدمان" (**Jonathan Friedman**) فقد وصف التأرجح بين تفسخ مجتمع ما بعد الحداثة، وبين السعي وراء راحة البال؛ بأنها أصبحت صفة أساسية لهذا العصر. أما الباحث "أرجون أبادوراي" (**Arjun Appadurai**) فقد طور نظرية أسماها "جغرافيا ما بعد الإقليمية" (**Geography Post Territorial**)(!)، بينما آخرون مثل "أنتوني جيدنز" (**Giddens Anthony**) فقد كتب بطريقة أكثر نظرية عن النسبية "للحيز المكاني الاجتماعي" الذي يخلق نتيجة التطور التكنولوجي. ومؤخرًا عالجت "أنه نجا لونجفا" (**Anh Nga Longva**) في أطروحتها لنيل الدكتوراه، أوضاع البشر الذين يعيشون بطريقة مؤقتة، مثل العمال المهاجرين في الكويت، حيث إنهم لا يستطيعون؛ حتى شراء أثاث المنزل. وبعض الأثرياء منهم يقضي كل حياته المادية في الكويت، ولكنهم نفسيًا دائمو الإحساس بأنهم هناك لفترة مؤقتة.

أما في حالة المطار فإن عملية "نسب الحيز" (Space Relativising of) إلى "المكان" بأسلوب مادي وفوري، وعندما نأتي للواقع العملي؛ فيمكن للمرء القول: إن المطارات، جنبا إلى جنب، مع الإرسال التليفزيوني الفضائي، والفنادق العالمية، تمثل أحد أهم المصادر التي تسبب "ضعف الإحساس بالارتباط بالمكان" (Delocalising)، أو بتعبير آخر؛ التحرر من الارتباط بالظواهر الثقافية. فوجه التشابه بين المطارات الدولية أكبر بكثير، من الصفات ذات الطابع المحلي للمطار الواحد.

وباعتبار "النظام الاجتماعي" (Social System)؛ فإن المطار والفندق تختلف تمامًا، عن "المجتمع المحلي" (Local Community)، وهي لم تصمم لتصبح "نظامًا اجتماعيًا" له صفة الدوام والاستقرار. إنها تتميز بتدفق البشر من خلالها. وهي على العكس من سفينة ضخمة، أو سجن كبير- على سبيل المثال- لا يمكن اعتبارها "مختبرًا اجتماعيًا" (Socialogical Laboratory) أو "كونًا صغيرًا" (Microcosm). إن مستخدميها الرئيسيين، هم من المسافرين أو الضيوف، الذين ينسابون خلالها ويختفون، في غضون ساعات قليلة، أو في غضون يوم وليلة، على أكثر تقدير. ولكن رغمًا عن هذا المرور السريع للبشر فيها؛ فإن أشكال التعامل معهم متطابقة، من ساعة إلى ساعة، ومن يوم إلى آخر. وهذا يعني أن ثقافة المطار والفندق متماثلة، وباقية على مدى زماني، لكن ليس لنفس البشر الذين يحملون في طياتهم، ثقافات مختلفة.

ويمكن اعتبار "النمط الثقافي" (Cultural Form) للمطار أو الفندق؛ هو ثقافة الحد الأدنى. وهو يشبه تقريبًا لغة "البدجين" (Pidgin)، وهي لغة تواصل بدائية، طُورت لأغراض محدودة، وتستعمل غالبًا؛ في أغراض التبادل التجاري، بين أفراد من مجتمعات مختلفة، تتحدث بلغات مختلفة. قواعد هذه اللغة سهلة التعلم، والتفاعل بين المتحدثين سطحي، ويسير على نحو سلس وناعم، حيث ينعدم

الاحتكاك في تبادل المعلومات. وهذا ما يعطيها وجهًا إيجابيًا، حيث يستطيع المرء استعمال جميع العملات الصعبة، وتحترم جميع بطاقات الائتمان البنكية.

وزيادة في التوضيح، يمكننا القول: إن المطار العالمي النرويجي "جاردرموين" (Gardermoen) هو المكان الوحيد في النرويج، حيث يستطيع المرء فيه شراء فطيرة (Walffle) مع الزبد والسكر، بدولارين أمريكيين، دون مشاكل، وشجار.

هل بين ثقافة المطارات والفنادق العالمية، وبين الإمبريالية الثقافية الغربية علامة تساوٍ؟ وهل هي سمة عالمية للهيمنة الرأسمالية؟ أم أنه من الأفضل فهم وتعريف "ثقافة المطار"، على أنها "ثقافة ثالثة"، تعلو وتتعدى العوالم الثقافية المحلية؟ هذا المنظور الأخير يبدو وكأنه الأكثر إثارة للاهتمام. ووفقًا لوجهة النظر هذه؛ فإن هذه "اللا- أمكنة" (Non – Places) تعتبر رموزًا خالية المضمون للإنسان العصري. وإن ذلك الذي يحدث في المطارات والفنادق، يمكن أن ينظر إليه، ويعتبر "حداثة" (Modernity) في أنقى صورها. وقد تم استبعاد وامتصاص كل آثار المحتوى الثقافي المحلي منها. وفيها يقف الزمان والمكان مؤقتًا عن التأثير. ومن الناحية الثقافية؛ فإن المطارات والفنادق لا جذور ولا تاريخ لها، بالتأكيد.

كان الأنثروبولوجي "أندي وارهول" (Andy Warhol) معجبًا بنقاء وطهارة المطارات، إلى درجة أنه أطلق عليها: إنها أماكن غير نجسة، قد طهرت من أي محتوى ثقافي، لأي فئة من البشر، ولا يوجد لها مثيل، في أي مكان آخر داخل الموقع الواحد. إنها تحوي شظايا بشرية فقط؛ طهرت من الجذور الملزمة، القوية، التي تربط الإنسان بالمكان والزمان الماضيين.

وهكذا يمكن اعتبار المطارات والفنادق صالات انتقال، أو محطة انتظار، بين مكانين. ومن الطبيعي أن المسافرين لا يعتبرون المطار أو الفندق "مكانًا" يرتبطون به. لقد سمعنا جميعًا- وربما شاركنا- عن حوارات تدور، عما إذا كان

المرء يعتبر أنه زار "مكانًا"، أو دولة معينة، لو كان قد توقف فقط في مطارها وهو في الطريق إلى دولة أخرى. والقاعدة العامة التي يتفق عليها الناس هي أن المرور بالمطار لا يكفي، للقول أننا زرنا "مكانًا" بعينه، أو "دولة" بعينها. ومثل ذلك يقال لو أن أحدا مكث في فندق، حيث أقيم مؤتمر ما. ففي الحقيقة؛ لا يجب أن يقال إنه قد زار هذه الدولة أو هذا المكان فعلاً، فزيارة هذه الأماكن لا يعطي أية معلومة عن ثقافة المكان أو الدولة. ففي التو واللحظة، التي ندخل فيها المطارات، أو مشارف الفنادق، فإننا نأتي إلى عالم مفرغ ثقافيا، عالميا، جردت ثقافته من القواسم المشتركة للمجتمع، دون تغيير في احتياجات البشر اليومية. هذه الثقافة المجردة، هي ثقافة مكونة من شظايا، وهي عبارة عن عالم صغير، يوجد في الهامش بين عوالم أخرى، أي أنه "لا- مكان" (a non – place).

هل هذا تفسير لنظرة البعض للمنتجات الثقافية الأمريكية، ووصفهم إياها بأنها سطحية؟ الولايات المتحدة الأمريكية تمثل نموذجًا من المجتمعات التي تتميز بكل من "الالتقاء الثقافي" (**Cultural encounters**) و"الديناميكية" (**mobility**) العجيبة. المواطن الأمريكي يغير مكان مسكنه ست مرات في المتوسط خلال حياته. والكثير منهم ينتقل من الساحل الشرقي إلى الساحل الغربي عند تغيير العمل دون أن ينطق بكلمة "أف" واحدة. في مثل هذه المجتمعات، يكون من الضروري إيجاد وتطوير "حدود مشتركة" من التواصل، التي لا تتطلب فترة طويلة، أو عميقة؛ للتعلم. ومطلوب من الفرد فيها، أن يكون على استعداد لخلق معارف، وأصدقاء جدد، على وجه السرعة، وعلى التواصل مع أفراد لهم خبرة حياتية مختلفة تمامًا عن خبرته هو. وعليه أيضًا؛ أن يشعر بالراحة والانتماء، إلى أمكنة لم ينشأ فيها، ولا يتوقع أن يدفن فيها. ولو أردنا تصديق "كورت فونجاوت الابن" (**Kurt Vonnegut Jr**)، الذي يقول: "الصديق النيويوركي هو الشخص الذي أتبادل معه جملة واحدة في حفل كوكتيل. أما الصديق المقرب؛ فهو شخص يتحدث معه المرء لفترة أطول من خمس دقائق". ولذا فيمكن للمرء أن يستنبط، على ضوء هذا القول،

أن الولايات المتحدة الأمريكية والمجتمعات الكريولية(*) الأخرى، لديها قوة فائقة في "التوجه الأفقي" (Horizontal Orientation)، فهي منفتحة ومرنة. ولكنهم يفتقدون "التوجه الرأسي" (orientation Vertical). وهذا النوع الأخير؛ هو ما نميل إليه، ونتمسك به، نحن الأوروبيين: "التوجه الرأسي"، أو العمق(**).

ومواكبة لهذا الأسلوب من التفكير؛ حاول "إفر. ب. نيومان" (Iver B.Neuman) عالم الاجتماع، والأب لأطفال صغار؛ أن يبرهن- استنادا على تجاربه الشخصية- أن الأطفال ولدوا في "شمال أمريكا"، بعد ذلك تجرى لهم "عملية تشكيل حضاري" (Zivilisationsprozeb) تفطمهم من ميولهم الفطري؛ ليصبحوا "شمال أمريكيين".

ويبرهن على صحة هذه المقولة؛ بالإشارة إلى "الحب العفوي" (Spontaneous love) للوجبات السريعة، مثل: البيتزا، والهامبرجر، وسندوتشات السجق، ومشروب الكوكاكولا. كذلك تفاعلهم الواضح مع أفلام الإعلانات، والرسوم المتحركة، وغيرها من الأشياء المليئة بالحيوية والسرعة؛ التي "تأتي من هناك" (Originate from over there).

مثل هذا الأسلوب في التفكير، يمكنه التفسير الجزئي لسؤال يتردد: لماذا يُنظر إلى العولمة الثقافية، على أنها "أمركة" (Americanization)؟ ذلك إن الواقع يقول إن أمريكا الشمالية- وليس غيرها- هي أول من طوّر وكيّف أشكالاً من

(*) المجتمع الكريولي: هو المجتمع المكون من مجموعات إثنية مختلفة، نشأت وتمازجت، وكونت مجتمعا له صفات مهجنة – المترجم.

(**) هذه المقولة وهذا الوصف مقتبس من كتابات الباحث في العلوم السياسية والاجتماعية الفرنسي "توكيوفيلا" (Tocqueville) (1805 – 1859)، وكان من أهم كتبه "الديمقراطية في أمريكا" (Democracy in America) و"النظام القديم والثورة" (old Regime and the Revolution The)، وكذلك من دراسات كل من "هامسن (Hamsun) وحتى "بودريلارد" (Boudrillard)، و"فينكل كروت" (Finkiel Krout) المترجم.

الاتصال؛ تصلح لتفاعل مجموعات بشرية، لها أصول ثقافية شديدة الاختلاف. ولذلك نجد أنه من الأسهل تسويق "سلع ثقافية" شمال أمريكية- في كثير من الأحيان- عنها، في تسويق "سلع ثقافية" أوروبية كانت أو آسيوية. ذلك لأن هذه الأخيرة، تتطلب نظرة معمقة، في "عوالم المدلولات والمقاصد" (Worlds of Meanings) المحلية، التي يعرفها الصانع الأصلي فقط. وذلك لأنهم يملكون الكثير من الخبرات والتجارب المشتركة. وقد قيل: إن بعض الأفكار؛ لا يمكن التفكير فيها إلا بالألمانية. ولو كان ذلك صحيحًا؛ فإن هذه الأفكار لن تكون مناسبة للتصدير، وبالتالي لا يمكن أن تكون عالمية. ولقد تبين أن "اللغة الإنجليزية الأمريكية القياسية" هي الأسهل في التعلم. وبالتالي تكون أكثر نفعًا كوسيلة تواصل، بين أفراد لديهم القليل من القواسم المشتركة. وكما لاحظ الباحث الإيطالي "أمبرتو أكو" (Eco Umberto)؛ فإن اللغة الإنجليزية غنية بـ"الكلمات أحادية المقطع" (monosyllables)، وبالتالي فهي قادرة على استيعاب المصطلحات الأجنبية، وقادرة على خلق وإيجاد "مفردات جديدة" (neologisms). وهذا التفسير مختلف عن الاعتقاد السابق الذي يذهب إلى أن هيمنة اللغة الإنجليزية، تعود أساسًا إلى انتشار الاستعمار البريطاني سابقًا، ومؤخرًا إلى تزايد الهيمنة الاقتصادية، والجيوسياسية؛ للولايات المتحدة الأمريكية. هذه الأشكال المختلفة، من اللغة الإنجليزية العالمية يمكنها القيام بوظيفة "قاسم مشترك"، له عتبة منخفضة، سهلة التجاوز نسبيًا، والتي يمكنها تسهيل عملية التواصل بين عالمين لهما أسلوب مختلف في الحياة. وتتميز بأنها مختلفة كثيرًا عن اللغة الإنجليزية، التي ينطق بها الإنجليزي المولد. في مقال حول التجارة داخل أوروبا؛ حذرت "مجلة الأيكونومست" (The Economist) البريطانيين من الاعتقاد، بأن الأوروبيين الآخرين يتحدثون الإنجليزية. إنهم في الواقع ليسوا كذلك. إنهم تعلموا لغة يقال عنها "إنجليزية كلغة أجنبية" (English as a Foreign Language)، وهي لا تمكنهم من فهم الإنجليزية كما يتحدث بها الناطقون بها (Spoken by native Speakers English as)، هكذا قالت المجلة.

وامتدادا لهذا الأسلوب من التفكير، فقد يبدو للناظر أن "مناطق التداخل المشتركة"؛ يمكنها القيام بعملية إقلال وإضعاف أطر التجارب والخبرات في المجتمع، وكذلك قدراته الخاصة. ولو كانت لغة هوليود العالمية هي اللغة الوحيدة التي تستخدم للتعبير عن المشاعر والأحاسيس؛ فلن يصبح هناك مساحة لما هو متفرد، و"مرتبط بالسياق". وربما في مثل هذه الحالات؛ سوف يختفي ذلك الذي أثار اهتمام الأنثربولوجي الفرنسي "جان- فرنسوا ليوتارد" (**Jean - Francais Lyotard**)، ونوه عنه في كتابه المسمى "حالة ما بعد الحداثة" (**The Postmodern condition**)، والذي نشر في أواخر السبعينيات من القرن الماضي. وفيه تصور "ليوتارد" العالم عندما يتزايد استعمال لغة الكمبيوتر المشتركة، الفاقدة للحدود، والتي سوف تقوم بتعريف العالم بطريقة محددة، ويصبح العالم نتيجة لذلك؛ أحادي الأبعاد، مستوى خاليا من التضاريس. مثل هذا التطور رسم خطوطه العريضة "مارشال ماكلوهان" (**Marshall Leluhan**) في دراسته التي نشرت في منتصف الستينيات، عن تأثير وسائل الإعلام الثقافية- التلفزيون على وجه الخصوص.

قد يجادل البعض بالقول: إن العالم أكثر تعقيدا من أن تكون مكوناته هي "اللغة"؛ لكن على هؤلاء أن يتذكروا أن الإنسان بدون لغة حيوان، كما هو معروف. وأن جميع أشكال التطور في تاريخ البشرية أدت إلى، أو اشتقت منها؛ خلق مصطلحات جديدة، وطرق جديدة لاستعمال اللغة. إن "الشخص؛ الذي يصنع الأسماء"، أو "الراوي"؛ هو فرد مهم جدا، في كل الأساطير تقريبا، بما في ذلك في المسيحية. البطل، أو الإله، هو الذي يعطي الأشياء أسماءها الصحيحة في العالم. ولو اضطررنا إلى أن نبحث عن اسم، يمكن استخدامه من كل البشر، فسوف يتبين لنا أننا سوف نفقد الكثير. وذلك لأن "الثابت"، غير المرن؛ سوف يصبح هو "المشترك الفاصل" (**Interface Common**)، الذي يستخدمه الجميع. ويكون بذلك قضاء على الاختلافات، بين العوالم الحياتية المتفردة، والمميزة للتجمعات البشرية المختلفة.

غياب التنوع، أو بأسلوب آخر، وضع حدود فاصلة، مشتركة غير متمايزة؛ موجود في كل المجالات. و"دنيا الأعمال" الحديثة؛ مثال واضح على ذلك. وعلى الرغم من وجود من يكتب القصص والتسالي للربح والثروة عن كيفية إنشاء علاقة، وعمل مشترك مع العرب أو اليابانيين؛ إلا أننا سوف نرى أن ثقافة العمل الرأسمالية، هي التي تسود، وتقضي على كثير من الجوانب المهمة من التنوع الثقافي، ولا شك. مثال آخر على ذلك: الثقافة الناشئة بين الشباب والشابات في العالم؛ سوف نجد أنها متماثلة، سواء كان هؤلاء الفتيان والفتيات موجودين في "باكستان"، و"تيوان" (Taiwan)، أو في ولاية "كاليفورنيا" الأمريكية، أو "ستوفنر" (Stovner)(*). ومرة أخرى فسوف نجد أن التمايز والاختلاف، بين هذه المجموعات البشرية، قد قل كثيرًا عما كان.

إن الإنترنت، وشبكات المعلومات اللامركزية واللامكانية(**)، التي تربط الملايين من المستخدمين بعضهم ببعض؛ على وشك أن تصبح المثال الأهم الذي يمثل "لامحدودية" (Deterritorialising) الثقافات(***). من حيث المبدأ، يمكن لمستخدمي الحوارات على الشبكات الإلكترونية، والبريد الإلكتروني، والخدمات الإخبارية على جميع الأشكال والألوان التي ساهمت في خلقها الإنترنت؛ أن يتواصلوا رغمًا عن وجودهم في أماكن مختلفة في العالم، والمنطقة الفاصلة للتواصل تصمم بحيث يصبح من غير المهم المكان الذي ولد ونشأ فيه الفرد، أو اللغة الأصلية (لغة الأم)، أو الشعائر الدينية التي يمارسها ويؤديها، أو ما يأكله

(*) "ستوفنر": حي في العاصمة النرويجية أوسلو يقطنه، ويتركز فيه، نسبة كبيرة من الأجانب، خاصة من الباكستانيين– المترجم.

(**) أي : غير المرتبطة بالمكان ولا تتوقف على المحيط الثقافي، حيث يشترك الكثيرون في مناطق جغرافية مختلفة؛ في استخدامها– المترجم.

(***) "لامحدودية": مصطلح يقترحه المترجم للمصطلح الإنجليزي (Deterritorialising) وهي عملية يتم فيها، وبها ينعم أصحاب الثقافات المختلفة بالتواصل رغم الفروق والتمايز الثقافي بينهم، وتلغى الحدود الجغرافية، وبالتالي الثقافية. وتظهر جليًا في الاكتشافات في مجالات الاتصالات الحديثة مثل الإنترنت، والبريد الإلكتروني– المترجم.

المرء في العشاء، أو كيف تقابل مع شريك حياته، وكيفية تعامله أو تعاملها معه. في هذه الحالة تصبح الإنترنت هي "القاسم المشترك" للجميع، الذين يستطيعون الكتابة بالإنجليزية، وتتوفر لهم القدرة على إمكانية استعمال جهاز كمبيوتر له اتصال بالإنترنت.

ولو لم تكن العناوين الإلكترونية معروفة المصدر؛ لأصبح من المستحيل تحديد هوية المواقع الكثيرة، والتعرف على الناشر، ومعرفة ما إذا كان أمريكيًا، أو هنديًا، أو إيطاليًا. حتى أن هذا الأسلوب الأخير لتحديد الهوية؛ يمكن تجاوزه عن طريق وضع أسماء متعددة للفرد الواحد في أثناء الاستعمال. وبهذا يمكن لمستخدم الإنترنت الذي هو في الواقع "يهودي محافظ، في الأربعين من عمره"؛ أن يعرف نفسه، على أنه امرأة صغيرة في العشرينيات، ملحدة ولا تؤمن بالله.

وهكذا يمكن لهذه التقنية (أو التكنولوجيا) أن تجعل مدى وحقل الاتصال، أكبر بكثير مما كانت عليه في الماضي، مثلما فعلت الطائرات والقنوات الفضائية. لكن يبقى الثمن، الذي يجب دفعه، هو: افتقاد الجذور في الخبرات والتجارب المشتركة، ويفقد البشر بالتالي بعض الشعور بالإنسانية، وربما تصبح أشكال التواصل بينهم أقل إشراقًا وجمالاً. الاجتماعيات التي تتطور على الإنترنت؛ تؤسس على مبدأ "المصلحة المشتركة". وبالتالي فهي منزوعة من المكان، والخلفية الثقافية. وهي بذلك منزوعة أيضًا من التجارب المشتركة بين أفراد المجتمع الواحد.

بالإضافة إلى ذلك يمكن ذكر وسائل تكنولوجية للاتصالات يمكن استعمالها بسهولة، ودون عوائق. إن الاتصال عبر الفاكس، والبريد الإلكتروني؛ أصبحت وسائل سهلة الاستعمال، تمكن المرء– وفي غضون ثوان قليلة– من إقامة اتصال، كتابة، أو شفاهة مع أحد معارفه؛ أينما وجد. وبالتالي فقد أصبح التواصل أسهل، وأكثر تكرارًا، لكنه عادة ما يكون سطحيًا، وسريعًا. وفي حالات معينة تدعونا التكنولوجيا الحديثة– يمكن أيضًا اعتبار برامج "معالجة النصوص" في الكتابة على

الكمبيوتر، من هذه الوسائل التكنولوجية الحديثة- إلى تنفيس بعض البخار؛ قبل أن يتجاوز الضغط درجة الانفجار. واسمحوا لي أن أطرح السؤال بالكيفية التالية:

الفيلسوف والمؤرخ الإسكتلندي دافيد هيوم (David Hume) في إسكتلندا منذ أكثر من مائتي عام كان لديهم القليل لتبادل الحديث والحوار عنه، واستمرار الحوار عدة أيام متتالية. لقد أخذوا متسعًا من الوقت للتحضير لهذا الحوار؛ لأنهم كانوا يعرفون أن الاتصال المباشر كان نادرًا وصعبًا، ولذا يجب إدارته بحكمة. هذه الندرة والصعوبة قد زالت الآن، والحالة التي حددها وعرفها ووصفها كل من "ماكلوهان (McLuhan) و"ليوتارد" (Lyotard) في كتاباتهما حيث ذكروا "أن الثقافة قد قسمت إلى "معاملات" (Modules) صغيرة ومستقلة، بحيث يمكن التحكم فيها واستبدالها، حيث إنه لا يوجد ترابط داخلي عميق يربط بينها. وهذا أصبح واقعًا وحقيقة للكثير منا.

ربما يكون من المفارقات القول بأن "النشاطات الثقافية" في عصرنا الحالي- وهي عبارة عن اتجاه سياسي يمجد تقليدًا معينًا، ويصفه بالتفرد والتميز- تعتبر مثالاً على وسائل تقليل الفروق بين الثقافات والمقاربة بينها، حيث إن مهندسي السياسة في مختلف الدول يستخدمون نفس الأسلوب ونفس اللغة والقواعد للتعبير عن مدى تفرد بلادهم وتميزها.

ومثال على ذلك، فإن "القافز على الجليد" (Ski Jumber) سواء كان "فنلنديًا " أو "سولفانيًا" (Slovanidan) سوف يولد فخرًا وكبرياءً قوميًا في أيّن من "فنلندا" أو "سلوفانيا" عندما يحقق نصرًا رياضيًا، ويحصل على مرتبة متقدمة في السباق. وفي سياق التحليل الثقافي لهذه الحالة فإنه يمكن مقارنة الفخر والكبرياء القومي ومساواته في كل من فنلندا وسلوفانيا، وكلاهما موجود على نفس المستوى الأفقي.

محكمو التذوق الفني الرسميون العالميون منشقون في الرأي، وذلك عن الحديث ووصف "الفن الكريولي"(*) (Creolised Art)، سواء كان فنونًا أدبية، أو أبنية معمارية. وهل يؤدي هذا الخلط والذوبان للمتشابه وغير المتشابه إلى فن منحط بدائي؟ تمامًا مثل بيت سويسري خارجه حمام سباحة ولاقط هوائي للبث الفضائي (دش)، أو لوحة مقلدة من "فن بدائي" معلقة في بيت أحد أغنياء الحي الغربي من مدينة أوسلو، أو مسلسل أوبرالي ساذج لا يراعي المعايير الفنية لهوليود. لتصبح نتيجة هذا الخلط كما توقعها المتشائمون من أمثال "هربرت ماركوس" (Herbert Marcuse)، و"ألان بلوم" (Allan Bloom) ثقافة تؤثر فيها "آليات السوق" التي سوف تحلق وتسوي كل "الاختلافات النوعية"، وتنتج لنا عصيدة ناعمة ملساء من "القواسم المشتركة" التي يمكن بيعها في جميع أنحاء العالم، وتكون النتيجة مثل "بيع سيمفونية بتهوفن التاسعة في محتوى من موسيقى الـ"روك آند رول" أو روايات تقع في أعلى قائمة الأكثر مبيعًا تكون قد وحدت قياسيًا بحيث تحتوي على نكات هزيلة في الصفحة الثانية عشرة، ووصفًا للممارسة الجنسية في الصفحة العشرين؟ أم أن هذا الخلط الفني يجعل بعض المتفائلين يعتقدون أن "الثقافة المكرولة" (Creolised Culture) و"المعولمة" (Globalised Culture) سوف تحتوي على ثراء وعصرية مدهشتين، وذلك لأنها "مكرولة". ولذلك فإننا يجب أن ندين بالشكر للرأسمالية؛ لأنها قامت بدور "المادة السهلة الزالقة" (Lubricant) التي ساعدت "النبضات الثقافية" (Cultural Impulses) أن تتقابل وتمتزج وتنتشر؟.

(*) المقصود بالفن الكريولي هنا هو: الفن– سواء في المعمار الهندسي أو الأدبي– الذي يختلط فيه أسلوبان للبناء – معماري هندسي أو أدبي – من ثقافتين مختلفتين– المترجم.

٣

إن العادات والتقاليد المحلية الغنية ثقافيًا؛ يمكن وصفها بأنها أنيقة الزي والأسلوب، ومصنوعة بدقة. لكنه من الممكن أيضًا؛ وصفها بالجمود، والشوفونية، والثبات الذي لا يتغير. وفي الناحية الأخرى؛ فإن العادات والتقاليد الكريبولية، يمكن وصفها بأنها سطحية، لا مذاق لها، وليس لها جذور تاريخية، إلا أنه يمكن النظر إليها بأنها ديناميكية، وأنها خلاقة، وغير عنصرية، ومبتكرة. القناة التلفزيونية الخاصة بتقديم الموسيقى، أو "إم. تي. في" (MTV)، مثال جيد لعالم الثقافة الكريبولية الرأسمالية. وعلى ما يبدو أنهم اختاروا عرض العالم الإلكتروني "الكاكوفوني"[*] (Cacophony) في ومضات من الألوان الجذابة. وتلك تبدو وكأنها قطع مجزأة، لا تحمل مضمونًا داخليًا. وتبدو وكأنها دعوة للعدمية والنسبية، لكن بداخلها رسالة، مضمونها مناهضة العنصرية. إن قناة الـ "إم. تي. في" تبدو وكأنها استجابة متأخرة، لـ"حوارات أفلاطون" (Platos Gorgias)، التي فيها يحاول الفيلسوف "سقراط" (Socrate)، إقناع الناس بلباقته الخطابية، وشعاراته الجذابة بأنه من السخف أن نزعم أن الحقيقة نسبية. وربما لا تعني قناة "إم تي في" قول أن الحقيقة نسبية، لكنها تخبرنا بأن هناك عددًا لا حصر له من الحقائق والوقائع، وأن للفرد الحق المطلق، في اختيار ما يناسبه. وربما تسألنا: من ذا الذي يعطينا الحق في الحكم عليه، أو حق الاختيار له؛ تحت مسمى الديمقراطية؟.

(*) "الكاكوفوني" هي أصوات موسيقية تتكون من مزيج من الموسيقى المزعجة، والخشنة، وغير المتناغمة ولا المتوافقة. والكلمة مأخوذة من الفرنسية Cacophonie، والتي بدورها مشتقة من الكلمتين اليونانيتين Kakos أي سيئ ، وPhone أي صوت- المترجم.

الفن الهابط، الموجود في وسائل الإعلام؛ لا يعلمنا أن العالم لا يتناسق مع بعضه البعض بأسلوب منطقي، فحسب. ولا يمثل تهديدًا للقضاء على محاولات إعادة القديم بأمان وأصالة فحسب. ولكنه يمثل "وسيلة إغراء" لها شعبية، وتشيع بين الناس بسهولة. هكذا وصفه الناقد الفني الكاتب النرويجي "أريك فوسنس هانسن" (Erik Fosnes Hansen) في روايته الضخمة "ترانيم في نهاية الرحلة" (Psalm Journey's End)، وذكر أن انتشاره – أي الفن الهابط – يمثل خطورة. و"هانسن" واحد من كثير من الكتاب الجيدين؛ الذين يأملون في، ويرسمون؛ صورة لعالم آمن جميل في جوهره، وله قاعدة مبادئ؛ معترف بها، ومقبولة محليًا. عالم يسهل وصفه في نثر، أو قصائد شعر جميلة، وعندما يقرؤها البشر؛ لا يشعر أحد منهم، أنه مستبعد منها، وتحملنا جميعًا خلالها من أول صفحة إلى آخر صفحة، دون أن تعطينا الشعور، ولو للحظة واحدة: إن في العالم شيئًا لا نستطيع فهمه، أو إدراكه. شيئًا يتجاوز قدراتنا اللغوية محاولة وضع مفهومه العالمي في سياقه الشيق. شيئًا تكون صورته المنعكسة؛ من قطع "الكاليدوسكوب" (Kaleidoscope) لقناة "إم. تي. في"؛ أجمل وأفضل من رواية تعطي الانطباع بأن العالم ثابت لا يتغير. ذات مرة؛ وصف هذا الميول والاتجاه الكاتب النرويجي "يان شارستاد" (Jan Kjærstad) بأنها؛ حالة، حيث كُتاب ومؤلفو القرن العشرين؛ يكتبون كتبهم لقراء القرن التاسع عشر. وذلك لأن القراء في القرن العشرين يحلمون بالعودة إلى القرن التاسع عشر...

النظرة السطحية لشاشة تليفزيون "MTV" سوف تبدو لنا وكأنها "ضوضاء بيضاء" (Noise White)، وكأن عاصفة من البَردِ (Snow) تبدو على شاشة التلفزيون، الذي لم يتم توليفه على تردد أية قناة إرسالية. أو بوصف أكثر دقة: كصوت ناتج عن راديو، لا يجد إرسالاً يلتقطه.

إنه صوت يشمل كل نطاق الذبذبات في آن واحد، ولا يفرق بين مختلف النغمات، وبالتالي يصبح غير مفهوم و"كاكوفونيًا". أو أنه- مجازًا- تحقيق لقانون الديناميكا الحرارية الثاني، والمعروف بـ"مبدأ الإنتروبي" (The Entropy Principal)، الذي يذهب إلى أن "الفروق في درجات حرارة الأنظمة (Systems) الفيزيائية، أو الأجسام المتصلة؛ تتجه نحو التساوي. أو بأسلوب آخر: التيار الحراري يسري من الأجسام ذات درجة الحرارة الأعلى إلى الأجسام الأقل حرارة، أو الباردة. ويستمر انتقال الحرارة طالما استمر التواصل حتى نصل إلى التعادل والتساوي الحراري. وانطلاقًا من هذه القاعدة؛ فإن كل إنسان يقيم في المجتمع؛ يتولد داخله ميل لأن يصبح مماثلاً للآخرين. وإن ميل المجتمع في اتجاه "الأنتروبيا السالبة"(*) (Negentropy) ينتج عن "بناء الحوائط العازلة" و"العادات والتقاليد الثقافية". ويجب ملاحظة أنه بزيادة درجة ورود المعلومات، بحيث تصبح عدة مرات أكبر من قدرة الفرد لاستقبالها، وهضمها، يفقد المرء - من كلا الطرفين - القدرة على التناسق مع السياق. أو بتعبير أخر؛ عندما يتسع نطاق الترددات والذبذبات إلى حد كبير، عندها سوف يبدو لنا المجتمع، وكأنه مجزأ، إلى قطع منعزلة لا تناغم بينها. وبهذا يصل المجتمع إلى حالة تبدو فوضوية، إلا إذا استطعنا تزويد المرء بقدرات استخدام "مفاتيح البحث"، بحيث يستطيع التقاط الإرسال بطريقة هادفة. وبذلك يستطيع كل واحد منا استخدام "مفاتيح البحث"، أو "زر التوليف"، بأسلوبه الخاص، أسلوب التوجيه الذي يرتضيه هو. وبالتالي سوف تختفي قدرة وسائل الإعلام الموجهة على توحيد المجتمع ودفعه اتجاه العزلة، وعندها يفقد المجتمع القدرة على تنظيم نفسه بشكل جماعي، وتبدأ الأفراد في التعامل مع الآخر، على أساس، وانطلاقًا من وجهة نظر واقعية مشتركة.

(*) "الأنتروبيا السالبة": يمكن تعريفها بأنها تناقص معدل انتشار وتبادل المعلومات. ويكون بذلك Negentropical Tendency أو الميل في اتجاه الأنتروبيا السالبة، ميل ينتج من وضع حدود وبناء الجدران بين البشر، والتشبث بالعادات والتقاليد- المترجم.

الوضع يبدو وكأن به مفارقة، وذلك لأننا تعودنا على التفكير بأن انتشار المعرفة على صورة "كم غير منقسم"، أسلوب جيد، وسوف يساهم في جعل العالم أكثر وضوحا، ويخلق انتشارا معرفيًا مشتركا. وفي الواقع فإن أسلوب انتشار المعلومات المعاصر؛ يؤدي في الحقيقة إلى عكس ذلك- إلى انقسام الجمهور والرأي العام، وإلى "جاشتلت عالمي"[*] (World's Gestalt) غير واضح. إن أحد منابع الثقافة البشرية الكبير- ربما هو الأكبر- هو نشوء الكتابة. فعندما اكتشفت الإنسانية الكتابة، أصبحت قادرة على جمع وتطوير المعرفة. وقادرة على التخطيط لمستقبلها، وبطرق كانت تعتبر في السابق من المستحيل. فالكتابة تعتبر دعامة قوية للتفكير: إنها تساعدنا على التذكر، وتعطينا القدرة على تعلية بناء أفكار الأجيال التي سبقتنا. وهذه الثورة الإلكترونية التي نمر بها الآن؛ يمكن تشبيهها ومقارنتها باكتشاف الكتابة- وهي بالفعل تطور تكنولوجي لها، إلا أن النتيجة أصبحت مختلفة بعض الشيء. فبعدما كنا نعاني من شح المعلومات، أصبحت الآن المعلومات، والمعرفة المتوافرة؛ تزداد بشكل ضخم كما ونوعا، وأصبح من الضروري علينا تعلم كيفية التعامل معها.

بينما تعامل أجدادنا مع كتبهم بحب وعشق، حيث كانوا عالمين بأنها تحتوي على كميات ضخمة من المعرفة التي سوف تجعل من الإمكان السيطرة على الطبيعة بأساليب جديدة؛ فإننا الآن واقعون في دوامة عنيفة شرسة من المعلومات،

(*) "Gestalt" أو "الجشتلت": كلمة ألمانية لم تترجم، واستعملت في اللغات الأخرى كما هي. ودلالتها أقرب ما يكون إلى الصيغة، أو الشكل، أو النموذج، أو الهيئة، أو النمط، أو البنية، أو - وهو الأكثر استعمالاً "الكل المنظم"، أو "الكل المتسامي". وبالتالي يمكن تعريف الجشتلت بأنه: كل مترابط الأجزاء، باتساق وانتظام. وترتبط أجزاؤه المكونة ترابطًا ديناميًا فيما بينها، وفيما بينها وبين الكل ذاته. وتتضمن النظرية الجشتلية في علم النفس أن "الإدراك" من القضايا الأساسية لرؤية الأشياء أو إدراكها، كما هي على حقيقتها، حيث يقوم التعليم بنقل الكائن؛ من موقف غامض لا معنى له، إلى حالة يصبح معها، ما كان غير معروف أو غير مفهوم، أمرا في غاية الوضوح، ويعبر عن معنى ما، يمكن فهمه والتكيف معه- [illegible] ملاحظة- المترجم.

كلها تتصارع ليلاً ونهارًا لجذب انتباهنا واهتمامنا. لقد كانت المعرفة في السابق، بضاعة محدودة الموارد، والمعروض منها قليل، ويمتلكها البعض القليل. أما الآن فقد أصبحت المعرفة منتجًا شديد الوفرة. حيث إن فن طباعة الكتب؛ قد خلق صورة معلوماتية متسمة بالتكامل، وترابط المعلومات. وحيث خلقت القنوات الفضائية والشبكات الإلكترونية فائضًا كثيفًا من الروايات المتوازية لنفس المعلومة. وهذا مما جعل من الصعب الحفاظ على مفهوم "الوحدة القومية"، و"الثقافة القومية المشتركة"، حيث أنتجت التكنولوجيا الحديثة الكثير من "غير المتشابه"، والمجتمعات المتداخلة جزئيًا، ونستطيع التواصل بمختلف من المحاضرات والخطابات، وكذلك مختلف من فلسفات اللغة.

المشكلة إذًا لم تعد قلة المعلومات؛ بل على العكس تمامًا: إن هناك وفرة في المعلومات، توجد في الوسط القريب. ونحن جميعًا معرضون إلى امتلاء أعيننا إلى حافتها بشظايا معرفية تافهة، لا مضمون لها، وليس بها أي ترابط منطقي داخلي.

من الناحية الأخرى، فيمكننا، إلى درجة كبيرة؛ اعتبار هذه "الضوضاء البيضاء"، الكاكوفونية، هي أقصى تعبير عن الديمقراطية. وفي تلك الحالة، ينبغي علينا التعامل مع هذا الواقع بدلاً من استبعاده على أسس فنية وجمالية، أو توق وحنين إلى الماضي، أو ببساطة على أساس من الحكم المسبق عليه وقولبته؟ ولو نظر المرء عن كثب إلى الـ"إم. تي. في"؛ لاكتشف أن القناة، ترسل مجموعة متنوعة من الرسائل الجمالية والأخلاقية. لكنها تقدمها في نفس اللحظة تقريبًا؛ لذا فإن "الكل المدرك"، هو الذي يبدو وكأنه "ضوضاء بيضاء" **(White Noise)**. إنـــــه "تاريخ ضخم"، لو جاز التعبير؛ كل جزء من أجزائه، منسجمة، ومترابطة بقوة، وجلية واضحة. كلها مضطرة لتقاسم المكان مع شظايا أخرى كثيرة. ولذا يبدو "الكل" غير مفهوم. تمامًا مثل المطار، ومثل المجتمع متعدد الثقافات، فهو "منطقة التداخل الحدودية" للكل المشترك، المكون من أجزاء. فيه القواعد هي

نفسها- حتى ولو كان المحتوى مختلف الأجزاء؛ متشابهة. ويمكن استبدال بعضها ببعض. ولو تعلم المرء اللغة الاصطلاحية، لإحدى لوحات العزف الإلكترونية؛ لاستطاع تعلم اللوحة الأخرى بسهولة ويسر. تمامًا مثلما تُنقل "المهارات" من مطار بومباي الهندية، إلى مطار "أرلندا" (Arlanda)، في العاصمة السويدية "ستوكهولم".

وبعد فترة قصيرة من نشوء هذه الحالة، تتولد التأويلات والتفاسير التقليدية، التي تفشل في وصف الظاهرة. وذلك لأن مفتاح الفهم الضروري لوصفها، لا يكمن في العلاقة بين "الكل المدرك" للصورة، بالنسبة للأجزاء المكونة له. إنما يوجد في القواعد والأسس، التي تصف وتحرك كل جزء على حده. ولذلك فإن التفسيرات والتأويلات التقليدية؛ تخلق الانطباع بأن مجتمع المعلومات الجديدة يفتقر إلى المضمون. وذلك لأنه صمم ليكون خيارًا منفصلاً، وجاذبًا لـ"الكل". تمامًا مثل تهافت الدببة إلى إناء العسل. واتباع هذا الأسلوب من التفكير يؤدي إلى أن يبدو "القرص المدمج"- المسمى بالـ"سي دي" (C.D)- أكثر سطحية، وأقل تعقيدًا من "رواية". والسبب في هذه الرؤية هو أننا ننظر إلى القرص المدمج، ونتعامل معه على أنه رواية. ولكنه في الواقع؛ لم يصمم ليقرأ عموديًا- أي قراءة معمقة؛ بل صمم لينظر إليه أفقيًا- أي في اتساعه. إن هذا "القرص المدمج" (C.D) مؤلف من عدة وحدات مستقلة، وتبقى وظيفة المستخدم نفسه أن يربط فيما بينها، وأن يخلق منها "الكل المدرك" الذي يناسبه هو شخصيًا. علاوة على ذلك، لا ينبغي لنا تجاهل أن تكنولوجيا الإعلام المتعددة سوف تطور شكلها، وقالبها الخاص بها، بما فيه من عمق وتعقيد.

هذا الاستبدال والتغيير، يمكن وصفه في الواقع العملي؛ بأنه ديمقراطي ونسبي. فوسائل الإعلام المتحدث عنها ليست وسائل إعلام بالمعنى التقليدي المتداول؛ فكل من القنوات التلفزيونية الفضائية المتعددة، وكذلك أساليب التواصل

عن طريق الشبكات الإلكترونية(*) توفر للفرد إمكانات لم تكن معروفة له من قبل، وتعطيه حرية الاختيار، والقدرة على توجيه اهتمامه. لقد ازداد نطاق "الطول الموجي" للإرسال، بشكل كبير. وكانت النتيجة أن تناقص بشكل متزايد عدد الأفراد الذين يولفون جهاز استقبالهم على نفس التردد، أو بمعنى آخر، تزايدت الاختيارات أمام الفرد الواحد. ولذلك فإن هذا الوضع الجديد يجعل من الصعب المحافظة على "مجتمع قومي" (Community National)، وينتظر أن يتواصل التطور في هذه التكنولوجيا- بداية كانت الكتب المطبوعة، وهي التي ساهمت في إنشاء وتكوين مفهوم المجتمع القومي، ثم جاءت وسائل التواصل الإلكترونية. ومن حيث المبدأ نفسه- الذي جعل بقاء "المجتمعات القومية"؛ سوف يكون هو نفسه الذي يجعل بقاء المجتمعات القومية شيئًا مستحيلاً. وذلك لأن هذه التكنولوجيا تقوم بعملية تفتيت لتلك المجتمعات المتماسكة ماديًا، الراسخة في المكان، وتخلق بدلاً من ذلك مجتمعات جديدة، أقل جمودًا وترابطًا، وأكثر تخصصًا. إنها توفر فرصة نادرة لطائفة واسعة من الجماعات؛ للتعبير عن نفسها. وسوف نجد مرة أخرى نقاط تجميع وتوحيد. ولن يكون هناك طريق الثقافي للعودة إلى طور السذاجة والبساطة، ولا العودة إلى ماض أسطوري، عندما كانت الجدران تبدو طبيعية، والمحافظة عليها حينها لا تستدعي جهودًا كبيرة. أما في وقتنا هذا فإن بناء وصيانة هذه الجدران والحوائط العازلة على ما يبدو يحتاج إلى عزم وجهد كبيرين.

السؤال الذي يجب إثارته للنظر بعمق في هذا الموضوع هو: ما عدد المكونات / المجتمعات الصغيرة المتنوعة التي نحتاجها لتكوين "مجتمع متناسق"؟ هذا السؤال هو سؤال استطرادي وغير منهجي، في حال طرحه في النقاشات والحوارات الدائرة حول موضوع "المجتمع المتعدد الثقافات" والأطياف. فمن

(*) لقد وضح صحة هذا الكلام بعد بضع سنوات من كتابته، وظهر تأثير الإنترنت، وبرامجها، التي سهلت عملية التواصل بين أفراد المجتمع الواحد، وبين المجتمعات بعضها بعضًا، وكان لها دور كبير في التواصل بين الشباب الثائر في البلاد العربية، وعلى الأخص في تونس ومصر- المترجم.

ناحية، يمكن القول: إن مفهوم "مجتمع متعدد الثقافات"، والأطياف. ومن ناحية، يمكن قول: إن مفهوم "مجتمع متعدد الثقافات" هو مفهوم سخيف، ومتناقض. ذلك لأن تعريف "مجتمع" يرجع إلى "قيم مشتركة"، وبالتالي درجة معينة من المشترك الثقافي. وفي الناحية المعاكسة لذلك، فهناك من يزعم أيضا أن: مفهوم "مجتمع متعدد الثقافات" هو مفهوم سخيف حقًا، لكن منطقهم وحجتهم في هذه الحالة هي: إن كل المجتمعات تحوي التعدد الثقافي. وذلك لأن النظريات التي تتحدث عن أن كل المواطنين لأي من الدول مشتركون في ثقافة واحدة مشتركة، هي نظريات لها مفهوم خاطئ، من الناحية الإيديولوجية.

من ناحيته؛ اقترح باحث الاجتماع النرويجي "يون إلستر"(*) **(Elster Jon)** تعريفًا للمجتمع ووصفه بأنه: حيز مكاني؛ فيه يتوقف المواطنون عندما يرون الضوء الأحمر في إشارات المرور. أي أنه مكان يوجد فيه توافق على حد أدنى من القواعد والإرشادات، التي توجه الأداء المجتمعي وأسلوبه في الحياة المشتركة.

هذا التعريف قريب من مفهوم جاءت به الثقافة العصرية، حيث لم يعد من المتوقع من البشر؛ الذين يعيشون في نفس المكان، أن تكون لهم قيم مشتركة، أو رؤية ومعتقدات مشتركة، أو فلسفة واتجاهات أساسية مشتركة لتوصيف الحياة. ولكنه وفي الوجه المقابل، يتوجب عليهم أن ينتسبوا إلى مؤسسات مشتركة، ويلتزمون بمجموعة من القواعد والأنظمة المشتركة، ومن الواجب عليهم قبول "معايير مشتركة" لحل المشاكل الموضوعية المشتركة. عليهم إذًا الوقوف عند ظهور الضوء الأحمر، رغمًا عن كونهم محاطين بضوضاء بيضاء.

(*) يون إلستر: فيلسوف، وباحث اجتماعي نرويجي، ولد في عام ١٩٤٠. وكان من الدعائم الأساسية في إصدار "موسوعة باكس" التي جمعت الكتابات والدراسات الاجتماعية لكارل ماركس باللغة النرويجية. وفي السنوات الأخيرة صدرت له كتب عن دراسات المفكر والمؤرخ الفرنسي توكيوفيلا" (ولد١٨٠٥) عن "الديمقراطية في أمريكا"، و"النظام القديم والثورة" باللغة النرويجية – المترجم.

عادة ما تقوم الجدران بالفصل بين "غير المتحضر"، و"المتحضر" بإبقائه في الخارج، ولكن في بعض الأحيان تقوم بحبسه في الداخل، ونادرًا ما تكون الجدران فعالة مائة بالمائة، ولا توجد جدران أبدية. مثلاً؛ جدران مرض الطاعون، التي أقيمت في القرون الوسطى، فشلت في حماية "الجميع" الموجود في الجانب الصحيح من حيث الإصابة بالمرض. وكذلك فشل حائط برلين في إعاقة كل من "راديو أوروبا الحرة"، ومجلات "البلاي بوي" (boy play)، وبناطيل الجينز من ماركة "ليفيس" (levis) من إحداث ثقوب في جدران الاشتراكية المتزمتة. ولم تستطع الجدران والحواجز الإثنية منع الزواج المختلط.

جدران الطاعون ظلت قائمة لم تتهدم، لكنها فقدت وظيفتها ومعناها، وذلك عندما اختفى الطاعون. وفي رواية "جدران الطاعون" (Plague Wall of the)، التي تعالج قضية وجود الإفريقيين الجنوبيين في المدينة الفرنسية الصغيرة المسماه "كاركاسون" (carcassonne)، أفصح الكاتب "أندريه برينك" (Andre Brink) عن انطباعه قائلاً: إن الجدران بين البشر تزول وتهدم؛ عندما يتزاوجون، وعندما يشعر الزوجان بالمتعة واللذة، وعندما يتبادل الزوجان الأبيض والأسود المواقع. ويعتقد أن مثل هذا الأسلوب في التفكير، هو الذي حاول "الهيبز" (Hippies) أن يشرحوه للناس، في فترة الغموض التي أحاطت بهم، وذلك عندما أعطيت لهم فترات إذاعية، وسمح لهم بكتابة الأعمدة الصحفية، وبدءوا في تسويق أفكارهم عبر كثير من وسائل الإعلام، ونقل عنهم أن الممارسة الجنسية المخالفة لما هو مألوف، واستبعاد الأعراف والتقاليد الاجتماعية، هي التي تجعلهم أكثر سعادة. ولكن عندما فقدوا براءتهم، واكتشفوا– على الأقل أغلبهم، وأكثرهم انتقادًا للنفس– إنهم هم أنفسهم الذين أقاموا جدرانًا صلبة جدًا، سواء فيما بين جماعتهم، وفيما بينهم وبين المجتمع، من خارجهم. إن هناك مشكلة معتادة تظهر في كل التجمعات الإنسانية،

إنها حقيقة لا يمكن إنكارها، وهي: ليس كل أفراد المجتمع من يقبل، أو يستطيع المشاركة، وذلك لأن كل منهم يصنع جماعته بأسلوب متمايز، وفيه يرفض مشاركة المخالفين. والكثير من هذه الجماعات يعبر عن رفضه للأخرين بطرق مختلفة. والكثير من هؤلاء؛ يكرر أقوالاً يصنف فيها الآخرين، من مثل: إنهم ليسوا مثلنا. أو هؤلاء الأخرون، المقرفون، الأنجاس، الكافرون، الشمال أمريكيين، اليهود، أكلوا لحوم البشر. إن الذي يجب علينا نحن البشر معرفته، وتمييزه، والخوف منه وكراهيته؛ هي تلك "المادة المضادة"(*) (the anti matter) في تكويننا النفسي، وهي التي منها يقام أساس بناء المجتمعات. وهي المادة التي نبني منها بأنفسنا الحوائط التي تعزلنا عن الآخرين.

لا يوجد جدار يبقى للأبد؛ ولكن، دائمًا سوف نجد جدرانًا. هذه الجدران متنوعة، سواء في مكان تواجدها، أو في دلالتها. بعض هذه الجدران تمر خلال المجتمع، وكثير من بعضها الآخر ما يمر خلال البيت الواحد، حيث تفرق بين المرء وآخرين يهفو للزواج منهم. وبينه، وآخرين لا يقبل الزواج منهم- حسب تعبير "ليفي ستروس" (Levi Strause). وهناك بعض الجدران التي تعزل بين المرء وهؤلاء الذين يكون على استعداد لقتلهم إذا اضطر لذلك. وبين المرء وهؤلاء الذين يكون على استعداد للموت ذودًا عنهم. وبعض الجدران تفرق بين المرء، وبين هؤلاء الذين يعمل معهم، وهؤلاء الذين يقابلهم أثناء الاتجار في البضائع فحسب. وتشمل هذه الجدران أسوار المدينة القديمة، ومجموعة الوحدة الاقتصادية الأوروبية الجديدة (ECU). مع العلم بأنه لا يوجد "جدران مطلقة"، بمعنى أن تكون قادرة على منع أي اتصال، فكل الجدران يمكن التسرب منها.

(*) يتوقع علماء الفيزياء الفلكية وجود "مادة مضادة" للمادة المعروفة لنا في الكون المحيط، ومن خواص هذه المادة أنها تتحد مع المادة العادية فيفنى الاثنان وتنطلق الطاقة المتكونة من اتحادهما. ومن هذا المنطلق اقتبس الكاتب هذا التمثيل- المترجم.

في المجتمعات يضعون قواعد وشروطًا، تحدد نوع التواصل الذي يمكن أن ينشأ. هذه القواعد يمكن أن تتراوح بين حظر الزواج من هذه المجموعة أو تلك، إلى درجة حظر الحديث بأسلوب مهذب عن ذلك النظام السياسي عند هذه المجموعة أو تلك. وفي بعض الحالات المتطرفة يمكن أن يمنع المرء من زيارة فئات معينة من البشر الموجودين في الجانب الآخر من الجدار. إن بناء الجدران هو تعبير عن الرغبة في تعميق العزلة؛ على حساب التواصل. لكن، وفي الوقت نفسه؛ فإن بناء الجدران- في حد ذاته- يبرهن على أنه، قد تم تواصل مكثف بين الأفراد، أو المجموعات في ذلك الحين. أو أنه يبرهن على إمكانية إقامة التواصل في المستقبل مع الذين يحتاج المرء لإحاطتهم بجدار حتى يصبح متميز الهوية. ولذلك أقام "الهيبز" جدرانًا، بينهم وبين الطبقة المتوسطة- الذين هم منها، وحاولوا أن يبقوا على مسافة منهم. ولقد بنى أتباع "ستالين"، الديكتاتور الروسي؛ جدرانًا تعزل البرلمانية والرأسمالية، وهي الأنظمة التي يخشون على أتباعهم من إغوائها. والاتحاد الأوروبي الآن، يبدو وكأنه مضطر، لإقامة جدار بينه وبين الشرق والجنوب، أو المجموعات البشرية التي تهدد بهجوم مكثف، وينثرون فضلاتهم في حدائقهم، والذين يتسببون في خلق حالة من الفوضى، في ميزانياتهم القومية المحددة بدقة. ومن جانبها تقيم النرويج جدارًا بينها وبين أوروبا. إن الجدران ليست مؤسسات في الواقع الحياتي فحسب؛ لكن لها أهمية رمزية عميقة أيضًا.

وعلى سبيل المثال، فإنه في حالة عدم السماح لتركيا بالمشاركة في الاتحاد الأوروبي، مع قدرتها، على الحفاظ على معدل للنمو الاقتصادي أعلى من دول الاتحاد، ورغم كونها دولة علمانية، وعلى وشك أن تصبح ديمقراطية وفقًا للمقاييس الأوروبية؛ إلا أنه لا يجب على المرء إغفال جانب مهم من تفسير الرفض الأوروبي؛ بأن أوروبا لا ترغب، ولا تقدر، على فقدان تركيا لتقوم بدور "الآخر"؛ لأن هذا الجدار الرمزي حول أوروبا، يكوّن جدارًا حول هوية أوروبا نفسها. وبالتأكيد سوف يتهاوى، لو انضمت تركيا للاتحاد الأوروبي. وعلى العكس من جدران السجن، أو الجدار الذي

يحيط بالنكنة العسكرية؛ فإن الجدار بين أوروبا وتركيا، يعزل الأتراك، ويبقيهم في الخارج، أي لا يسمح لهم بالدخول، ويترك لهم حرية بناء جدرانهم الخاصة بهم شرقًا، سواء مع، أو بدون، الناطقين بالتركية في آسيا.

على العموم فإن الجدران ليست منيعة، وليست غير قابلة للاختراق. وفي حالة الجدران التي لها تأثير اقتصادي أو سياسي، فقد اعتبرت من بعض الإيديولوجيين مطلقة. وقد قبل البعض صحة هذا الفرض من حين لآخر. مثل هذه الإيديولوجية تستتبت عقيدة ثنائية في الواقع، تتضمن دائمًا عناصر من معركة "الخير" في مواجهة "الشر". في "سريلانكا" يصنف "التاميل" (Tamils) في حزب الشيطان، كما ورد في الأساطير السنهالية القديمة (Ancient Sinhalese Myths). ووفقًا لما تقوله "الجبهة القومية" (National Front)؛ فإن المعتاد هو أن المسلمين وحدهم هم الذين يسيئون معاملة النساء. وهم الذين ينجبون أعدادًا كبيرة من الأطفال. وعلى المستوى السياسي؛ فهناك عقيدة سائدة بين أعلى شخصياته وحتى وقت قريب؛ تذهب إلى أنه يوجد صراع لا هوادة فيه قائم بين العالم الأول، والعالم الثاني. وهي العقيدة التي أفسحت الطريق في بعض المناطق للمواجهة المعتادة، وذات التاريخ الطويل، بين المسيحية والإسلام. مثل هذا النهج في التفكير؛ الذي يتميز بالإيمان بثنائية القطبية، هو الذي يتوجب على المفكرين والمثقفين دحضه وتفنيده. وذلك عن طريق تشخيصه، وتوضيح مفارقاته، وتقديم التفسيرات الجديدة لأحداث الماضي، وتوفير الحقائق غير المعروفة للجمهور، وقبل كل هذا يوضحون لهم حقيقة "نسبية الجدران".

ما زالت الدولة القومية حتى الآن هي اللاعب السياسي الأهم، على مستوى العالم. لكنها آخذة في التراجع، وربما في المستقبل القريب، لن تصبح المرجع الأهم لتحديد هوية الفرد، في أجزاء كبيرة في أوروبا. والهويات الاجتماعية، والمكونات التي تتكون منها مختلف المجموعات التي ينتمي إليها الفرد؛ هما قيد

التفاوض. ولا ينطبق هذا على أوروبا فحسب؛ بل يشمل جميع أنحاء المعمورة تقريبًا. إن هياكل السلطة التي نعيش في كنفها حاليًا، سواء كانت سياسية أو اقتصادية؛ لم تعد مربوطة، بنفس القوة بالدولة القومية، كما كانت من قبل. ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن الثقافات ليست قلاعا مغلقة، ومسيجة بسور يحيط بها غير قابل للتجاوز. ولكنها، أي الثقافات، تنساب بيسر، وسرعة، وبطرق لا يمكن توقعها، غالبًا ما تكون مثيرة للدهشة. وكما في حالة "موسيقى الريجا"، وهي التي أصبحت ثقافة شائعة في جزيرة "موريشيوس" الأسيوية، بعدما أصبحت "موضة قديمة" في "جاميكا" الكاريبية بعشر سنوات تقريبًا. وكما أصبح للمرء النرويجي، الذي يعيش بالعاصمة أوسلو؛ نقاط تماس ثقافية، مع القاطنين في "ترينيداد" الكاريبية، أو "كوالالمبور" الأسيوية، و"فانكوفر" (Vancouver) الأوروبية، أكثر مما له مع جيرانه في القرية النرويجية الصغيرة "لوتن" (Loten)، أو حتى مع جيرانه في الحي الذي يعيش فيه، في العاصمة أوسلو. وكما بينت بالأمثلة؛ فإن الأنماط الثقافية، والسلطات السياسية، والقوى الاقتصادية؛ كلها في الطريق في اتجاه فصلها ونزعها، من بعدها المكاني، أو بتعبير آخر: لم تعد بالضرورة مرتبطة بمكان محدد. ولذا فإن جميع الجدران تقريبًا، التي تفصل بين البشر اليوم سواء في الداخل أو الخارج؛ أصبحت غير واقعية، عما كانت عليه منذ أربعة أو خمسة عقود، وذلك عندما رسمت الحدود بين الأقاليم والدول.

وفي مثل هذه الحالة فإن عالمنا المحيط الذي نعيش فيه يصبح أكثر تعقيدًا عما كان عليه، سواء كان مجتمعًا ريفيًا تقليديًا، أو دولة قومية حديثة. ولم يعد من المناسب أن ينتسب المرء إلى "مكان" واحد، أو إلى "جماعة" قريبة واحدة. ولم يعد هناك أسرة واحدة، أو قرية واحدة، أو أمة واحدة (أسرة مجازية)، أو دولة قومية واحدة (قرية مجازية)؛ تستطيع استيعاب كل ولاء الفرد، أو احتواء كل جذوره، أو تستحوذ على كل أحاسيس الانتماء الثقافية والاجتماعية. وللتوضيح أقول المثال التالي: يوجد إنسان أعرفه شخصيًا، واخترته عشوائيًا، يمكن وصفه في الحين نفسه

أنه عضو في "الأمة الموريشيوسية" (الكائنة من خلال تميزها عن باقي الأمم)، وينتمي إلى "فئة الهندوس" (إحدى مكونات الأعراق الأخرى في موريشيوس)، وإلى "فئة الفايش" (Vaish – Category) (الموجودة ضمن غيرها من فئات الكاست- أو فئات الطبقات الاجتماعية الأخرى)، وهو من "فئة الذكور" (التي توجد من خلال وجود نقيضها من فئة الإناث)، وهو من "الطبقة العاملة" (الكائنة من خلال وجود نقيضها من الفئة البرجوازية)، وهو من "فئة سكان المدينة" (الموجودة من خلال وجود نقيضها من فئة القرويين)، وهو هندوسي الدين (الموجود من خلال نقيضه من الأديان الأخرى). لكل هذه الهويات؛ سوف توجد مناسبة، حيث تكون دائمًا إحدى هذه الهويات؛ هي الأكثر ملاءمة للتعبير عن هوية الفرد؛ لكنها لن تستمر وتبقى، أيًا منهم هي الأكثر ملاءمة.

إن هذا التدفق المعلوماتي، وهذه المناطق المتداخلة، وتلك التقسيمات والتعبيرات التي أحدثتها الإنترنت، والمطارات، والفنادق العالمية الموصوفة أعلاه؛ تتوافق وتتطابق تمامًا، مع هذه الهوية المركبة.

في هذه الفترة التاريخية التي نحياها الآن، حيث نشأت حالة تتميز بالانتشار الكثيف للحداثة والمعاصرة؛ نجد بعض الأيديولوجيين- الذين يمكن وصفهم حرفيًا بأنهم رجعيون- يحاولون إعادة الحياة لأفكار قديمة؛ من الترابط العضوي بين التجمعات البشرية، وتلك الجدران العالية الراسخة؛ التي يمكنها استيعاب كينونة المرء كلها، والتي تستبعد الولاءات الممتدة خارج الحدود، والمتقابلات المختلفة، والهويات المركبة، ومشاكل الهوية، إنهم باختصار يرفضون المشاركة، ويرغبون في إبدال سبل المعاصرة والحداثة- التي تتميز بتدفق المعلومات والتطور- ومقاومتها، وذلك بوضع الحدود، ورفع شعارات النقاء الثقافي. ويجب الانتباه إلى أنه ليس من المسلم به الإيمان، بأنهم يناضلون من أجل قضية محكوم عليها بالخسران المبين، فمن المعروف أنه لو استطاع امرؤ إقناع عدد كبير كاف من

الناس، بأن القمر مصنوع من الجبن الأخضر؛ فسوف تستقر هذه المعلومة، بعد فترة وجيزة، وفي نهاية المطاف ستجدها في الكتب المدرسية.

فكرة وعقيدة القطبية الثنائية (Bipolarity) تبدو وكأنها هي الصفة ذات الترسب الأعمق في "البنية الإدراكية" (cognitive structure). وهي التي تحفز في النفس، وتدفع إلى توليد التمسك بالعادات والتقاليد، والانعزالية، وإنتاج الصور العدائية: إنها هي التي تساهم في تفسير وتبرير الصراع بين المسيحيين مقابل الوثنيين، والعالم الحر مقابل العالم الشيوعي (سابقًا)، والشمال ضد الجنوب، وأوروبا مقابل الولايات المتحدة واليابان، وأوروبا مقابل العرب وأي آخر بربري. ووفقا للفكر اليوناني الكلاسيكي، فإن أسلوب التفكير ذا الثنائية القطبية مرتبط بنشأة الانقسام في الإنسان إلى جنسين متقابلين (الذكر مقابل الأنثى)، وتبعًا لـــ"ليفي ستروس" (Levi Strauss) فإن تركيب المخ البشري نفسه الذي يقوم بالتفكير داخلنا هو الذي يقوم بصناعة "الثنائيات" (dichotomies). ومن الجائز أن يكون ذلك صحيحًا، لكنه يجب ملاحظة أن هناك اختلافًا واضحًا ومهمًا، بين عالم مكون من كثير مختلف، وآخر مكون من قليل غير مختلف. الأول هو الأفضل للاختيار ولا شك؛ عندما نفكر على أساس إنساني.

إن جدار برلين ليس هو الجدار الذي من شأنه أن يضع حدًا لجميع الجدران. صحيح أنه قد تم هدمه وسط تصفيق وترحيب من شعوب العالم أجمع، ولكن سرعان ما بنيت جدران جديدة مثله، وبقي كثير من الجدران القديمة كما هي لم تهدم. التخاطب بأسلوب "عنصري" (racist)، و"نرجسي" (ethnocentric)، واستمرار الاعتقاد بأن السياسة الأوروبية، هي دائمًا الصحيحة، يعني بحق أنه لم يعد وجود "آداب وأخلاق المعاشرة الطيبة" (etiquette) بين مثقفي البلاد الغنية والقوية، وذلك عندما يصفون الأجانب بأنهم "كفار"، "بدائيون"، "نجس". ذلك الخطاب السياسي المتداول الذي يتحدث عن الأمم الأجنبية، والذي يحمل في طياته

أن كل من يتحدث عن "الزنجي" (Negro)؛ فعليه أن ينظف فمه بالماء والصابون. إنه خطاب يبين بوضوح؛ الحقيقة القائلة، إن الفجوة القائمة، منذ زمن؛ بين الأغنياء والفقراء، ما زالت هائلة وكبيرة. وعلى الرغم من أن العالم أصبح "قرية كبيرة" إلا أن تشكيله وتركيبه ما زال محليًا. هذا التشكيل المحلي للعالم؛ يحمل في طياته دلالة أن المجتمعات ما زالت محاطة بالجدران والأسوار العميقة، الثابتة الجذور، المرتبطة بالمكان، القارة الأوروبية في مواجهة تركيا والعالم الإسلامي، والولايات المتحدة في الطريق لأن تصبح في مواجهة أسيا الشرقية، وترينداد الكريولية في مواجهة ترينيداد الهندية، والثقافة الإفريقية الأصيلة في مواجهة الثقافة الاستعمارية، وهلم جرا. إن محاولات "توحيد الثقافة" في المجتمع الواحد ليست وسيلة تؤدي إلى إزالة الحوائط والجدران فقط، ولكنها، وفي نفس الوقت، وبنفس المقدار، وسيلة تساعد على بنائها، بطريقة غير مباشرة. وذلك لأن رد فعل محاولات التوحيد يتسبب في تثبيت ونمو "الاعتداد بالذات" (Self-importance or awareness). إن "الشعور بالاغتراب"، الذي يتولد في المجتمعات نتيجة للحداثة والمدنية، والكرولة أيضا، يمكن تفسيره بطريقة سلبية، واعتباره "غربة" أو إقصاء ونفورا، وكذا يمكن تفسيره والنظر إليه إيجابيًا على أنه "حرية". ومعظم البشر لديهم من الاستعداد التكويني ما يكفي لأن يستحضر عند الحاجة أيًا من التفسيرين: السلبي، أو الإيجابي.

***

في المقال الأول من هذا الكتاب، وصفت أسلوبين مختلفين للكيفية التي نعتبر وننظر بها إلى الثقافة: إما أن ننظر إليها مثل الشعاب المرجانية، أو مثل المجال الكهربي. مثال الشعاب المرجانية مجاز واستعارة، توضح استمرارية الثقافة عبر التاريخ، والجذور، والحلول التي تم تجربتها لمواجهة تحديات الحياة، والتسلسل الهرمي، والمجتمع المتقارب الصلد، الذي له حدود، وعليه التزامات. و"الاستعارة

العضوية" (مثل الجذور، والكائن الاجتماعي، وهلم جرا) تقع في قمة النظام، ضمن هذا الإطار من الفهم. أما في حالة الاستعارة والمجاز لـ "المجال الكهربي" فيرسم على العكس؛ صورة من عالم دون حدود واضحة، حيث الديناميكية هي الحالة الغالبة. الشراكة والتواصل بين مكوناته؛ ليست مرتبطة بالمكان. وفيه يكون تأثير المحيط أسرع وأكثر وضوحًا من تأثير المكونات. مثال الشعب المرجانية هو "الحاضر" الذي يشير إلى "الماضي". أما مثال المجال الكهربي؛ فهو "الحاضر" الذي يشير إلى "المستقبل". القارئ أو القارئة- وهو إسكندنافي على الأرجح- الذي يعتقد ويؤمن بأن ما يربطه من مشترك معك الإسكندنافي الذي عاش منذ أربعمائة عام مضت؛ أكثر من القواسم المشتركة التي تربطه مع الأرجنتينيين- على سبيل المثال- الذين يعيشون اليوم (أو المعاصرين له)، فقد اختار مجاز الشعب المرجانية، والعكس بالعكس في حالة المجال الكهربي.

هذان النموذجان؛ أحدهما يوضح الثقافة في بعدها الرأسي (العمودي)، والآخر يوضح بعدها الأفقي. وفي مثال الشعاب المرجانية فإن علاقة الآراء ببعضها البعض ومغزاها، قد تكونت، وتم صقلها على مدى عدة مئات من السنين. فيها ترتبط الثقافة بعضها ببعض؛ تقريبًا مثل معزوفة موسيقية كورالية مترابطة. أما في حالة المجال الكهربي؛ فإن المعاني والآراء موجودة كوسيلة للتواصل، وهي خاصة للحين واللحظة، والمكان. الشعاب المرجانية تصنع عمقًا، أما المجال الكهربي فيخلق اتساعًا. الشعاب المرجانية تسلط الضوء على البعد "السينجماتي" (Syntagmatic)، أو التكويني للثقافة، ويعتبرها البعض مثل "الجملة المركبة"(*)، أو مثل سلاسل من الجمل المترابطة فيما بينها.

(*) [Cultural Syntagmatic Dimention] : البعد السنتيجماتي للثقافة، أو البعد التكويني للثقافة، هو البعد الذي يعتني بوصف المعنى الكلي، ولا يركز على مفرداته الثقافية- المترجم.

أما في حالة مثال المجال الكهربي، فهو يلقي الضوء على البعد "البارادیجماتي" (Paradigmatic) للثقافة، أي على المفردات والعناصر المكونة له، والتي يمكن استبدال أي منها بآخر[*] إنها "أسلوب حياة" في حزمة واحدة، حيث يمكن استبدال أحد وحداتها أثناء وجودها واستمرار حياتها، مثل: العمل، أو الوظيفة، أو نوع الزي واللباس، أو مجموعة الإنترنت التي يتواصل معها، أو حتى الدين. وهذا يمكن فهمه في مثل هذا النموذج، فهو نموذج يتيح لنا أن نرى أوجه تشابه بين "بيرجنت" (Peer Gynt) وهو بطل إحدى مسرحيات الكاتب النرويجي المشهور "إبسن" (Ibsen)؛ وشخصية المشعوذ المحتال في إفريقيا الغربية. لقد أشار إلى هذا التشابه المخرج "البوركيني" (نسبة إلى بوركينا فاسو) عندما قام بإعداد مسرحية "إبسن" لعرضها في "بوركينا فاسو" (Burkina Faso). وبهذا الأسلوب من التفكير، لن يبدو أنه من غير الطبيعي، أو أنه موضوع مثير للاستغراب والتساؤل: أن يكون ثلث "لعب الأطفال" في العالم تنتج وتصنع في إقليم "جوانجدونج" (Guangdong) في الصين، وهو الإقليم الذي لم يكن به صناعة على الإطلاق منذ عقدين من الزمان فحسب. أو أن بعض أفضل الروايات الأوروبية مكتوب في جنوب إفريقيا وأمريكا اللاتينية.

المجتمع الذي تم تشكيله وتنظيمه، حيث تتغير حياة الفرد بالكامل لو قام باستبدال عمله ووظيفته؛ يمكن أن يفهم على نحو أفضل في ضوء النموذج الآخر، حيث يكون المدخل والعنوان هو الترابط والتوافق الداخلي. وكل من النموذجين يمكن اعتباره "منظار تكبير" (magnification lens) يمكن أن يرى من خلالها العالم، ولا يمكن باستعمال أحدهما أن نرى كل شيء. وأنه ليس من الممكن أن نرى الأشياء باستخدام المنظارين في الوقت نفسه. تمامًا مثل الشكل الذي رسمه

(*) Cultural Paradigmatic Dimension]: البعد البارادیجماتي للثقافة، هو الذي يعتني بمجموع الصيغ الصرفية لجذر معين من جذور عناصر الثقافة– المترجم.

الفيلسوف "ويتجنشتاين"(*) (Wittgenstein) المكون من "الأرنب البطة" (The rabbit duck)، حيث يمكن اعتباره مثل البطة أو مثل الأرنب، ولا يمكن اعتباره كليهما في نفس الوقت. والاتجاه الرئيسي في عالمنا اليوم هو التحول من نموذج "الشعاب المرجانية" إلى نموذج "المجال الكهربي"، أو من "حديقة الحيوانات" إلى "غابة" لو أردنا وقبلنا مثل هذا التعبير.

هل ما زالت "الثقافة الكريولية" (Creolised Culture) ثقافة سطحية تفتقد إلى العمق، وتذكرة العبور إليها رخيصة؟ لقد كانت هذه حجة الأوروبيين المعلنة في وجه الولايات المتحدة الأمريكية منذ أيام "توكفيل"(**) (Tocqueville). لكن في الحقيقة، فإن ذلك يبدو فقط عندما ننظر إلى النماذج الثقافية بعدسة، أو منظار الشعب المرجانية. ولذلك تبدو سطحية، وذات مذاق سيئ. ولو كان المعيار أن كل العناصر الثقافية متعلقة ببعضها بعضًا، كما لو كانت كلمات في جملة، فسوف يكون من الواضح أن تبدو مزعجة، وسيئة الذوق، وغير مألوفة، ومبتذلة. تمامًا مثل بيت سويسري، بني في كاليفورنيا الأمريكية، وتحمله أعمدة رومانية، وبه حمام سباحة على شكل سمكة إفريقية. لكن؛ وفي حال ما أضاف المرء العدسة الأخرى؛ فسوف يصبح من الممكن مشاهدة الجديد، ونرى التشابك والجمال في نماذج الثقافة الكريولية.

(*) لودفيج ويتجنشتاين" (1889-1951): فيلسوف نمساوي المولد، وأصبح بريطانيًا عام ١٩٣٨، درس الفلسفة في جامعة كمبريدج البريطانية. له نظريات في فلسفة اللغة ودلالات التعبير- المترجم.

(**) توكفيل": مفكر ومؤرخ فرنسي (١٨٠٥-١٨٥٩)، ولد لعائلة أرستقراطية، وعرف بأفضل ما كتب "الديمقراطية في أمريكا" (Democracy in America)، و"النظام القديم والثورة" (The Old Regime and the Revolution 1856)، وفيهما ناقش بموضوعية تأثير الثورة الفرنسية، وذهب إلى أن الثورة لم تقض على الدولة؛ لكنها على العكس، زادت من مركزيتها، في المجتمعات الغربية. وكتاباته تعتبر أعمالاً مبكرة في علم الاجتماع والاجتماع السياسي- المترجم.

المراجع

لقد اكتفيت بذكر المراجع التي وردت باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وأهملت ما دونها من مراجع بالنرويجية، وهي قليلة، اعتقادا مني أنه لا فائدة من ذكرها، حيث لا يمكن الرجوع إليها، بالنسبة للقارئ في البلاد العربية. وفي حالة المقال الذي كتب خصيصا بمناسبة ترجمة هذا الكتاب إلى العربية، وهو مقال: "بين الاحترام والإهانة: أوربا والمسلمون"، فقد ذكرت المراجع النرويجية، وذلك لأن معظمها مكتوب باللغة النرويجية، حتى المترجم منها، وترجمت أسماءها.

الجزء الأول: "الجزيرة الثقافية المفقودة"

1-The Predicament of Culture: Twentieth-Century Ethnography, Literature, and Art, James Clifford, Harvard Uni. Press, 1988.

2- Charles Taylors essay, Multiculturalism and the Politics of Recognition, Princeton Uni. Press 1992.

3- Local Knowledge: Further Essays In Interpretive Anthropology (Basic Books Classics) by Clifford Geertz (1983).

4- Postmodernism, Reason and Religion,Ernest Gellner, Blackwell, 1992.

5- Nations and Nationalism (New Perspectives on the Past) by Ernest Gellner and John Breuilly (Paperback - May 15, 2009), Blackwell 1983.

6- Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism (New Edition) by Benedict Anderson (Paperback - Nov 17, 2006) Verso 1983.

7- Nations and Nationalism since 1780: Programme, Myth, Reality (Canto) - Paperback (Oct. 30, 1992) by E. J. Hobsbawm, Cambridge University Perss 1992.

8- National Identity (Ethnonationalism in Comparative Perspective) by Anthony D. Smith (Paperback - Mar 1, 1993), Penguin 1991.

9- The Interpretation Of Cultures (Basic Books Classics) by Clifford Geertz (Paperback - May 19, 1977)

10- The uses of diversity by Clifford Geertz, in Robert Borofsky, Ed., Assessing Cultural Anthropology (1993)

11- Assessing Cultural Anthropology - Paperback (Aug. 1, 1993) by Robert Borofsky, McGraw-Hill 1994.

12- "The superorganic" by A. L. Kroeber, in Kroeber: The Nature of Culture.

13-The Nature of Culture (Midway Reprint) by A. L. Kroeber (Paperback - Aug 1987), Chicago University Press 1952.

14- Cultural Complexity: Studies in the Social Organization of Meaning by Ulf Hannerz (Paperback - May 1993) , Columbia Uni. Press, 1992.

Ulf Hannerz introdusert Kreoliseringsbegrepet I sin bok over

15- Being "Dutch" in the Indies: A History of Creolisation and Empire, 1500-1920 (Ohio RIS Southeast Asia Series) by Ulbe Bosma (Paperback - May 6, 2008).

16- Creolization: History, Ethnography, Theory (One World Archaeology) by Charles Stewart (Paperback - Mar 30, 2007)

17- The Creolization Reader: Studies in Mixed Identities and Cultures (Routledge Student Readers) by Robin Cohen and Paola Toninato (Paperback - Oct 15, 2009)

18- Imaginary Homelands: Essays and Criticism 1981-1991 by Salman Rushdie (Paperback - May 1, 1992)

19- Childhood and Society - Paperback (1963) by Erik H. Erikson, Norton 1963 (1950).

20- Metaphors of Identity: A Culture-Communication Dialogue (Suny Press: Series in Human Communication Processes) by Thomas K. Fitzgerald (Sep 6, 1993).

الجزء الثاني

المقال الأول: "بومباي: المدنية المفرطة،على النموذج الهندي"

1- Unthinking Social Science: The Limits of Nineteenth-Century Paradigms; Second Edition, with a New Preface - Paperback (July 22, 2001) by Immanuel Wallerstein. Polity Press.

2- Sahibs, Nabobs, and Boxwallahs: A Dictionary of the Words of Anglo-India - Paperback (May 7, 1998) by Ivor Lewis, Oxford Uni. Press.

3- Hobson-Jobson: The Anglo-Indian Dictionary (Wordsworth Reference) - Paperback (Dec. 5, 1999) by Henry Yule and A. C. Burnell, Routledge.

4- An Area of Darkness by V. S. Naipaul (Jul 9, 2002), Andre Deutsch.

5- India: A Million Mutinies Now by V. S. Naipaul (Sep 3, 2010), Heinemann.

6- Midnight's Children: A Novel by Salman Rushdie (Apr 4, 2006).

7- The Great Indian Novel by Shashi Tharoor (Apr 1989), Penguin.

8- A River Sutra by Gita Mehta (Jun 28, 1994)

9- Such a Long Journey by Rohinton Mistry (Jun 2, 1992)

10- A Suitable Boy: A Novel (Modern Classics) by Vikram Seth (Oct 4, 2005).

11- Imaginary Homelands: Essays and Criticism 1981-1991 by Salman Rushdie (May 1, 1992).

12- Religious Nationalism: Hindus and Muslims in India by Peter Van Der Veer. University of California Press 1994.

13- Caste in Contemporary India: Beyond Organic Solidarity - Paperback (Aug. 1985) by Pauline Kolenda,

Waveland

14- Homo Hierarchicus: The Caste System and Its Implications (Nature of Human Society) by Louis Dumont (Jan 15, 1981), Uni. Of Chicago Press.

15- Caste and Other Inequities: Essays on Inequality - Hardcover (Jan. 1, 1979) by Gerald D. Berreman, Meerut Folklore Institute.

16- Entretiens avec Didier Eribon (Collection Folio/essais) (French Edition) by Georges Dumézil (1987), Gallimard. Many of the writer books found in English.

1- Overcrowded Barracoon - Paperback (May 12, 1984) by V.S. Naipaul, Andre Deutsch.

2- Paul et Virginie by Henri Bernardin de Saint-Pierre (Aug 21, 2008), Livre de poche.

3- Malcom de Chazal Petrusmok : radioscopie d'un roman mythique by Christophe Chabbert (Sep 1, 2001), Gallimard. -- Sorry, doesn't exist in English

4- Exils (CRI 89) (French Edition) - Unknown Binding (1991) by Gilbert Ahnee.

5- Le bal du dodo - Paperback (Jan. 1, 2000) by Geneviève Dormann, Albin Michel.

6- Le coconut: Roman - Hardcover - Import (1988) by Jon Michelet. -- in Norwegian.

7- Mauritius: Problems of a Plural Society by Burton Benedict (1965), page 67 (Her Majestys Stationery Service.

8- Capitalism and Slavery by Eric Eustace Williams (Oct 14, 1994), North Carolina Uni. Press 1944.

9- Mauritius: Democracy and Development in the Indian Ocean (Profiles/nations of contemporary Africa) Hardcover (July 11, 1991) by Larry W. Bowman, Westview.

10- Eriksen, Thomas Hylland. 1998: Common Denominators: Ethnicity, Nation-Building and Compromise in Mauritius. Oxford: Berg.

المقال الثالث: "ترينيداد: الكريولية في أعلى درجاتها"

1- Trinidad Village by Frances Herskovits (Jun 1964), Monographes, Alfred A. Knopf 1947.

2- East Indians in Trinidad: A Study of Cultural Persistence by Morton Klass (Oct 1987), Colmbia Uni. Press 1961

3- The Loss of El Dorado: A Colonial History - Paperback (Apr. 8, 2003) by V.S. Naipaul, Andre Deutsch 1969.

4- The Middle Passage by V. S. Naipaul (Jan 8, 2002), Andre Deutsch 1962.

5- The Mimic Men: A Novel by V. S. Naipaul (Aug 14, 2001), Andre Deutsch 1966.

6- A House for Mr. Biswas by V. S. Naipaul (Mar 13, 2001), Andre Deutsch 1961.

7- Fireflies (Twentieth Century Classics) - Paperback (Feb. 1, 1996) by Shiva Naipaul, Alfred E. Knopf 1970.

8- The Traveller's Tree: A Journey Through the Caribbean Islands by Patrick L. Fermor (Jan 3, 2005), John Murray 1950.

9- A Morning at the Office (Caribbean Modern Classics) by Edgar Mittelhölzer (Jun 25, 2010), Penguin 1979 and 1952.

10- Liming in Trinidad: The art of doing nothing, Thomas Hylland Eriksen, Folk, vol. 32 (1990). This article can be found on the internet site: http://folk.uio.no/geirthe/Liming.html

11- THE MURDERS OF BOYSIE SINGH - Hardcover (1962) by Derek BICKERTON, Arthur Barker 1962.

12- India in the Caribbean by David Dabydeen (Jan 1987), Hansib 1987.

13- Beyond the Dragon's Mouth - Paperback (Mar. 4, 1986) by Shiva Naipaul, Hamish Hamilton 1985.

14- Us and Them in Modern Societies: Ethnicity and Nationalism in Mauritius, Trinidad and Beyond (Scandinavian University Press Publication) by Thomas Hylland Eriksen and Bruce Kapferer (Jul 1, 1993)

15- Modernity : An Ethnographic Approach : Dualism and Mass Consumption in Trinidad - Paperback (Apr. 19,Berg 1994) by Daniel Miller.

المقال الرابع: "بروكسل: من يرغب في الموت من أجل أوروبا"

1- The End of History and the Last Man by Francis Fukuyama (Feb 28, 2006), The Free Press 1992

2- Six manieres d'etre europeen: Essais (Bibliotheque des sciences humaines) (French Edition) by Henri Mendras Dominique Schnapper (1990), Gallimard 1990.

3- Inside European Identities: Ethnography in Western Europe (Ethnicity and Identity) - Paperback (Jan. 1, 1993) by Sharon Macdonald, Berg 1993.

4- Europe: A History of Its Peoples by Jean-Baptiste Duroselle (and R. Mayne as translator to English (Nov 12, 1990)

5- Penser l'Europe by Edgar Morin (Oct 10, 1990), Gallimard 1987.

6- The Search for the Perfect Language. Umberto Eco. London: Wiley-Blackwell 1997.

7- Uses Of The Other: ""The East"" in European Identity Formation (Barrows Lectures) by Iver B. Neumann (Nov 1, 1998) University of Minnesota Press 1998

الجزء الثالث

المقال الخامس: "عقدة جمعة: في الاقتصاد السياسي عندما تلتقي الثقافات"

1- The Wretched of the Earth by Frantz Fanon, (Mar 12, 2005), Grove Press. Richard Philcox

(Translator from French), Jean-Paul Sartre (Preface), Homi K. Bhabha (Foreword)

2- Black Skin, White Masks by Frantz Fanon (and Richard Philcox, translator from French) (Sep 10, 2008), Paladin 1970.

3- Moving the Centre: The Struggle for Cultural Freedoms (Studies in African Literature Series) by Ngugi wa Thiongo (Jan 18, 1993), Heinemann.

4- Detained: A Writer's Prison Diary by Ngugi wa Thiongo (1987), Heinemann 1982.

5- Decolonising the Mind: The Politics of Language in African Literature (Studies in African Literature Series) by Ngugi wa Thiongo (Jul 18, 1986), James Currey.Decolonising the Mind: The Politics of Language in African Literature by Ngugi wa Thiongo (Oct 15, 2009)

6- Barrel of a Pen by Ngugi wa Thiongo (Dec 8, 1983), New Beacon Press.

7- Weep Not, Child by Ngugi wa Thiongo (Jul 30, 2009), Heinemann 1967.

8- Petals of Blood by Ngugi wa Thiongo and Moses Isegawa (Feb 22, 2005), Heinemann 1977.

9- Matigari: A Novel (African Writers Library) by Ngugi wa Thiongo (and Wangui Wa Goro, Author, Translator (Feb 1998), Heinemann 1989.

10- Orientalism by Edward W. Said (Oct 12, 1979), Pantheon 1978.

11- Culture and Imperialism by Edward W. Said (May 31, 1994), Chatto & Windus 1993.

12- In Other Worlds: Essays In Cultural Politics by Gayatri Chakravorty Spivak (May 25, 2006), Routledge 1988.

13- The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order by Samuel P. Huntington (Jan 28, 1998)

An Area Of Darkness by V. S. Naipaul (1966), Andre Deutsch 1964

14- On human diversity: Nationalism, racism and exoticism in French thought. By Tzvetan Todorov, Boston: Harvard University Press.

15- The Invention of Primitive Society: Transformations of an Illusion - (Routledge 1988) by Adam Kuper.

16- Dreamtime: Concerning the Boundary Between Wilderness and Civilization by Hans Peter Duerr (Mar 1987)

Satyricon. Essays und Interviews. (Neue Folge, 346). - Paperback (Jan. 1, 1985) by Hans Peter Duerr.

المقال السادس: "بين الاحترام والإهانة: أوربا والمسلمون"

Ordet «europeere» brukes her og ellers med overlegg, og nordamerikanere regnes ikke som europeere.

كلمة الأوروبيين تستخدم هنا وفي أماكن أخرى من هذا المقال. ولا يعتبر الأمريكيون الشماليون، أوربيين.

1- Med Nord-Amerika stiller saken seg nemlig noe annerledes; der var både kunnskapene og de folkelige fordommene i forhold til islam svake før 11. september 2001, og et av de mest konservative islamske regimene, nemlig Saudi-Arabia, er stadig en av USAs viktigste alliansepartnere i Vest-Asia.

١- بتعبير شمال أمريكا فإن الموضوع يختلف بعض الشيء، ذلك أن المعرفة والأحكام المسبقة الشعبية عن الإسلام، كانت أضعف من مثيلتها الأوربية فيما قبل الحادي عشر من سبتمبر، وأن أحد أكثر الأنظمة

الإسلامية محافظة، المملكة العربية السعودية، تعتبر أهم حليف للولايات المتحدة الأمريكية في شرق آسيا.

2- Den muslimske tidsregningen, som bygger på månen og ikke solen, begynner i år 622 v.t., som var tidspunktet for Muhammads flukt fra Mekka til Medina.

٢- التقويم الإسلامي للشهور والسنين، يعتمد في الحساب على دوران القمر حول الأرض، ولا يعتمد على دوران الأرض حول الشمس. والسنة القمرية تقل بأيام عن السنة الشمسية (حوالي أحد عشر يوما تقريبا). والتقويم العربي يسمى التقويم الهجري، وقد اعتمد في عهد الخليفة الثاني لرسول الله، عمر بن الخطاب، واعتبرت الهجرة من مكة إلى المدينة بداية لهذا التقويم، وهو يقابل عام ٦٢٢ بالتقويم الميلادي المستعمل في أوروبا وفي كثير من أنحاء العالم.

3- Kari Vogt: Islams hus, s. 101. Oslo: Cappelen 1993.

٣- "كاري فوجت" (كاري فوجت، هي أستاذة جامعية متخصصة في الإسلام في الجامعة النرويجية في العاصمة أوسلو، ولها العديد من الكتب التي نشرت بالنرويجية، ولها رأي إيجابي فيما يخص الإسلام- المترجم): "البيت الإسلامي"، صفحة ١٠١ النسخة النرويجية، نشره الناشر "كابلن" عام ١٩٩٣.

4- Se også Albert Hourani: De arabiske folks historie. Oslo: Gyldendal 1994.

٤- انظر أيضا كتاب "تاريخ العرب" للكاتب ألبرت حوراني. ولقد ترجم هذا الكتاب إلى النرويجية ونشره الناشر النرويجي "جيلد نضال" عام ١٩٩٤.

5- Riccoldo da Monte di Croce (13. århundre), sitert etter Norman Daniel:

Islam and the West: The Making of an Image , Oxford: Oneworld 1960/1993, s. 154.

٥- "ريكولدو دا مونت دي كروسا"، القرن الثالث عشر الميلادي، مقولة نقلت عن "نورمان دانيال" وذكرت في كتاب "الإسلام والغرب: صناعة الصورة"، نشرته جامعة "أكسفورد": في سلسلة عالم واحد عام ١٩٦٠، وعام ١٩٩٣، صفحة ١٥٤.

6- Sigurd Jorsalfar, bemerker David S. Pugh, ble omtalt som en «frankisk konge» av araberne (Pugh: «Saddam og Saladin», Samtiden 2-95).

٦- يذكر "دافيد بوج"، في كتابه "صدام حسين وصلاح الدين"، أن العرب أطلقوا اسم "ملك الفرنجة" على "سيجورد يورسالفار" (الاقتباس من "مجلة العصر" التي ينشرها قسم العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجيا في الجامعة أوسلو، ويشرف عليها مؤلف هذا الكتاب، صفحة ٩٥ ، العدد الثاني).

7- Amin Maalouf: Les croisades vues par les Arabes (Paris: J.-C. Lattès 1983).

8- Maalouf, op. cit.

9- Maalouf, op. cit.

10- Pugh, op. cit.

11- Peter Normann Waage: Når kulturer kolliderer. Et essay om islam og Europa med Salman Rushdies Sataniske Vers som utgangspunkt, revidert utgave, Oslo: Aventura 1993 [1989].

١١- "بيتر نورمان فوجا"، "عندما تتصادم الثقافات"، مقال في كتاب عن علاقة الإسلام بأوروبا، بعد نشر كتاب سلمان رشدي (الكاتب البريطاني) لكتابه " آيات شيطانية"، النسخة المنقحة، أوسلو، الناشر" أفنتورا" (١٩٨٩/١٩٩٣).

12- Bernard Lewis: The Muslim Discovery of Europe, London: Weidenfeld & Nicolson 1982.

13- I dette og følgende avsnitt trekker jeg store veksler på Norman Daniels studie av middelalderkristnes perspektiver på islam; Daniel, op. cit.

Mange argumenterer for at det økonomisk-teknologiske tyngdepunktet faktisk har flyttet seg fra Nordatlanteren til Stillehavets asiatiske kyst, uten at de fleste europeere har oppdaget det.

١٣- في الفقرة التالية، والفقرة التي تليها، استعملت واستنبط الكثير من دراسات "نورمان دانيلز" عن الإسلام، السابق ذكرها.

الكثيرون يقدمون الحجج والبراهين على أن مراكز الثقل الاقتصادية والتكنولوجية قد انتقلت بالفعل من منطقة شمال الأطلنطي إلى الشاطئ الآسيوي للمحيط الهادي، دون أن يشعر أو يكتشف معظم الأوروبيين ذلك.

المقال السابع: "لا مكان، ولا جدران، ولا ضوضاء بيضاء ..

خطوات نحو عالم واضح نسبيا"

1- The Consequences of Modernity by Anthony Giddens (Mar 1, 1991), Polity 1990.

2- Global Culture: Nationalism, Globalization and Modernity: A Theory Culture and Society Special Issue by Mike Featherstone (Jul 3, 1990), SAGE 1990.

3- Non-Places. Introduction to an anthropology of supermodernity. By Marc Augé. London: Verso 2009 (1991).

4- Globalization: Social Theory and Global Culture (Published in association with Theory, Culture & Society) by Roland Robertson (Aug 28, 1992), SAGE 1993.

5- Cultural Complexity: Studies in the Social Organization of Meaning - Paperback (May 1993) by Ulf Hannerz, Colmbia Uni. Press 1992.

6- Cultural Identity and Global Process (Published in association with Theory, Culture & Society) by Jonathan Friedman (Dec 9, 1994), SAGE 1994.

7- Kuwait and its migrant workers : exclusion and dominance in a plural society, Anh Nga Longva, Institute and Museum of Anthropology, University of Oslo, 1993.

8- In limbo: Notes on the culture of airports, Paper presented at the workshop "The Consequences of globalisation for social anthropology" 2nd EASA Conference, Prague 30 Aug--3 Sept 1992. Thomas Hylland Eriksen and Runar Døving Department and Museum of Anthropology University of Oslo.Enternett Link: http://folk.uio.no/geirthe/Airports.html

9- The Postmodern Condition: A Report on Knowledge (Theory and History of Literature, Volume 10) - Paperback (June 21, 1984) by Jean-Francois Lyotard, Manchester Uni. Press 1986. This is a translation of the original book in French: La condition postmoderne, Seuil 1979, Paris.

10- Closing Of The American Mind - How Higher Education Has Failed Democracy And Impoverished The Souls Of Today's Students by Allan Bloom (1987), Simon & Schuster 1987.

11- Understanding Media: The Extensions of Man by Marshall McLuhan and Lewis H. Lapham (Oct 20, 1994), First published of McGraw-Hill 1964.

12- In the shadow of the silent majorities by Jean Baudrillard, Semiotext(e) 2007 (1982).

13- Open Sky by Paul Virilio, London: Verso 2008.

14- The Wall of the Plague - Paperback (Nov. 14, 1985) by Andre Brink

15- Globalization: The Key Concepts, by Thomas Hylland Eriksen. Oxford: Berg 2007.

المؤلف في سطور:

توماس هيلاند أريكسن

الكاتب النرويجي، توماس هيلاند أريكسن (**Thomas Hylland Eriksen**)، هو أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجى في معهد العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجى في جامعة أوسلو (UiO) النرويجية. وهو ناشر للدورية العلمية **"Samtiden"** أو زمننا المعاصر. دراساته وبحوثه الاجتماعية الميدانية (أو الحقلية) كثيرة تجمع بين: مجتمعات جنوب شرق آسيا، ومنطقة الكاريبي، والنرويج، وأوروبا. وله دراسات خاصة لموريشيوس، بومباي (الهند)، ترينيداد، بروكسل، والأقليات في النرويج.

والمؤلف شديد النشاط في التأليف والكتابة وله أكثر من عشرين مؤلفا باللغة النرويجية، ترجم البعض منها للإنجليزية. و قد كتب أيضا بالإنجليزية ثمانية كتب نشرت في كل من النرويج والمملكة المتحدة والولايات المتحدة.

ومن كتبه: -

١- سؤال عن التطورات الاجتماعية في المجتمعات البشرية .

٢- المجتمعات متعددة الطوائف والأعراق.

٣- العرقية (من وجه نظر أنثروبولوجية).

٤- القومية (معناها و العوامل المسببة لنشوئها).

٥- التطور التاريخي (في تطور الإنسان الاجتماعي و الثقافي).

٦- العولمة (ما لها وما عليها).

٧- الكريولية (Creolization) .

٨- و يمكن الاطلاع على صفحته على الإنترنت

http:// Folk.Uio.no/geirth

ويمكن الاتصال به على بريده الإلكتروني:

t.h.eriksen@culcom.uio.no

المترجم في سطور:

محيي الدين بسيوني عبد الغنى

حصل على بكالوريوس العلوم في الكيمياء و الفيزياء – جامعة عين شمس، القاهرة، عام ١٩٧١. وفي أثناء الخدمة العسكرية كضابط احتياط في قوات الدفاع الجوي في الفترة ما بين ١٩٧٢– ١٩٧٦؛ حصل على دبلوم الدراسات العليا في الفيزياء الإشعاعية من الجامعة نفسها عام ١٩٧٤. وبعد الانتهاء من الخدمة العسكرية، عاد إلى مجال التعليم مدرسا للفيزياء والكيمياء في المدارس الثانوية.

في عام ١٩٧٨ هاجر من مصر، وتوقف في لندن سنتين، قبل انتقاله إلى النرويج مع زوجته النرويجية وإلى الآن يقيمان في أوسلو. حصل على الماجستير(M.Sc) في الكيمياء العضوية (التحليلية): "استخلاص، وتنقية، ودراسة التركيب الكيميائي للمواد "عديدة السكريات"، أو البولي ساكريد، الموجودة في الفطر. بعدها عمل في الصناعة، حصل على الدكتوراه في العلوم (D.Sc) تخصص "تصميم وتطوير طرق التحليل الكيميائي"، في معهد بحوث صناعات الورق والغابات. وعمل في الرقابة على منتجات الألبان، وصناعة الورق، والمستشفيات، ومعامل التحليل الكيميائي العضوي لرقابة درجة التلوث البيني. حضر العديد من الكورسات القصيرة لدراسة تشغيل أجهزة التحليل الكيميائي الحديثة وخاصة في الكروموتوجرافي والتحليل الطيفي. شارك في مؤتمرات علمية متعددة، ومثّل النرويج في اللجنة التي أُوكل إليها البحث عن طرق تحليل أقل تلويثا للبيئة، في صناعة الورق في البلاد الإسكندينافية.

يعمل الآن"مستشارا علميا" ل"مجموعة علوم النرويجية"، إلى جانب الترجمة من النرويجية إلى العربية، والتفرغ للكتابة في تفسير الآيات العلمية في القرآن الكريم. نشر أول رواية تترجم من النرويجية إلي العربية مباشرة، "المطرودون من

بيت إسرائيل"، في القاهرة عام ١٩٩٨. وفي عام ٢٠٠٩ نشر كتاب "والذاريات ذروا – سوبر نوفي القرآن" (٢٠٠٩– إيداع: ١٥٠٥٠)، وفيه دراسات في دلالات لغة القرآن العلمية والتفسير العلمي للقرآن الكريم. هذا دفعه إلى متابعة البحوث العلمية دراسة في كثير من العلوم مثل الأحياء، الفلك، التكنولوجيا الحيوية، وأيضا اللغة العربية مع تركيز على معاني مفردات القرآن. وشارك في ترجمة ما يقارب الأربعين صفحة في كتاب (تحت الطبع) عن "العولمة" سوف ينشره المركز القومي للترجمة، مقال "العولمة والإرهاب" من الإنجليزية، ومقال "العولمة والسياسة الخارجية" من النرويجية.

التصحيح اللغوى: محمود حنفي

الإشــراف الفنى: حسن كامل





يحاول الكاتب النرويجي أن يحلل على أسس علمية من علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية- العلاقة بين الثقافات المختلفة عندما تتقابل في نقاط أسماها "مفترق طرق الثقافات"، وهي عبارة عن مدن أو دول تجتمع فيها ثقافات متنوعة ومختلفة، سواء كانت بين أفراد من شعوب مختلفة، أو أقليات في نفس الوطن. ويستعرض بعض المشاكل التي تنشأ عند اللقاء، من الناحية السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية.

ويمثل الكتاب أهمية للقارئ العربي والمكتبة العربية، لعل أهمها: إن هذا الكتاب هو أول كتاب علمي، يترجم من اللغة النرويجية (إحدى اللغات الإسكندنافية المتقاربة ذات الأصل الواحد) مباشرة إلى العربية. وهذاما سيتيح للقارئ سوف يتيح له أن يطلع على وجهة نظر بعض مثقفي أوروبا - غير الاستعمارية - في نماذج العلاقة بين أوروبا المنتصرة والثقافات الأخرى.

تصميم الغلاف: نسرين كشك